كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
College of Sharia and Islamic Studies
جامعة قطر QATAR UNIVERSITY

بصائر المعرفة القرآنية
تسوير السور القرآنية
١٦
١٢

تدبر

التفسير الوسيط

سورة الأعراف

موضوعها الكلي

القرآن بين الاتباع والتذكير والإنذار والتبصير

القرآن يبصر بالمعرفة العليا للمراحل التاريخية البشرية، ويحذر الملأ المستكبرين في تأسيس دار الفاسقين، ويقي من الفساد والانفاض الإسرائيلية المؤسسة للإنسلاخ من الأنوار الإلهية

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة / جامعة قطر

دار طيبة

التفسير الوسيط

سورة الأعراف

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
2024م/ 1445هـ

9 789933 587833

توزيع

يمكنكم طلب الكتب
من متجرنا الإلكتروني

دار الطيبة
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق
00963 11 225 76 60
00963 944 977 222

بيروت
00961 7883 54 86

استانبول
0090 539 607 75 14

@taibadamas
info@taibadamas com
taibadamascus
taibadamas@gmail.com
www.taibadamas.com

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
College of Sharia and Islamic Studies
QATAR UNIVERSITY جامعة قطر

التفسير الوسيط

سورة الأعراف

مكية

موضوعها الكلي

القرآن بين الاتباع والتذكير والإنذار والتبصير

القرآن يبصر بالمعرفة العليا للمراحل التاريخية البشرية، ويخطر الملأ المستكبرين في تأسيس دار الفاسقين، وبقي من الفساد والأنفاض الإسرائيلية المؤسسة للإنسلاخ من الأنوار الإلهية

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة/ جامعة قطر

دار طيبة


بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير الوسيط

سورة الأعراف

الأستاذ الدكتور

عبد السلام مقبل المجيدي

قام بتحكيم الكتاب اثنان من
الأساتذة المتخصِّصين

مراجعة

أ.د. سعيد بن دحباج

د. حمود ردمان

د. نبيل طرمم

أ. أديب المخلافي

أ. عبد الرحمن حسين

أ. بندر العنابي

أ. أميرة ردمان

أ. زهراء أحمد

أ. كوكب راشد

تصميم

محمد عبدالحميد عبدالله الزبيدي

moh.ab.ad1071@gmail.com

مُقَدِّمَة

﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾

حمدًا لك اللَّهمَّ يا من هو الله الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيُّومُ، الملك الحقُّ المبين، وصلاة وسلامًا على نبيِّ الله محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

هذا هو التَّفسير الوسيط لسُورَة "الأعراف" وبصائرها، ضمن سلسلة "تسوير السُّوَر القرآنيَّة"، حيث تجد السورة المباركة تكوَّنت من مقدِّمة، وستة محاور، وخاتمة، ووصلت إلى أن موضوعها الكلي:

الْقُرْآنُ يُبَصِّرُ بِالْمَعْرِفَةِ الْعُلْيَا لِلْمَرَاحِلِ لِلتَّارِيخِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَبِخَطَرِ الْمَلَأِ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي تَأْسِيسِ دَارِ الْفَاسِقِينَ، وَبَقِيَ مِنَ الْفَسَادِ وَالْأَنْفَاضِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ الْمُؤَسَّسَةِ لِلْإِنْسِلَاخِ مِنَ الْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ

"سورة الأعراف" تضمن لك المعرفة العليا لحقائق الحياة؛ فأهل الأعراف قوم يكونون على أعراف الحجاب الحاجز بين الجنَّة والنَّار.

تعال إلى النَّعيم في ظلِّ المعرفة الحقيقية العليا التي تقدِّمها سورة "الأعراف" للعالم:

* المعرفة التي فصَّلها الله عز وجل على علمٍ لهداية العالم، ورحمته، وتبصيره.

* المعرفة التي تجعلك مبصرًا لقصَّة ما بعد الحياة بصورة هادية صادقة لا بأوهامٍ وتخريفاتٍ وضلالاتٍ مُلَفَّقَةٍ.

* المعرفة بأهمِّ العهود الفاصلة في التَّاريخ الإنسانيِّ القديم، والوسيط، والحديث.

* المعرفة بالأنوار القرآنيَّة، والبصائر النُّورانيَّة التي نحتاجها لنبني الحياة المستقرَّة، وننتصر بها على القبيل الإبليسيِّ.

* المعرفة بأهمِّ الأخطار الواقعة والمتوقَّعة في جميع الأوقات والأمصار من أجل سعادتك وسعادة مَن حولك.

* المعرفة بمواكب الإيمان التي تُصْلِحُ الأرضَ بعد إفسادها.

* المعرفة بـ"الملأ"، وهم القيادات الوافرة العزيمة، القويَّة التَّأثير، القادرة على صنع التَّغيير، المتحكِّمة بشكلٍ ما في رأي صُنَّاع القرار، والتَّأثير في المصير.

* المعرفة بالأنقاض التي تسلخ الإنسان عن بصائر القرآن، وعن الميثاق الإلهيِّ الإنسانيِّ الأوَّل، وكيف يجلب عدم اتباع القرآن ظلم العالم وتدميره لنفسه.

* المعرفة بالكيفية التي أَسَّسَ بها الظَّالمون من قوم موسى عليه السلام دار الفاسقين، وعنها انبثقت أنواع الظُّلم والفساد في الأرض.

تبهرك سورة الأعراف المكية وهي تخاطب الإنسانيَّة كلها، وتظهرُ عالميَّة الرسالة المحمَّديَّة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158]

تعال نقتبس منها النُّور ليُشرقَ دربك في الحياة، وما أجمل ما قاله الدكتور عامر الخميسيُّ -وهو يتأمَّل بصائرها اللَّامعة وأنوارها المشرقة السَّاطعة-:

يَهمِيْ علينا الغَيثُ بالألطافِ ... ببصائرٍ من سورةِ الأعرافِ
هذا الكتابُ دليلُنا لسعادةٍ ... وهْو المَعينُ السَّلْسَبيلُ الصَّافي
هو مُنْذرٌ مِنْ كلِّ أخطارِ الدُّنا ... هو بَلْسَمٌ زَاكي المَحَجَّةِ شافي
يَحْكي لنا في الدَّهرِ قِصَّةَ سَيْرِنَا ... منذُ الزَّمانِ الغَابرِ المُتَجَافي
مِنْ خَلْقِ آدمَ بعد ذاك صراعَهُ ... وهبوطَهُ، والأمرُ ليس بِخَافِ
ويَمُرُّ بالأُمَمِ التي هَلَكَتْ بما ... اقترفتْ وشُلَّتْ في سِنينَ عِجَافِ
وانْظُرْ ترى مَنْ عزَّ في دَرْبِ العُلا ... بَعْدَ النَّكَالِ وسَطْوَةِ استضعَافِ
حُكْمٌ وتَمْكِينٌ وحَقٌّ ظاهرٌ ... وعُلُوُّ قَدْرٍ في ذُرَى استِخلافِ

اللهم ذا الجلال والإكرام، يا منَّان، يا بديع السَّموات والأرض، يا حيُّ يا قيُّوم، يا من هو الواحد الأحد الصَّمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، يَسِّرْ لي إتمام تفسير كتابك على أحسن وجهٍ، وأجمله، وأكمله، وأحبِّه إليك، وأبلغه تأثيرًا في نفوس الخلق، وأعظمه بيانًا لإعجاز آياتك، واجعل ذلك على نحوٍ لم أُسْبَق إليه، واجعل القبول والانتفاع به في الخلق إلى يوم الدِّين، ويَسِّرْ أسباب ذلك يا أرحم الرَّاحمين.

7 ذو القعدة 1444 هـ
الموافق 27 / 5 / 2023 مـ

عبد السلام مقبل المجيدي
s1435y@gmail.com

الموضوع الكلي الذي لأجله سُوِّرت آيات سورة الأعراف

ما الموضوع الكلي الذي سَوَّر الله لأجله هذه السورة التي تبلغ (206) آيات؟

الْقُرْآنُ يُبَصِّرُ بِالْمَعْرِفَةِ الْعُلْيَا لِلْمَرَاحِلِ التَّارِيخِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَبِخَطَرِ الْمَلَأِ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي تَأْسِيسِ دَارِ الْفَاسِقِينَ، وَبَقِيَ مِنَ الْفَسَادِ وَالْأَنْفَاضِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ الْمُؤَسَّسَةِ لِلِانْسِلَاخِ مِنَ الْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ

ما المعايير أو الأسس التي حددت هذا العنوان ليكون موضوعًا كليًا لهذه السورة؟

الجواب:

تميَّز مشروع "تسوير السورة القرآنية" بسلوكه منهجًا مستقلًا يعتمد على ثمانية أسس للوصول إلى الموضوع الكلي للسورة القرآنية، ويظهر ترابطها الخطي والدائري، فلا يقتصر على منهج البلاغة السامية الذي يعتمد على التناظر

وهذه الأسس الثمانية:

الأساس الأول: النزول التاريخي للسورة القرآنية، وليس مجرد أسباب النزول

الأساس الثاني: الترتيب المصحفي أي ما موضع هذه السورة من المصحف، وماذا يفيد ذلك؟

الأساس الثالث: اسم السورة القرآنية، وعلاقته بالموضوع الكلي للسورة، والموضوعات الكبرى فيها، والمحاور المكونة لخريطتها

الأساس الرابع: الموضوعات الكبرى التي تناولتها السورة القرآنية، وأثرها في الموضوع الكلي، وأثر الموضوع الكلي عليها، وهذه الموضوعات قد تكون متفرقة في السورة

الأساس الخامس: مدد السابقين من المفسرين في تعيين الموضوع الكلي الذي كان سبب تسويرها

الأساس السادس: الخريطة الكلية التي تظهر المحاور العامة للسورة، ويظهر من خلالها ترتيب مواضيع السورة حسب ترتيب الكلمات والآيات من أول آية إلى آخر آية، وهذا يهتم به أصحاب البلاغة السامية لكن من زاوية التناظر بين طرفين في السورة، وذكر مركز لها

الأساس السابع: التفسير الجزئي (الموضعي) لكل كلمة وآية في السورة من أولها إلى آخرها

للوصول إلى التفسير الكلي حيث تتكون محاورها الكلية مرتبة ابتداء بالمقدمة وانتهاء بالخاتمة، ثم العودة إلى التفسير الكلي لِيُنْظَرَ مدى انطباقه على التفسير الجزئي، وهكذا حتى نصل إلى الأهدى والأقوم في فهم المراد القرآني من تسوير الآيات المخصوصة في سورتها المخصوصة

الأساس الثامن:

عنونة المحاور والأقسام لتعكس العنوان الكلي

وهذا لا يمكن التوصل إليه إلا في نهاية الأمر بعد المرور، والمراجعة الكاملة، والتحرير للأسس السبعة السابقة، ولتدل على ارتباط بما قبلها، وتمهيد لما بعدها، وهذا أمر لم تُسبق إليه البصائر، فالعنونة مثلًا عند سيد -رحمه الله- عنونة مباشرة للمحتوى، وقد يغيب الارتباط الكلي فيما بينها:



ففي ظلال القرآن (4/ 312) نجد مثلًا العنونة الآتية في سورة الأعراف:

الدرس الحادي عشر: (163-167) قصة أصحاب السبت

فهي تعكس المحتوى المباشر، لا ارتباط هذا الدرس بما قبله في العنونة ذاتها.

إليك تفصيلًا لأهم هذه الأسس ليستبين لك:
لماذا اخترنا هذا الموضوع ليكون موضوعًا كليًا لهذه السورة:

الأساس الأول

النزول أو السياق التاريخي

متى نزلت سورة الأعراف؟ وما السياق التاريخي الذي نزلت فيه؟

الجواب:

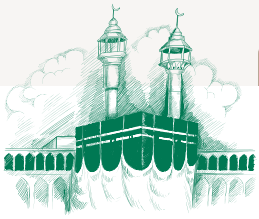

أولًا: سورة الأعراف مكية

فآياتها تخاطب الإنسانية، وتُظْهِرُ عالمية رسالة الرسول ﷺ، حيث قال الله عز وجل فيها: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: 158).

ثانيًا:

رواية أبي الشعثاء جابر بن زيد الأزدي رضي الله عنه أنها نزلت بعد سورة (ص) وقبل سورة (الجنّ): ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ (الجن: 1) (التحرير والتنوير8ب/6)، ، فإن صح هذا أدى إلى أنها نزلت قريبًا من أواسط العهد المكي.

ثالثًا:

في حديث استماع الجن للنبي ﷺ: قَالُوا قبلها: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ قَالَ: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شيء حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهْوَ بِنَخْلَةَ، عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ» (البخاري 773).

رابعًا:

عُدَّت (سورة الجن) التاسعة والثلاثين نزولًا، فَيُفْهَمُ من ذلك -استئناسًا- أن (سورة الأعراف) هي السورة الثامنة والثلاثون، وذلك مقتضى أن يكون مع النبي ﷺ أصحابه في عكاظ، وقرب منع الجن من استراق السمع.

خامسًا:

موضوعات سورة الأعراف تبصرنا أنها نزلت قرب أواسط العهد المكي مثل ذكر الملأ المستكبرين واستضعافهم للمؤمنين، ومثل ذكر بني إسرائيل واستضعافهم، فهو يخفف عن الصحابة -رضي الله عنهم- المستضعفين في مكة، كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: 129).

الأساس الثاني

الترتيب أو السياق المصحفي

ما دلالات مجيء سورة الأعراف ضمن الترتيب المصحفي في هذا الموضع من المصحف؟

يتضح الجواب من خلال (السُلَّم الموضوعي للترتيب المصحفي) الذي توصلت إليه من سورة (الفاتحة) إلى سورة (الأعراف):

1 السورة الأولى: سُورَةُ الفَاتِحَة

كانت مفتاحًا عظيمًا للحياة ولفهم العالم حولنا، ومفتاحًا كبيرًا للقرآن، ومفتاحًا للعالم يعرفُه بالإسلام في صورة مكثَّفة مركَّزة.

2 السورة الثانية: سُورَةُ البَقَرَة

جاءت سورة البقرة بعد الفاتحة بصورة منطقية لتؤسس للحضارة الإسلامية الجديدة التي تشرق على العالم، والإفادة من مكون من أهم المكونات البشرية السابقة لنا، وهم أصحاب التجربة الإسرائيلية، وهذه الحضارة الإسلامية التي أسستها سورة البقرة تعيد التوازن والعدل إلى العالم الذي مُلئ بالجور والظلم من قبل فارس والروم والأمم الوثنية.

3 السورة الثالثة: سُورَةُ آلِ عِمْرَان

جاءت سورة آل عمران بعد البقرة لتظهر لنا التفاعل الضروري مع الواقع النصراني الذي لا يمكن أن نعرفه إلا بمعرفة تاريخ أسرة سيدنا المسيح -عليه السلام-، وفي هذه السورة ظهرت لنا سنن النصر والهزيمة باعتبار الدور المركزي الذي سيكون للحضارة النصرانية في التدافع بين الخير والشر، فهم عندما يصرون على التحريف يميلون إلى التآمر على الأمة التي تدعو إلى الخير.

4 السورة الرابعة:

سُورَةُ النِّسَاءِ

سورة النساء تنقلنا إلى بث الحياة الإنسانية، والعمل على تطبيق التنظيم الإلهي الحقوقي للبشر، وحماية المستضعفين خصوصًا النساء والأطفال من الاضطهاد، لإيقاف التصورات المنحرفة للثقافتين اليهودية والنصرانية التي تدمر البشرية.

5 السورة الخامسة:

سُورَةُ المَائِدَةِ

سورة المائدة: تكمل التعامل مع بني إسرائيل، والنصارى بذكر المواثيق الإلهية على أكثر الأمم التابعة للأنبياء -عليهم السلام- المعروفين (الأمة الإسلامية، واليهودية، والنصرانية)، حتى ختمت السورة بمحاسبة عيسى -عليه السلام- على الميثاق المأخوذ عليه، وإظهار صدقه أمام العالم، لإقامة الحجة على من حرَّف ما جاء به، وبين الله عز وجل في نهايتها نتيجة الصادقين في حمل المواثيق: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ (المائدة: 119).

6 السورة السادسة:

سُورَةُ الأَنْعَامِ

وفيها أقام الله عز وجل الأدلة والبراهين المادية والعقلية والجدلية على الإيمان، فمن أول السورة ترى الإثباتات الضخمة العظيمة على وحدانية الله عز وجل ومَجْده: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ (الأنعام: 1)، وتوسطتها قصة إبراهيم -عليه السلام-: ﴿قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ (الأنعام: 77).

7 السورة السابعة:

سُورَةُ الأَعْرَافِ

سورة الأعراف تنقلنا إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا، وألا نتبع من دونه أولياء، وفصَّل -بناء على ذلك- العهود التاريخية الفاصلة لبني آدم -عليه السلام- ومعركتهم الأزلية مع الشيطان.

العلاقة بين سورة الأعراف والسورة التي قبلها (الأنعام):

سُورَةُ الأَنْعَامِ — سُورَةُ الأَعْرَافِ

ما العلاقة بين سورة الأعراف والسورة التي سبقتها في هذا الترتيب وهي (سورة الأنعام)؟

الجواب: التناسُب القوي المدهش بين سورتي الأعراف والأنعام يظهر من خلال الآتي:

العلاقة الأولى: التكامل في الموضوع العام	العلاقة الثانية: بين آخر آية في سورة الأنعام ومطلع سورة الأعراف	العلاقة الثالثة: استكمال خريطة الحديث القرآني عن القرآن المجيد	العلاقة الرابعة: استكمال خريطة الكلام على خلق الكون
العلاقة الخامسة: تآزر السورتين على بيان سنن الله في قيام الحضارات واستخلافها ونهضتها وتدميرها	العلاقة السادسة: قصص القيادات الهادية بين السورتين	العلاقة السابعة: تكامل التفصيل للمقصد الأول من خلق الإنسان وإيجاد الحضارات (الرحمة)	العلاقة الثامنة: تكامل صورة مشاهد الحساب
العلاقة التاسعة: التكامل الممتع غير الممل بين السورتين في مواجهة الرؤية الجاهلية وأنظمتها	العلاقة العاشرة: تكامل السورتين في تفصيل أحد أهم مدمرات الحياة الإنسانية وهو الإسراف	العلاقة الحادية عشرة: اجتماع السورتين على إظهار التكامل في معركة البشرية ضد الشيطان	العلاقة الثانية عشرة: تعاضد السورتين في بيان شناعة الكذب على الله تعالى، وجريمة الافتراء عليه

أمثلة تفصيلية لبعض العلاقات بين السورتين:

العلاقة الأولى:

التكامل في الموضوع العام، فهي داخلة ضمن (المثاني القرآنية):

فـ(سورة الأنعام) ذكرت أدلة الإيمان بالله، وأصَّلت لذلك مبينة ضرورة تبليغ القرآن ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ (الأنعام: 19)، **وأكمل الله عز وجل ذلك في (سورة الأعراف)، فذكر اتباع هذا الكتاب، ومسيرة الإيمان في التاريخ ابتداء بآدم عليه السلام ووصولًا إلى النبي صلى عليه وآله وسلم، وفصَّل العهود الفاصلة في التاريخ البشري.**

العلاقة الثانية:

التناسب بين آخر آية في سورة الأنعام ومطلع سورة الأعراف:

ختم الله عز وجل (سورة الأنعام) بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (الأنعام: 165).

وبدأت (سورة الأعراف) بذكر أن أعظم ما آتانا الله عز وجل إياه هو ما أنزله إلينا، وهو القرآن الكريم؛ ليبلونا به هل نتبعه أم لا ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (الأعراف: 1-3)، **وأخبرنا أنه سيسأل عن هذا، فقال عز وجل:** ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ (الأعراف: 6-7).

العلاقة الثالثة: استكمال خريطة الحديث القرآني عن القرآن المجيد:

أولًا: ذكر الله عز وجل في سورة الأنعام ثلاثة مقاصد كبرى لإنزال القرآن:

1. **الإنذار للعالم**: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ [الأنعام:19]
2. **الذكرى للعالمين**: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 90].
3. **الاتباع للقرآن**: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام 155]

وبدأ (سورة الأعراف) بذكر الأهداف الثلاثة كلها ليناسب ذلك موضوعَها المتعلق بمسيرة البشرية عبر التاريخ، ومعركتها مع القبيل الإبليسي ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 2-5].

ثانيًا: الاستماع المؤثر:

ففي سورة الأنعام ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: 25]، **وفي سورة الأعراف:** ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204].

ثالثًا: السورتان تقدمّان وصفًا دقيقًا للمعارضين للقرآن:

في الأنعام ذكر ثلاثة أحوال مع القرآن: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ﴾ [الأنعام 93]، **وفي الأعراف بعد أن ذكر حال من افترى على الله كذبًا أو كذَّب بآياته، ذكر حالًا رابعًا قص علينا فيه حال من انسلخ منه** ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: 175]

رابعًا: بين كتاب موسى عليه السلام والكتاب الخاتم المهيمن:

مدح الله عز وجل كتاب موسى عليه السلام في (سورة الأنعام) في موضعين ثانيهما ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾[الأنعام: 154]، **وفي (سورة الأعراف) يفصِّل الله عز وجل بصورة أخَّاذة كيف آتى موسى عليه السلام هذا الكتاب** ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: 145].

العلاقة الخامسة:
تآزر السورتين على بيان سنن الله في قيام الحضارات واستخلافها ونهضتها وتدميرها

بيَّن أول (سورة الأنعام) البيان العام الإجمالي حول نشوء الحضارات عبر القرون، ودمارها ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: 6]، **وبيَّن سنة الاستدراج في تدمير الأمم.**

في (سورة الأعراف) تفصيل تاريخيٌّ لأهم الحضارات التي استكبرت، فذكر الله خمسة عهود فاصلة في التاريخ البشري بصورة متتابعة، ثم فصَّل تفصيلاً طويلاً العهد الإسرائيلي ابتداء من أيام موسى عليه السلام.

العلاقة التاسعة:
العلاقة التكاملية في مواجهة الأنظمة الجاهلية:

1 **بينت (سورة الأنعام) تخبط العقول الجاهلية في وضع أنظمة عنصرية** ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ [الأنعام: 138].

2 **ذكرت سورة الأنعام أبشع النظم الجاهلية، من تزيين الشياطين أو سدنة الأصنام للمشركين قتل أولادهم بالوأد أو بنحرهم للآلهة:** ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ﴾ [الأنعام: 137].

3 **وفي (سورة الأعراف) ذكر أنهم يشرعون الفحشاء، ويعملون على نشرها بصورة منظمة فردية وجماعية، ويفترون لها الفتاوى الدينية** ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: 28]

4 **أكد في السورتين على عاقبة من يفتري على الله الكذب في الأنعام ثلاث مرات آخرها** ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ﴾ [الأنعام: 157]، **وفي الأعراف عدة مرات منها:** ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ [الأعراف: 37].

الأساس الثالث

اسم هذه السورة وعلاقته بالموضوع الكليِّ

اسمها

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

عن مروان بن الحكم قال: قال لي زيد بن ثابت رضي الله عنه: ما لك تقرأ في المغرب بقصار المُفَصَّل، وقد رأيتُ رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بطُولى الطُّولَيَيْنِ؟! قُلْتُ: مَا طُولَى الطُّولَيَيْنِ؟! قَالَ: «الأَعْرَافُ، وَالأُخْرَى الأَنْعَامُ» (أحمد (21641)، أبو داود (812) واللفظ له، وصحَّحه الأرناؤوط، والألباني).

قال الفقهاء: هذا محمولٌ على قوم محصورين رضوا بالتطويل.

لماذا سميت سورة الأعراف بهذا الاسم؟

الجواب: سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم؛ لِوُرُودِهِ فيها في موضعين، أولهما: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: 46] وثانيهما: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا ...﴾ [الأعراف: 48].

ولعلك تسأل: فماذا يكون (الأعراف)؟

الجواب: هو مكان مميَّز يوجد في أعالي الحجاب الحاجز بين الجنة والنار.

فلم يقل الله عز وجل: (وبينهما حجاب يُدْعَى الأعراف، عليه رجال) ، بل قال سبحانه وتعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾، ثم قال عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف 46]، فـ(الأعراف): جمع عُرْف، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الشيء المُشْرِف، وكلُّ مرتفع من الأرض عند العرب فهو عُرْف، كعُرْف الدِّيك والفَرَس، فالأعْرافُ المعْهُودَةُ هي الَّتِي تَكُونُ بارِزَةً في أعالِي السُّوْرِ للمراقبة في المناطق الضخمة، وسُمِّي بذلك؛ لأن من فيه يكون ذا معرفة بمن حوله.

وقال سَعِيد بْن جُبَيْر رحمه الله:

"الأَعْرَافُ جِبَالٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَهُمْ عَلَى أَعْرَافِهَا عَلَى ذُرَاهَا".

تفسير ابن أبي حاتم (5/1484).

فإن قلت: فمن يوجد فيها؟

الجواب: بيَّن الله عز وجل، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: 46]، وفي هؤلاء الرجال اثنا عشر قَوْلًا أبرزها سِتَّة:

1 الأول: قوم من بني آدم استوت حسناتهم وسيئاتهم

فتمنعهم صالحاتُهم من النار، وسيئاتُهم من الجنة إلى أن يأذن الله عز وجل لهم في دخول الجنة، وورد هذا القول عن حذيفة وابن مسعود رضي الله عنهما، وفي آخر حديث ابن مسعود ﷺ قال: "على أن العبد إذا عمل حسنةً كُتِبَ له بها عَشْرًا، وإذا عمل سيئةً لم تُكْتَبْ إلا واحدةً". ثم يقول: هَلَكَ من غَلَبَ وُحْدَانُهُ أَعْشَارَهُ"(تفسير الطبري (5/ 354، 355)، ط دار الحديث، قال إسلام منصور: ضعيف، أبو بكر الهذلي متروك).

2 الثاني: قوم قُتِلُوا في سبيل الله عز وجل

ولكنهم خرجوا إلى الجهاد مع عصيان آبائهم في الدنيا، وهذا القول يرجع إلى الأول.

3 الثالث: قوم صالحون، فقهاء، علماء

قال الحسن رحمه الله: هم أصحاب التعريف، يُعَرِّفون أهلَ النار عَدْلَ اللَّه عز وجل فيهم وحُكْمَه، وأن ما حلَّ بهم من الشدائد وأنواع العذاب، إنما حلَّ بهم مما كان منهم في الدنيا مِنْ صدِّهم الناسَ عن سبيل اللَّه عز وجل، واستكبارهم على الرسل عليهم السلام، يُعَرِّفونهم أن ما نزل بهم إنما نزل بعَدْلٍ منه، ويُعَرِّفون أهل الجنة فَضْلَ اللَّه عز وجل وإحسانَه إليهم أنَّ ما نالوه هم إنما نالوه بفضل منه وإحسان (تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، (4/ 432)).

4 الرابع: الأنبياء عليهم السلام

ويتحد هذا القول مع الثالث، فالأنبياء هم سادات الصالحين

5 الخامس: ملائكة

وأبطل هذا الرأيَ الطبريُّ رحمه الله؛ لأنه لا دليل عليه من خبر، أو إجماع، ولا اتفاق على تأويلها بذلك. (تفسير الطبري 12/ 460)

6 السادس: قوم نُصِبوا في ذلك المكان يوصلون الكلام بين أهل الجنة وأهل النار.

وربما تتساءل: ما القول الذي يدلُّ عليه سياق الآيات؟



فيظهر أنهم أشْرافُ أهْلِ الجَنَّةِ جعل الله عز وجل لهم مزيةَ المعرفة لأهل الجنة والنار، فيكونون في أعلى الأعراف، ويجوز أن يكون فيهم مَن استوت حسناتُه وسيئاتُه، فهو في منزلةٍ أدنى من تلك الأعراف.

وقد تسأل: فما الذي أفاده أهل الأعراف مِنْ معرفتهم بأصحاب الجنة وأصحاب النار؟

الجواب: معرفتهم بالفريقين أكسبتهم أمرين:

الأول: 1 معرفة بالله عزوجل حتى طمعوا في تكريمهم بالجنة:

﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 46].

الثاني: 2 الإلحاح في سؤال الله عزوجل أن يحميهم من مصير الظالمين:

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 47].

فإن سألت: لماذا صارت هذه التسمية تسمية مركزية للسورة؟

الجواب: صارت هذه التسمية مركزية للسورة؛ لأنهم -كما عرفت آنفًا- أهل معرفة، وهذه المعرفة تنعكس على جميع آيات السورة ابتداء من أولها ﴿المص﴾، فهذه الأحرف الذهبية تتكلَّم بها أنت، لكنك عندما تقرؤها في القرآن يختلف الأمر عن كلامك وفهمك وعلمك، فهي تمنحك المعرفة الصادقة، وترفعك إلى الفهم واليقين والسكينة، فأعظم المعرفة أن تعرف وجوب اتباع ما أنزل إليك من ربك.. هناك يتحقق قول الله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

الأساس الرابع

الموضوعات الكبرى التي تضمها سورة الأعراف

ربما تسأل: ما الفرق بين هذا الأساس والأساس السادس الذي يحدثنا عن الخريطة الكلية، وفيها المحاور الكلية التي تتكون منها السورة؟ أليست المحاور هي ذاتها الموضوعات الكلية التي توجد في السورة؟

الجواب: في هذا الأساس نتكلم عن الموضوعات الكلية التي انتظمت الأفكار المتعلِّقة بها في السورة بألفاظها أو معانيها، وقد تكون ضِمن محور واحد، وقد تكون مُفَرَّقة بين المحاور لحكمة عظيمة نلتمسها من التدبُّر العميق، بينما ترشدنا الخريطة الكلية إلى الموضوعات المتتابعة من أول آية إلى آخر آية، فبينهما تداخل، وتباين في الوقت ذاته.

فمثلًا: في سورة الأعراف نجد من الموضوعات الكبرى: الافتراء على الله عز وجل، وأن يقول البشر على الله عز وجل ما لا يعلمون، فيشرِّعون التشريعاتِ الباطلةَ، ويخبرون الأخبار الكاذبة، وقد وجدنا هذا الموضوع مفرَّقًا بأساليبَ متنوعة وأفكارٍ متعدِّدةٍ في المحور الأول، والثالث، والرابع، والخامس، والسادس، والسابع.

وقد تسأل: إذا كانت المحاور التي تكوَّنت منها سورة الأعراف تمثِّل الموضوعات الكلية، فما أهمُّ الموضوعات الكلية الأخرى التي لفتت أنظارنا، وتفرَّقت بين المحاور؟

الجواب: أهم الموضوعات الكلية التي تضمَّنتها هذه السورة ما يأتي:

الموضوع الأول: قصة البداية والنهاية للذرية الآدمية:

فمن أول السورة تجد قصة آدم عليه السلام وذريته في التاريخ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ [الأعراف: 11]، **وفي نهاية السورة:** ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: 172].

الموضوع الثاني: تأثير "الملأ" على المجتمع الإنساني حكامًا وشعوبًا:

الملأ: هُمُ القيادات المحدودة العدد، الوافرة الهمُّ، القوية التأثير، القادرة على صنع التغيير، المتحكِّمة بشكلٍ ما في رأي صناع القرار، والتأثير في المصير، وقد ذُكِروا هنا سبع مرات، كقول الله عز وجل: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: 66].

الموضوع الثالث: مشاهد جديدة للدار الآخرة:

حيث ابتدأ الحديث عن هذه المشاهد من المقدِّمة، فالمحور الأول، ثم المحور الأخير.

الموضوع الرابع: الاستخلاف في الأرض والعهد الموثق المأخوذ على بني آدم:

ابتداء من المقدمة حيث ذكر الله عز وجل التمكين في الأرض، ومرورًا بالنداءات الأربعة لبني آدم، ووصولًا إلى العهد الأول المأخوذ عندما كان بنو آدم عليه السلام في عالم الغيب: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: 172]، **وذكر الله عز وجل استخلاف بني إسرائيل في الأرض:** ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: 137]، **ونقضهم لمبادئ الاستخلاف.**

الموضوع الخامس: الإصلاح في الأرض للنفس والبيئة والحياة:

فنجد ذلك ابتداء من المحور الأول، ووصولًا إلى المحور الثالث، حيث يتكرر الأمر بالإصلاح: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56]، **ويتتابع الأنبياء عليهم السلام على الأمر بذلك، فيقول شعيب عليه السلام لقومه:** ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 85].

الموضوع السادس: السُّنن الاجتماعية والكونية التي تجري على الأمم عندما يأتيهم الأنبياء عليهم السلام

يذكر الله عز وجل هذه السنن إجمالاً كما في الآيات [94-102]، ويقصُّها علينا تفصيلاً، حيث تلمح هذه السُّنن من أول السورة إلى آخرها.

الموضوع السابع: الافتراء على الله، والقول عليه بلا علم

ابتداء من المحور الأول: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، **ووصولًا إلى المفترين من بني إسرائيل، حيث أسَّسوا نظامًا للافتراء والتشريعات الباطلة.**

الموضوع الثامن: الشَّيطان والإنسان

1 فنجد المعركة في سورة الأعراف تصف قصَّة الشَّيطان بصورة مفصَّلة من أولها:

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الأعراف: 11]

2 ويستمر هذا الكشف التَّفصيليُّ بصورةٍ مباشرة أو غير مباشرة، إلى أن نصل إلى كشفٍ خطير في تمكُّن الشَّيطان من الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: 175]

3 وفي آخر السُّورة يصف الله عز وجل هجومين حادَّين خطيرين للشَّيطان، وهما:

النَّزغ الشَّيطانيُّ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ [الأعراف: 200].

مسُّ الطائف الشَّيطانيُّ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ [الأعراف: 201].

الموضوع التاسع: سنن وقوانين قيام الحضارات الكبرى وهلاكها

1 وهذا الموضوع ظاهر من أول السُّورة، حيث قال الله عز وجل: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ [الأعراف: 4].

2 إلى أن نصل إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: 94].

3 إلى قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الأعراف: 169].

4 وذكر الله عز وجل بعض أهمِّ الحضارات التي عاشت في التَّاريخ كقوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى عليهم السلام.

الأساس الخامس



مدد السَّابقين من المفسِّرين في تعيين الموضوع الكلُّيِّ لسورة الأعراف



رأي [1] رأي البِقَاعِيِّ رحمه الله:



السُّورة تدور حول: الحثِّ على اتباع الكتاب، أو حول إنْذار مَن أعْرَضَ عَمّا دَعا إلَيْهِ الكِتابُ في السُّورة الماضِيَةِ مِنَ التَّوْحِيدِ والِاجْتِماعِ عَلى الخَيْرِ.

قال: "وأدلُّ ما فيها على هذا المقصد أمر الأعراف، فإنَّ اعتقاده يتضمَّن الإشراف على الجنَّة والنَّار، والوقوف على حقيقة ما فيها، وما أعدَّ لأهلها، الدَّاعي إلى امتثال كلِّ خير، واجتناب كلِّ شرٍّ، والاتِّعاظ بكلِّ مُرَقِّقٍ". (نظم الدرر 7/347).

رأي [2] رأي المفسر المخبت رحمه الله:



سورة الأعراف تعرض مسيرة العقيدة من خلال التَّاريخ البشري:

في هذا المدى المتطاول تعرض موكب الإيمان من لدن آدم عليه السلام إلى محمَّد ﷺ، تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة، ويمضي بها على مدار التَّاريخ. (في ظلال القرآن 3/1243-1245).

رأي [3] ابن عاشور رحمه الله:



سورة الأعراف تدور حول مجموعة مقاصد:

لم يذكر للسُّورة موضوعًا كلِّيًّا جامعًا، بل يذكر أهدافها المتعدِّدة، ويخلط بينها وبين محاورها العامَّة ابتداء من أوَّلها، فيقول مثلاً: "تدور مقاصد هذه السُّورة على عدَّة مَقَاصِدَ منها: النهي عن اتخاذ الشُّركاء من دون الله عز وجل، وإنذار المشركين عن سوء عاقبة الشِّرك في الدنيا والآخرة..".

(التحرير والتنوير 8ب/8، 9).

هنا قد تتذكر المحاولات العظيمة لسعيد حوَّى رحمه الله وتتساءل عن رأيه في موضوع سورة الأعراف الكلِّيِّ؟

تعال بنا إليه:

رأي [4] سعيد حوى رحمه الله:



محور سورة الأعراف هو اتِّباع الهدى النَّازل من الله عز وجل:

فلاحظ قوله عز وجل في (سورة البقرة): ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]، وقوله جل وعلا في الآية الثَّالثة في (سورة الأعراف): ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾. (الأساس في التفسير 4/1835).

وهذا الموضوع الذي جعله الشيخ رحمه الله محورًا لسورة الأعراف وهو اتِّباع الهدى النَّازل من الله عز وجل، هو ذاته ما قرَّره البِقَاعِي رحمه الله من قبل مع اختلاف يسير في العبارة بينهما.

رأي [5] محور سورة الأعراف

في موسوعة التَّفسير الموضوعيِّ:

عقيدة التَّوحيد عبر رحلة البشريَّة منذ وجودها الأوَّل ومسيرها الطَّويل إلى نهاية عودتها ورجوعها إلى الدار الآخرة. (التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم 3/8).

وهو ما قاله صاحب الظِّلال رحمه الله.



الأساس السادس

الخريطة الكلِّيَّة لمحاور سورة الأعراف

وبعد الرِّحلة العظيمة الممتعة مع سورة الأعراف ومحاورها نصل إلى الخاتمة، فقد استبان لنا أن هذه السُّورة المباركة لتحقيق هدفها تكوَّنت من:

المُقَدِّمة

وحدَّثنا الله عز وجل فيها عن القرآن باعتباره كتاب الإنذار العالمي من الأخطار الواقعة والمُتَوَقَّعة

{الأعراف: 1-9}

ولتفصيل ذلك بدأت السُّورة بداية حكيمة بـ:

المحور [1]

وفصَّل الله عز وجل لنا فيه أساس الإنذار، بأن قصَّ علينا البداية والنِّهاية لرحلة الإنسانيَّة الكبرى في مسيرة الحياة

{الأعراف: 10-53}

ولتكتمل الصُّورة تنقلنا سورة الأعراف إلى:

المحور [2]

وفيه بَيَّنَتْ لنا سورة الأعراف المعالم العامَّة التي تعرِّف بالله عز وجل

{الأعراف: 54-58}

ولنتأكَّدَ من صحَّة الإنذار تنقلنا سورة الأعراف إلى:

المحور [3]

وفيه تفصِّل لنا السُّورة أهمَّ العهود التَّاريخيَّة الفاصلة التي عاشتها الإنسانيَّة قبل العهد الإسرائيلي، وكيف كانت عاقبة المجرمين فيها، وهي العهود التي تمثِّل أهمَّ مراحل التَّاريخ القديم

{الأعراف: 59-93}

ولتكتمل الصُّورة تنقلنا سورة الأعراف إلى:

المحور [4]

حيث رَتَّبَتْ لنا السُّورة أهمَّ السُّنَن الاجتماعيَّة العامَّة التي تجري في تاريخ ذرِّيَّة آدم عليه السلام، وبها نفهم طبيعة الحياة، ومتى يُعَذَّبُ المكذِّبون

{الأعراف: 94-102}

وهذه السُّنَن تقدِّم الوصف الإجماليَّ لكلِّ زمان ومكان، ثم يأتي:

المحور {5]

وفيه تفصِّل لنا سورة الأعراف العهد السَّادس من عهود الذُّرِّيَّة الآدميَّة، ويمثِّل التَّاريخ الوسيط، وهو العهد الإسرائيليُّ

{الأعراف: 103-171]

وليحقِّق هذا المحور هدفه ضمن السُّورة، ولقوَّة تأثير الفكر الإسرائيليِّ في انحراف العالم، فقد انقسم هذا المحور إلى ثلاثة فصول كبرى:

فصل [1]

وفيه نرى عودة التَّوحيد الإلهيِّ بعد اختفائه في مصر والعالم، ونشاهد بداية الانبعاث الإسرائيليِّ حيث تغيَّر التَّاريخ

{الأعراف: 103-126]

فصل [2]

وفيه ننتقل إلى عهد المواجهة الكاملة بين معسكر الإيمان الذي يمثله موسى عليه السلام، ومعسكر العدوان الذي يمثِّله فرعون، ونشهد فيه نهاية التَّاريخ الفرعونيِّ

{الأعراف: 127-137]

فصل [3]

وفيه تجعلنا السُّورة نتابع بتعجُّب انتقال الإسرائيليين من العبودية والاستضعاف إلى التحرُّر والاستخلاف، وظهور نقوض بني إسرائيل السَّبعة للعهد الإلهيِّ

{الأعراف: 138-171]

وبعد أن انتهى عرض التَّاريخ البشريِّ الوسيط تنقلنا سورة الأعراف إلى:

المحور {6]

وفيه نشاهد العهد الإنسانيَّ الحديث والأخير، ويُظهِر الله عز وجل فيه آيات القرآن التي جاء بها النَّبيُّ الخاتم ﷺ لتمثِّل للعالم مفاتح فَهْمِ الحياة، وتقدِّم للبشريَّة دوافع الاهتداء، ونشهد فيه تسعة دوافع تدفعنا لاتِّباع الكتاب

{الأعراف: 172-198]

وبعد أن استوعبت السُّورة تاريخ البشريَّة إجمالًا، وأهمَّ عهود تاريخها تفصيلًا، وتَعَرَّفْنا في أثناء ذلك على قدرة الله عز وجل الذي له الخلق والأمر تأتي:

الخاتمة

وهي تتضمَّن آداب التَّعامل مع الكتاب الذي يحمي البشريَّة من الأخطار الظَّاهرة والخفيَّة

{الأعراف: 199-206]

العهود الكبرى للبشرية في رؤية سورة الأعراف

لزيادة التبصر في سورة الأعراف، ولأجل أن نتعمَّق أكثر في استكشاف تفسيرها الكُلِّيِّ فلننظر إلى محاورها من زاويتين أخريين:

الزَّاوية الأولى

العهود الكبرى للبشرية في رؤية سورة الأعراف

ذكرت السُّورة مشاهدَ تاريخيَّةً في العهود الخمسة الفاصلة، وبذلك ترى أن المعرفة القرآنيَّة قسَّمت تاريخ الذُّرِّيَّة الآدميَّة إلى خمسة عهود كبرى، حسب سورة الأعراف:



الزَّاوية الثانية

الموضوعات الكبرى للمحاور التي كوَّنت السورة

قسم {1}

يضم المِحْوَرَيْنِ الأَوَّلَيْنِ

ضم هذان المحوران الأسس الفكرية النَّظريَّة الضَّروريَّة التي تحتاجها البشريَّة للحياة المستقرَّة في الأرض، ويتضمَّن المحور الأول معرفة الدَّافع الأول لاتِّباع القرآن، وهو الدَّافع الذي يتعلَّق بماضيك وحاضرك ومستقبلك؛ لتنتصر على القبيل الإبليسي، ويخبرك المحور الثاني عن الدَّافع الثاني، وهو ولاية من له الخلق والأمر.

قسم {2}

ويضمُّ المحور الثالث والرابع

يظهر فيهما أهمُّ عهود التَّاريخ القديم لذرِّيَّة آدم عليه السلام، ثم وصفٌ إجماليٌّ لحال الأمم مع الرُّسل الذين أرسلوا إليهم.

قسم {3}

ويضمُّ المحور الخامس بفُصُوله الثلاثة

وفيه تفصيل الكلام عن العهد الإسرائيليِّ بمراحله المتعدِّدة: عهد الاستضعاف ووصول الرسالة، وعهد الاضطهاد، ثم التَّمكين، وعهد التَّأثير الإسرائيليِّ لتغيير المعتقدات الدِّينيَّة الكبرى في العالم.

قسم {4}

ويضمُّ المحور السادس

حيث ترى فيه العودة إلى العهد النَّبويِّ، وتجد فيه النَّبيَّ ﷺ وهو يبلِّغ ما أنزل إليه من ربِّه عز وجل، وتلقى فيه أهمَّ الأعمدة التي تتعلَّق بتبليغ الكتاب.

ثم تأتي الخاتمة

التي تظهر لنا جانبًا من آداب التَّعامل مع الكتاب الذي أنزله الله عز وجل ليكون بصائر للنَّاس.



مُقَدِّمَة سورة الأعراف



القرآن كتاب الإنذار الإلهي للعالم من الأخطار الواقعة والمُتَوَقَّعة، فهو كتاب الإنقاذ ودرع الحماية للإنسانيَّة

[الأعراف:١-٩]

مُقَدِّمَة سورة الأعراف

القرآن كتاب الإنذار الإلهي للعالم من الأخطار الواقعة والمُتَوَقَّعة، فهو كتاب الإنقاذ ودرع الحماية للإنسانيَّة [الأعراف: ١-٩]

ونسأل: ما خواصُّ القرآن العظيم التي أبرزتها مُقَدِّمَة سورة الأعراف ليقوم بهذا الدَّور؟

الجواب: تضمَّنت مُقَدِّمَة سورة الأعراف 9 خواصٍّ للقرآن الكريم، وهي:

1 خاصية [1] القرآن كتاب المعرفة الواضحة

فهو يتألف من الحروف التي تعرفها البشريَّة عند العرب، لكنه يتحدَّى العرب والعجم أن يأتوا بمثله في تركيبه اللَّفظيِّ، ومعانيه التَّشريعيَّة، والتَّربويَّة، والعلميَّة العظيمة، ويُبَصِّرنا بذلك قوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: 1].

2 خاصية [2] أنه دستور مكتوب

ويُبَصِّرنا بذلك قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿كِتَٰبٌ﴾ [الأعراف: 2].

3 خاصية [3] مزيَّة هذا المكتوب أنه منزل من عند الله

وليس مؤلَّفًا من قِبَل المخلوقين، ويُبَصِّرنا بكونه منزلًا من عند الله قوله تَعَالى جَدُّهُ: ﴿أُنزِلَ﴾ [الأعراف: 2].

4 خاصية [4] نزول هذا القرآن على خاتم النَّبيِّين ﷺ، فهو خاتم البيانات الإلهيَّة

ويُبَصِّرنا بذلك كلمة: ﴿إِلَيۡكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: 2].

خاصية [5] كماله اللَّفظيُّ، والعلميُّ، والعمليُّ

فلا يمكن للحرج أن يستقرَّ في صدر من يحمل أمانته للعالم، ويُبَصِّرنا بذلك قوله تَعَالى جَدُّهُ: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: 2].

خاصية [6] هدف إنزال الكتاب: إنقاذ العالم من المخاطر الواقعة والمُتَوَقَّعة

بالإنذار للجميع والتَّذكير للمؤمنين، ويُبَصِّرنا بذلك قوله تَعَالى جَدُّهُ: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 2].

خاصية [7] تعريف العالم بضرورة اتِّباع ما أنزل الله عز وجل ونَبْذ كلِّ وليٍّ دونه

ويُبَصِّرنا بذلك قوله جلَّ مَجْدُه: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: 3].

خاصية [8] القرآن حقٌّ حتى لو قلَّ التَّذكُّر به وقلَّ اتِّباعه

ويجب أن يحترس المؤمنون به من الغفلة عنه، ويُبَصِّرنا بذلك قوله عزَّ شَأْنُهُ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3].

خاصية [9] التَّفصيل الحافظ

حيث يفصِّل الله عز وجل لنا الدَّمار الذي يصيب الأمم والحضارات؛ ليحذر العالم من أن يحلَّ به مثل ذلك، وتتحقَّق الحماية من المخاطر الدُّنيويَّة والأُخرويَّة بصورة مباشرة، وتُبَصِّرنا بهذه الخاصِّيَّة الآيات [4-9] من سورة الأعراف.

سبق ذكر الخصائص مجملة، وإليك تفصيلها:

خاصية [1]

القرآن كتاب المعرفة الواضحة

فهو يتألف من الحروف التي تعرفها البشريَّة عند العرب، لكنه يتحدَّى العرب والعجم أن يأتوا بمثله في تركيبه اللَّفظيِّ، ومعانيه التَّشريعيَّة، والتَّربويَّة، والعلميَّة العظيمة، ويُبَصِّرنا بذلك قوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: 1].

لا بُدَّ أن تتساءل: ما الحكمة من ابتداء هذه السُّورة العظيمة بهذه الأحرف المُقَطَّعة؟ وما أبرز المعاني التي تنبِّئنا بها هذه الأحرف المُقَطَّعة؟

الجواب: ذكر الرَّازيُّ رحمه الله واحدًا وعشرين قولًا في معنى هذه الحروف (تفسير الرازي 2/6-8)، وأبرز معانيها:

معنى [1]

القرآن يتألَّف من الحروف الهجائيَّة ذاتها التي تتكوَّن منها الكلمات العربيَّة، لكنه يحوي كنوزًا مدهشة في المجالات التَّشريعيَّة، والتَّربويَّة والعلميَّة، ويتحدَّاكم أن تأتوا بمثلها، ولذا قال مباشرة بعدها في هذه السُّورة: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: 2]، كأنه يقول لك: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ مكوَّنًا من هذه الحروف التي تتكلَّمون بها.

معنى [2]

هذه الحروف تدلُّ على أن القرآن موحى به من الله عز وجل، وليس تأليفًا من النَّبيِّ الأمِّيِّ ﷺ: فقوله: ﴿الٓمٓ﴾ -مثلًا- تُنْطَقُ وفْقَ أسمائها وألقابها، لا وفْقَ أصواتها:

1

الذي بلَّغها كذلك محمَّد ﷺ، وهو أُمِّيٌّ فنطق: ﴿الٓمٓ﴾ حروفًا مقطَّعة في أوَّل البقرة مثلًا، ونطقها في أوَّل الشَّرح ﴿أَلَمۡ﴾ بأصوات الحروف لا بأسمائها.

2

ليعلِّمنا أنَّ النَّبيَّ ﷺ يتلقَّى القرآن ولا يخترعه: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة: 18].

معنى [3]

تَنْبِيهُ السَّامِعِ إِلَى مَا سَيُلْقَى إِلَيْهِ بَعْدَ هَذِه الحروفِ ذاتِ الأصواتِ اللَّافتةِ للنَّظَرِ، المُنَبِّهَةِ للعقل:

1

وهذا الأسلوب موجود عند العرب، مثل ما قاله عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه: بَخٍ بَخٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ» "مسلم (1901)"، فكلَّمه عن شوقه للجنَّة.

2

فهذه الكلمة "بخٍ بخ" كلمة تعجُّب، ولَفْتِ نظر، "تقال للشَّيء إذا ارتُضي، وقيل: إذا عَظُم". (فتح الباري 85/1)

3

هذا المعنى يقتضي أن هذه الأحرف المقطَّعة من مبتكرات القرآن للتَّنبيه لما يأتي بعدها، قال محمَّد رشيد رضا رحمه الله: "وقد جعلت العرب منه هاءَ التنبيه وأداةَ الاستفتاح، فأيُّ غرابة في أن يزيد عليها القرآن". (تفسير المنار 8/264، 265)

4

وحكى الرَّازيُّ رحمه الله هذا المعنى عن ابْنِ رَوْقٍ، وَقُطْرُبٍ رحمهم الله، فالْكُفَّارَ لَمَّا قَالُوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: 26]، أورد عَلَيْهِم أسلوبًا ينبِّههم به. تفسير الرازي (253/2)

معنى [4]

لهذه الأحرف مكانة متميِّزة في السُّوَر التي وردت فيها:

1

ففي إحصائيَّة أوَّليَّة: تكرَّرت الأَلِف (2651)، وتكرَّرت اللَّام (1527)، وتكرَّرت الميم (1161)، وتكرَّرت الصَّاد (97) هكذا مرتبة، وهذه الأحرف بلغت أعلى نسبة في تَكْرَارها مقارنة بعدد حروف السُّورة.

2

النَّبيُّ ﷺ كان أمِّيًا، ولو كان متعلِّمًا فلم يكن عنده حاسوب، وفريق عمل يراجع أعداد الحروف، فكيف تكون عنده هذه الدِّقة وهو الذي نزل عليه القرآن في ثلاثة وعشرين عامًا؟

وقد تسأل: ما أعظم دلائل هذه الآية؟

الجواب:

هذه المعاني الواضحة التي ذكرها أهل العلم لا يعني عدم وجود معانٍ أخرى ربَّما يصل إلى معرفتها البشر يوماً من الدَّهر، بل إنَّ الله -جلَّ مَجْدُه- يختصُّ من يشاء بفتح الكلام الإلهيِّ المعجز لمعانٍ جديدة، وإن كان المعنى واضحًا.

خاصية [2]

القرآن دستور مكتوب

ويُبَصِّرنا بذلك قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿كِتَٰبٌ﴾ [الأعراف: 2].



خاصية [3]

مزيَّة هذا المكتوب أنه منزل من عند الله

وليس مؤلَّفًا من قِبَل المخلوقين، ويُبَصِّرنا بإنزاله قوله تَعَالى جَدُّهُ: ﴿أُنزِلَ﴾ [الأعراف: 2]

أتى بالفعل مبنيًا لما لم يُسمَّ فاعله

1. ليدلَّ على تعدُّدٍ في فاعل الإنزال، فالمنزل هو الله عز وجل، وقد أَمَرَ المَلَكَ المُوَكَّلَ بالوحي، وهو جبريل عليه السلام بأن ينزل بالكتاب إلى نبيِّه ﷺ.
2. التَّركيز الشَّديد على المنزَل الذي هو القرآن المجيد، وهذا واضح في السُّورة من أوَّل آياتها إلى آخرها، وهذا هو السبب الأقوى.

خاصية [4]

نزول هذا القرآن على خاتم النَّبيِّين ﷺ، فهو خاتم البيانات الإلهيَّة

ويُبَصِّرنا بذلك كلمة: ﴿إِلَيْكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 2].

﴿إِلَيْكَ﴾

فأنت خليلُ الحقِّ، وخَيْرُ الخَلْقِ، و"أَكْرَمُ النَّاس نفسًا، وأَوْسَعُهُمْ صَدْرًا، وأَجْمَلُهُمْ قَلْبًا، وَأَعْرَفُهُمْ أَصَالَةً، وَأَعْرَفُهُمْ بِاسْتِعْطَافِ المُبَاعِد، واسْتِجلابِ المُنَافِرِ المُبَاغِض، وهذا شيءٌ قد خَصَّكَ به، فَرَفَعَكَ على جميعِ الخَلْقِ دَرَجَاتٍ لا تُحْصَى، ومَرَاتِبَ لا حَدَّ لها فَتُسْتَقْصَى" كما قال البِقَاعِي رحمه الله. (نظم الدرر 7/348).

خاصية [5]

كماله اللَّفظيُّ، والعلميُّ، والعمليُّ

فلا يمكن للحرج أن يستقرَّ في صدر من يحمل أمانته للعالم، فالحرج يكون من الناقص لا من الكامل، ويبصرنا بذلك قوله تَعَالى جَدُّهُ: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: 2].

1 الحَرَج:

شعورٌ بتجمُّع الضِّيق على وجهٍ يصعب الخروج منه يثير الانزعاج، فتضيق مجاري النَّفَس، ويورث عدم القدرة على التَّحمُّل والصبر فوق ذلك، مثل الحرَجة، وهي النَّبات المجتمع المتداخل الذي لا يمكن النَّفاذ منه.

ولهذه الكلمات معنيان:

1

نهي النَّبيِّ ﷺ أن يكون للحرج في صدره كِيانٌ، ﴿فَلَا يَكُن﴾، أي: فلا يكن الحرج كائنًا في صدرك بسبب الرُّدود الجائرة، والأفعال الظَّالمة التي يقابلك بها النَّاس.

2

لا تقلق من تسرُّب حرج يصيبك فجأة، فالحَرَجُ الفُجائيُّ يبدأ بالضِّيق، فيتسرَّب فجأة، ولكنه لا ينبغي أن يستقرَّ في الصَّدر، كما قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: 97].

2 وقد يكون سبب الحرج وجود شكٍّ أو أذى

وينتج عنه الوقوع في الإثم بعدم التَّبليغ، ولكنَّ الشَّك منفيٌّ عن النَّبيِّ ﷺ هنا.

3 ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾

يصوِّر أنَّ النَّهي للحرج، فإن كان الحرج لا مدخل له في صدرك، فليس هناك سبيلٌ ليصيبك الشَّك، أو الضِّيق، أو الألم، ولو كَثُرَ معارضوك، واشتدَّت وطأتهم عليك.

ستقول: إن لم يكن الشَّكُّ سببَ الحرج الذي قد يتسرَّب إلى النَّبيِّ ﷺ، فلماذا قال الله عز وجل له: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾؟

الجواب:

1 سببُ الحَرَجِ شِدَّةُ الأَحْمَالِ، وعَظَمَةُ الأثْقَالِ التي كان يشعر بها النَّبيُّ ﷺ، فقد كان يواجه العالم بمفرده يدعوهم إلى النَّجاة، وهم يَصُبُّونَ عليه ألوان الأذى القوليِّ والفعليِّ.

2 فقد قال ﷺ: «لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَأُخِفْتُ فِي اللهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثَةٌ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَمَا لِي وَبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا مَا يُوَارِي إِبِطُ بِلَالٍ». "أحمد (12212) وصححه الأرناؤوط، والألباني في صحيح الترغيب (3281)"

3 فهي كلمة معبِّرة عن مقدار التَّضحية والجهد الذي يجب أن يبذل ليحدث البلاغ المبين، مشتقَّة من حَرَجَةٍ، وهي مجتمع شجر، حيث يعسر الحركة بينها.

4 يُرَبِّي الله عز وجل نبيَّه ﷺ على عدم المبالاة بالضُّغوطات الخارجية مهما كان حجمها، فيطمئنه بأن الحرج لن يتسرَّب إليه، فليطمئن بتَحَمُّلِ التَّبِعات المترتِّبة على إنزال الكتاب إليه.

وقد تسأل: ما أعظم دلائل هذه الآية؟

الجواب:

هي بذاتها دليل على أن القرآن كلام الله عز وجل لا تأليف محمَّد ﷺ، فقد بلَّغها النَّبيُّ ﷺ غير هيَّابٍ، ولا وَجِلٍ، ولا عابئٍ بقول النَّاس بعد تبليغه.

خاصية [6]

هدف إنزال الكتاب: إنقاذ العالم من المخاطر الواقعة والمُتَوَقَّعة

بالإنذار للجميع والتَّذكير للمؤمنين، ويُبَصِّرنا بذلك قوله تَعَالى جَدُّهُ:

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: 2].

1 فاللام للتَّعليل

والإنذار للجميع المؤمن وغير المؤمن، والتَّذكير للمؤمن الذي غفل عما اعتنقه وآمن به.

2 الإِنْذارُ:

الإخبار الحريص، والتَّعليم المقترن بقلق وإشفاق من المخاوف، والمخاطر التي تنتظر المُنْذَرين إن لم يطيعوا النَّذير.

3 الذِّكرى:

من الذِّكْر الذي يعني: حضور الشَّيء، وقوَّته، وصلابته بدلاً من نسيانه واضمحلاله، والذِّكرى: كثرة الذِّكر، استحضر الصُّورة القائمة لمعاني القرآن، ليوصلك تذكُّرها إلى فهمٍ أعلى، وعمل أقوى، فيضادُّ الذِّكرَ: النِّسيان، والإهمال، والترك، والمعنى:

1. تذكُّر ما يُذْكَرون به، أي: تذكُّر شرفهم، ومجدهم، وقوَّتهم.
2. وتذكُّر ما يَذْكُرونه، أي: ما يستحضرونه ليقيموا حياتهم.
3. فالقرآن أهمُّ ركائز الأمن القوميِّ في أيِّ بلدٍ يدَّعي أنه مسلم.

خاصية [7]

تعريف العالم بضرورة اتِّباع ما أنزل الله عز وجل ونَبْذ كلِّ وليٍّ دونه

ويُبَصِّرنا بذلك قوله جلَّ مَجْدُه: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: 3].

1 قبس [1]

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾

1. فكلمة: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾: أمرٌ بأن يسيروا متَّبعين، أو تابعين خلف النِّظام الذي يجدونه في الكتاب خطوة خطوة، وقانونًا قانونًا
2. فالاتِّباعُ يعني: المشْيُ وراءَ ماشٍ، واقتداء اللَّاحق بإمام سابق، ليكون التَّابع خلف المتبوع يجري وراءه، ويأتمر بأمره.

2 قبس [2]

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾

1

﴿أَوۡلِيَآءَ﴾

جمع وليٍّ، وهو ما قَرُب منك حتى اتخذته الرَّفيق الذي لا يُفارَق، فهو الموالِي الذي وَلِيَك، أي: جاء بعدك، كالقريب الملازِمُ، والحليف المعاوِنُ المناصر، وأعظم الأولياء الله عز وجل: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ [الأعراف: 196]، اللَّهمَّ تولَّنا فيمن تولَّيت.

2 كلمة

﴿أَوۡلِيَآءَ﴾

تحقِّق وظيفتين وثالثة ستأتي:

1

أي: غير الله عز وجل، ممَّا لا يمكن أن يقاربه، فضلاً عن أن يساويه.

2

غير الله عز وجل لا بدَّ أن يكون أقلَّ منه، فغير الله عز وجل مخلوق من مخلوقاته.

ربَّما نتساءل: الإنسان يحبُّ أن يتَّبع وليَّه، مثل: اتباع الابن لأبيه، والمُوَظَّفين لمديريهم، فكيف لا نتَّبعهم؟

الجواب:

الوظيفة الثَّالثة لكلمة ﴿دُونِهِۦٓ﴾ تبيِّن أنه إذا كان اتِّباع غير الله عز وجل تابعًا لاتِّباع ما أنزله الله عز وجل ومواليًا له، شُرعت هذه الوَلاية ووُثِّقت، وإذا حدث التَّعارض بين اتِّباع ما أنزل الله عز وجل واتِّباع غيره حَرُمَ هذا الاتِّباع، فاتِّباع الأرحام من طاعة الله عز وجل ما دام في غير معصية الله عز وجل، وهكذا.

التَّرتيب المُحْكَم المنطقيُّ لبصائر الآيتين {الأعراف: ٢، ٣}

1 ﴿كِتَٰبٌ﴾
نوع المُنزَل

2 ﴿أُنزِلَ﴾
مصدر الإنزال

3 ﴿إِلَيْكَ﴾
المنزَل إليه

4 ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾
قوَّة المبلِّغ، فلن يكون للحرج مكان في صدره

5 ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾
الهدف العظيم للإنزال القرآنيِّ

6 ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾
الوسيلة النَّاجعة، والطَّريقة النَّافعة لتحقيق الهدف

7 ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾
الخطر الذي يمنع من تحقيق الهدف

خاصية [8]

القرآن حقٌّ حتى لو قلَّ التَّذكُّر به وقلَّ اتِّباعه

ويجب أن يحترس المؤمنون به من الغفلة عنه، ويُبَصِّرنا بذلك قوله عزَّ شَأْنُهُ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3].

1 المعنى:

زمنًا قليلًا تتذكَّرون فيه، أو قليلًا من الآيات تتذكَّرون بها، فمثلاً: (نِتشه) ملحد أثنى في مواضع على بعض التَّعليمات التي جاء بها النَّبيُّ ﷺ، وهذا نوع من التَّذكُّر القليل، وكذلك قد يكون الإنسان مسلمًا مصلِّيًا، لكنه يجترئ على المحرَّمات، فهذا تذكُّر قليل.

2 ليحصل التذكُّر هناك 3 مراحل:

1. التَّذكُّر بحُضُور الصُّورة في الذِّهْن، فلا تُنسى، ولا تُهمَل كأن نستحضر الصَّلاة.. الزكاة.. توجيهات وأخلاق النَّبيِّ ﷺ.
2. مرحلة الذِّكْر: فيَذْكُرُ الإنسان ما تذكَّره بلسانه، أو بعمله.
3. يَذْكُرُ الإنسان ما يُذْكَرُ به من الأعمال الصَّالحة الظَّاهرة.

خاصية [9] التَّفصيل الحافظ

حيث يفصِّل الله عز وجل لنا الدَّمار الذي يصيب الأمم والحضارات؛ ليحذر العالم من المخاطر، وتُبَصِّرنا بهذه الخاصِّيَّة الآيات {٤-٩} من سورة الأعراف، وتتلخَّص هذه الخاصِّيَّة في 6 مشاهد

المشاهد المتعددة التي تحدث لغير المتذكرين

1 مشهد الدمار المفاجئ

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: 4].

2 مشهد الاعتراف

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 5].

3 مشهد المحاكمة العادلة العليا

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6].

4 مشهد انكشاف المستور

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: 7].

5 مشهد الوزن الكاشف

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: 8].

6 مشهد نتيجة الوزن المصيريَّة، وانقسام الناس إلى فريقين:

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف: 8-9].

مشهد [1]

مشهد الدَّمار المفاجئ

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: 4]؛ **فإن عدم اتِّباع المعرفة القرآنيَّة يؤدِّي إلى إشاعة الظُّلم، والظُّلم يجلب الدَّمار للمجتمعات**

[1] الواو قبل كلمة: ﴿وَكَم﴾

تربط بين ما بعدها وما قبلها ربطًا محكمًا، والتقدير كما يقول البِقَاعِيُّ رحمه الله: "قَلَّ تَذَكُّرُكم وخَوْفُكم مِن سَطواتِنا، والحالُ أنَّهُ ﴿كَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾". (نظم الدرر 7/355، 356)

[2] كلمة: ﴿كَم﴾

خبريَّة تصف لك كثرة ما أصاب الأمم الغافلة من الدَّمار.

3 والتَّقدير:

كم من حضارة جمعت النَّاس والثَّروة دُمِّرت لعدم تذكُّرها، فلا تغترَّ بالصُّورة الحاليَّة.

4 جاءت كلمة ﴿قَرۡيَةٍ﴾ دون كلمة حضارة، أو دولة

لتشمل الأمم الصغيرة والكبيرة القويَّة والضَّعيفة.

5 القرية تطلق في القرآن على

1. الدَّولة
2. المدينة
3. الحضارة

كما قال ابن سِيْدَه رحمه الله: "المِصْرُ الجامِعُ" (المحكم والمحيط الأعظم 6/496)، وسُمِّيت بذلك؛ لاجتماع النَّاس فيها، ولاجتماع المنافع، من المَقْراة، وهي: كلُّ ما اجتمع فيه الماء.

6 ذكر الله عز وجل إهلاك القرية دون ذِكْر هلاك أهلها:

1. لأنَّ الهلاك قد يأتي على المباني، كما يأتي على النَّاس.
2. ولأنَّ التعبير بهلاك القرية يدلُّ على أنَّ الله عز وجل ربما أهلك نظام تلك الدَّولة، فلم تَعُدْ قرية آمنة مطمئنَّة تجمع أهلها.
3. ولأنَّ فساد أهل القرية في أرضها قد بلغ حدًّا عظيمًا حتى كأن القرية نفسها بأراضيها تساعد في نشر هذا الفساد، فاستحقَّت الهلاك التَّامَّ.

[7]

﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾

مُشتقَّة من (هَلَكَ)، فتصوِّر أنواع الفناء الذي حلَّ بالقرى المختلفة، فيدخل فيه: الإماتة، والإفْناءُ، والِاسْتِئْصالُ والإبادة، والتَّدمير حسب السِّياق، و"الهَلَكون": الأرض الجَدْبَة ليس فيها شيءٌ.

7 البأس:

كلمة تدلُّ على القوَّة الكبيرة في أمرٍ محدَّد مخيف للآخرين، فيقال: فلان شديد البأس.

8 مجيء البأس الإلهي ربما كان في أحد وقتين:

[1]

﴿بَيَٰتًا﴾

ويطلق على النوم ليلاً، أيْ: جاءَهُمُ البَأْسُ ليلاً مُبَيِّتًا لَهم، أو حال كونهم بائتين.

[2]

﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾

أي: وقت القيلولة، فهو وقت الرَّاحة منتصف النَّهار.

كأن البأس تربَّص بهم فجاءهم في غفلة أشدَّ ما يكونون آمنين

9

[1] كلمة: ﴿بَيَٰتًا﴾

وصف للوقت

[2] وكلمة: ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾

وصف للنَّاس على طريقة "الاحتباك"

والتَّقْدِيرُ:

فجاءها بأسنا بَياتًا ليلاً هم فِيهِ نائِمُونَ، أوْ جاءها بأسنا نهارًا في وقت هم فِيه قائلون.

قال محمَّد بن حازم البَاهليُّ:

يا راقدَ اللَّيلِ مسرورًا بأوَّلِه ○○○ إنَّ الحوادثَ قدْ يطرقنَ أسحارَا

لا تفرحنَّ بليلٍ طابَ أوَّلُهُ ○○○ فربَّ آخرِ ليلٍ أجَّجَ النَّارا

ما معنى الفاء في قوله: ﴿فَجَآءَهَا﴾؟

الجواب:

الفاء تظهر لنا سرعة الوقوع، أو مجيء الوقوع مباشرة وَفْقَ الإرادة الإلهيَّة، ففهمنا من كلمة: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ الإرادة، أي: أرَدْنا إهْلاكَها، والفاء في قوله: ﴿فَجَآءَهَا﴾ تصوِّر التَّعقيب المباشر لهذه الإرادة في الوقت المناسب، وتصوِّر كيفية وقوع الإهلاك.

10 التعبير بـ(أو) في قوله تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾

للتَّنويع والتَّوزيع بين الوقتين؛ فالإهلاك قد يأتي بياتًا، وقد يأتي حال القيلولة، ليشعرنا بالحذر من بأس الله عز وجل.

قال الحسن البصريُّ رحمه الله:

لأن تصحب أقوامًا يُخَوِّفونك حتى تبلغ المأمن، خير لك من أنْ تصحب أقوامًا يُؤَمِّنونك حتى تبلغ المخاوف. (مرآة الزمان في تواريخ الأعيان 103/22)

﴿وَكَم مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾[الأعراف: 4]

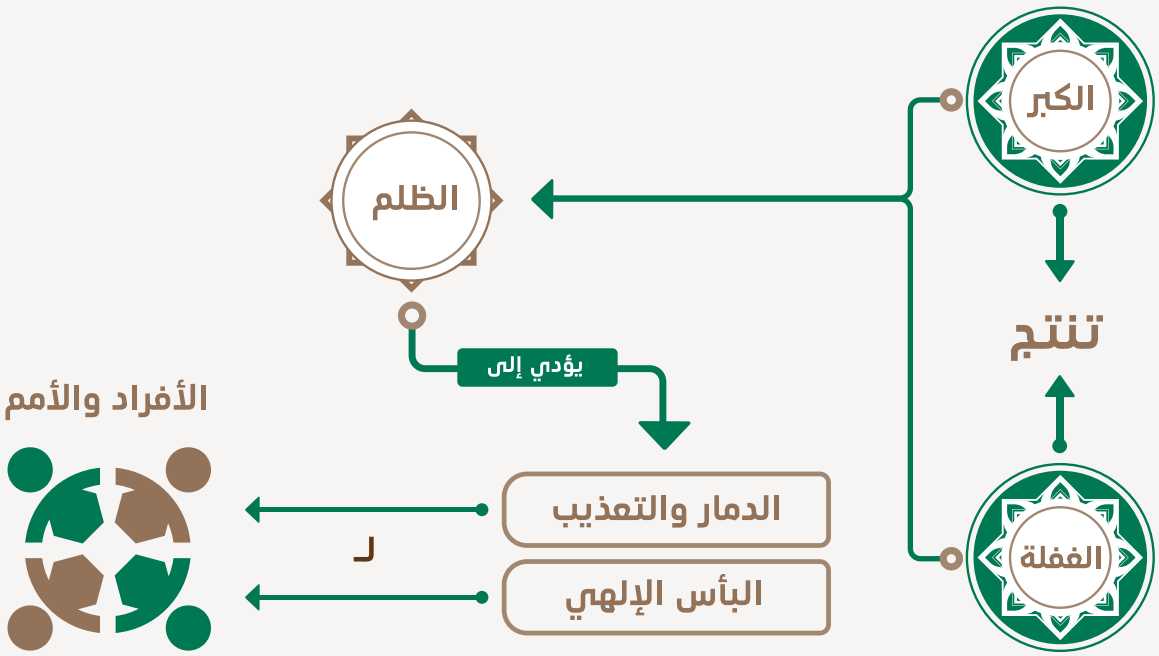

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

تعني وجود صفتين مدمِّرتين: الغفلة والاستكبار، وهنا يذكر الله عز وجل الصِّفة الثَّالثة المدمِّرة للأفراد والأمم: الظُّلم، فالغفلة تُنْتِجُ الكبر، والكبر يُنْتِجُ الغفلة، والغفلة والكبر يُنْتِجان الظُّلم، والظُّلم يؤدِّي إلى دمار الأمم:

مشهد [2] 2

مشهد الاعتراف

حيث يعترفون بأنهم ظلموا ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾:

[1] الفاء في قوله:

﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾

للتَّرتيب المعنويِّ؛ فلمَّا حلَّ بهم بأس الله عز وجل قاموا يعترفون بأنهم ظالمون.

2 كلمة "دعوى" تأتي في كلام العرب بوجهين:

1. أحدهما: الدُّعاء.
2. والآخر: الادِّعاء للحقِّ

أي:

فلم يكن لهم من دعوى يطالبون بها إلا الدُّعاء، فيقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، عسى أن يغفر لهم، وصارت هذه مثل الدَّعوى، أي: كما غفرت لآدم عليه السلام فاغفر لنا.

3 الاعتراف بأنهم ظالمون في الدُّنيا يمثِّل المُقَدِّمَة لِشَهادَتهم على أنفسهم في الآخرة.

وقد تسأل: ما الحكمة في التَّعبير عن ظلمهم بالجملة الاسميَّة المؤكَّدة: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، في حين عبر آدم وزوجه -عليهما السلام- عما اقترفاه بالجملة الفعليَّة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:23]؟

الجواب:

ليجعلوا اعترافهم صادقًا، فالجملة الاسميَّة تدلُّ على أنَّ الظُّلم سِمَتُهُمُ الدَّائمة، وسلوكهم الثَّابت أما آدم وزوجه عليهما السلام عبرا عن ندمهما من ذنبهما بالفعل، حيث ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾؛ ليخبرا بأنهما وقعا مرَّة أو مرَّات، لكنه لا يدلُّ غالبًا على الدَّيمومة، والثَّبات، والتَّأصُّل.

مشهد [3]

مشهد المحاكمة العَادِلَة العُليا

ويُبَصِّرنا بذلك قوله تَعَالى جَدُّهُ: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6]

[1] الفاء في قوله: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ﴾

بعطفها ما بعدها على ما قبلها تربط بين الآيات بحبل وثيق، حيث رتَّبت الأخبار؛ ففي الآية السَّابقة جاء بأس الله عز وجل في الدُّنيا، فقال الذين جاءهم البأس: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، ولكنَّهم لم يروا من بأس الله عز وجل إلا مظهره الدُّنيويَّ، وفي هذه الآية يبيِّن الله عز وجل أنه ستقام أعظم محكمة عليا في الآخرة.

[2] ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ﴾

أيْ: بِما لَنا مِنَ العَظَمَةِ والقوَّة، ولامِ القَسَمِ تؤكِّد الواقع العظيم الذي ينتظر الجميع، وزاد الموقف تأكيدًا بنُونِ التَّوْكِيدِ؛ ليزيل كلَّ شكٍّ في وقوع هذا المشهد العظيم.

3 سيُسأل يوم القيامة طرفان:

طرف [1]

الأمم التي أرسل الله عز وجل لها الرُّسل:

﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ هل وصلتهم الرِّسالات؟ وكيف تعاملوا معها، ويبدأ الله عز وجل بهم؛ إقامة للحجَّة عليهم، وتقريرًا للعدالة معهم، لأنهم الطَّرف الذي يدَّعي المظلوميَّة.

طرف [2]

المرسلون الذين أرسلهم الله عز وجل إلى أقوامهم:

فقال جلَّ ذِكرُه: ﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ الذين أرسلناهم ليبلِّغوا أمانة الرِّسالة إلى أقوامهم، لإظهار قيامهم بواجباتهم، ولإقامة الحجَّة على المرسل إليهم.

ونتساءل: كيْفَ نجمع بَيْنَ قَوْلِه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6]، وبَيْنَ قَوْلِه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرَّحمَن: 39]، وأمثالها؟

الجواب:

1. السُّؤالُ في اللُّغة العربية قَدْ يَكُونُ لِأجْلِ الِاسْتِرْشادِ والاستخبار والِاستعلام، وقَدْ يَكُونُ السؤال لأجل الرِّفعة والإكرام، وقد يكون لِأجْلِ التَّوْبِيخِ والإهانَةِ والملام، فالسؤال المنفي في قول ربِّنا عز وجل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرَّحمَن: 39]، سؤال الاستفهام والاستعلام، فالله عز وجل لا يسألهم ليعلم أشياء لم يكن يعلمها من قبل، بل الله عز وجل العالم بالأشياء قبل كونها.

2. والسُّؤال المثبت في قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6]، سؤال المحاسبة، وإقامة العدل والحجَّة

مشهد [4] مشهد انكشاف المستور

حيث تنكشف كلُّ الأحداث الظاهرة والباطنة، التي عملها كلُّ إنسان في الدُّنيا، ويُبَصِّرنا بذلك قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: 7]

1 لَمَّا قال الله عزوجل: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6]

ربَّما قيل: وما الحاجة إلى أن يسأل الله عز وجل النَّاس؟ هل هذا يدلُّ على نقصٍ في علمه؟ تعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا.

تجيبك الآية [2]

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾

أن السُّؤال لأجل إقامة الحجَّة، وفَصْل القضاء، ولزيادة التَّبكيت للمفسدين بنشر خزيهم وجرائمهم على الملأ، ولمضاعفة الإعلاء للمصلحين وللصَّالحين؛ إذ فيه بيان لمجهوداتهم على ما قاموا به وليس لاحتياجٍ للمعلومة، فالفاء لِلتَّفْرِيعِ والتَّرتيب عَلى قَوْلِه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾.

[3]

﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾

مادة (قصص) تدل على تَتَبُّعِ الشَّيْءِ تتبُّعًا محكمًا في كلِّ جزء من أثره؛ لتستبين حقيقته، فتصوِّر دِقَّة التَّتبُّع لكلِّ أحداث الدُّنيا، من اقْتَصَصْتُ الْأَثَرَ: إِذَا تَتَبَّعْتُهُ.

[4]

﴿بِعِلْمٍ﴾

التَّنكير والتَّنوين للتعظيم، أي: بعِلْمٍ عَظِيمٍ يليق بالعلم الكامل المحيط الذي نتصف به.

[5]

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾

عنهم في كلِّ وقت وعملٍ يعملونه، فمهما حاول الكاذبون أن يَكْذِبوا، أو يخفوا فإنَّ الله عز وجل سيقصُّ عليهم بعلم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، حينها ستنكشف حقائق الأقوال والأعمال والنِّيَّات والضَّمائر، في يوم لا وليَّ فيه ولا ناصر.

دلائل العظمة في كلمات ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾

[1] ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾

الفاء تفريع لإظهار حقيقة السؤال في الآية السابقة، فهو سؤال إقامة الحجة، وإظهار العدل.

[2] ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾

لام القسم لتأكيد وقوع ذلك الحدث تأكيدًا نبع من عظمة المقسِم تعالى مجده.

[3] ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾

النون الأُولى لبيان عظمة أحكم الحاكمين، ونشر وصف الجلال.

[4] ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾

القص نقل تفاصيل أحداث الدنيا بدقة كما وقعت.

[5] ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾

النون المشددة لتأكيد وقوع الحدث تأكيدًا ثانيًا جازمًا بعد التأكيد الأول بلام القسم.

[6] ﴿عَلَيْهِم﴾

تحدد المسؤولين سؤال توبيخ وإرغام، أو سؤال إعلاء وإكرام.

[7] ﴿بِعِلْمٍ﴾

تحدد نوع الأدلة، فهي أدلة قائمة على علمٍ عظيم قطعي .

[8] ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾

أي أن الله الذي يحكم ذلك اليوم كان مشاهدًا رقيبًا أثناء أحداث الدنيا، وسيكون شاهدًا أثناء محاكمات الآخرة.

5 مشهد [5]

مشهد الوزن الكاشف

حيث تنكشف القيمة الحقيقيَّة للإنسان عند الميزان في الآخرة، ويُبَصِّرنا بذلك قوله عزَّ شَأْنُهُ: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّۚ﴾ [الأعراف: 8]

[1] الواو ربطت آية:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّۚ﴾

بما قبلها، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ﴾ [الأعراف: 7] أثناء محاسبتنا لهم، وبعد المحاكمة والمساءلة والشهود ينتقلون إلى الوزن، والوزن يومئذ ليس كوزن الدُّنيا، بل هو الحقُّ.

3 فما معنى كلمة: ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾؟

الجواب:

﴿ٱلْوَزْنُ﴾ "كلمة تدلُّ على تَعْدِيلٍ، وَاسْتِقَامَةٍ، وبيان لمقدار الشَّيء، وثِقْلِه، وآلتُهُ الميزان، كما أنَّ الإقساط: تقدير القسط المناسب العادل الذي يعطاه من يستحقُّه، وآلتُهُ تسمَّى الْقِسْطَاس بكسر القاف وضمها.

[2] فمعنى قوله:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ﴾

أي: ستحدث عملية التَّقدير أمام كلِّ إنسان؛ لتظهر قيمته الحقيقيَّة.. اللَّهمَّ لا تخزنا، ولا تفضحنا، يا أرحم الراحمين.

[3]

﴿ٱلْحَقُّ﴾

هو الثابت الذي يحِقُّ ليصير به كلُّ شيء في موضعه دون خلل، والمعنى: والوزن يوم نسأل الذين أرسل إليهم والمرسلين هو الحقُّ الذي يُطابِقُ الواقِع مُطابَقَةً حَقِيقِيَّةً، وبه يحقُّ القَدْر الذي يوازن صاحبه، فكلمة: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أبانت لنا أنه لا يمكن لهذا الوزن أن يعتريه السَّهو، ولا التَّلاعب، ولا الزَّيف، ولا المجاملات، ولا الرَّشوات.

ما الذي يوزن يوم القيامة؟

الذي يظهر أن ثلاثة أمور توزن في الميزان:

أولًا: الأعمال وإن كانت أعْراضًا؛ لأنَّ الله عز وجل يُجسِّدها

فمعنى قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: فمن ثقلت بكثرة حسناته التي ترتَّبت على أعماله، كقول النَّبيِّ ﷺ: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ» "مسلم (223)"، وقال ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَثْقَلَ فِي الْمِيزَانِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ». "أحمد (27532)، وصحح إسناده الأرناؤوط، والألباني في الصحيحة (876)"

ثانيًا: تُوزَنُ صحائف الْأَعْمَال

واستدلُّوا بقول رسول الله ﷺ عن حساب صاحب البطاقة: «بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ، فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ محمَّدا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ»، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟! فَقَالَ: «إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ». "أحمد (6994)، وقوى إسناده الأرناؤوط، وصححه الألباني في الصحيحة (135)"

ثالثًا: يُوزَنُ صَاحِبُ العَمل

واستدلُّوا بقول النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ عز وجل جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَءُوا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: 105]» "البخاري (4729)"، فيوزن أصحاب الأعمال لا ليظهر مقدار ما يحملونه من لحمٍ وعظمٍ، بل لتظهر مكانتهم الحقيقيَّة.

نتساءل عن الوزن بأيِّ شيء يتحقَّق؟ هل هناك ميزان على الحقيقة يوم القيامة؟

الجواب:

1 ذكر الله عز وجل لفظ الوزن والميزان في القرآن الكريم في نحو ثلاث وعشرين آية؛ خمس عشرة آية منها تتعلَّق بالعدل في ميزان الدُّنيا، والتَّحذير من التَّطفيف الاقتصاديِّ، وثماني آيات خاصَّة بالوزن في الآخرة، والميزان يوم القيامة حقٌّ، وكيفيته من أمور الغيب، ويكفي في إثباته قوله تعالى مَجْدُه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: 47].

2 ومثل الميزان في إقامة الحجج أن تنطق الأيدي والأرجل، وتشهد الجلود، وتُحدِّث الأرض بما كان الخلق يعملون.

6 مشهد [6]

مشهد نتيجة الوزن المصيريَّة

حيث ينقسم النَّاس إلى فريقين:

فريق [1]

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 8]

[1] الجمع في ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾

يُبَصِّرنا بأنه يحتمل أن يدلَّ على تعدُّد الموازين، أو يدلَّ على تعدُّد كيفيَّات الوزن بما يناسب الأعمال، فللصَّلاة ميزانها، وللصَّوم ميزانه، ولحسن الخلق ميزانه.. ثم تجمع مع بعضها في ميزان واحد لتخرج النِّسبة التي يفلح بها الإنسان أو يخسر، فاستعنَّا بما نعرفه في الدُّنيا لمجرَّد تقريب الصُّورة، وإلا فالأمر لا تطيقه تصوراتنا، ولله المثل الأعلى.

وربما تسأل: فكيف تحدث عمليَّة الوزن بدقة يوم القيامة؟

الجواب: جلس رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ لِي مَمْلُوكِينَ يَكْذِبُونَنِي، وَيَخُونُونَنِي، وَيَعْصُونَنِي، وَأَضْرِبُهُمْ وَأَسُبُّهُمْ، فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ، وَعَصَوْكَ، وَكَذَّبُوكَ، وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ. فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلاً لَكَ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا، لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ، اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ الَّذِي بَقِيَ قِبَلَكَ» فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَبْكِي بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَهْتِفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا لَهُ؟ مَا يَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ عز وجل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47]»، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَجِدُ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ فِرَاقِ هَؤُلَاءِ -يَعْنِي عَبِيدَهُ- إِنِّي أُشْهِدُكَ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كُلُّهُمْ. "أحمد (26401)، وضعَّفه الأرناؤوط، وصحَّحه الألباني لغيره. صحيح الترغيب (427/3)"

فإن سألت: ما الحكمة مِنْ وصف الله عز وجل مَنْ ثقلت موازينه بهذا الوصف: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 8]؟

الجواب: الفَلاح هو الظَفَر التَّامُّ بالخير المطلوب وزيادة عليه، ولا يكون إلا بناء على تعب سابق، والتَّعبير بالفلاح رائع، فالفلَّاح يَفْلح الأرض، ثم يتعهدها بالرِّعاية صابرًا إلى التَّمام، ثم يُفلِح بالحصول على مراده من طعام، أو تجارة زراعيَّة، وكذلك الذي يزرع العمل الصَّالح في الدُّنيا ينبغي أن يتعهده بالرِّعاية مخلصًا صابرًا حتى يلقى الله عز وجل، فيوفِّيَه أجره، ويزيدَه من فضله، والله يرزق من يشاء بغير حساب. اللَّهمَّ إنا نسألك من ذلك أوفر الحظِّ والنَّصيب.

فريق [2]

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 9]

السؤال هل كانت ثقيلة حتى خفَّت؟

الجواب:

يوجد في مقياس الميزان ما يقابل الفطرة السَّليمة التي خلق بها، والتي بناء عليها كان سيصلِّي، فيَخِفُّ المقياس بقدر تضييعه للصَّلاة وللحسنات المترتِّبة على الصَّلاة، وكذلك أعماله.

1 يحدِّثنا النَّبيُّ ﷺ عن أنموذج لهذا الخاسر، فيقول:

«أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، ويَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ». "مسلم (2581)"

[2] ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾

الخُسْرانُ: ضياع رأس المال، وذهاب أصل التِّجارة، فهو ضِدُّ الرِّبْحِ، وهو كلمة تدلُّ على نقص الأصل، ومن معاني خسر: هلك، وذهبت كرامته، والخسارة ليست مجرد عدم الانتفاع، بل فَقَدُوا الآلة والغاية، وهي النَّفس، فهي الآلة التي كان يمكنهم أن يستعملوها في تحصيل الأرباح، وتحقيق الفلاح.

[3]

﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾

التقدير: خسروا أنفسهم بسبب أنهم كانوا بآياتنا يظلمون، والباء تبيِّن صورتين:

صورة [1]

يظلمون الآيات نفسها

وضُمِّنَ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ مَعْنى يُكَذِّبُونَ ويكفرون؛ فَلذَلكَ عُدِّيَ بالباء، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: بِما كانُوا يَظْلِمُونَ الآيات فَيُكَذِّبُونَ، ويكفرون بها.

صورة [2]

يكذِّبون بالآيات عمليًا

فيظهرون الإيمان بها، والباء باء آلة، أي: يستخدمون الآيات لتكون وسيلة للظُّلم، فيظلمون ويستدلُّون بالآيات لتبرير أفعالهم، بأن يستدلُّوا بها في غير موضعها.

[4]

﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾

تعبير يحذِّر الغُلاة الذين يظهرون بمظهر التَّدين من اليهود والنَّصارى والمسلمين، فهم يجعلون الآيات أداة للظُّلم، ويستدلُّون بها على الإفساد في الأرض، ويرتكبون الجرائم باسمها.. تَصوَّرْ مثلًا أن محاكم التَّفتيش في أسبانيا كانت تعتمد في تعذيبها على ما يسمُّونه آيات الكتاب المقدَّس!!

عَنْ عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ قَالَ: قِيلَ لِسَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

مَا حَسَبُكَ؟ قَالَ: «كَرَمِي دِينِي، وَحَسَبِيَ التُّرَابُ، وَمِنَ التُّرَابِ خُلِقْتُ، وَإِلَى التُّرَابِ أَصِيرُ، ثُمَّ أُبْعَثُ وَأَصِيرُ إِلَى الْمَوَازِينِ، فَإِنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينِي، فَمَا أَكْرَمَ حَسَبِي وَمَا أَكْرَمَنِي عَلَى رَبِّي يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَإِنْ خَفَّتْ مَوَازِينِي فَمَا أَلْأَمَ حَسَبِي وَمَا أَهْوَنَنِي عَلَى رَبِّي وَيُعَذِّبُنِي إِلَّا أَنْ يَعُودَ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ عَلَى ذُنُوبِي». "الزهد الكبير للبيهقي (763)"

قال الحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

"وحَقٌّ لِميزانٍ تُوضَعُ فِيهِ الحَسَنَاتُ أَنْ يَثْقُلَ، وحَقٌّ لِميزانٍ تُوضَعُ فِيهِ السَّيِّئَاتُ أَنْ يَخِفَّ". "الكشاف (2/89)"



المحور الأول



البداية والنهاية للرحلة الإنسانية الكبرى في مسيرة الحياة، ويتضمن الإنباء بتفاصيل المعركة الأولى لها ضد أسوأ أعدائها:

[الأعراف: ١٠-٥٣]

ما المراحل الزمنية التي يعيشها بنو آدم ويمر بها تاريخ البشرية في مسيرة الحياة والتي تضمنتها آيات هذا المحور؟

الجواب: تكوَّن المحور الأول من ست مراحل زمنية:

مرحلة زمنية 1

بداية تاريخ الإنسانية بالتكريم والتمكين الإلهي، وإعلان العداوة الشيطانية: (الأعراف: 10-18)

مرحلة زمنية 2

تجربة تدريبية على الحياة المسؤولة في الجنة قبل النزول إلى الأرض، ونجاح إبليس في اختراق البشرية بإغرائهم ألا يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم، وكيف تمكَّن أبوانا من التغلب على هذا الاختراق (الأعراف: 19-25)

مرحلة زمنية 3

الحياة في الأرض، وأهمُّ النداءات الإلهية لبني آدم عليه السلام، ليفهموا طبيعتها وجمالها، ولينتبهوا إلى المعركة بينهم وبين إبليس وقبيله (الأعراف: 26-36)

مرحلة زمنية 4

تفصيل النداء الرابع، وتصوير مشاهد العودة الحتمية في المستقبل الأخروي القادم، حيث تعاين الذرية الآدمية نتائج أعمالها في الحياة الدنيا: (الأعراف: 37-43)

مرحلة زمنية 5

مرحلة ما بعد الاستقرار في الجنة والنار، و"حوارات التلذذ والشقاء" (الأعراف: 44-51)

مرحلة زمنية 6

المهيمنة على المراحل السابقة: القرآن يؤسِّس الزمان: فبعد تفصيل مراحل الزمان في الدنيا والآخرة ابتداء مما قبل خلق الإنسان ووصولًا إلى استقرار أصحاب الجنة والنار يأتي تذكير العالم بالقيمة العظيمة لاتباع الكتاب (الأعراف 52-53)

مرحلة زمنية 1

بداية تاريخ الإنسانية بالتكريم والتمكين الإلهي، وإعلان العداوة الشيطانية: (الأعراف: 10-18)

ما المشاهد التي تصورها آيات هذه المرحلة؟

الجواب: تكونت هذه المرحلة من ثمانية مشاهد:

1 مشهد [1]

التمكين الإلهي للإنسانية في الأرض قبل وجودها

فقد بصرنا الله عز وجل بأنه خلق الأرض قبلنا ليمكن لنا فيها، ويجعلَها بيئة صالحة للعيش والبناء والإعمار، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ [الأعراف: ١٠].

2 مشهد [2]

الشكر علامة الذِّكْر

وبريد الزيادة، وكلمة السر في اتساع بركات الأرض لكل البشرية: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

3 مشهد [3]

مشهد خلق الإنسانية

وتكريمها بإسجاد أعظم المخلوقات المكرمة لأبينا آدم عليه السلام، وظهور العدو الأول لها، ويبصرنا بذلك قوله جلَّ مجدُه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف الآية 11]. وفيه ثلاث لقطات:

1 لقطة [1]

لقطة بدء قصة الإنسانية، وبداية التاريخ البشري

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾.

2 لقطة [2]

الإعلان عن تكريم الإنسان في احتفال مهيب في رحاب الملأ الأعلى

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾.

3 لقطة [3]

مشهد العدو الأول للإنسانية

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

مشهد [4]

الثلاثية القاتلة هي السبب الحقيقي لتمرد إبليس، وعداوته للإنسانية

ويبصرنا بها قوله جلَّ مجدُه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (الأعراف: 12) **والثلاثية هي:**

1. **الامتناع عن تطبيق النظام الإلهي**
2. **والكبر**
3. **والحسد**

فهي ثلاثية أساسية في جلب الشقاء للنفس وللعالم.

مشهد [5]

الحكم الإلهي العادل على إبليس

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾، **وسبب الحكم:** ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأَعْرَاف ١٣] ، **فالتكبر يعني: عدم التذكُّر، ويؤسِّس لدرب الشهوات المستمر.**

مشهد [6]

إنظار لإكمال الاختبار

إبليس يطلب الإنظار إلى يوم الدين ليتمكن من تدمير البشرية، ويبصرنا بذلك قوله تعالى جده: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: 14]، **فيخبره الله عز وجل أن إنظاره أمر مقرَّرٌ سلفًا:** ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: 15].

مشهد [7]

خطة إبليسية لتدمير البشرية

فأعلن عداوته المستعرة ضد الإنسانية هدفًا ووسيلة وغاية وزمنًا: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[الأعراف: 16- 17].

مشهد [8]

قَسَمٌ إبليسي مستمر، وخطَّة محاصِرة تدمِّر البشرية، وتمنع الشكر

وربما تسأل: هل أفصح إبليس عن خطته؟ وما عناصر هذه الخطة الإبليسية؟

الجواب: تكوَّنت هذه الخطة من ستة عناصر:

عنصر [1] تحديد الهدف

أعلن إبليس عن أعظم أهدافه في الحياة، وهذا الهدف هو عداوة الإنسانية، ويبصرنا الله عز وجل أنه أعلن عن هذا الهدف تحديدًا في سورة أخرى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص ٨٢].

عنصر [2] إغواء في القَدَر

فيربك عقول الخلق بنسبة الإغواء إلى الله عز وجل بدلًا من اتهام النَّفْس، حيث قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الأعراف: 16].

عنصر [3] الفعل الأساسي في حركة إبليس

هو أن يَقْعد للبشرية صراط الله المستقيم؛ إذ تمضي مع بيانه الخطير؛ لتجده يذكر خطته، فيقول: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16].

عنصر [4] الإعلان عن مآتي إبليس

والجهات التي يقاتل منها البشرية، ويحاصرها، وتتميز خطته بجهد ضخم متتابع لإغوائهم، فلا يكتفي بالقعود، بل يتحرك بشدة في جميع الاتجاهات حيث قال: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: 17].

عنصر [5] تحديد النتائج

فقد توقَّع إبليس أن يحقِّق وَفْق خطته أهدافَه بنسبة عالية، حيث سيجعل أكثر بني آدم غير شاكرين لربهم، ويبصرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17].

عنصر [6] مساعدو الشيطان

فيصطفى إبليس جنده من البشرية ليساعدوه في الإفساد، ويبصرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 18]، ويحذرهم الله من هذه التبعية العمياء لإبليس، فيصدر قراره الفصل فيهم: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الأعراف: 18].

إذا كانت المرحلة الزمنية الأولى قد ذكرت بداية التاريخ الإنساني بالتكريم والتمكين الإلهي، فما المرحلة الزمنية الثانية؟

الجواب: هنا تأتي:

مرحلة زمنية 2

تجربة تدريبية على الحياة المسؤولة في الجنة قبل النزول إلى الأرض، ونجاح إبليس في اختراق البشرية بإغرائهم ألا يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم، وكيف تمكَّن أبوانا من التغلب على هذا الاختراق (الأعراف: 19-25)

ما المشاهد التي تصورها آيات هذه المرحلة؟

الجواب: في هذه المرحلة ثلاثة مشاهد:

1 مشهد [1] سكن مميز، ونظام إلهي متبع

ويبصرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنَ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ [الأعراف: 19]، والنظام لا بد أن يتكون من أمر "افعل" ونهي "لا تفعل"، والحرام واضح، فكلمة﴿هذه﴾ في قول ربنا: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ تصوِّر دقة التحديد للمنطقة المحرمة، واقتراف الحرام ظلم للنفس والأرض والأنام: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 19].

2 مشهد [2] مشهد الجهود الشيطانية لاصطياد الإنسان

﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ ...﴾ [الأعراف: 20]

وربما تتساءل: ما مظاهر الجهد الشيطاني لإيقاع الإنسانية في فخاخه حسب قصة أول مواجهة حقيقية بين الإنسان والشيطان؟

الجواب: توضِّح الآية مظاهر الجهد الشيطاني في عشرة مظاهر:

مظهر [1]

الفورية

حيث حرص إبليس على القيام بتحقيق أهدافه في تدمير البشرية فورًا دون إبطاء، ويبصرنا بذلك الفاء في قوله جل في علاه: ﴿ فَوَسْوَسَ﴾.

مظهر [2]

الوسوسة الخطيرة

التي تتكرَّر ولا تفتر، ويبصرنا بذلك قوله تعالى جده: ﴿ فَوَسْوَسَ﴾.

مظهر [3]

التركيز

حيث ركَّز إبليس جهده على الضحية المحدَّدة دون تشتُّت، ويبصرنا بذلك تقديم كلمة ﴿لهما﴾ على الفاعل في قوله تعالى مجده: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ...﴾ [الأعراف: 20]، وكذلك وصف إبليس بالشيطان، وهو المحترق المتمرد النشط.

مظهر [4]

كشف السوءات، وليس الوقوع المباشر في الشرك، فهو هدف شيطاني مدمِّر

ويبصرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: 20].

مظهر [5]

تسليط الوسوسة على الإنسان لتصبح كلامًا أو مثل الكلام المؤثِّر

ويبصرنا بذلك قوله تعالى جده: ﴿وَقَالَ ﴾

مظهر [6] التوزيع والتركيز

حيث ركَّز إبليس الوسوسة على آدم -عليه السلام-، ولم ينس حواء -عليها السلام-، ويبصرنا بذلك ضمير التثنية حيث قال إبليس: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا... أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا﴾ [الأعراف: 20].

مظهر [7] استغلال إبليس للنفس الأمَّارة بالسوء

ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: 20]، **فكلمة ﴿هذه﴾ تدل على أنهما اقتربا منها.**

مظهر [8] استغلال التبعات الخاطئة للمعرفة

حيث يستغل إبليس طموحات الإنسان ومطامعه، فذكر الملائكية والخُلد ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: 20].

مظهر [9] أهم أسلحة الشيطان: الكذب الملتبس بالصدق والإيهام

حيث أقسم لهما على صدقه: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: 21].

مظهر [10] التأثير المتدرج عليهما

ويبصرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:21]، **أي كرَّر عليهما خُدَعَه بصورة متدرجة صبورة حتى وقعا كما يُدَلَّى الحبل في البئر.**

3 مشهد [3]

مشهد (الصدمة والإفاقة)

مقارفة الذنب، والتحرُّر السريع من تبعاته (الأعراف: 22-25)

ستقول: احتوى هذا المشهد على لقطات مدهشة توضح ثمار الجهود الإبليسية في إغواء أبوي البشرية، فما هي؟

الجواب: في هذا المشهد ثمان لقطات:

1 لقطة [1]

فضيحة الذنب ومصيبته

حيث بدا من جسد الإنسان ما يجب أن يُغَطَّى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: 22].

2 لقطة [2]

الحياء والبحث عن طريقة للستر الإنساني من أسس إقامة الحضارة المتميزة

﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ [الأعراف: 22].

3 لقطة [3]

تعلُّم الخياطة بداية معرفة الإنسان لإعمار الحياة

﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾[الأعراف: 22]، وتُسْقطُ هذه الكلماتُ خُرافةَ أن الأصلَ عُريُ الإنسان، وما في الرواية التوراتية أنهما كانا يمشيان عاريين، ولا يستحييان جزء من التحريف، فبحسب كلمات القرآن: الحياء جزء من فطرتهما

لقطة [4]

نداء رحمة بعد عمل غضب

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ [الأعراف: 22]، **فلم يغضب الله عز وجل عليهما، ولم يعاجلهما بالعقوبة.**

لقطة [5]

المعاتبة الإلهية تذكِّرك بأن الله عز وجل أرحمُ بك من نفسك

فهو الذي علَّمك المخاطر قبل أن يدعوَك الشيطان لتعصي ربك وتغامر: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: 22].

لقطة [6]

المسؤولية المشتركة بين الرجل والمرأة بالنسبة للوقوع في الذنب

ويبصرنا بذلك الخطاب المشترك: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: 22].

لقطة [7]

تحويل الهزيمة إلى انتصار

حيث أظهر آدم وزوجه -عليهما السلام- التوبة الصادقة، والاعتراف بالأخطاء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]، **وهنا ترى إبطال النظرية المجرمة التي تسمَّى: الخطيئة الأصلية، ففي القرآن: خلق الإنسان بلا خطيئة، فلما وقع فيها، استطاع أن يجعل خسارته ربحًا إذ اعترف أمام ربه عز وجل بأنه ظلم نفسه.**

لقطة [8]

الهبوط إلى الأرض

فالتوبة من أبوينا محطة فاصلة في التاريخ الإنساني؛ إذ تعني اكتمال الإعداد للاستخلاف في الأرض ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾ [الأعراف: 24].

ستقول: ما مغزى هذه الجملة ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾؟ وما معناها؟

الجواب: زود الله عز وجل أبوينا بثلاثة قوانين في حياتهما الجديدة، وهي:

قانون [1]

لا تغفل عن عدوك

﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ [الأعراف: 24].

قانون [2]

الأرض مستقر ومتاع

وليست ملعونةً كما تقول التوراة الحالية: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [الأعراف: 24].

قانون [3]

بيان العلاقة بين البشرية والأرض

﴿قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ [الأعراف: 25].

إذا كانت المرحلة الزمنية الأولى من مراحل التاريخ البشري تحدثت عن تهيئة الله الأرض لاستقبال البشرية، وكانت المرحلة الثانية عبارة عن مدة تدريبية لأبوي البشرية فما المرحلة الثالثة؟ وأين ستكون؟

الجواب: هنا تأتي:

مرحلة زمنية 3

الحياة في الأرض، وأهمُّ النداءات الإلهية لبني آدم، ليفهموا طبيعتها وجمالها، ولينتبهوا إلى المعركة بينهم وبين إبليس وقبيله (الأعراف: 26-36)

ولعلك تسأل: ما تفاصيل هذه النداءات الإلهية للذرية الآدمية التي تمثل مواد دستورية تنظم شؤون الحياة في الأرض؟

الجواب:هي أربعة نداءات:

نداء [1]

التمتع بالجمال الظاهري والباطني

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ...﴾ (الأعراف: 26)

نداء [2]

نداء يتعلق بطبيعة المعركة مع إبليس وقبيله

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ...﴾ (الأعراف: 27- 30)

نداء [3]

التمتع المشروع بزينة الحياة الدنيا بالقسط

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ...﴾ (الأعراف: 31- 34)

نداء [4]

منهج الحياة في العيش يجب أن يكون مصدره الله عز وجل

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ...﴾ (لأعراف: 35- 36)

وإليك هذه النداءات الأربعة مفصلة:

نداء [1]

التمتع بالجمال الظاهري والباطني:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 26]، **وهذا النداء يتعلَّق بإنزال الأدوات اللازمة لستر العورات الجسدية والقلبية، والشعور بجمال الحياة الإنسانية على الأرض ظاهرًا وباطنًا**

وقد تسأل: ما القوانين التي تضمنها هذا النداء الإلهي الأول؟

الجواب: تضمَّن خمسة قوانين:

1. **قانون [1] النسبة لآدم عليه السلام**
﴿يا بني آدم﴾ تثبت انتقال التكريم إلينا، والمساواة بيننا فنحن من أصل واحد، وأننا ورثنا الاستقرار والتمتُّع في الأرض، كما ورثنا العداوة لإبليس وقبيله.

2. **قانون [2] اللباس الظاهري الأساسي**
﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ تبصرنا بأنه يجب على الإنسانية الإفادة من أنواع الألبسة الأربعة، فاثنان منها يرجعان إلى اللباس الحسي المادي:
الأول: اللباس الظاهري الأساسي

3. **قانون [3] اللباس الثاني: اللباس الظاهري التكميلي**
﴿وَرِيشٗا﴾، وهو الريش مثل الأثاث والبِطانة والزينة المصاحبة ظاهرًا وباطنًا، وسائر أنواع الأموال، فالستر والتجمل فطرة ملازمة للإنسانية

4. **قانون [4] اللباس الثالث: لباس التقوى الإيمانية**
﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾، فالتقوى تمثِّل الوقاية الحقيقية من الأخطار، بترك كلِّ ما يسبِّب الضرر من الرذائل، وأن يملأ الإنسان نفسه بالفضائل.

5. **قانون [5] اللباس الرابع: لباس التقوى الدفاعية**
وهو كلُّ لباس يقي من الإيذاء والاعتداءات المدمِّرة: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾، فهذا معنى آخر للباس التقوى مثل ما يُلبس من "الدروع".

إذا كان النداء الأول قد مثَّل الباب الدستوري الأول من التوجيهات العظيمة التي منحها الله عز وجل بني آدم، فما النداء الثاني؟

الجواب: هنا يأتي:

نداء [2]

يتعلَّق بطبيعة المعركة مع إبليس وقبيله: (الأعراف: 27-30)

وربما تسأل: ما القوانين التي تضمنها هذا النداء الإلهي الثاني؟

الجواب: فيه تسعة قوانين:

1 قانون [1] قانون الحذر من الوقوع في الفَتْن والفتنة

قانون الحذر من الوقوع في الفَتْن والفتنة، ومن نتيجتهما: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: 27]، فالشيطان يجعل الفتنة تدمِّر الإنسان بدلًا من أن يخرج منها ذهبًا خالصًا.

2 قانون [2] قانون تذكر المعركة القديمة المتجددة

﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27].

3

قانون [3] من أهداف الشيطان الأساسية نزع الحياء الفطري

﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾ [الأعراف: 27] فيركِّز الشيطان على التعرِّي ونزع اللباس، أي: لا يفتننكم الشيطان بإيقاعكم في مكره وخداعه كما خدع أبويكم حال كونه نازعًا لباسهما.

4

قانون [4] أعظم وسائل قوة الشيطان لتحقيق أهدافه ثلاثة أنواع

1	2	3
الخفاء	والمساعدون من القبيل الإبليسي	والتجنيد للمساعدين من الإنس

فهو يحكم في الباطن الخفي، وأولياؤه يقومون بالدور الظاهر الجلي

5

قانون [5] أبرز مظاهر ولاية الشيطان: تقنين الفواحش، وتطبيع الحياة معها

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: 28].

6

قانون [6] يجب الردُّ الإعلامي والتعليمي والتبليغي والتربوي والتشريعي

على الذين يشرِّعون الفحشاء فيقولون: ﴿الله أمرنا بها﴾ بردَّين:

1 عقلي:	2 نقلي:
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾	﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

فالأنبياء لم يقولوا: إن الله يأمر بالفحشاء

7

قانون [7] من يقول إن الله عز وجل أمر بالفاحشة فقد افترى الكذب

ستقول: ما أهم الأسس التي أمر الله عز وجل بها لتشكِّل دستور الدين الحق؟

الجواب: أهمُّ الأسس التي أمر الله عز وجل بها أربعة:

[1]

القسط

في الحياة، وفي العلاقة مع الله عز وجل، وفي العلاقة مع المخلوقات: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأعراف: 29].

[2]

إقامة الوجوه عند كل مسجد

وهذا يعني الإحسان في العلاقة الظاهرة بالله عز وجل، والمنع من الشرك الظاهر: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 29].

[3]

أن ندعو الله عز وجل مخلصين له الدين

وهذا يعني الإخلاص في العلاقة الباطنة مع الخالق عز وجل، والمنع من الشرك الباطن ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: 29].

[4]

حماية المستقبل بالاستعداد لليوم الآخر

فذلك الذي يحمي من الظلم والضياع النفسي الفردي والجماعي: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: 29].

8 قانون [8] **تنبيه البشرية إلى أنهم ينقسمون إلى فريقين**

حسب قدرتهم على إدارة المعركة مع الشيطان:

فريق [1]

الفريق المهتدي

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ [الأعراف: 30]، وهم الذين استقاموا على النظام الذي أمر به الله، واحترسوا من الشيطان، فمنَّ الله عز وجل عليهم، فهداهم

فريق [2]

الفريق الذين حقَّت عليهم الضلالة

حيث استجابوا لوسوسة الشياطين، ويبصرنا بذلك قوله تعالى جده: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: 30].

قانون [9] 9

قانون حرية الاختيار

فقد حقَّت الضلالة على الفريق الضال بسببين:

[1]

ولاية الشياطين دون الله عز وجل: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 30].

[2]

الشعور أنهم على حق فيما يفعلونه دون محاسبة أنفسهم: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: 30].

إذا كان النداء الأول قد ذكر ما يتعلق بإنزال الأدوات اللازمة لستر العورات الجسدية والقلبية، وذكر النداء الثاني ما يتعلق بطبيعة المعركة مع إبليس، وأساليبه في فتنة بني آدم، فما النداء الثالث؟

الجواب: هنا يأتي:

نداء [3]

التمتع المشروع بزينة الحياة الدنيا بالقسط، فهي مقدمة للتمتع الحقيقي المادي والمعنوي يوم القيامة (الأعراف:31-34)

فإن قلت: ما القوانين التي تضمنها هذا النداء الإلهي الثالث؟

الجواب: تضمَّن تسعة قوانين:

قانون [1] قانون مشروعية أخذ الزينة

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: 31]: **فلا يكتفون بستر العورة بل يأخذون الزينة، فإذا أمر جل شأنه بأخذ الزينة عند عبادته مع أنه لا تخفى عليه خافية، فإن ذلك يدل على أخذ الزينة في الأحوال الأخرى، كما يدل على وجوب أن تتعلم البشرية تصنيع ما يزينها.**

قانون [2] قانون التغذية والغذاء

﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ [الأعراف:31]، **فينبغي الحرص على متطلبات الجسد الدنيوية من الأكل والشرب بالقسط.**

قانون [3] قانون حرمة الإسراف

في أخذ الزينة والمطعم والمشرب وفي أمور الحياة ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31].

قانون [4] قانون الزينة والطيبات

﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف: 32]، **فأُصُولِ المباحات الدنيوية تشمل: كل زينة الحياة الدنيا، والطيبات من الرزق، فردَّ بذلك على 4 فئات:**



5 **قانون [5]** حقُّ التشريع العام إنما يكون لله عز وجل، ولرسوله ﷺ

وتبصرنا بذلك كلمة ﴿قل﴾ التي تكرَّرت مرتين هنا: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأعراف 32].

6 **قانون [6]** شَرَعَ اللهُ عز وجل التمتعَ بزينة الملبس والمنظر والطيبات من الرزق لجميع البشرية

مؤمنهم وكافرهم، ويبصرنا بذلك قوله تعالى شأنه: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف 32]، يعني: يتمتع بها المؤمنون في الحياة الدنيا قبل الآخرة، ويشترك غيرهم في التمتع، وسيكون التمتع بها خالصًا للمؤمنين يوم القيامة دون غيرهم من الناس.

7 **قانون [7]** أصول المحرَّمات المدمِّرة في الحياة الدنيا خمسة:

1 ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الأعراف 33]

جمع الفاحشة، وهي الأمر الشنيع الذي فَظُع فعلُه، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [الأعراف 33] مثل: زنا المسافحين العلني الفردي والجماعي، والربا، والقتل العلني، والإجهاض، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ مثل الجرائم الخفية كزنا المخادنة "الأصدقاء"، والحسد، والشحِّ، وفي ذلك قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)) "البخاري (4637)".

2 ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ [الأعراف: 33]

هو: كل عملٍ يسبب تثاقلًا عن الثواب، وينتج تأخُّرًا عن الصلاح، وبعدًا عن درجات الفلاح كالخمر.

3 ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 33]

والبغي هو: الطلب المتجاوز للمطلوب، كأنْ يتجاوز الإنسان الحد الذي ينبغي أن يقف عنده، وقوله: ﴿بغير الحق﴾ صفة تقييدية لأن بعض البغي يكون بحقٍّ مثل: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: 28] فكلمة ابتغاء مأخوذة من نفس الجذر (بغى).

4 ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف: 33]

والسلطان هنا الحجة التي تتسلط على العقل فتقنعه، وقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾: صفة كاشفة تبين الطبيعة الرذيلة للشرك، حيث لا سلطان نزل به من الله، فوجود الشرك يقتضي نفي وجود الكون كله، لأن الشريكين لا بد أن يتنازعا، أو يكون أحدهما أعلى من الآخر، فكيف يعبدان معًا؟

5 ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33]

فهذا أساس الْمُحَرَّمَات السابقة كلها، فبعض الذين يفعلون الفاحشة، والإثم، والبغي والشرك يقولون: الله أمرنا بهذا.

8

قانون [8] قانون الزمن والعمل

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: 34]: يعمل بنو آدم بالوصايا، وقد حدد الله عز وجل أجل كل واحد منهم، وكل عمل من الأعمال، وأجل انتهاء معركتهم مع إبليس وقبيله، وتحديد الأجل يجعلهم يقلبون الهزيمة والاندحار والانكسار إلى انتصار

9

قانون [9] قانون انتهاء الفرص

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، فعندما ينتهي الأجل المحدد لكل قضية، ولكل فرد، ولكل دولة، ولكل عمل تنتهي الفرص، فلا يتأخر الأجل لحظة ولا يتقدم

إذا كان النداء الثالث قد ذكر مشروعية التمتع بزينة الحياة الدنيا بالقسط، فما النداء الرابع؟ وماذا تضمَّن؟

الجواب: هنا يأتي:

نداء [4]

منهج الحياة في العيش على الأرض يجب أن يكون مصدره الله عز وجل (الأعراف: 35-36)

ستقول: ما القوانين الدستورية التي تضمَّنها هذا النداء الإلهي؟

الجواب: تضمَّن ثلاثة قوانين:

1

قانون [1] يرسل الله عز وجل رسلًا من الذرية الآدمية تبلِّغ العالَم كلام الله

فلن تأتي رسل من الملائكة أو من الجن حتى لا يلتبس الأمر: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأعراف: 35].

2

قانون [2] **قانون الآيات:**

مهمة الرسل أن يقصُّوا آياته، فيبينوها كأنهم يتتبعون أثرها لينقذوا العالم من الشقاء الذي تدفعهم إليه اختياراتهم ورغباتهم، ويدفعهم إليه إبليس وقبيله: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ [الأعراف:35]، **والآيات ثلاثة أنواع:**

❷
- ❶ المعجزات المادية الخارقة للعادة
- ❷ ومكونات الكون التي تمثل علامات واضحة على مكونها وهو الله
- ❸ وكلمات الله التي هي آيات القرآن المجيد، والوحي

3

قانون [3] **ينقسم الناس أمام الرسل والآيات إلى صنفين:**

❶ **المتبع للرسل**

فيجمع بين تقوى الله، وإصلاح الحياة

﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ [الأعراف: 35]، **فيتحقق له المصير المستقبلي المشرق:** ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: 35].

❷ **المكذِّب المستكبر**

فينتظره المستقبل المظلم

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: 36].

إذا كانت المرحلة الثالثة في التاريخ الإنساني قد تحدثت عن هبوط الإنسان إلى الأرض، وذكرت أهمَّ النداءات الإلهية للذرية الآدمية، فما المرحلة الزمنية الرابعة؟ وأين ستكون؟

الجواب: هنا تأتي:

مرحلة زمنية 4

تفصيل النداء الرابع، وتصوير مشاهد العودة الحتمية في المستقبل الأخروي القادم، حيث تعاين الذرية الآدمية نتائج أعمالها في الحياة الدنيا: (الأعراف: 37-43).

فريق [1]

المكذِّبون المستكبرون

(الأعراف: 37-41)

فريق [2]

المؤمنون العاملون

وهم الصنف المقابل للمكذبين المستكبرين (الأعراف: 42-43)

فريق [1]

المكذِّبون المستكبرون

وقد تسأل: ما المشاهد المدهشة التي ذكرتها الآيات القرآنية والتي تحدثت عن هؤلاء المستكبرين؟

الجواب: أظهرت لهم الآيات تسعة مشاهد:

مشهد [1]

مشهدهم وهم يتسلمون شهادة: "أسوأ الظالمين ظلمًا"

وبيَّن الله عزوجل أنهم صنفان:

صنف 1 — المفترون على الله كذبًا

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأعراف: 37]، فيدَّعي أن الله عز وجل يأمر بالفحشاء

صنف 2 — المكذبون

﴿كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ [الأعراف: 37]، فتأتيه الآيات لتهديه لكنه يكذِّب بها.

مشهد [2] مشهد نصيب القدر المكتوب

فيتمتع المفترون والمكذبون في دنياهم حتى ينتهي أجلهم، وتضيع فرصهم في العودة إلى الله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأعراف: 37] أي: ينال هؤلاء الظالمين حظُّهم من الأرزاق والأعمال، فلا يعذَّبون حتى يكتمل لهم الأجل.

مشهد [3] اللحظة الأخيرة في الدنيا

تأتي رسل الله عز وجل من الملائكة لقبض أرواح هؤلاء الظالمين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي: يطلبون وفاتهم بعد أن أكملوا أعمارهم، فيسألهم الملائكة: ﴿قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأولياء الذين جعلتموهم معبوداتٍ لكم، أو حلفاء تقدِّمون أهواءهم على ما أنزل الله عز وجل، فيجيب الظالمون معترفين: ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: تاهوا وهلكوا، وذهبوا بعيدًا عنا، فلا نجد أحدًا من الذين كنا ندعوهم أولياء لنا: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 37].

مشهد [4] مشهد صدور الحكم الفصل في الظالمين من الثقلين، وكيفية دخول النار

﴿قَالَ﴾ أي الله عز وجل يصدر الحكم العادل عليهم، فيقول لهم: ﴿ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 38].

مشهد [5] مشهد تلاعن حلفاء الإجرام، وأصدقاء الأمس

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: 38]، حيث يحدث التلاعن الرهيب بين الأحزاب والجماعات الظالمة عند التقائهم ببعضهم في نار الجحيم، لأنهم كوَّنوا منظماتٍ وأنظمةً متعاونةً على نشر الفحشاء في الدنيا، يصدون بها عن سبيل الله، ثم اكتشفوا أن الآخرة حقٌّ، فيلعن بعضهم بعضًا.

مشهد [6]

تخاصم أهل النار

فيحاول كل فريق من أهل النار الاعتذار للرحيم الغفار بإسناد جرائمهم إلى الآخرين، والتخلي عن المسؤولية الفردية، بصرنا به قول الله تعالى مجده: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 38].

مشهد [7]

مشهد الرد الحاسم والحكم العدل من الله الملك الحق المبين

﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 38]، فلولا الأتباع لما وجد الرؤساء، ولولا الرؤساء المتقدمون لما اجتمع الأتباع، فلكل ضعف، فكل واحدٍ جنى على الآخر.

مشهد [8]

اعتراف بأن الأعمال الاختيارية أساس تحديد المصير

حيث ترد الأمم النارية القيادية والسابقة على الأمم التابعة والمتأخرة، فيقول الله عز وجل عنها: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 39]:

وربما تسأل: مَنِ الأولى ومن الأخرى في قوله جل ذكره: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾؟ وإلى ماذا يشيران؟

الجواب:

كلمة	وكلمة
﴿أُولَى﴾	﴿أخرى﴾
تشير إلى الأولية الزمانية أو القيادية	تشيرإلى التأخُّر في الزمان أو المنزلة

أي قالت الأولى إمارة أو زمنًا للأخرى منزلة أو زمنًا: أنتم مثلنا، ما كان لكم علينا من فضل ليخفِّف عنكم العذاب، بل تستحقون النار بسبب اختياركم للأعمال السيئة.

مشهد [9]

9 الحكم الفاصل النهائي في حال من كذَّب بآيات الله واستكبر عنها (الأعراف: 40-41)

وفي هذا الحكم خمس فقرات:

① فقرة [1]

حدَّد الله عز وجل المحكوم عليهم بدقة، فقال عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ [الأعراف: 40].

② فقرة [2]

أصدر الحكم عليهم، والحكم تكون من مادتين:

مادة [1] ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: 40] — وتعني ثلاثة أمور

1. لا يصعد لهم في حياتهم إلى الله عمل صالح
2. ولا تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْبَرَكَةُ والخَيْرُ
3. ولا تفتح لأرواحهم السماء بعد الموت

مادة [2] ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ — دخولهم الجنة مستحيل كاستحالة دخول الجمل الذي هو أكبر الحيوانات في ثقب الإبرة

③ فقرة [3]

الحكم سينفذ على كل من يفعل ذلك:

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: 40].

④ فقرة [4]

ليسمع العالم لمحة خطيرة من واقعهم في النار: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ﴾ [الأعراف: 41]، والمهاد هو الفراش الذي يمهده الإنسان ليجلس عليه: ﴿وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ [الأعراف: 41] جمع "غاشية"، وهي التي تغشاهم فتغطيهم من فوقهم، فجهنم محيطة بهم.

⑤ فقرة [5]

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 41]: ختام يبيِّن الله عز وجل فيه سبب هذا التعذيب الرهيب، وهي عدالة الله المطلقة، فرحمته انصرفت عن هؤلاء الذين جمعوا بين الإجرام والظلم.

فريق [2]

المؤمنون العاملون

وهم الصنف المقابل للمكذبين المستكبرين (الأعراف: 42-43)

ما المشاهد المثيرة التي تحدث للمؤمنين الصادقين، والتي تصوِّرها ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾ (الأعراف: 42)؟

الجواب: أظهرت الآيات لهم ثلاثة مشاهد:

مشهد [1]

أساس صفات هذا الفريق

الإيمان والعمل الصالح:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الأعراف: 42]

لماذا وصف الله هذا الفريق بهاتين الصفتين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؟

الجواب:

لأن الجمع بينهما يعني الجمع بين الفكر والحياة، فالإيمان القلبي لا ينفصل عن العمل في الواقع.

لماذا جاءت الكلمة بصيغة الماضي؟

الجواب:

لأن الفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ بصيغة الماضي يصوِّر لنا تصويرًا دقيقًا أنهم آمنوا في الماضي أي في الزمن الذي ينفعهم فيه الإيمان.

مشهد [2]

يتصفون بالاجتهاد في الإيمان والعمل الصالح في الدنيا على قدر الاستطاعة البشرية

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ [الأعراف: 42]، **فتضمَّنت هذه الجملة التكليف والتخفيف معًا.**

مشهد [3]

ذكر الله لهم ستة أنواع كبرى من النعيم القادم

نوع [1] تَمَلُّك الجنة الكبرى

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾، **والمصاحبة تطلق على التملك والملازمة.**

نوع [2] ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دون أن يتغيَّر عليهم الحال

فلا انقطاع لحياتهم فيها، والخلود في النعيم يعني استحالة الملل، وإلا لم يكن نعيمًا.

نوع [3] مشهد النقاء الداخلي

حيث يشعر الإنسان بالصفاء والنقاء والنعيم، فيُبعد عنه الغِل: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43].

فإن قلت: ما المراد بالغِلِّ الذي امتَّن الله عليهم بنزعه من صدورهم؟

الجواب:

هو القيد النفسي الذي يتغلغل في قلب الإنسان مثل "غُل" وهو القيد الحسي الذي يُقَيَّدُ به الإنسان من يديه إلى عنقه، وفي مقابل هذا النعيم يلجأ أصحاب النعيم المادي الذين لم يتنعموا بالنعيم النفسي إلى المخدِّرات، والانتحار

قد تسأل: وكيف ينزع الله عز وجل الغِلَّ من صدور المؤمنين؟

الجواب:

الجواب: يصوِّر رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كيف يُنْزَع منهم الغِل، فيقول:

«إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ
-أي نَالوا الأمان من النار- حُبسوا عَلَى
قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ -أي قبل أن يَدخلوا الجنة
يحبسون في جسر عظيم بين الدارين- فَاقْتُصَّ لَهُمْ مَظَالِمُ
كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا- أي لا يعذبون بما كان بينهم في الدنيا
من عداوات خفية بل يُقتص لهذا من هذا، وهنا تشعر بخطر الغل؛
لأنه سيؤدي إلى أن يأخذ المظلوم فيه حقه من الظالم درجة عالية في
الجنة- حَتَّى إِذَا هُذِّبوا وَنُقُّوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي
بِيَدِهِ، إِنَّ أَحَدَهُمْ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ مِنْهُ بِمَسْكَنِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا." البخاري
(2440)"، وقال: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ
لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ. آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ.
أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ، (أَي: بخُورهم
العُود) وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مُخُّ
سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ. لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ،
وَلَا تَبَاغُضَ. قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ. يُسَبِّحُونَ اللَّهَ
بُكْرَةً وَعَشِيًّا» "البخاري (3245)"

نوع [4] الجمال الخارجي ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [الأعراف: 43]

فبعد الاطمئنان إلى حسن الجوار يأتي الاطمئنان إلى طيب القرار، حيث يعيشون في جنات تجري من تحتها الأنهار

نوع [5] مشهدهم وقد استراحوا

وقاموا يناجون ربهم متذوقين جمال الحق الذي صبروا في سبيله في الدنيا، فذكر الله عز وجل من مناجاتهم ثلاثًا:

1. ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: 43]

إثبات فضل الله في الهداية: الحمد لله الذي هدانا هداية الإبانة، وهداية التوفيق والتسديد والإعانة

2. ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾[الأعراف: 43]

نفي الفضل عمن سواه سبحانه

3. ﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 43]

أثنوا على رسل الله ﷺ، فجمعوا بذلك بين معنى الشهادتين

كتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن من قِبَلنا من أهل البصرة قد أصابهم من الخير خير حتى خِفْتُ عليهم.

فكتب إليه عمر رحمه الله: قد فهمت كتابك، وأن الله عز وجل لما أدخل أهل الجنة رضي منهم بأن قالوا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾، فَمُرْ من قِبَلك أن يحمدوا الله عز وجل. "الدر المنثور (458/3)"

نوع [6] النداء الاحتفالي بهم

حيث يناديهم الله عز وجل وملائكته بالثناء على جهودهم وأعمالهم العظيمة في الدنيا: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43].

هنا ستسأل: كلمة ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ عجيبة، فما الذي تصوره؟ وماذا يعني التعبير بالإرث، فلم يقل: تلك الجنة فزتم بها أو حصلتموها؟

الجواب:

هذا النداء تذكيرٌ بحرية الاختيار، والقيام بالأسباب الظاهرية، ويصوِّر لك التوازن بين هداية الله، وعمل الإنسان

فكلمة:

﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾

تبصرنا أن الإرث وصول الموروث دون تعب يكافئ قيمته، وتملك الوارث له دون منازعة حقيقية، أي وصلت لكم بفضل الله ورحمته دون أن تتعبوا تعبًا يكافئ القيمة العظيمة التي للجنة

كيف وازنت ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بين دخول الجنة برحمة الله، ودخولها بعمل الإنسان؟

الجواب:

الباء في ﴿بِمَا﴾ باءُ السبب؛ أي: بسبب الذي ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأنتم اتخذتم أهمَّ قرار في الدنيا، وهو أن تعملوا الصالحات أقوالًا، وأفعالًا، وهذه الأعمال كانت سببًا لأن تستحقوا رحمة الله عز وجل، وفضله.

- هذا النداء يقابل نداء أهل النار ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 39]، فمصيرهم البائس كان نتيجة لأعمالهم كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» "مسلم (2577)"

إذا كانت المرحلة الزمنية الرابعة تتحدث عن تفصيل النداء الرابع، وتصوِّر مشاهد العودة الحتمية في المستقبل الأخروي، فماذا بعد ذلك؟

الجواب: هنا تأتي:

مرحلة زمنية 5

مرحلة ما بعد الاستقرار في الجنة والنار، و"حوارات التلذذ والشقاء" (الأعراف: 44-51)

وهنا ستقول: فما المشاهد الأُوَل التي تحدث في مرحلة ما بعد الاستقرار لأهل الجنة وأهل النار؟

الجواب: في هذه المرحلة خمسة مشاهد:

1. مشهد [1]: نداء انتصار أهل الجنة

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾

2. مشهد [2]: جواب الاندحار والانكسار

﴿قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾

3. مشهد [3]: يوم الأذان الأكبر

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 44]

4. مشهد [4]: ظهور فئة ثالثة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار هم أهل الأعراف (الأعراف: 46-49)

5. مشهد [5]: مشهد نداء الانكسار المثير أمام الانتصار الكبير، حيث ترى أصحاب النار يطلبون غوث أصحاب الجنة

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: 50]

وإليك تفصيل المشاهد الخمسة:

مشهد [1]

نداء انتصار أهل الجنة

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾، **فيتلذذ أهل الجنة بالإعلان عن انتصارهم الكامل بمناداة أهل النار بعد استقرار كل من الفريقين في مثواه الأخير**

مشهد [2]

جواب الاندحار والانكسار

﴿قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾، **فيجيبهم أهل النار بما يجعل الحسرة تملأ نفوسهم، والندم يأكل قلوبهم، وأنياب الخزي تنهش أجسادهم مذعنين خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴿نعم﴾**

يسرع رسولُ اللَّه ﷺ في تطبيق الآية بمجرد انتقال الكفار إلى الحياة الآخرة، فها هو يخاطب قَتْلَى الْقَلِيبِ يَوْمَ بَدْرٍ، فناداهم:

"يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَيَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَيَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ -وَسَمَّى رُءُوسَهُمْ-: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا". فقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُخَاطِبُ قَوْمًا قَدْ جَيَّفُوا (أي: أنتنوا) فَقَالَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا"

"مسلم (2874)"

فقول الله عز وجل:

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: 22]

يُقصد به: ما أنت بمسمعهم سماعًا يقدرون معه على الإجابة.

مشهد [3] 3

يوم الأذان الأكبر

هو الساعة التي يحدث فيها إعلان كبير تتردد أصداؤه في مسامع أصحاب الجنة والنار، فيتجلجل في النواحي العظيمة، ويتضمن نداء اللعنة للظالمين: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 44]

و﴿أَذَّنَ﴾

مشتقة من أَذِن التي تجمع الإعلام وتحديد الموقف بالموافقة أو الرفض.
فالأذان يعبر عن صوت إعلاني إعلامي لأهل الدار الآخرة بين أهل الجنة وأهل النار.
والمؤذن مَلَكٌ أو مخلوقٌ يأمره الله.

هذا سُلَيْمَان بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ رحمه الله -الذي مَلَكَ الدنيا كلَّها من حدود الصين إلى حدود فرنسا- كان جالسًا عَلَى الْمِنْبَرِ أمام رعيته بقوته وحراسته وشبابه وأبهته، فإذا برجل يقول له: يَا سُلَيْمَانُ اتَّقِ اللَّهَ، وَاذْكُرْ يَوْمَ الْأَذَانِ، قَالَ: فَنَزَلَ عَنِ الْمِنْبَرِ مُغْضَبًا، وَدَعَا بِالرَّجُلِ، فَقَالَ: أَنَا سُلَيْمَانُ فَمَا يَوْمُ الْأَذَانِ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 44]، فوقف هذا الملك الشاب سليمان عند الآية قلقًا متفكِّرًا، وخاف أن يدخل في الظالمين، ولم يقل هذه الآية نازلة في الكفار، بل قال: وَمَا مَظْلِمَتُكَ؟ قَالَ: وَكِيلُكَ قَدْ غَلَبَنِي عَلَى أَرْضِي، قَالَ: فَأَمَرَ بِالْكِتَابِ إِلَى وَكِيلِهِ أَنْ أَعْطِهِ أَرْضَهُ وَأَرْضِي مَعَ أَرْضِهِ» "الزهد لأحمد بن حنبل (2147)".

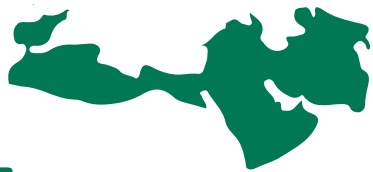

إعلان المؤذن صفات أهل النار التي اختاروها بأنفسهم لتكون نتيجتهم البائسة من صنع أيديهم:

صفة [1]

الظلم ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 44]

والظلم وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِه المُخْتَصِّ بِهِ إمَّا بزِيادةٍ أَو بِنُقْصَانٍ، وَإِمَّا بعُدُولٍ عَن وَقْتِه ومَكَانِه، وهو ثَلاثَة أنواع:

1. **ظلم الإنسان نفسه بشركه بالله عز وجل**
   ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13].
2. **ظُلْم الإنسان لنفسه بمعصيته ربه عز وجل**
   ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: 135].
3. **ظُلْم الإنسان للعالم حوله**
   ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [الشورى: 42].

صفة [2]

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 45]

أي يصرفون أنفسهم وغيرهم عن الطريق الواضح الذي يتضمن النظام الذي أنزله الله بوضع حواجز مادية ومعنوية، فالمادية مثل الإغراءات المالية، والإشغالات والملاهي الدنيوية، والمعنوية مثل الشبهات والترهيب منها، وتشويه حقائقها، وشيطنة أصحابها.

صفة [3]

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: 45]

﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي يطلبون أن يظهروا سبيل الله ذات عوج طلبًا شديدًا مجتهدًا نشطًا خارجًا عن نطاق العادة حتى لا يتبعها الناس بأن يغيروها أو يشوهوها.

صفة [4]

﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: 45]

أي: مغطون ساترون لحقيقة الآخرة عن أنفسهم وعن الناس، وهذه الصفة أساس صفاتهم الرديئة، ووصفهم هنا بالجملة الاسمية لأن كفرهم ثابت، أما صدهم عن سبيل الله وبغيهم إياها عوجًا فمتجدد، ودائمًا يخترعون شيئًا جديدًا..

هنا ربما تساءل متسائل: هل هناك فئة لا تنتمي للفريقين؟ لا لأهل الجنة ولا لأهل النار؟

يتجلى الجواب في المشهد الرابع:

مشهد [4] ظهور فئة ثالثة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار هم أهل الأعراف (الأعراف: 46-49)

قد تسأل: ما أهم المزايا التي تميز أهل الأعراف عن غيرهم؟

الجواب: أظهر لنا هذا المشهد تسع مزايا لأهل الأعراف، وهي:

مزية [1] أنهم في منطقة متوسطة

تحجز نعيم الجنة من أن يصل إلى أصحاب النار، وتحجز جحيم النار من أن يصل إلى أصحاب الجنة ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾

عَنْ مُقَاتِلٍ رحمه الله فِي قَوْلِهِ:

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾ [الحديد: 13].

قَالَ: "يَعْنِي بِالسُّورِ حَائِطًا بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، لَهُ بَابٌ ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ يَعْنِي بَاطِنَ السور ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ مِمَّا يَلِي الْجَنَّةَ، ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يَعْنِي جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْحِجَابُ الَّذِي ضُرِبَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ"

" الأسماء والصفات للبيهقي (1017)، قال المحقق (عبد الله الحاشدي): " إسناده ضعيف".

مزية [2] يتبوأ أهل الأعراف منطقة علوية خاصة في الحجاب اسمها الأعراف ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: 46]

والأعراف هي المنطقة العليا المرتفعة في الحجاب الحاجز بين الجنة والنار، تشرف على ما أمامها وما خلفها، كما يقرر ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير رحمه الله.

مزية [3]

أهل الأعراف رجال يتفاوتون في رتبتهم على فئتين:

فئة [1]

الفئة المكرمة المنعمة

الشاهدة على فريقي الجنة والنار، وهم الأنبياء وأكابر الصالحين، ومال إلى هذا الرأي مجاهد، والرازي رحمهما الله.

فئة [2]

قومٌ استوت حسناتهم وسيئاتهم

كقوم جاهدوا في سبيل الله عاصين لآبائهم، وأمثال ذلك، وهذا رأي حذيفة رضي الله عنه

وقال ابن مسعود رضي الله عنه:

فمن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف... على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة. ثم يقول: هلك من غلب وُحْدَانُه أعشارَه" "

الطبري (5/ 354، 355)، قال المحقق (إسلام منصور): ضعيف".

مزية [4]

أنهم يعرفون كلًا من فريقي الجنة والنار بسيماهم

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: 46] و"السيما"، العلامة الدالة على الشيء، في كلام العرب، وأصله من"السِّمَة"، وينبغي للمسلم أن يحرص على سيما الإيمان في نفسه.

يذكرنا هذا بقول ابن الجوزي رحمه الله:

"يَا مَنْ إِذَا صَلَّى خَفَّفَ، وَإِذَا كَالَ طَفَّفَ، وَإِذَا دُعِيَ تَخَلَّفَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ تُبْ سَوَّفَ، مَا يُؤَثِّرُ عِنْدَهُ قَوْلُ مَنْ حَذَّرَ وَخَوَّفَ، جَدَّ الصالحون وَأَنْتَ قَاعِدٌ، وَقَرَّبُوا وَأَنْتَ مُتَبَاعِدٌ"«التبصرة لابن الجوزي (2/ 51)».

مزية [5]

يسلِّم أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة

﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: 46]

مزية [6]

يتأخر دخول أهل الأعراف الجنة

﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 46] **ولها ثلاثة معانٍ:**

1. مدح أصحاب الأعراف أصحاب الجنة بمرتبة الرجاء فقالوا: لم يدخل أهل الجنة الجنة، ولكنهم كانوا يطمعون في دخولها طمعًا في رحمة الله كما قال الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 218].
2. لم يدخل أهل الجنة الجنةَ وهم يطمعون في دخولها عندما كانوا في الدنيا، بل كانوا قلقين من ألا يدخلوها عندما كانوا في الدنيا كما قال الله عز وجل عنهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: 26]، فهم يجمعون بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ
3. أهل الأعراف لم يدخلوا الجنة، وهم يطمعون أن يدخلوها، لأنهم استوت حسناتهم وسيئاتهم.

كما روى أَبُو نُعَيْمٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ:

"لَوْ نَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ دَاخِلُونَ الْجَنَّةَ كُلُّكُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا، لَخِفْتُ أَنْ أَكُونَ هُوَ، وَلَوْ نَادَى مُنَادٍ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ دَاخِلُونَ النَّارَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا، لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ هُوَ". أي ينبغي أن يجمع الموفق بين الخوف والرجاء.

مزية [7]

يشهد أهل الأعراف على الظلم الذي استحق أصحابُ النارِ النارَ بسببه

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 47] **فهذا دعاء يتضمن الشهادة**

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

إذا نظروا إلى أهل النار عرفوهم بسواد الوجوه، فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 47]، **وإذا نظروا إلى أهل الجنة عرفوهم ببياض الوجوه، فذلك قوله:** ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 46]، **أي: حلَّت عليهم أَمَنة الله عز وجل من عقابه وأليم عذابه.**

مزية [8]

توليهم مسؤولية نداء الحقائق حيث ينادي أصحاب الأعراف نداء يتضمن ثلاثة إعلانات

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ [الأعراف: 48]

إعلان [1]

القوة الدنيوية المؤقتة غرور مدمر لا تغني أمام قوة الحق

﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأعراف: 48] **فالجمع الدنيوي بكل أشكاله، والاستكبار بكل مظاهره لا يغنيان شيئًا أمام عدالة الله عز وجل يوم القيامة، وهم يذكرون بأن سبب غرور المجرمين:**

1. جمع الثروات
2. الأتبـــاع والأحلاف والأصدقاء
3. الاستكبار عن اتبـاع الحـــق.

إعلان [2]

الاستضعاف للآخرين لا يعني حرمانَهم من رحمة رب العالمين

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۖ﴾ [الأعراف: 49] **أي: أهؤلاء المستضعفون هم الذين أقسمتم في الدنيا أن الله تعالى لا يعطيهم رحمته عطاء يناولهم إيَّاه لدرجة كأنهم يتحكَّمون بها بأيديهم؟ ها هو قد ناولهم إيَّاها.**

إعلان [3]

النهاية المشرقة تنسي كلَّ لحظة محرقة

حيث يقول أصحاب الأعراف لأصحاب الجنة ما يقوله الله عز وجل وملائكته لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: 49]

مزية [9]

الانتقال إلى مقر الأشواق الدائم

حيث ينقل الله عز وجل أهل الأعراف إلى مقرهم الدائم في الجنة، ويقول لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: 49] فرجَّح محمد رشيد رضا -رحمه الله- أن تكون هذه الكلمات من كلام الله عز وجل لأهل الأعراف، فبعد أن شهدوا على الفريقين يخاطبهم الله عز وجل بهذا.

مشهد [5] 5

مشهد نداء الانكسار المثير أمام الانتصار الكبير

حيث ترى أصحاب النار يطلبون غوث أصحاب الجنة: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: 50]

يبحث أصحاب النار عن الماء، ويستغيثون صارخين، ولكن ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ﴾ ولكن بماذا؟ ﴿بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾ [الكهف: 29] عندها يلجؤون إلى الاستغاثة بأصحاب الجنة يطلبون شيئًا من الماء أو من أي رزق آخر

وعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ﷺ لما شرب مَاءً بَارِدًا بَكَى، فَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُ، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ:

ذَكَرْتُ آيَةً فِي كِتَابِ اللَّهِ عز وجل:﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: 54]، قَالَ: فَعَرَفْتُ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ لَا يَشْتَهُونَ شَيْئًا إِلَّا الْمَاءَ الْبَارِدَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عز وجل: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾[الأعراف: 50]» "الزهد لأحمد بن حنبل» (1055)"

فيجيبهم أصحاب الجنة: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 50].

تأمل في الرد الحازم لأصحاب الجنة على أصحاب النار حيث: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف 50]، فما وجه قوة هذه الكلمة ﴿حَرَّمَهُمَا﴾ ؟

الجواب:

كلمة ﴿حَرَّمَهُمَا﴾ تصوِّر لنا المَنْع وَالتَّشْدِيدَ في هذا المنع، حيث توجد الاحتياطات الخاصة بمنع الاقتراب من الشيء المحرم

ويصوِّر ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألم هذا الجواب، فيقول:

" يُنَادِي الرَّجُلُ أَخَاهُ يَقُولُ: إِنِّي قَدِ احْتَرَقْتُ فَأَفِضْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ، فَيُقَالُ: أَجِبْهُ، فَيَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 50]» «الزهد لهناد بن السري (288)»

ستقول: أخبرنا الله عز وجل بصفات الكافرين الذين حرم عليهم الماء والرزق في الآخرة، فما هي؟

الجواب:

ذكر الله عز وجل أربع صفات للذين سيحرمون أقل قَطْر من الماء يوم العذاب الكبير:

صفة [1] ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ [الأعراف:51]

ولعلك تسأل: لماذا قال الله عز وجل: ﴿اتخذوا﴾ ولم يقل جعلوا ؟

الجواب:

كلمة: ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ تصوِّرهم وقد جعلوا الدين شيئًا يتخذه المرء كما يقتني الملابس، والأثاث، فالدين مظهر وليس نظامًا يؤمنون أنهم سيجازون وَفْقَه، واللهو: هو الشيء الذي يشتغل به الإنسان عن الواجب أو الأوجب، واللعب: ضد الجِدّ، وهو العبث الذي لا يقصد به نفع ولا ضر، بل الارتياح والالتذاذ المؤقت.

اذكر بعض أبرز صور اتخاذ الدين لهوًا ولعبًا.

الجواب:

صورة [1]
أن يصبح اللهو واللعب هو الدين والنظام في الحياة، فينفقون له الأقوات والطاقات والثروات

صورة [2]
أن يتخذوا دينهم وهو الإسلام لهوًا ولعبًا، فيستهزؤون به، وبحملته.

صورة [3]
أن يكون الدين عندهم مجرد صورة، فلا يشعرون بروحه ونوره، فصلاتهم لا تنهاهم عن الفحشاء والمنكر...

صفة [2]

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف:51]

أي: خدعتهم الحياة الدنيا بما فيها من الأعْراضِ البرَّاقة الجذَّابة، وعَمُوا عن حقيقة نقصها وزوالها، وهذه الصفة أساس الصفة السابقة، وشعر ابن عبد ربه رحمه الله بخطر الغرور، فقال:

عَاينْ بِقَلْبكَ! إنَّ العيـــنَ غَافِلـــةٌ ○○○ عن الحقيقةِ واعـــلَمْ أنَّها سَقَـــرُ
سوداءُ تَزْفُرُ مِنْ غَيْـظٍ إذا سُعِـــرتْ ○○○ للظالميـــن فلا تُبْقِـــي ولا تَـــذَرُ

صفة [3]

نسيان لقاء الله:

﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: 51] أي: نتركهم في العذاب كما تركوا العمل لليوم الآخر متعمدين حتى صار في حيز الغياب

صفة [4]

﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [الأعراف:51]

أي: ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا، وكما كانوا بآياتنا يجحدون، والجحد لغة: الجفاف، ويكون بإثبات ما يجب نفيه من الشرك والفسق، ونفي ما يجب إثباته من الإيمان والخلق الحسن

قال سلمان الفارسي رضي الله عنه:

"أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث:

ضَحِكْتُ مِنْ مُؤَمِّلِ الدُّنْيَا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٍ لَا يُغْفَلُ عَنْهُ، وَضَاحِكٍ مِلْءَ فِيهِ لَا يَدْرِي أَمُسْخِطٌ رَبَّهُ أَمْ مُرْضِيهِ.

وأبكاني ثلاث: فراق الأحبة محمدٍ ﷺ وحزبه، وهول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي رب العالمين حين لا أدري إلى النار انصرافي أم إلى الجنة" (حلية الأولياء (1/ 207))

«فَرَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا اقْتَرَفَ فَاعْتَرَفَ، وَوَجِلَ فَعَمِلَ، وَحَاذَرَ فَبَادَرَ، وَعُمِّرَ فَاعْتَبَرَ، وَأَجَابَ فَأَنَابَ، وَرَاجَعَ فَتَابَ، وَتَزَوَّدَ لِرَحِيلِهِ، وَتَأَهَّبَ لِسَبِيلِهِ» "التبصرة لابن الجوزي (1/ 56)".

لعلك تسأل: ما المرحلة الزمنية التي تأتي بعد تفصيل مراحل الزمان في الدنيا والآخرة ابتداء مما قبل خلق الإنسان ووصولًا إلى استقرار أصحاب الجنة والنار؟ وما علاقتها بالمراحل السابقة؟

الجواب: هنا تأتي:

مرحلة زمنية 6

المهيمنة على المراحل السابقة: القرآن يؤسِّس الزمان: فبعد تفصيل مراحل الزمان في الدنيا والآخرة ابتداء مما قبل خلق الإنسان ووصولًا إلى استقرار أصحاب الجنة والنار يأتي تذكير العالم بالقيمة العظيمة لاتباع الكتاب (الأعراف 52-53)

ما المشاهد الحيوية التي بصرتنا به آيات هذه المرحلة؟

الجواب: هنا يبدأ القسم السادس والأخير من المحور الأول، وتكونت هذه المرحلة من أربعة مشاهد:

1 مشهد [1] القرآن كتاب الحجة على العالم

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 53]

2 مشهد [2] مشهد الانتظار الخادع

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: 53]

3 مشهد [3] صراخ الناسين اللاهين اللاعبين

﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: 53]

4 مشهد [4] قانون الخسارة والهلاك

﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: 53].

وإليك تفصيل المشاهد الأربعة:

مشهد [1] 1

القرآن كتاب الحجة على العالم

ويبصرنا بهذا القانون تكرار ذكر القرآن، والعطف على المراحل الزمنية السابقة في قول الله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 53]

وقد تتساءل: ما موقع الواو في قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾؟

الجواب:

الواو للعطف على المراحل السابقة، وللقَسَم، وكلاهما يبني القيمة الكبيرة للقرآن في حياة الإنسانية لحمايتها من المخاطر الواقعة والمتوقعة في الدنيا والآخرة، واللام لتأكيد القَسَم، ولفظ المجيء يصوِّر أن الكتاب جاء عن طريق الرسول ﷺ، وبعد أن بلَّغه ذهب، وبقي الكتاب، يجيئهم في كل مكان يذهبون إليه ليقيم الحجة عليهم، ووصفه الله عز وجل بست خواص تعطي لهذا الكتاب القيمة العالية العملية العليا، وهي تضاف للخواص التسع التي ذكرها في المقدمة:

خاصية [10]

أنه كتاب

لماذا وصف الله عز وجل القرآن بأنه كتاب مرة أخرى؟

الجواب:

1 للأهمية البالغة للكتابة، فهي وصف له بأنه رسالة مكتوبة تنشر الكتابة في العالم الأمي، ويرث أصحابها أهل الكتب السابقة في مسؤولية إعلام العالم بالإيمان، يأتون بكتاب محفوظ من التحريف.

2 ولأن القرآن يمثل دستورًا مكتوبًا، وليس توجيهات شفوية فقط.

ما الخاصية الحادية عشرة الواردة في قوله: ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾؟ وما أهم معالم التفصيل؟

الجواب:

خاصية [11]

التفصيل الشامل للحاجات وَفْقَ ما تحتاجه الإنسانية من التفصيل: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ [الأعراف: 52]

فالفَصْلُ: إبانة أحد الشّيئين من الآخر، حتى تستطيع التمييز بينهما

أي: بيَّناه ووضَّحنا فيه كلَّ شيء يحتاجونه، بحيث يتميز به النور عن الظلمات، ويُفصل به بين الحق والباطل في الأفكار والتصرفات، فليس كتابًا مُجْملًا، ولا مُخْتَصَرًا.

وأهم معالم التفصيل:

1. يعلِّم الجاهلين والمتعالمين واللاأدريين حقيقة الوجود، ولماذا خلق الخلق، وإلى أين المصير؛ لأن الله عالم الغيب والشهادة.
2. يبيِّن المعاني بصورة مميزة واضحة تامة لا تدع للبشرية حاجة إلا أوضحتها في جميع المجالات مثل المجال الفكري، والاجتماعي، والتربوي، والسياسي، والاقتصادي.
3. التفصيل بتقسيم الآيات إلى فَواصِلَ ليستوعبوا معالم الكتاب، وتفاصيل حقائقه بيسر.

خاصية [12]

العلمية: فالتفصيل يقوم على علم حقيقي كاملٍ شاملٍ لا يعتريه الضلال، ولا الانحلال، ولا التردد، ولا التزييف، ولا النقص﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: 52]، فليس التفصيل قائمًا على ظنون وأوهام واستنتاجات كما يفعل الفلاسفة وأصحاب الفرضيات العلمية.

خاصية [14-13]

أهم أهداف هذا الكتاب المبارك أن يكون ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾

فالخواص الثلاث الأُوَل تمثِّل أساليب القرآن، وهاتان الخاصيتان تمثلان أهم أهداف القرآن وغاياته، فهو هدى يهديهم إلى الحق والصواب، ويخلِّصهم من الخطأ والضلال وضنك الحياة وظلمات الأسباب، ورحمة بهم لا طلبًا لتعذيبهم وشقائهم.

خاصية [15]

لا يشعر بخصائص القرآن ولا يجد لذة تفصيله وغاياته إلا من آمن به ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾



فهذا الهدى وتلك الرحمة لا تتحققان إلا إذا سُمِح للقرآن أن يطبقه المؤمنون به، ليجدوا هداه ورحمته، وليتمكنوا من إمداد الآخرين بهما.

❀❀❀

وقد تتساءل: إذا كان المشهد الأول قد تحدَّث عن خصائص القرآن التي تدفع المعرضين عنه إلى اتباعه، فهل اتبعوه؟ وماذا ينتظرون؟

الجواب: هنا يأتي:

مشهد [2] 2

مشهد الانتظار الخادع

حيث يخدع الظالمون أنفسهم ويخادعون العالم، فيصرُّون على عدم اتباع الكتاب حتى يروا حقائقه النظرية المستقبلية الغيبية في الآخرة واقعًا مشاهدًا ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: 53]، فمن أهمِّ الأعذار التي يعتمدها الغافلون لترك اتباع القرآن: انتظار تحقُّق وعده ووعيده

ما موقع جملة ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ في أول الآية؟ وما معنى ﴿يَنظُرُونَ﴾، ﴿تَأْوِيلَهُۥ﴾؟

الجواب:

لما ذكر الله عز وجل تلك الخصائص للقرآن ثار سؤال: إذا كان الذي جاءهم من الله عز وجل يتمتع بهذه الخواص الستِّ، فمالهم لا يتبعونه؟

فجاء قَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: 53]

ليجيب جوابًا فيه تحدٍّ، فالسؤال إنكاريٌّ توبيخيٌّ تهديديٌّ، ويكون التقدير:

ما لهم لا يؤمنون بهذا الكتاب العظيم؟

وكلمة ﴿يَنظُرُونَ﴾

من الانْتِظارِ للنظر أي: هل ينتظرون تحقُّق حقائق الكتاب في الآخرة لينظروها بأعينهم، حينها سيعلمون أن أوان الإيمان قد فات

والتأويل:

مشتق من الأَوْل، وهو الرجوع إلى العاقبة والمصير والحقيقة

ويبيِّن الربيع بن أنس رحمه الله كيف ذلك، فيقول:

(فلا يزال يقع من تأويله أمرٌ بعد أمر، حتى يتم تأويله يوم القيامة)، ففي ذلك أنزل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ حيث أثابَ الله تبارك وتعالى أولياءَه وأعداءه ثواب أعمالهم، ويسمع المؤمن هذا التهديد، فيشفق من الوعيد، فيقول:



يا رَبِّ إن عَظُمَت ذُنوبي كَثرَةً ○○○ فَلَقَد عَلِمتُ بِأَنَّ عَفوَكَ أَعظَمُ
إن كانَ لا يَرجوكَ إلا مُحسِنٌ ○○○ فبمن يلوذُ ويَستجيـــرُ المجـــرمُ
أَدعوكَ رَبِّ كَما أَمَرتَ تَضَرُّعًا ○○○ فَإِذا رَدَدتَ يَدي فَمَن ذا يَرحَمُ
مَالِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلا الرَّجَا ○○○ وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنِّي مُسْلِمُ

مشهد [3] 3

صراخ الناسين اللاهين اللاعبين

﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾ [الأعراف: 53] **في يوم القيامة يتحقَّق وعد الله عز وجل ووعيده فيهتف عند ذلك الذين تركوا اتباع القرآن حتى نسوه نسيان إهمال وعدم مبالاة بثلاثة هتافات:**

هتاف [1]

يقولون: ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 53] ﴿قد﴾ تفيد قوة التأكيد، فآمنوا بالرسل، وبربوبية الله عز وجل، وبأن القرآن حقٌّ، يستجدون قطرةً من رحمة ربنا الرحمن الرحيم، ورتبوا على إيمانهم طلبًا هو:

هتاف [2]

﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾ [الأعراف: 53]

ويعكس هذا السؤال ثلاث مراحل مِنْ طَلَبهم للشفاعة:

مرحلة [1]

يبحثون عن الشفاعة عند معبوداتهم الباطلة، وأوليائهم الضالين

فكلمة ﴿هل﴾ للبحث والتنقيب، والفاء تفصح عن كلام محذوف، أي: تركنا الحقَّ الذي جاءوا به، وقد آمنا الآن، فهل من شفعاء فيشفعوا لنا ليقبل إيماننا وتوبتنا؟ لكنَّ منادي الحق يخبرهم الحقيقة المُرَّة، فلا يمكن للمعبودات الباطلة من البشر والحجر أن تشفع: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: 23]

مرحلة [2]

يبحثون عن الشفعاء الصالحين

ويصف النبي ﷺ محاولات الذين نسوا الكتاب لطلب الشفاعة من الأنبياء عليهم السلام، فيقول: «يَجْمَعُ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُبْصِرُهُمُ النَّاظِرُ وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ، إِلَى مَا بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتُونَهُ... «البخاري (3340)»، وهكذا يمضون من نبي إلى نبي، وكلهم يمتنع عن الشفاعة إلا النبي ﷺ، ولا يشفع للكفار إلا لفصل القضاء لا لدفع العذاب.

مرحلة [3]

بعد أن يئسوا يقولون: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾

ويكون المراد بسؤالهم هذه المرة إظهار التحسُّر والتندُّم والتوجُّع والتفجُّع والتألُّم، وعندها يعلنون تصريحًا إعلان الألم والندم، فيقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾ [الشعراء: 100-101].

فلماذا جمعوا كلمة ﴿شفعاء﴾؟

الجواب:

1. الجمع يبصِّرنا أن كلَّ واحدٍ منهم بحث عن شافعه الخاص لطلب الخلاص.
2. ويصوِّر أن كلًّا منهم يطلبون مجموعة من الشفعاء لتكون الشفاعة أقوى
3. ويصوِّر لنا أنهم يبحثون عن شافع يشفع عند شافع أقوى حيث كانوا يقترفون الجرائم في الدنيا من خلال شبكات علاقاتهم.

هتاف [3] يذكرون فيه خيارًا آخر يطلبونه بشدَّة، فيقولون: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾ [الأعراف: 53]

لما لم يجدوا شفيعًا ينبعث لهم بين المحبين والمبغضين اتجهوا إلى حلٍّ آخر، وهو أن يطالبوا بأن يُعطَوا فرصة جديدة في الدنيا ليعودوا لها، فيعملوا غير العمل الذي عملوه، وكلمة ﴿أو﴾ تصوِّر لنا أنهم جعلوا هذا الطلب خطة بديلة لعدم قبول الشفاعة

❀ ❀ ❀

4

مشهد [4] قانون الخسارة والهلاك

حيث يتردَّد في الآذان تعليق مؤلم يذكر أنه حلَّت بهم عقوبتان ضخمتان:

﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: 53].

عقوبة [1]

﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾

فتدل كلمة (خسر) على النقص والهلكة لدرجة الألم والندم، فخسروا كلَّ شيء حتى أجسادهم، فيصبح الجسد أداة ذوقه للألم.

عقوبة [2]

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾

فقوله: ﴿وضلَّ﴾ يجمع الضياع والهلاك والغياب والذهاب في غير الوجهة الصحيحة، و﴿يفترون﴾ أي يُقَطِّعون الكلام، ويعيدون بناءه بناءً محكمًا ليكون من أردأ أنواع الكذب، أي: ضاعت الأشياء التي كانوا يحبكونها في الدنيا

وجمع بين هاتين النتيجتين لأنهم رأوا أهوال يوم القيامة وعذابه، وحينها اكتشفوا أن أنفسهم قد خسروها، فنظروا فلعلهم يجدون من أقوالهم وأفكارهم ومعبوداتهم من ينصرهم ذلك اليوم، فضلَّ عنهم ما كانوا يفترون، فلا بأنفسهم ينتفعون، ولا بافتراءاتهم يظفرون.. فيا بؤس ما يردون.



تزلزل هذه الآية كلَّ ذرةٍ في بدن الإنسان، فيهتف مع شاعر البصائر سعيد بن دحباج -وفَّقه الله- يا رب:

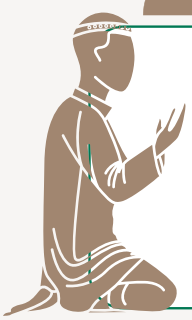

قَصَدْتُ بابَكَ يا ذا العزَّةِ الباري ○○○ ناديتُ باسمكَ في جهري وإسراري
ألوذُ بـــكَ من نفسي وشِقْوتِهـا ○○○ قـــد أَثْقَلَتنـــيَ يا ربَّـــاهُ أوزاري
وليسَ للذَّنـــبِ إلا أنـــتَ تغـــفرُهُ ○○○ أنا الجَهُـــولُ فَكُنْ لي خَيـــرَ غَفَّارِ
أنـا الظَّلُـــومُ وأنـــتَ اللهُ مُلْتَجَئِي ○○○ فامْنُنْ عليَّ بعفـــوٍ منـــكَ مِـــدرارِ



المحور الثاني



المعالم العامة التي تعرِّفُ باللّه عز وجل، وتقتضي ضرورة اتباع المُنْزَل من رب العالمين

[الأعراف: ٥٤-٥٨]

المحور الثاني

المعالم العامة التي تعرِّفُ باللّه عز وجل، وتقتضي ضرورة اتباع المُنْزَل من رب العالمين [الأعراف: ٥٤-٥٨]

المناسبة والاتصال:

مراحل الحياة الإنسانية التي ذُكرت في المحور الأول تجعل أهمَّ مهمات حياتهم أن يتعرفوا إلى الله تعالى مجده الذي خلق الخلق، ووضع خطته، وأنزل آياته التي تبين خطته ونظامه في الخلق، فذكر الله اثني عشر معلمًا تُعرِّف به في هذا المحور، وهي:

1 معْلَم تعريفي [1] الاسم المُعظَّم

فالرب الذي يجب أن تتخذوه ربًا هو الله ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 54] فـ"الله" اسم للرب الذي يجب أن يكون رب العالمين، فلا تختاروا من عندكم أشياء، فتجعلوها أربابًا لكم.

2 معْلَم تعريفي [2] خلق الكون "وهو المكان"

فتربية الله عز وجل بدأت بأن خلق السموات والأرض قبل أن يخلقنا: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فلما أخبرنا بأن الرب الحق هو الله لربما تساءل أحدهم: فما دليل أنه ربنا؟ فيأتي الجواب قاطعًا: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأعراف: 54].

3 معْلَم تعريفي [3] مدة خلق الكون

فخلقُ السموات والأرض حَدَثَ في ستة أيام بناء على قوانين وضعها ليكتمل الخلق وَفْقها، ولو شاء لخلقها في لمح البصر: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: 54].

4 معْلَم تعريفي [4] استواء الله عز وجل على العرش

استواء يليق بجلاله وكماله "فهو فوق المكان": ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54]

معْلَم تعريفي [5]

خلق الله عز وجل الزمان، وتحكم به

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:54] **كما خلق المكان ﴿السموات والأرض﴾، والليل والنهار مادتا الزمان**

معْلَم تعريفي [6]

خلق الله ما بين السماء والأرض

فذكر الله عز وجل لنا الأجسام الكبرى التي تحيط بالأرض وتتحرك في السماء، فيديرها بأمره:
﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: 54]

معْلَم تعريفي [7]

يتفرد الله عز وجل بخلق الكون وإدارته بتدبيره

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54] **دون أن ينازعه أحد**

معْلَم تعريفي [8]

ثبتت الخيرات التي تنبع من الله جل جلاله، ودامت، وتنوعت، وتكاثرت

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]، **فهو ليس ربًا لجهة أو طائفة بل هو رب العالمين**

معْلَم تعريفي [9]

دعاؤه عز وجل؛ فإن مَن له الخلق والأمر النافذ في الخلق قادرٌ على تغيير الواقع بما يفيد الداعي

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأَعْرَاف : 55]

معْلَم تعريفي [10]

إحياء البلد الميت بالماء

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [الأَعْرَاف : 57]

معْلَم تعريفي [11]

الله عز وجل هو الذي يحكم نتائج الإنبات بعد نزول الماء على الأرض:

حيث يختلف خروج النباتات مع وحدة الماء النازل عليها ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[الأعراف:58]

معْلَم تعريفي [12]

دليل العدل الإلهي

أنزل الله عز وجل الكتاب الذي فصَّله على علم، وجعله هدى ورحمة، فانتفع به الطيبون، وصُدَّ عنه الخبثاء الذين أغلقوا قلوبهم، فحالهم كحال البلد الطيب، والبلد الذي خبث في التعامل مع الماء النازل: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأَعْرَاف :58]

1 معْلَم تعريفي [1]

الاسم المُعظَّم

فالرب الذي يجب أن تتخذوه ربًا هو الله ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ فـ"الله" اسم للرب الذي يجب أن يكون رب العالمين، فلا تختاروا من عندكم أشياء، فتجعلونها أربابًا لكم.

نشعر بأنَّ في هَذِهِ الآيَةِ بِشارَةً عَظِيمَةً لِلْعُقَلاءِ؛ لِأنَّ الله عز وجل قالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾، ولَمْ يَقُلْ: أنْتُمْ عَبِيدُهُ، بَلْ قالَ: ﴿إن رَبَّكُمْ﴾، فلماذا؟ وما الفرق بين التعبيرين؟

الجواب:

الرب هو السيد المطاع الملك المالك المربي للشيء المصلح له حالًا فحالًا حتى يبلغ كماله، وهذا يستلزم أن يكون الله خالقًا، والخطاب ﴿رَبَّكم﴾ عالمي يشمل جميع السامعين، فهو مُوَجَّهٌ للمسلمين، وللكافرين والمشركين، فيتحبب الله عز وجل إلينا من خلال أفعاله لا من خلال واقعنا، وأفعالُه عِظامٌ تمتلئ بالجمال والرحمة والإكرام.

والمَعْنى:

إنَّ الَّذِي يُرَبِّيكم شيئًا فشيئًا فِي كل لحظة أبدًا.. إن الذي يصلح أحوالكم وشؤونكم، ويُوَصِّلُ إلَيْكُمُ النعم والمكرمات والخيْرات، ويَدْفَعُ عَنْكُمُ المصائب والمصاعب والمَكْرُوهات هو الله.

هنا ترى عبدًا مثل أحمد سحنون تمتلئ نفسه بمجد ربوبية الله، فيقول:

لك الحمد كم أوليتَ يا ربِّ من فضلِ ○○○ وآتيتَ من علم ووقَّيتَ من جهلِ
ووفَّقتَ مِنْ برٍّ وألهمتَ مِنْ تُقى ○○○ ومِنْ خُلق سَهلٍ ومن منطقٍ جَزْلِ
فإن كنتُ -يا ربِّ- عن الشُّكر عاجزًا ○○○ فما شكر هذا الفضلِ بالعملِ السَّهلِ

2 معلم تعريفي [2]

خلق الكون "وهو المكان"

فتربية الله بدأت بأن خلق السموات والأرض قبل أن يخلقنا ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فلما أخبرنا بأن الرب الحق هو الله لربما تساءل أحدهم: فما دليل أنه ربنا؟ فيأتي الجواب قاطعًا: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

﴿خلق﴾

تعني: أنشأ أو أوجد على تقدير سويٍّ مستقيم، فالله عز وجل هو الذي خلق الكون من ذراته إلى مجراته، فإذا قال قائل: لا، هناك خالقٌ آخر. نقول له: الله سبحانه وتعالى أخبر عن نفسه أنه خلق السموات والأرض وأنت بيِّنْ لنا مَنْ هذا الذي يزعم أنه خلق السموات والأرض سواه؟!

إنه الله جل جلاله:

ولا شـــــيء يشبهـــه جُمْلـــةً ○○○ تحقَّقَ ذلك من قـــــد عَلِـــم
فأبدى اللغـــاتِ وأعطـــى العلـــومَ ○○○ وأفشى الصناعـــاتِ والكـــلَّ زَم
ولولا التعالـــــــيمُ لـــم نَدرِهـــا ○○○ ولا عاش حـــيٌّ ولم تَغـــذُ أُم

ابن حزم الأندلسي

معلم تعريفي 3 [3]

مدة خلق الكون

فخلقُ السموات والأرض حَدَثَ في ستة أيام بناء على قوانين وضعها ليكتمل الخلق وَفْقها، ولو شاء لخلقها في لمح البصر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: 54]

فيبين الله عز وجل لنا غيبًا لا نعرفه

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: 51].

ما طبيعة هذه الأيام الستة؟ وهل مقاديرها تشبه مقادير الأيام الأرضية؟

الجواب:

هذه الأيام تدل على مُدَدٍ زمانية يتميز الزمان فيها عن غيره، فهي ليست ستة أيام من أيام الأرض ولا بقية الكواكب، فكل هذه الأيام إنما عرفت تقديراتها الزمانية بناء على حركة الأجرام السماوية حول بعضها، ولم تكن هذه الأجرام السماوية قد خُلقت حينها حتى تقدر الأيام بناء على حركتها كما قال جل ذكره: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 47]، وتحديد هذه الأيام بأسماء أيام الأسبوع من الأحد إلى الجمعة نقله ابن كثير -رحمه الله-، ولكنه غير مقبول؛ لأنه لم يثبت بنص صحيح صريح، ولا أميل لإثباته حتى يأتينا برهانٌ على ثبوته.

فكيف حدثَ الخلقُ للسموات والأرض في هذه الأيام الستة؟ وكيف نجمع بين هذه الآيات الواردة في ذلك؟

الجواب:

ذهب مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ -رحمهما الله- إلى أنَّ خَلْقَ الْأَرْضِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى خَلْقِ السَّمَاءِ،

وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلٌ -رحمهم الله-: إِنْ خَلْقَ السَّمَاءَ مُتَقَدِّمٌ، ورجحه ابن عاشور -رحمه الله-

والصحيح أنه يمكن الجمع بين تلك المواضع لتفتح للعقول كنوزًا قرآنية، فقد مرَّ الخلق الأول بستِّ مراحل تداخلت بعض تفاصيلها:

1 مرحلة [1]

الدخانية

كَانَتْ السموات دُخَانًا خلقه الله عز وجل من عدم، أو من مادة أخرى مثل الماء الذي كان عرشه عليه جل جلاله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: 11]، وهنا خلق الله الأرض في يومين ملتصقة بالسموات: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فُصِّلَت: 9].

2 مرحلة [2]

الفتق

كانت السموات والأرض رتقًا، أي: كتلة واحدة منسدة متلاصقة، لا انفتاح فيها: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: 30]، ففَتَقَ اللهُ عز وجل رَتْقَهما أَيْ: فَصَلَ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ.

3 مرحلة [3]

بناء الأرض

فجَعَلَ فِي الأرض رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا، وَبَارَكَ فِيهَا، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي يومين آخرين، وبذا خلق لنا ما في الأرض جميعًا، وتمَّ ذلك في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سواء.

مرحلة [4] التكليف

بعد ذلك استوى إلى السماء وهي ما زالت دخانًا، فخاطبها الله عز وجل الخطاب التكليفي: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11]، **فكلاهما موجود، فقد خُلِقتا في تلك الأيام الأربعة.**

مرحلة [5] فَتْقُ السماء

لما قالتا أتينا طائعين قضاهن -كما في سورة فصلت المكية- وسواهن -كما في سورة البقرة المدنية- ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 12] **ففتق الله عز وجل السماء في هذه الحالة فبناها، وفتقها في ذاتها، فجعلها سبع سموات:**

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النَّازِعَات: 28]

أي: رفع طول ارتفاعها، وهي في ذاتها ذات جسم طويل مرتفع، وقوله: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ **يدل على التَّعْديل، وَعَدَم التَّفَاوُت. هذا كان مع السماء وقد خلق الأرض معها، وذلك كله في يومين.**

﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾

أي: قدَّر أنظمتها وقوانينها، ثم قال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فُصِّلَت: 12].

ويؤكد الطبري -رحمه الله- هذا، فيقول:

"وإن قال لنا قائل: أَخْبِرنا عن استواء الله جل ثناؤه إلى السماء، كان قبل خلق السماء أم بعده؟

قيل: بعده، وقبل أن يسويهن سبعَ سموات... والاستواء كان بعد أن خلقها دُخانًا، وقبل أن يسوِّيَها سبعَ سموات... تسوية الله جل ثناؤه سمواته: تقويمه إياهن على مشيئته، وتدبيره لهنَّ على إرادته، وتفتيقهنَّ بعد ارتتاقهنّ" "تفسير الطبري (1/ 430).

ونحو ذلك عن الرازي -رحمه الله-.

مرحلة [6] 6

دحو (دحي) الأرض

﴿ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النَّازِعَات: ٣٠]، **فالدحو غير الخلق، فالدَحْوَ: البَسْط، والخَلق: الْإِنْشَاء الأوَّل. فَالله عز وجل خلق الأَرْض أوَلاً غير مَدْحُوَّة، ثمَّ خلق السَّمَاء، ثمَّ دَحا الأَرْض أَي: بَسَطها.**

ومما حدث في بداية الخلق أن خلق الله عز وجل جميعَ الكائنات الحية مِنَ الْمَاءِ، وهذا ما ذكرته آية سورة الأنبياء، ولكن الذي يظهر أن خلق الأحياء من الماء ليس له علاقة مباشرة بالأيام الستة المذكورة، وبيَّن ذلك الزمخشري -رحمه الله-، فقال:

"جُرْم الأرض تقدَّم خَلْقُه خَلْقَ السماء، وأمّا دحوها فمتأخر" "الكشاف (1/ 123)"

ومن خلال كلام المفسرين وأرباب اللغة نجد أن هذه الكلمة تدل على أمرٍ متحقِّق، وأمرٍ محتملٍ:

① أما الأمر المحقق:

فالدحو يدل على التمهيد والبسط والسعة بما يتناسب مع من يعيش على الأرض، كالبسط المناسب لبيضة النَّعَام، فإنه بسطٌ على هيئة البيضة، وليس امتدادًا محضًا، وقالوا: اندحى البطن اتسع، ولا يظهر اتساعه إلا إذا انبسط واستدار للسِمَن.



② وأما الأمر المحتمل:

فهو التدوير البيضاوي؛ إذ لا يكون البسط والتمهيد لبيضة النَّعَام إلا على هيئة بيضة، فيكون المراد بـ(دحاها): بسطها ومهدها لساكنيها، وهل يقتضي ذلك أن تكون امتدادًا تامًا، وانبساطًا لا تعرج فيه أم تكون كُرة أو قريبة من الكُرة؟ لا يوجد في كلمة (دحاها) ما يقتضي أحد الأمرين. وترتَّب على الدحو إخراج الماء والمرعى: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ [النَّازِعَات: ٣١]



ولعلك تسأل: هل كان علماؤنا المتقدمون يقولون بتكوير الأرض وبقية الأجرام السماوية؟

الجواب:

انتشر مبدأ استدارة الأجرام والفلك عند علماء المسلمين:

فأما ابن حزم -رحمه الله- (ت 458هـ) يقول:



وَمِنْ هَيئةِ الفَلَكِ المُسْتَدِيـــــرِ ○○○ وَقَفْتُ عَلَى حَدِّهِ المُنْتَظَـمْ
وَمَا فيــهِ مِنْ فَلَـــــكٍ دَائِرٍ ○○○ وَمِنْ كَوكَبٍ قَاطِعٍ كالعَلَـــمْ
فَأَكْبَرُهَـــا قَاصِدًا مَغْـــرِباً ○○○ وَسَائِرُهَا جِهَةَ الشـــرقِ أَمْ
إدارة رب لهـــــا منشـــــئٌ ○○○ يصرِّفُها أمرُهُ حيـــثُ حُمْ
يُخالفُ ما بين أدوارِهَـــا ○○○ على سَنَنٍ راتِبٍ مُسْتتـــمْ
لِيَعْلَمَ أهلُ النُّهى أنهـــا ○○○ مدبَّرةٌ لحكيـــــــمٍ حَكَمْ

والرازي -رحمه الله- (ت606 هـ) يقول:



"وَأَيْضًا الْأَرْضُ كُرَةٌ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَكُلُّ وَقْتٍ يُمْكِنُ أَنْ يُفْرَضَ فَهُوَ صُبْحٌ لِقَوْمٍ، وَظُهْرٌ لِثَانٍ وَعَصْرٌ لِثَالِثٍ، وَمَغْرِبٌ لِرَابِعٍ وَعِشَاءٌ لِخَامِسٍ، وَمَتَى كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَمْ تَكُنِ الْكَعْبَةُ مُنْفَكَّةً قَطُّ عَنْ تَوَجُّهِ قَوْمٍ إِلَيْهَا مِنْ طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ الْعَالَمِ لِأَدَاءِ فَرْضِ الصَّلَاةِ" "تفسير الرازي (8/ 301)".

وابن تيمية -رحمه الله- (ت728هـ)



يحدِّث عن كروية الأرض وعن تقبيب الماء فيها (الجاذبية)، فيقول:

" اعْلَمْ أَنَّ " الْأَرْضَ " قَدْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهَا كُرَوِيَّةُ الشَّكْلِ وَهِيَ فِي الْمَاءِ الْمُحِيطِ بِأَكْثَرِهَا ؛ إذْ الْيَابِسُ السُّدُسُ وَزِيَادَةٌ بِقَلِيلٍ وَالْمَاءُ أَيْضًا مُقَبَّبٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِلْأَرْضِ... وَالْأَفْلَاكُ مُسْتَدِيرَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ"

" مجموع الفتاوى - (5 / 150)".

ماذا عن خلق السموات والأرض في الكتب السابقة؟

الجواب:

جاء في سفر التكوين 1 وصف لخلق السموات والأرض يختلف عن هذه التفاصيل الضخمة الموجودة في الكتاب الخاتم، ومما ورد فيه:

3 وَبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ السَّابِعَ وَقَدَّسَهُ، لأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللهُ خَالِقًا.

وهذا الكلام إن كان المقصود به الراحة من التعب فالله عز وجل قد نفاه عن نفسه تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق : ٣٨] ، وبعضهم يقولون: لا نحن لا نقصد في التوراة أنه استراح من تعب، وإنما نقصد أنه قطع، ولكن تعبيرهم عن ذلك موهم، ولا يعظم الله حق التعظيم.

وهنا سؤال تدبري: أن تكون السموات والأرض مخلوقتين فذلك دليل على ربوبية خالقهما، ولكن ما الفائدة في ذكر الأيام الستة، وهي مسألة لا يمكن للخلق إدراكها؟ ولا فرق بين أن يكون الخلق تم في لحظة أو يوم أو ستة أيام، فكان يمكن أن تُخلق في لحظة ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[القمر:50]؟

الجواب:

أولًا

العدد يدل على أن الله عز وجل يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة، وكُلُّ شَيْءٍ صُنْعُهُ، ولا منازع لصنعه

ولذلك قال الرافعي -رحمه الله-:

الملك لله الذي عَنَت الوجـــو ○○○ هُ له وذلَّت عنده الأربـــابُ
مُتَفرِّدٌ بالملك والسلطـــان قـــدْ ○○○ خســـرَ الذين تجاذبوه وخابـــوا
دَعهُم وزَعمَ الملكِ يومَ غرورِهـــم ○○○ فسيعلمـــون غدًا مَنِ الكَـــذَّابُ

ثانيًا 2

ليستبين لنا بعض الغيب الذي لا يمكننا معرفته، فعنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن نَاسًا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ سألوا النبي ﷺ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ مَا كَانَ؟ فقَالَ:

«كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ -وفي رواية: وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ- وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ»"البخاري (7418)".

ثالثًا 3

ليعلم كلُّ من يحاول معرفة كيفية بداية الخلق أنَّ علْمه -وإن زاد مع الأيام- إلا أنه محدود قاصر، فهو لا يستطيع الإحاطة بالكيفية التفصيلية والتزمينية لهذا الخلق عند بدايته.

رابعًا 4

ليظهر أن القرآن مصدق لما بين يديه من الكتاب كالتوراة والإنجيل ومهيمن عليه، ففي أوَّلِ التَّوْراةِ في سفر التكوين نجد ذكر أيام ستة لخلق السموات والأرض، مع ذكر تفاصيل لا يوجد دليل واضح عليها، فصدَّق القرآنُ المهيمنُ بعضَها، وصحَّح بعضَها الآخر.

خامسًا 5

أن يتعوَّد البشر على معرفة القوانين السببية الحكيمة المحكمة، وليس على الفعل الإلهي الذي يقول للشيء كن فيكون.

سادسًا 6

الربط بين السنن الكونية والسنن الاجتماعية، فكما يكون للخلق وقتٌ محددٌ معلوم فكذلك يكون للتحولات الاجتماعية.

سابعًا 7

الخلق في مجموعة أيام فيه ردٌّ على عابدي الصُّدفة الذين يقولون: إن الخلق حدث فجأة، فبين الله عز وجل أن الأحداث حدثت عَلى طريق التَّعاقُب والتَّواصُل مَعَ كَوْنها مُطابقَةً للْمَصْلَحَة والحكْمَة، فدلَّ ذَلكَ عَلى كَوْنها واقعَةً بإحْداث مُحْدث أوَّل عظيم، قادر، حَكيم، عَليم رَحيم. "تفسير الرازي (14/ 257)".

معلم تعريفي [4] 4

استواء الله عز وجل على العرش استواء يليق بجلاله وكماله

"فهو فوق المكان" ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54]

ذكر الله -تَعالى مجده- قَوْلَهُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ في سُوَرٍ سَبْعٍ، فماذا يعني؟

الجواب:

يقول أبو عبيدة معمر بن المثنى -رحمه الله- من أئمة اللغة:

ظهر على العرش وعلا عليه "مجاز القرآن (273/1)"

ومثله عن الإمام أحمد بن يحيى ثعلب الشيباني -رحمه الله-، وقريب من ذلك عن ابن قتيبة -رحمه الله- حيث قال: استقر.

و﴿العَرْشُ﴾ [الأعراف: 43]

كلمة تدل على ارْتِفَاعٍ فِي شَيْءٍ مَبْنِيٍّ

قَالَ الْخَلِيلُ -رحمه الله-:

الْعَرْشُ: سَرِيرُ الْمَلِكِ، ويكون مسقَّفًا على هيئة معظمة، وجمعه عُرُوشٌ، وسمِّي مجلس السُّلطان عَرْشًا اعتبارًا بعلوِّه، وكُنِّي به عن العزِّ والسُّلطان والمملكة.

والبشر يعلمون ما معنى العرش، وكيف يرمز إلى قوة أصحابه وعظمتهم في عالم المخلوقات حيث قال الله عز وجل:

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: 23]

ولله عز وجل العرش العظيم الذي لا يمكننا إدراك كُنْهَهُ وحقيقتَه حيث قال الله عز وجل بعد هذ الآية من سورة النمل:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: 26]

ومعاني الكلمات معلومة بالنسبة لنا، وأما كيفيتها بالنسبة للذات الإلهية فينبغي أن نفهمها في إطار قانون كليٍّ أبانه الله عز وجل في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، ونتذكر قول علمائنا: ما خطر ببالك فالله -بعظمته وجلاله- ليس كذلك

وكما قال ربيعَة بن أبي عبد الرحمن -رحمه الله-:

"الاستواء غير مَجْهُول، والكيف غير مَعْقُول، وَمِنَ الله الرسَالَةُ، وعَلى الرَّسُول الْبَلَاغُ، وعلينا التَّصْدِيقُ".

شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (3/441)

وقال رجل لمالك بن أنس -رحمه الله-: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5]، كَيْفَ اسْتَوَى؟

قَالَ: فَأَطْرَقَ مَالِكٌ رَأْسَهُ، حَتَّى عَلَاهُ الرُّحَضَاءُ أي العرق ثُمَّ قَالَ: الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ -أي بالنسبة لنا- وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا" "الاعتقاد للبيهقي (ص: 116)" يعني هذه مسائل إيمانية، والبشر لا تستطيع أن تحيط علمًا بكل ما عند الله عز وجل.

وَينسب إلى الشافعي -رحمه الله- أَنه قَالَ:

"آمَنت بِلَا تَشْبِيه، وصدَّقت بِلَا تَمْثِيل، واتهمت نَفسِي فِي الْإِدْرَاك، وَأَمْسَكت عَن الْخَوْض غَايَة الْإِمْسَاك".

وَينسب إلى أَحْمد بن حَنْبَل -رحمه الله- أنه قَالَ:

اسْتَوَى كَمَا ذكر، لَا كَمَا يخْطر للبشر

أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات (ص120).

وقال ﷺ: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» "البخاري (2790)"

وأخبرنا الله عز وجل أن الملائكة الذين يحملون العرش يوم القيامة ثمانية، فقال:

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: 17]

ويبين النبي ﷺ عظمة واحد من حملة العرش الثمانية، فيقول:

«أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ ما بين شحمة أذنه إِلَى عَاتِقِه تخفق الطَّيْرِ سَبْعُمِائَةِ عَامٍ» "أبو داود (4727)، وصححه ابن حجر"

تزلزل هذه الآية كلَّ ذرةٍ في بدن الإنسان، فيهتف مع بديع الزمان السلطان يا رب:

تبارك من لا يعلم الغيبَ غيرُه ○○○ ومن لم يزل يثنى عليه ويذكرُ
علا في السموات العُلى فوقَ عرشه ○○○ إلى خَلقه في البرِّ والبَحرِ ينظرُ
سَميعٌ بصيرٌ لا نشكُّ مُدبرٌ ○○○ وَمَنْ دونه عَبدٌ ذَليلٌ مُدبَّرُ
يدا رَبِّنا مَبسوطتانِ كلاهُما ○○○ تَسحَّان [1] والأيدي من الخلق تَقْتُرُ
إذا فيه فكَّرنا استَحالت عُقولُنا ○○○ فَأُبْنَا حَيارى واضمَحلَّ التَّفكُّرُ
شهدنا بأنَّ اللهَ لا ربَّ غَيرُه ○○○ وأحمدَ مبعوثٌ إلى الخَلق مُنذرُ
وأن كتابَ اللهِ فينا كَلامُه ○○○ وإن شكَّ فيه المُلْحدون وأنكَروا

(1) تسحان أي: تكرمان الخلق بعطاياهما

معْلَم تعريفي 5 [5]

خلق الله عز وجل الزمان، وتحكَّم به

﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف: 54]، كما خلق المكان ﴿السموات والأرض﴾، والليل والنهار مادتا الزمان.

وفيه قراءتان:

1 ﴿يُغْشِي﴾ بالتخفيف من أغشى

2 و﴿يُغَشِّي﴾ بالتثقيل من غَشَّى

أي: يُلحِقُ الليل النهار، فيجعله يغْلِبُ عَلَيْهِ فيُغَطِّيهِ وَيَسْتُرُهُ، فكلٌّ منهما يَلبس الآخر تدريجيًا حتى يتكامل بِأَمْرِ الله عز وجل ومشيئته وتصريفه.

﴿حَثِيثًا﴾ حال منهما أيْ: سَرِيعًا جِدًا

فاللَّيْلُ يَطْلُبُ النَّهارَ حَثِيثًا، والنهار يطلب الليل حثيثًا؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنهُما طالِبٌ لِلْآخَرِ، دون أن يغلب أحدهما الآخر.

فعرَّفنا الله عز وجل به بصفة غيبية هي:

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾

والآن عرَّفنا به بصفة مشاهدة، وهي:

﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ﴾

فالصفة المشاهدة الكبيرة، وهي التتابع بين الليل والنهار تقرِّب لنا الإيمان بتلك الصفة الغيبية العظيمة، وهو الاستواء على العرش.

معْلَم تعريفي 6 [6]

خلق الله عز وجل ما بين السماء والأرض

فذكر الله عز وجل لنا الأجسام الكبرى التي تحيط بالأرض وتتحرك في السماء، فيديرها بأمره ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [الأعراف: 54]

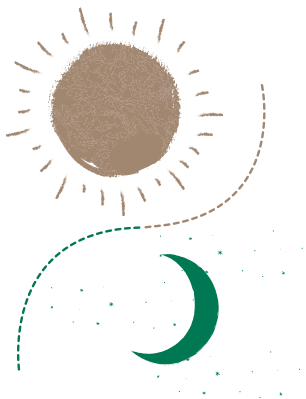

أي: خلق الله عز وجل السموات والأرض وخلق الشَّمْسَ والقَمَرَ والنجوم حال كونها مسخرات بأمره، وهذا من عطف العام على الخاص، فأفرد الله عز وجل الشمس والقمر؛ لأَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَهُمَا سَبَبًا لِعِمَارَةِ هَذَا الْعَالَمِ، فَالشَّمْسُ سُلْطَانُ النَّهَارِ، وَالْقَمَرُ سُلْطَانُ اللَّيْلِ، والشَّمْسُ كَالسُّلْطَانِ، وَالْقَمَرُ كَالنَّائِبِ، وَسَائِرُ الْكَوَاكِبِ كَالْخَدَمِ -كما يقول الرازي رحمه الله-.

والتَّسْخِيرُ

تَذْلِيلُ القوى بِقَهْرٍ وتَخْوِيفٍ، أوْ بِتَعْلِيمٍ وسِياسَةٍ

أي: وضْعُها الله عز وجل عَلى نِظامٍ محدَّد لا تستطيع الخروج عنه، فينتفع بها سكان الأرض على ألطف الوجوه، وهذه إشارات من علم الفَلَك تستثير من يسمعها ليدرسها بعمق، حيث يجد في كلِّ شيء منها آيات الله الباهرة، وبيناته المبصرة.

معْلَم تعريفي 7 [7]

يتفرد الله عز وجل بخلق الكون وإدارته بتدبيره

بتدبيره ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54] دون أن ينازعه أحد

ولذا قال إبراهيم عليه السلام للنمرود:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 258]



ووضع قوانينها التي تدار بها، فنظام الكون يتناسق مع طبيعته، وتصميمه العظيم يعكس الأمرَ الإلهيَّ الذي لا يستطيع أحد أن ينازعه

إدارة رب لهـــا منشـــئُ ●●● يصرِّفُها أمرُهُ حيـــثُ حُـــمْ
يُخالفُ ما بيـــن أدوارِهَـــا ●●● على سَنَـنٍ راتِـــبٍ مُسْتَتِـــمْ
لِيَعْلَمَ أهلُ النُّهـــى أنهـــا ●●● مدبَّـــرةٌ لحكيـــمٍ حَكَـــمْ
وأنْ ليس تختـــارُ شيـــئًا ولا ●●● لها الحُكْـــمُ بل لإله الأُمَـــمْ
يديـر بأزمانهـــا دهرَهـــا ●●● فيثبت مبدؤهـــا للفَهِـــمْ
وتشهدُ أنَّ الـــذي صاغَهـــا ●●● هو الواحدُ الحقُّ باري النَّسَـــمْ

معْلَم تعريفي 8 [8]

ثبتت الخيرات التي تنبع من الله عز وجل

ودامت، وتنوعت، وتكاثرت ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]، فهو ليس ربًا لجهة أو طائفة، بل هو رب العالمين

﴿تَبَارَكَ﴾

من (بَرَكَ): ثبت في مكانه

وابتركت السحابةُ: اشتدَّ انْهلالُها وأَلَحَّتْ بالمطر، فالْبَرَكَةُ تجمع ثلاثة أمور:

1. الْبَقَاءُ وَالثَّبَاتُ.
2. كَثْرَةُ الْآثَارِ الْفَاضِلَةِ وَالنَّتَائِجِ الشَّرِيفَةِ.
3. اللطف في ظهور هذه الآثار، وسريان الخيرات من الأصل إلى الغير.

فمعنى

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]

اللَّهُ تَعَالَى هو الثابت الدائم الباقي، قاضي الحاجات وإليه تكون الافْتِقَارَات، وهو الذي يبث الحياة والخيرات، ويثبتها، ويزيدها، وينميها، وأنه رب العالمين، فالمخلوقات التي ذكرها أمثلة بارزة فقط.

فقد خلق عوالم لا يمكن إحصاؤها، كعالم الخلايا، والشريط الوراثي DNA

قَالَ الْمَعَرِّيُّ:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كَمْ لِلَّهِ مِنْ فَلَكٍ ○○○ تَجْرِي النُّجُومُ بِهِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
هيْنٌ عَلَى اللَّهِ مَاضِينَا وَغَابِرُنَا ○○○ فَمَا لَنَا فِي نَوَاحِي غَيْرِهِ خَطَرُ

ونسبوا لورقة بن نوفل قوله:

لقد نَصَحتُ لأقوامٍ فقلتُ لهم	●●●	إني النذيرُ فلا يَغرُرْكُمُ أحَدُ
لا تَعبُدُنَّ إلهًا غيرَ خالقكم	●●●	فإن دَعَوْكم فقولوا بيننا حَدَدُ
سبحان ذي العرش لا شيء يعادلُه	●●●	ربُّ البريَّةِ فردٌ واحدٌ صمدُ
سُبحانَ ذي العرشِ سبحانًا نعوذ به	●●●	وقبلنا سبَّح الجُوديُّ والجُمُدُ
مُسَخَّرٌ كلُّ ما تحت السماءِ له	●●●	لا ينبغي أن يُناوِي مُلكَهُ أحَدُ
لم تُغْنِ عن هُرْمُزٍ يوماً خزائنُه	●●●	والخُلْدَ قد حاولتْ عادٌ فما خَلَدُوا
ولا سُلَيمانَ إذ دان الشُّعُوبُ له	●●●	والجنُّ والإنسُ تَجْري بينها البُرُدُ
لا شيءَ مما ترى تبقَى بَشَاشَتُهُ	●●●	يبقَى الإلهُ ويُودِي المالُ والوَلَدُ

ما العلاقة بين هذه الجمل في قول ربنا: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]؟

الجواب:

1. **الأولى:** ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ تبيِّنُ أن الذي يستحقُّ أن يكون ربًا للخلق اسمه الله.
2. **الثانية:** ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ تبيِّنُ المعلم التعريفي الثاني، وهو أنه خلق المكان.
3. **الثالثة:** ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تبيِّنُ المعلم التعريفي الثالث، وهو مدة خلقه للمكان
4. **الرابعة:** ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تبيِّنُ المعلم التعريفي الرابع، وهو أنه سبحانه وتعالى فوق المكان، فقد استوى على العرش العظيم الذي هو خارج المكان (السموات والأرض).

5 **الخامسة:** ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ تبيِّنُ المعلم التعريفي الخامس، وهو أنه سبحانه وتعالى يدير الزمان.

6 **السادسة:** ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ تبيِّنُ المعلم التعريفي السادس، وهو أنه سبحانه وتعالى يدير كلَّ المخلوقات الكبرى في نظام أمر به.

7 **السابعة:** ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ توضِّحُ المعلم التعريفي السابع: وهو أن الخلق الحقيقي ملك لله، فلا يمكن لأحد غيره أن يخلق، وأن الأمر التكويني والتشريعي العامَّ لهذه المخلوقات ملك له، فلا يمكن لأحد غيره أن يأمر.

8 **الثامنة:** ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ توضِّح المعلم التعريفي الثامن، وهو أنه تبارك، أي هو الواحد الباقي الدائم الذي تتكاثر أفعاله ومخلوقاته دون أن تفنى أو تقل قوته وعطاياه، وأنه رب العالمين، فالمخلوقات التي ذكرها أمثلة فقط.

أثر في بركة هذه الآية

«عَن عبد الله بن بُسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ خرجت من حمص فآواني اللَّيْل إِلَى البقيعة فحضرني من أهل الأَرْض فَقَرَأت هَذِه الْآيَة من سُورَة الْأَعْرَاف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ [الْأَعْرَاف 54] إِلَى آخر الْآيَة، قال: فَقَالَ بَعضهم لبَعض: احرسوه الْآن حَتَّى يصبح فَلَمَّا أَن أَصبَحت ركبت دَابَّتي. رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ وَرُوَاته رُوَاة الصَّحِيح إِلَّا الْمسيب بن وَاضح».

معْلَم تعريفي 9 [9]

دعاؤه سبحانه وتعالى

فإن مَن له الخلق والأمر النافذ في الخلق قادرٌ على تغيير الواقع بما يفيد الداعي ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55].

وبيَّن النبي ﷺ أن الدعاء أحد سبل التعرُّف إلى الله عز وجل، فقال:

«تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللهِ». "أحمد (2804) وقال الأرناؤوط: صحيح"

لماذا اختار الله عز وجل لفظ (الدعاء) في التضرُّع بين يديه دون أن يختار لفظة أخرى؟

الجواب:

لأن الدعاء من دعا، ومعناها أَنْ تطلب من الله عز وجل أن يحقِّق أهدافك بصَوْتك، فيعرفك الله عز وجل بذاته عندما تدعوه، ولذا وصف الله عز وجل نَفْسَه هنا فقال: ﴿رَبَّكُمْ﴾ ليُخبر العالم بتربية الله عز وجل لهم، وإصلاحه لأحوالهم، وعنايته بأوضاعهم، والخطاب للمسلمين أولًا، ويشمل غيرهم؛ فالدعاء عبادة عامة، وقد ذكر الله عز وجل أن المشركين يدعون ربهم عز وجل: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: 65].

وقد تسأل: لماذا ندعو مع أن الله عز وجل قد كتب كلَّ شيء سيقع؟

الجواب:

1 **لأن للدعاء أثرًا في تغيير القضاء**

كما ذكر النبي ﷺ، وذلك يوافق قوله الله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: 39]، فإذا دعا فربما تغيَّر عليه القضاء الدَّهري، ولا ينافي ذلك علمَ الله عز وجل بكلِّ شيء مما قضاه في أول الخلق.

2 **لأن الدُّعاء نَوْعٌ من أنْواعِ العِبادَةِ**

يظهر ذلَّة العُبُودِيَّة، ويُفيدُ الاعتزاز عزَّة الرُّبُوبيَّة، فالدعاء شعور براحة الإنسان عندما يكلِّم الرحمن، ولذا قال النبي ﷺ: «ما مِن شَيْءٍ أكْرَمَ عَلى اللَّهِ عز وجل مِنَ الدُّعاءِ». "ابن ماجه (3829)، وحسَّن الأرناؤوط إسناده"، وقال: «الدُّعاءُ هو العِبادَةُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: 60] "أحمد (18378)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح".

يا مَنْ عليه اعتمادي في الأمر جزءًا وكُلًّا ○○○ بك اهتديت ومن لم يرجُ الهدى منك ضلًّا
بك اغتنيت ومن لا تغنيه عاشَ قُلًّا ○○○ من يخترِ الله يخترْ فضلَ المليكِ الأجلًّا
ومَنْ تولى ســـــواه يولْه مـــا تولَّـــى ○○○ قد فارق الشَّهْدَ صفوًا مستبدلًا منه خَلًّا

3 الدعاء تدريب للعبد على طلب الكمال

وتغيير الأحوال في حياته وأوضاعه، وأما الملك العظيم جل جلاله، فهو يَعْلَمُ أحوالَ العبد دعا أو لم يدع، فلا يورد العبد الأسئلة على ربِّه عز وجل فيما يتعلَّق بأفعاله عز وجل، بل ينظر العبد إلى نفسه فيما يتعلَّق بأحوال نفسه.

ثم ذكر الله عز وجل أهمَّ آداب الدعاء لتتحقَّق الإجابة، فما هذه الآداب؟

الجواب:

أدب [1] التضرع

﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ [الأعراف:55]

أي حال كونكم متضرِّعين، والتضرُّع من "ضَرَع": خشع ولان وقَرُبَ لشدَّة حاجته، والتضرُّع تفعُّلٌ يقتضي أن يتكلَّف الضَّراعة ويبالغ في التذلُّل والتخشُّع والاستكانة والافتقار إلى الله عز وجل كاحتياج الطفل إلى ضَرْع أُمِّه:

إني إليك مدى الأنفاسِ محتاجٌ**** لو كان في مفرقي الإكليلُ والتاجُ

أدب [2] الخفية

﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:55]

فالتضرُّع يدلُّ على كمال الافتقار أمام الملك الرحيم الغفار، وكمال الافتقار لا بدَّ أن يصحبه الإخلاص، وأعظم ما يعين عليه الاستخفاء، فالله أقرب إلينا من حبل الوريد، وهو الولي الحميد، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد

ويعلمنا ذلك النبي ﷺ:

«أيها الناس، ارْبَعُوا على أنفسكم، أي ارفقوا بها، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا! إنكم تدعون سميعًا قريبًا، وهو معكم (إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ تَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ)».

"البخاري (2992)"

وعَنِ الْحَسَنِ -رحمه الله- قَالَ:

إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَمَا يَشْعُرُ بِهِ النَّاسُ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ فَقِهَ الْفِقْهَ الْكَثِيرَ، وَمَا يَشْعُرُ بِهِ النَّاس، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ الطَّوِيلَةَ فِي بَيْتِهِ وَعِنْدَهُ الزَّور -يعني الزائرين- وَمَا يَشْعُرُونَ بِهِ، وَلَقَدْ أَدْرَكْنَا أَقْوَامًا مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عَمَلٍ يَقْدِرُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ فِي السِّرِّ، فَيَكُونُ عَلَانِيَةً أَبَدًا، وَلَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ، وَمَا يُسمع لَهُمْ صَوْتٌ، إِنْ كَانَ إِلَّا هَمْسًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:55]، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عز وجل ذَكَرَ عَبْدًا صَالِحًا رَضِيَ فِعْلَهُ فَقَالَ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مَرْيَم:3] "الزهد لابن المبارك (140)".

وابن عاشور -رحمه الله- ينبِّه إلى أن الجهر بالدعاء ليس منهيًا عنه، ولكن الأمر بالإخفاء لتربية النفس على عدم الرياء.

أدب [3] عدم الاعتداء في كلِّ شيء: في الدعاء، وعلى الأرض، وعلى العباد ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:55]

يحثُّنا على الإسراع في البحث عما يحب الله عز وجل، وترك ما لا يحب.

1

أي ادْعُوا رَبَّكم لِأَنَّهُ يُحِبُّكم، ولا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ الذين لا يدعونه، كَقَوْله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60].

2

لا يحبُّ المعتدين في الدعاء بأن يجاوز الداعي الحدَّ الذي سنَّه النبي ﷺ في الدعاء في المعنى أو في الصيغة أو الطريقة كالمبالغة في السَّجْع، فقد قال ﷺ: ((إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطُّهور والدعاء)) "أبو داود (96) بإسناد صحَّحه النووي، وحسَّنه ابن كثير".

3

الاعتداء بطلب ما لم يشرعه الله عز وجل كقول الله عز وجل لعبده نوح عليه السلام: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: 46].

4

شرُّ أنوع الاعْتِدَاء في الدُّعَاء التَّوَجُّهُ فيه إلَى غَيْر الله وَلَوْ لِيَشْفَعَ لَهُ عِنْدَهُ: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 18] أَيْ: لَا مَلَكًا وَلَا نَبِيًّا وَلَا وَلِيًّا كما يقول محمد رشيد رضا -رحمه الله-، وقد قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: سَلُوا اللهَ لِي الْوَسِيلَةَ "قَالُوا: وَمَا الْوَسِيلَةُ؟ قَالَ: "أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الجَنَّةِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا" "الترمذي (3612)"

أدب [4]

عدم الإفساد في الأرض

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:56]

وكأنه يقول: إذا أردتم أن تدعو لا ينبغي أن تفسدوا في الأرض، فكيف تفسدون الموجود، وتسألون الله عز وجل المفقود؟!

والواو في

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾

عَطفت النهي عن الإفساد على النهي عن الاعتداء لتبصِّرنا أن الاعتداء محرم؛ لأن فيه إيذاءً للآخرين، وكذلك الإفساد في الأرض، والإفساد استعمال الشهوة الغضبية والجسدية والعقلية في تدمير البيئة الصالحة، وإجراء الكون على غير طبيعته التي خلقه الله عز وجل عليها، أي: لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِعَمَلٍ ضَائِرٍ، وَلَا بِحُكْمٍ جَائِرٍ مما قد يدمِّر البشرية في أديانهم، وأبدانهم، وأخلاقهم، وعقولهم، وتناسلهم، ويضرب الطبري -رحمه الله- مثلًا، فيقول: "لا تشركوا بالله في الأرض، ولا تعصوه فيها، وذلك هو الفساد فيها" "تفسير الطبري (487/12)" فهذا تفسير بضرب مثال.

لماذا قال الله عز وجل ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾؟

الجواب:

الإفساد بعد الإصلاح أسوأ من الإفساد ابتداء، والإصلاح نوعان:

1 الإصلاح الأصلي للأرض

بالقوانين التي خلق الله عز وجل الأرض عليها، مثل قوانين الزوجية في البشر والحياة والمادة، أي: لا تفسدوا في الأرض بَعْدَ أنْ أصْلَحَ الله عز وجل خلْقَتَها عَلى الوَجْهِ المُطابِقِ لِمَنافِعِ الخَلْقِ.

2 الإصلاح للإفساد الطارئ

الذي أحدثه البشر، أي: لا تفسدوا في الأرض بَعْدَ أن أصلحها الله عز وجل بالأنْبياءِ، وإنْزالِ الكُتُبِ. فقول الله عز وجل: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف:32] يَدُلُّ عَلى أنَّ الأصْلَ في المَنافِعِ واللَّذّاتِ الإباحَةُ والحِلُّ، وهذه الآيَةُ تَدُلُّ عَلى أنَّ الأصْلَ في المَضارِّ الحُرْمَةُ والمَنعُ عَلى الإطْلاقِ.

أدب [5]

الخوف والطمع

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف:56]

الدعاء لأجل الخوف والطمع له معنىً شريف عظيم في بيان رحمة الله عز وجل بعباده، فما هذا المعنى؟

الجواب: هناك عدة معان:

1. في الحال أي: وادعوه حال كونكم خائفين من عدله وعقوبته؛ وادعوه طامعين في فضله ورحمته.
2. وفي الاستقبال بإعراب ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ عَلى المَفْعُولِ لِأجْلِهِ، أيْ: إنَّ الدُّعاءَ يَكُونُ لِأجْلِ خَوْفٍ مِنهُ وطَمَعٍ فِيهِ مهما تقادمت الأيام، والجَمع بَيْنَ الخوْف والطمع يوصل صاحبه إلى مقام الإحْسانِ وكَأنَّهُ مَشاهِدٌ لِلرَّحْمَنِ..
3. يدل على أن الشريعة موضوعة للمصالح وسعادة العباد، فالإنسان يكون بين خوفٍ من المكروهات، وطمع في المحبوبات، فشمل ذلك جميع أهداف الحياة.

أدب [6]

الإحسان في الدعاء وعنده

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:56]

فالذي يدعو الله عز وجل خوفًا وطمعًا يصل إلى مرتبة الإحسان، أي: وادعوه خوفًا وطمعًا، وأحسنوا إنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنِينَ

وقد تسأل: فلم قال الله عز وجل ﴿قَرِيبٌ﴾ بالتذكير، ولم يقل ﴿قريبةٌ﴾ بالتأنيث؟

الجواب:

ذكَّر كلمة ﴿قَرِيبٌ﴾ ليشمل ثلاثة معانٍ، والتقدير: إن مكان رحمة الله قريب من المحسنين، أو إن الله قَرِيبٌ بِرَحْمَتِهِ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، وإنَّ إحْسَانَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ.

والمحسنون هم الذين أحسنوا في الدعاء، وأحسنوا معه بأن أحسنوا إلى الخلق. قال النبي ﷺ:

«الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»

"أبو داود (4942)، وصحَّحه الأرناؤوط لغيره"



فالدعاء استدعاء بإظهار أعظم الافتقار إلى الرحيم الملك الغفار الذي بيده خزائن كلِّ شيء، ولعظمته ذلَّ كلُّ شيء، وبيده يصرف أسباب كلِّ شيء.

معْلَم تعريفي 10 [10] إحياء البلد الميت بالماء

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [الأعراف: 57] والتقدير: إن ربكم الله عز جل الذي خلق السموات والأرض، وهو الذي يرسل الرياح

وذكر الله إحياء البلد الميت بالماء بعد الدعاء ليبين أن نزول الماء منه ما يكون وفق السنن، ومنه ما يأتي بعد الدعاء كما قال عبد الرحمن القاضي -رحمه الله-:

وكم أصابَ المسلمين من جفـــاف ○○○ فنفروا ثقالُهـــم مع الخفـــاف
وطلبـــوا من الإله الفَرَجـــا ○○○ فحقَّقوا الفوزَ ونالـــوا المخرجـــا
فهل طبيعةٌ أجابـــتْ أم وثـــنْ ○○○ أم أنه السميعُ كشَّـــافُ المحـــنْ

ما المراحل التي تمر بها الدورة المائية لإحياء الأرض كما وصفتها الآية؟

الجواب: تمر الدورة المائية لإحياء الأرض بثمان مراحل:

مرحلة 1 [1] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الأعراف 57]

الرياح: جمع ريح، وَهي الْهَوَاءُ المتحرك، ووُجُودُهُ شَرْطٌ لِحَيَاةِ كُلِّ نَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ

وفيها قراءتان:

[1]

﴿ٱلرِّيحَ﴾

على الإفراد لابْن كَثِيرٍ وحَمْزَةَ والكِسائيِّ وخلف العاشر عَلى إرادَةِ الجِنْس، وتصوِّر هذه القراءة الريحَ، وهي مَدْفُوعَةٌ دُفْعَةً واحِدَةً قَوِيَّةً لا فَتْرَةَ بَيْنَ هَبّاتِها.

[2] قرأ الجمهور

﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾

بالجمع لبيان تنوعها، وتَعَدُّدِ مَهابِّها، وحُصُولِ الفَتَراتِ في الهُبُوبِ.

يبين ابْن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما أنواع الرياح، فيقول:

الرِّياحُ ثَمانٍ:

أرْبَعَةٌ مِنها عَذابٌ، وهو

1. القاصِفُ
2. والعاصِفُ
3. والصَّرْصَرُ
4. والعَقِيمُ

وأرْبَعَةٌ مِنها رَحْمَةٌ:

1. النّاشِراتُ
2. والمُبَشِّراتُ
3. والمُرْسَلاتُ
4. والذّارِياتُ

"المطر والرعد والبرق لابن أبي الدنيا (ص: 162)".

مرحلة [2] 2

ظهور نسائم الرحمة ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [الأعراف 57]

يعني: قدام رحمته وأمامها، والمراد بـ ﴿رَحْمَتِهِۦٓ﴾ هنا: تحريك طبقات الهواء لتنقية الأجواء من الغازات الضارَّة، وإيجاد الجو المناسب للتنفس الطبيعي.

والغيث، وما ينشأ عنه من الحياة، وفي كلمة: ﴿بُشْرًۢا﴾ أربع قراءات:

مشهد [1]

قرأ أهل الحجاز والبصرة: ﴿نُشُرًا﴾، بضم "النون" و"الشين"

جمع "نَشُور" كما يجمع رَسُول رُسُل، أي: يبسطُها ويفرِّقها في كُلِّ جانب، والنَّشُورُ: الرِّيحُ الحَيَّةُ الطَّيِّبَةُ؛ لِأنَّها تَنْشُرُ السَّحابَ، أيْ تَبُثُّهُ وتُكَثِّرُهُ في الجَوِّ.

مشهد [2]

قَرَأ ابْنُ عامِرٍ ﴿نُشْرًا﴾ بِضَمِّ النُّونِ وإسْكانِ الشِّينِ

كَما يُقالُ كُتْبٌ ورُسْلٌ، وهي لغة في المعنى السابق.

مشهد [3]

قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿نَشْرًا﴾ ناشِرَةً السَّحاب أو ناشِرًا

أيْ: مُحْيِيًا بِها الأرْضَ المَيْتَةَ بالأمْطار.

مشهد [4]

قرأ عاصم ﴿بُشْرًا﴾

من التبشير بالمطر

فالرِّياحُ تَنْشُرُ السَّحابَ، وتَأْتي مِن جِهاتٍ مُخْتَلِفَةٍ تَتَعاقَبُ فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ امْتِلاءِ الأسْحِبَةِ بِالماءِ، وتُحْيِي الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِها، وتُبَشِّرُ النّاسَ بِهُبُوبِها، فَيَدْخُلُ عَلَيْهِمْ بِها سُرُور.

مرحلة [3]

تجمع السحاب الثِّقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف 57]

﴿أَقَلَّتْ﴾: أي حملت الرياحُ السحابَ التي ثقلت بالماء لأنها تشبعت ببخار الماء؛ فرفعتها

ووصفها بأنها

﴿الثِّقال﴾

إعجاز



إذ حسبوا ثقل غيمة صغيرة فوجدوا أن وزنها نحو 500 ألف كيلو غرام، وبعض الغيوم تساوي مليون طن، كأنها فيل يسبح (Floating elephants)، وقد يعادل وزنها وزن أكبر طائرة ركاب في العالم.

وأسلمتُ وجْهي لمنْ أسْلَمَتْ ○○○ لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلالا
وأسلَمْتُ وَجْهي لِمَنْ أسلَمَتْ ○○○ لَهُ الْأَرْضُ تحمِلُ صَخرًا ثِقَالًا

مرحلة [4] 4

﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [الأعراف 57]:

أي: دفعنا ذَلكَ السَّحابَ بتلك الريح إلى بَلَدٍ مَيِّت، والبَلَد: المكان الممتد المحيط المحدود الذي التصق به أهله، فأقاموا فيه سواء أكانوا من البشر أم من غيرهم، والبلد يموت إذا لم يوجد فيه الماء، فتنعدم فيه أشكال الحياة، فالأرض لا تنبت، فلا توجد الثروة الحيوانية، ولا الحركة الصناعية، ويهاجر الإنسان والحيوان منه.

مرحلة [5] 5

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ [الأعراف 57]

فَأنْزَلْنا بالبَلَدِ، أو بالرِّياحِ، أو بالسَّحابِ الماءَ.

مرحلة [6] 6

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف 57]

أي: فأخرجنا بالماء من كلِّ الثَّمَرات، وَالثَّمَرَاتُ: جَمْعُ ثَمَرَةٍ وَهِيَ الْحَمْلُ الَّذِي تُخْرِجُهُ الشَّجَرَةُ، سَوَاءٌ أُكِلَ أَوْ لَا، أي جَمِيعُ أَنْوَاعِهَا عَلَى اخْتِلَافِ طُعُومِهَا وَأَلْوَانِهَا وَرَوَائِحِهَا.

وهذا التأثير المحسوس العظيم يماثل قول النَّبِيِّ ﷺ:

«مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ» "البخاري (79)".

مرحلة [7] 7

﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الأعراف 57]

استدلال بالمشاهد الحاضر على الغائب، فكما أحيا الله عز وجل الأرض بعد موتها، يحيي الأجسادَ بعد موتها، فالْبُذُورِ وَالْجُذُورِ تنمو بسبب الماء والتغذي بِمَوَادِّ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ، فتنبت الأرض كذلك ينزل الله عز وجل ماء خاصًا على بذور باقية من جسد الإنسان يُسمَّى الواحدُ منها عَجْبَ الذَّنَب؛

قال النبي ﷺ:

«ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ»

"البخاري (4935)".

وعن مجاهد -رحمه الله-قال:

إذا أراد الله عز وجل أن يُخرِج الموتى، أمطر السماء حتى تتشقَّق عنهم الأرض، ثم يرسل الأرواح، فتعود كلُّ روح إلى جسدها، فكذلك يحيي الله عز وجل الموتى بالمطر كإحيائه الأرض.

«تفسير الطبري (494/12)".

وما يستأنس به، وإن كان في إسناده نظر، ما روي عن لقيط بن عامر رضي الله عنه قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَجْمَعُنَا بَعْدَ مَا تُمَزِّقُنَا الرِّيَاحُ وَالْبِلَى وَالسِّبَاعُ؟ قال رسول الله ﷺ:

((أُنَبِّئُكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي آلَاءِ اللَّهِ، الْأَرْضُ أَشْرَفْتَ عَلَيْهَا، وَهِيَ مَدَرَةٌ بَالِيَةٌ، فَقُلْتَ: لَا تَحْيَا أَبَدًا، ثُمَّ أَرْسَلَ رَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا السَّمَاءَ، فَلَمْ تَلْبَثْ عَلَيْكَ إِلَّا أَيَّامًا حَتَّى أَشْرَفْتَ عَلَيْهَا، وَهِيَ شَرْبَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَعَمْرُ إِلَهِكَ لَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى أَنْ يَجْمَعَهُمْ مِنَ الْمَاءِ عَلَى أَنْ يَجْمَعَ نَبَاتَ الْأَرْضِ)) "أحمد (16251)، وقال الأرناؤوط: "إسناده ضعيف مسلسل بالمجاهيل".

مرحلة [8] 8

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف 57]

هذه نتيجة النظر في المراحل السابقة، التذكُّر من قولهم: ذَكَرْتُ الشَّيْءَ، أي استحضرته، فلم أنسه أو أهمله، فالتذكر علم وشعور وإحساس وتأثر.

نظم عبد الرحمن القاضي رحمه الله هذه المراحل، فقال:

كن يا أخي إلى السحاب ناظرا ●●● كيف غَدَا سيلًا يسيرُ طائرا
أرسله لنا الإلهُ رحمهْ ●●● فهل شكرتَ للإله النعمهْ
فسلَّط الشمسَ على البحارِ ●●● لرفع ما فيها من البخارِ
ورَفْعِ مائِه إلى السماءِ ●●● فوق الجبال هذه الشماءِ
وحاطه ببارد الهواءِ ●●● لوقف رفعه إلى السماءِ
ولو أراد أوجد الحرارهْ ●●● فلا ننال عندها قُطَارَهْ
وساق نحوَه الرياحَ نُشُرا ●●● تثيره بعدُ سحابًا مُعْصِرَا
فلا الجبالُ تستطيع ردَّ ذا ●●● إن شاء مِنْ ورائها أن يَنْفُذا
وساق أخرى نحوَه الخلاقُ ●●● بِقَدرٍ منه له تُسْتَاقُ
أنزله رفقًا بنا قطارا ●●● وبعضه سخَّره أنهارا
وبعضه يمتصُّه هذا الثرى ●●● كي لا يكون عائقًا سيرَ الورى
ولو جرى من السماء سائلا ●●● لأمطر الناسَ الفناءَ العاجلا
هذا إذا أنزل سيلاً في البلدْ ●●● فكيف لو صبَّ جبالاً من بَرَدْ
فيا ترى أذلك التدبيرُ ●●● تدبيرُ مَنْ ليس له تفكيرُ
من وثنٍ أصمَّ أو طبيعهْ ●●● جامدةٍ لربها مطيعهْ
أم أن ذاك حقًا شاهدُ ●●● بأن مولانا الإله الواحدُ

معلَم تعريفي [11] 11

الله عز وجل هو الذي يحكم نتائج الإنبات بعد نزول الماء على الأرض

حيث يختلف خروج النباتات مع وحدة الماء النازل عليها: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [الأعراف: 58]

جعل الله عز وجل لكل أرض خصائصها، وهذه الخصائص تجعل نتيجة التفاعل مع الغيث النازل مختلفًا. فهناك الأرض الطيبة التي تُخرج النبات بإذن الله عز وجل، وهناك الخبيثة التي تُخرج النبات النكد على الهيئة النكدة



فالله عز وجل يحكم للطيب من الأرض بخروج ما فيها طيبًا، ويحكم للخبيث بخروج ما فيها نكدًا، وكذلك يثيب الله عز وجل الخلق في تعاملهم مع الوحي الذي يحيي النفوس، ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى في مشهد الاعتبار:

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾. [الأعراف: 57]

ما معنى قوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: 58]؟

الجواب:

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾

الأرض النقية التي تطيب في ذاتها، فترى تربتها زكية نقية، وتطيب بطريقة معالجتها لخروج نباتها، وتطيب في هيئة خروج النبات، وتطيب في الخارج منها من شجرها وثمراتها، فالطيب ما تستلذه الحواس وما يستهوي النفوس.

روض إذا زرتَـــهُ كئيـــبًـــا ○○○ نفَّـــس عن قلبـــك الكُروبـــا
أرض إذا زارهـــا غريـــبٌ ○○○ أصبـــحَ عن أرضـــه غريبـــا

إيليا أبو ماضي

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ﴾

أي حال كون خروجه بإذن ربه عز وجل، أي بأمره، وعنايته، فهذه الآية بينت لنا دليلين من أدلة التعرُّف إلى الله، فالقرآن المجيد جاء على نَسَقٍ فريد في الترقيم والتنضيد.

﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ﴾

الذي يُكره رداءةً وخساسةً؛ لاحتوائه على مفسد للطبيعة الإنسانية الجسدية أو الفكرية.

﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾

﴿نَكِدًا﴾

1. قرأ أبو جعفر بفتح الكاف على أنه مصدر نَكِدَ الشَّيْءُ إذا كانَ سوءًا ولؤمًا أو قلة عطاء، فيتعب ولا يغني، فخروج النبت كان على هيئة نَكِدَة في ذاته.
2. وقرأ الجمهور بكسر الكاف، فالنبات في ذاته نكد لقلته أو لقبح ثمره، أو لضعف منفعته

﴿لَا يَخْرُجُ﴾

1. قرأ الجمهور ﴿لا يَخْرُجُ﴾ أي النبات إلا نكدًا.
2. وقرأ ابْن وَرْدانَ بِضَمِّ الياء وكسر الراء أي: لا يُخْرِجُ البلد الخبيث نباته إلا نكدًا.

والتَّقْدِيرُ:

والبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ طَيِّبًا بِإذْنِ رَبِّهِ، والنَّباتُ الَّذِي خَبُثَ يَخْرُجُ نَكِدًا مِنَ البَلَدِ الخَبِيثِ.

معْلَم تعريفي 12 دليل العدل الإلهي

[12]

أنزل الله عز وجل الكتاب الذي فصَّله على علمٍ وجعله هدى ورحمة، فانتفع به الطيبون، وصُدَّ عنه الخبثاء الذين أغلقوا قلوبهم، فحالهم كحال البلد الطيب، والبلد الذي خبث في التعامل مع الماء النازل: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 58]

قال قتادة -رحمه الله-:

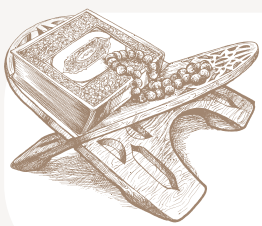

المؤمن سمع كتابَ الله عز وجل فوعاه بعقله وانتفع به، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت. والكافر بخلاف ذلك.

"تفسير الطبري (19/604)"

ويفصِّل ذلك رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فيقول:

((مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ. وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)). "البخاري (79)".

واختلف التعبير عن الحالين:

﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾

أي: هو طيب في ذاته ففعل الأفعال التي تزيد طيبه طيبًا

وقال في الخبيث: ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ﴾

فوصفه بالفعل (خَبُث) لأنه في الأصل على الفطرة، لكنه يخبث نفسه حتى يصبح الخبث سجية له، فهو مسؤول عن تصرفاته.

ثم قال الله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 58]
فما معنى هذا الختم؟

الجواب:

التصريف من (صَرَفَ) ويعني: ردَّ الشيء من حالة إلى حالة، أو أبدله بغيره، أو وجَّهه إلى جهة أخرى، أي: كَذلكَ التنوُّع المدهش في بيان الأدلة التي تثبت الألوهية، وعظمة النعمة نُصَرِّفُ الْآياتِ فننوعها ونردِّدها ونكرِّرها لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ نعمة الله عز وجل وهم المؤمنون، ليفكروا فيها ويعتبروا بها.

ويذكِّرنا هذا ببداية المحور الأول في السورة حيث بدأنا رحلة الإنسانية

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 10].

فهذا الختم يفصل بين نصفين عظيمين تكوَّنت منهما سورة الأعراف:

النصف الأول الذي احتوى على:
- المقدمة
- والمحور الأول
- والمحور الثاني

وبين النصف الثاني، وهو الذي يشمل المحاور القادمة

حيث يوجد عرض تاريخيٌّ عَذْبٌ جميلٌ مفصَّلٌ عن بقية تاريخ البشرية، وعَمَلِ المصلحين في إصلاح الأرض، فالشكر ينبع من القلب الطيب، ويدلُّ على الاستقبال الطيب، والانفعال الطيب.

لماذا جعلنا المحور الثاني: معالم تعريفية بالله عز وجل، ولم نجعلها أدلة وبراهين تثبت وجود الله عز وجل؟

الجواب:

لأنك عندما تنظر في الآيات تجد الله عز وجل ذكر تعريفًا بنفسه، وببعض صفاته وببعض براهين ألوهيته وملكه، وليست الآيات خالصة في ذكر براهين ألوهيته فقط.



المحور الثالث





أهمُّ العهود التاريخية الفاصلة التي قادت الإنسانية قبل العهد الإسرائيلي

[الأعراف ٥٩-٩٣]

المحور الثالث

أهمُّ العهود التاريخية الفاصلة التي قادت الإنسانية قبل العهد الإسرائيلي [الأعراف٥٩-٩٣]

ما المناسبة والاتصال بين المحور الثالث وما قبله في السورة؟

الجواب: جذبتنا هذه السورة بالمعرفة القرآنية الهائلة التي تقدِّمها لنا:

1 مقدمتها:

تدور حول القرآن باعتباره كتاب الإنذار العالمي من المخاطر الواقعة والمتوقعة، واستغرقت المقدمة الآيات [1-9].

2 ثم المحور الأول:

بصَّرنا بخريطة الحياة، وفيه البداية والنهاية، والماضي والحاضر والمستقبل للرحلة الإنسانية الكبرى منذ ما قبل خلق الإنسان إلى أن يستقرَّ أصحاب الجنة وأصحاب النار في دار الجزاء، ويختم بأن القرآن هو الهدى والرحمة في تلك الرحلة، وذلك في الآيات [10-53].

3 ثم المحور الثاني:

يضع معالم تعريفية بالله عز وجل الذي له الخلق والأمر في الآيات [54-58]، فالله عز وجل الذي وضع خريطة الحياة العظيمة التي رأيناها في المحور الثاني، وإذا عرفناه وجب أن نتبع ما أنزله لنا.

4

فالمحور الأول يتضمن معرفة الدافع الأول لاتباع القرآن، وهو الدافع الذي يتعلق بماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، والمحور الثاني يخبرنا بالدافع الثاني، وهو اتباع ما أنزل الله عز وجل الذي هو ولاية من له الخلق والأمر

5 هنا يأتي المحور الثالث

يحدثنا عن موكب القيادات المفلحة التي دعت إلى إنقاذ البشرية، وإصلاح الأرض بعد أن أفسدها إبليس وقبيله وأولياؤه، ويقدِّم لنا التفسير الإسلامي للتاريخ، وطبيعة الصراع فيه.

فإن قلت: ما الأقسام التي انقسم إليها هذا المحور؟

الجواب: انقسم هذا المحور إلى خمسة عهود فاصلة مرَّت بها البشرية:

العهد الأول

القيادة الأولى للبشرية: نوح عليه السلام يواجه إفساد الفكر بالشرك في الأرض، وتسميم الحياة بالتمييز العنصري [الأعراف 59-64]

العهد الثاني

القيادة الثانية للبشرية هود عليه السلام يواجه إفساد الأرض بالشرك [الأعراف 65-72]

العهد الثالث

القيادة الثالثة للبشرية: صالح عليه السلام يواجه إفساد الأرض بالشرك، ويطالب بإقامة مبادئ الاستخلاف الرباني، وذِكْر آلاء الله عز وجل، وتَرْك الإفساد [الأعراف 73-79]

العهد الرابع

القيادة الرابعة للبشرية: لوط عليه السلام يواجه إفساد الفاحشة للأرض [الأعراف 80-84]

العهد الخامس

القيادة الخامسة للبشرية: شعيب عليه السلام يواجه الإفساد الاقتصادي للأرض والقرصنة الدَّولية [الأعراف 85-93]

العهد الأول

القيادة الأولى للبشرية: نوح عليه السلام يواجه إفساد الفكر بالشرك في الأرض، وتسميم الحياة بالتمييز العنصري [الأعراف 59-64]

وقد تسأل: ما المشاهد التي تضمنها العهد الأول؟

الجواب: تضمن هذا العهد 9 مشاهد:

مشهد [1]

مشهد الإنقاذ الإلهي للذرية الآدمية ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ [الأعراف: 59]

أي: أقسمنا بعزتنا لقد أرسلنا نوحًا عليه السلام، كما أرسلنا الرياح لإنقاذ البلد الميت برحمتنا.

مشهد [2]

مشهد الإفصاح عن اسم أول رسول بعثه الله عز وجل إلى الأرض

فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: 59]، **وحدَّد المرسل إليهم، فهم قومه، وهذا التحديد يجعل الحجة عليهم أعظم.**

وربما تسأل: لماذا كان تحديد المرسل إليهم أعظم في الحجة عليهم؟

الجواب:

1. لأنهم قومه الذين يعرفونه كما أنه يعرفهم، فيكون ذلك أدعى في التأثير عليهم.
2. ليركز جهده عليهم فلا يشتت نفسه، فهو أوَّل نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ عز وجل إلى أهْلِ الأرْضِ كما في حديث أنس رضي الله عنه في الشفاعة.

هنا يقول ربنا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: 59] فما الفرق بين الإرسال والبعث؟

الجواب:

1. يجوز أن يُبْعَث الرجل إِلَى الآخر لحَاجَة تخصُّه دُونك وَدون الْمَبْعُوث إِلَيْهِ كَالصَّبِيِّ تبعثه إِلَى الْمكتب فَتَقول بعثته، وَلَا تَقول أَرْسلته؛ لِأَن الْإِرْسَال لَا يكون إِلَّا برسالة.

2. الإرسال يدل على وجود رسالة محددة، والبعث يدل على أن الباعث -وهو الله عز وجل- بعث من يحيي بالإيمان النفوسَ الميتةَ بالكفر.

مشهد [3]

مهمة قادة القسط في الأرض أن يقوموا بالتبليغ التعليمي الإعلامي لأقوامهم

﴿فَقَالَ﴾ [الأعراف: 59]، فلم يسكت، ولذا قَالَ ﷺ: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ» "أحمد (12246) وصححه الأرناؤوط والألباني".

مشهد [4]

مشهد الحكمة في الدعوة

فجمع بين التلطف والصراحة الكاملة عندما قال: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ [الأعراف: 59]، فهذا اللفظ يجمع حنانًا، وإشعارًا للسامع بالقرب والقلق الأخوي

ومثل ذلك قول النبي ﷺ:

«إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ» "البخاري (7283)".

مشهد [5] 5

لخَّص نوحٌ عليه السلام دعوته في ركنين

ركن [1]

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[الأعراف: 59]

فهذا الركن يتعلق بالنظام الذي يكونون عليه في الحياة الحاضرة، وبيَّن هنا: أنه يجب أن نوحِّده سبحانه وتعالى في ألوهيته، وأيضًا بيَّن البرهان على وجوب عبادة الله عز وجل كأنهم قالوا: لماذا نعبد الله عز وجل دون غيره؟ فقال: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، أي: فليس إله يستحق العبادة غيره، فلا تقارنوا به عبادة الأصنام، أو الشمس، أو القمر، أو الحجر، أو البشر.

ركن [2]

الإعداد للحياة المستقبلة

والحذر من مخاطر عذابها القادم لمن يفشل في حياته الدنيا ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف:59].

أي: إذا أنتم لم تعبدوه فاحذروا عذاب يوم عظيم.

وقد تتساءل: ولكن ماذا يقتضي خوف نوحٍ في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[الأعراف:59]؟

الجواب:

1. الجَزْمُ واليَقِينُ بوقوع العذاب على الظالمين في الآخرة؛ لأن العذاب القادم واقع.
2. التوقُّع والترقُّب لوقوع العذاب في المستقبل، فيجب الحذر منه؛ لأنه متوقَّع لمن يعصي.

فأشرق كلام نوحٍ عليه السلام عن أربع قضايا هي:

1. التَّكْليفُ كلَّفهم بأن يعبدوا الله عز وجل.
2. التَّوْحيدُ كلَّفهم فما لهم إله غيره.
3. النُّبُوَّةُ فأرسل من يبلِّغهم هذا الكلام.
4. المَعادُ لأنه تكلَّم عن عذاب يوم عظيم.

وترى العاطفة النبوية الصادقة حيث قدَّم نوح عليه السلام كلمة ﴿عليكم﴾ على العذاب، فقدَّم ذكرهم على ذكر العذاب المخوف منه.

مشهد 6 [6] قُوَى الملأ المستكبرة تتعاون في الردِّ العنيف السلبي القوي عليه

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: 60]

فإن قلت: لماذا سمَّاهم الله عز وجل (الملأ)؟

الجواب: هذه الكلمة تصوِّر معنيين كبيرين يصفان هذه القُوَى:

1. هُمُ رُؤَساء الناسِ وقياداتهم الَّذِينَ يملؤون صُدُورَ المجَالِسِ، وتمْتَلِئُ القُلُوبُ والعيون مهابة لهم برؤيتهم.
2. هم الجَماعَةُ الَّذِينَ يكون أمْرُهم واحِدًا، فيتحدون فِي قضية أو قضايا مشتركة، مشتق من مَلأه ومالأه على الأَمْرِ أي: سَاعَدَه.

منحهم الله عز وجل قُوَىً مادية ومعنوية يعتمدون عليها في تكوين نُفُوذ لهم، لكنهم هنا استعملوها في الإجرام، وصوَّر الله عز وجل لنا أنهم ردوا على نبيهم بسرعة دون تفكير أو بحث في صحة كلامه ﴿قَالَ﴾، ونصَّ على أنهم ﴿مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾؛ ليبيِّنَ شدَّة معاناته معهم، فالألم من القريب أعظم من البعيد.

مشهد 7 [7] أوَّل التُّهم الموجَّهة لقيادات الخيرية الإنسانية: الاتهام بالوقوع في الضلال المبين

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأعراف: 60]

أي:

نحن نؤكد لك ولمن يسمعنا أننا نراك بيقين أنك تعيش في ضلال واضح ليس فيه شك يحيط بك، والضلال: يعني التيه الفكري، والهلكة المعاشية، فأنت لا تصلح لقيادة الناس لإصلاح أوضاعهم، وهذا التصوير من ﴿إِنَّ﴾ المشدَّدة المؤكدة، ولام الابتداء المؤكدة ﴿لنراك﴾ و﴿في﴾ الدالة على الإحاطة.

مشهد [8] 8

الجواب الهادئ المقنع لنوح عليه السلام يظهر فيه حقائق الدعوة والداعية

حقيقة [1]

نفي التهمة بأسلوب هادئ غير منفعل

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ **تلطفًا فلم يتبرأ منهم** ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ [الأعراف: 61] **فلم يقل: لست في ضلال، بل أتى بحرف الباء؛ ليخبرهم أن الضلال ليس ملتصقًا به فكيف يمكن أن يحيط به كما ادَّعوا؟** ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ **فنفيُ الضلالة الواحدة يعني نفي الضلال كلِّه، فنفيُ الأدنى أبلغ من نفي الأعلى.**

حقيقة [2]

العلامة المميزة لنوحٍ عليه السلام

هي قوله: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ﴾ [الأعراف: 61]: **والرسالة أمانة أسندت إليه، وبيَّن أهمية رسالته، فقال:** ﴿وَلَٰكِنِّي﴾ **استدراك تفيد أن ما بعدها يخالف ما قبلها** ﴿رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 61] **فرب العالمين لا يترك العالمين سُدىً دون أن يبيِّن لهم كيف يديرون حياتهم، ويهتدون في قراراتهم، ووصف الله عز وجل بأنه رب العالمين؛ ليفخِّم المرسَل تعظيمًا للمرسِل سبحانه وتعالى.**

حقيقة [3]

يجب على الرسول البلاغ مهما أوذي: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ [الأعراف: 62]

والتَّبْليغُ والإبْلاغُ: جَعْلُ الشَّيْءِ بالِغًا، أيْ واصِلًا إلى المَكانِ المَقْصُودِ فلن تنجحوا في إيقافي عن تبليغ رسالة ربي، ولذا حرص النبي ﷺ على استشهاد الناس أنه بلغ، فقال يوم عرفات:

«وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟». قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ، وَأَدَّيْتَ، وَنَصَحْتَ. فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدِ اللَّهُمَّ اشْهَدْ»» "مسلم (2922)".

وروى البيهقي أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ وهو يرى شدة حرصه على تبليغه: يا محمد، هل أنت منته عن سب آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت.

"دلائل النبوة للبيهقي (2/207)، وحسَّنه بعض المعاصرين"

وقد تسأل: ما الحكمة في التعبير بالجمع في قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾، دون الإفراد؟

الجواب:

جمع رسالات في قوله: ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾؛ لأنه يبلغها في الأوقات والأمكنة المتعدِّدة، ولأنها تتعلق بتنظيم حياتهم في المجالات المتعدِّدة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كأنَّ كلَّ مجال رسالة مستقلة.

حقيقة [4]

القيام بمقتضيات الواجب الإنساني بالنصيحة

﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 62]

والنَّاصِحُ هو الْخَيَّاطُ لغة، والنُّصْح: الإرشاد إلى الفعْل أو القَوْل المتقن الذي يحقِّق أجمل المصالح وأقواها مَعَ خُلُوص النِّيَّة من شَوائِب المَكْرُوه، وزاد ﴿لَكُمْ﴾ ليزيد في التحبُّب لهم والحرص عليهم، أي لا لغيركم، لا ليكونوا كما قيل:

نَصَحْتُ بَنِي عَوْفٍ فَلَمْ يَتَقَبَّلُوا
رَسُولِي ولَمْ تَنْجَحْ لَدَيْهِمْ رَسائِلي

النابغة الذبياني

حقيقة [5]

فضَّل الله الأنبياء -عليهم السلام- بعلم لا يمكن للبشر أن يصلوا إليه بذكائهم

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 62]، وامتياز الأنبياء هنا نبويٌّ وهبيٌّ اختياريٌّ من الله عز وجل، ليس امتيازًا كسبيًا اجتهاديًا.

فيعلمون بالمآلات المهلكة للظالمين في الدنيا، وبعقوباتهم الأخروية، وبما أراد الله عز وجل من البشرية أن يسيروا عليه في نظام حياتهم، وطرائق تفكيرهم.

حقيقة [6]

وجود رسالة إلهية يُكلَّفُ رجل بتبليغها قضية منطقية عقلانية

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: 63] **فأثبت ثلاث قضايا:**



ودخلت على واو العطف همزة السؤال ليُنْكرَ تفكيرهم الضال، والتَّعَجُّبُ: حالةٌ تَعْرض للإنسان عند رؤية ما لم يعهد مثله، أو عند الإحساس به، فيراه المرء غير منطقي، فكأن نوحًا عليه السلام يقول لهم:

أأصابتكم حالة انفعالية نفسية مريضة عند رؤية القضايا المنطقية، فكذبتم وجعلتموها غير منطقية، وعجبتم منها؟!

فالعجيب المخالف للمنطق هو ألا يجيئهم ذِكْرٌ من ربهم على رجل منهم يعرفونه نسبًا وحالًا، فكيف يخلق الله عز وجل هذا الخلق ثم يتركه دون إرشاد أو بيان لحقيقة وجوده؟!

حقيقة [7]

تجني الإنسانية أعظم الفوائد من وجود الرسالة الإلهية

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: 63]

[1] ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾
التحذير المشفق من المخاطر الواقعة والمتوقعة.

[2] ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾
والتقوى التي تَنتج عن الإنذار، وتعني تشكيل الحماية من هذه المخاطر.

[3] ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾
نزول الرحمة التي تَنتج عن التقوى.

مشهد 9 [9]

ختام مشاهد التدافع بين المصلحين والمفسدين

1 ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يجب أن يتوقَّع المصلحون عدم الاستجابة من المستكبرين.

2 ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ إنجاء المصلحين مسألة وقت.

3 ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ الإنجاء ليس خاصًا بالأنبياء -عليهم السلام-، بل يشمل من صحبوهم.

4 ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ يجب أن نبذل الأسباب المتاحة حتى يأتي الله عز وجل بأمره.

5 ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ هلاك المفسدين يتحقَّق بالقدرة الإلهية العادلة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: 64] عمى القلوب، لأنهم أغلقوها عن الحقّ

يُقَالُ رَجُلٌ عَمٍ فِي الْبَصِيرَةِ وَأَعْمَى فِي البصر.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ -رحمه الله-:

"مَا عَذَّبَ اللَّهُ قَوْمَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا وَالْأَرْضُ مَلْأَى بِهِمْ، وَلَيْسَ بُقْعَةٌ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا وَلَهَا مَالِكٌ وَحَائِزٌ".

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ -رحمه الله-: بَلَغَنِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما-:

"أَنَّهُ نَجَا مَعَ نُوحٍ عليه السلام فِي السَّفِينَةِ ثَمَانُونَ رَجُلًا أَحَدُهُمْ "جُرْهُم"، وَكَانَ لِسَانُهُ عَرَبِيًّا".

تفسير ابن أبي حاتم (1506/5)

إذا كان العهد الأول قد تحدَّث عن القيادة البشرية الأولى (نوح عليه السلام) ومحاربته للشرك، فما العهد الثاني من عهود تاريخ البشرية الفاصلة؟

الجواب: هنا يأتي:

العهد الثاني

القيادة الثانية للبشرية هود عليه السلام يواجه إفساد الأرض بالشرك [الأعراف 65-72]

وقد تسأل: ما المشاهد التي تضمَّنها العهد الثاني؟

الجواب: تضمن هذا العهد 8 مشاهد:

مشهد [1]

1 **هود** عليه السلام **يمثِّل القيادة الثانية لإصلاح الأرض، حيث أرسله الله** عز وجل **إلى قبيلة عاد القوية**

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: 65]: **فالواو لعطف قوله ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ على قوله ﴿نُوحًا﴾، والتقدير: لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه، وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا، فالواو تحدِّثنا كيف تمضي عجلة التاريخ، وتصحبه رحمات الله** عز وجل **بإرسال الرسل** -عليهم السلام-.

2 **قدَّم الله عز وجل ذكر المرسل إليه ﴿عاد﴾ على اسم الرسول للتركيز على هذه الدولة المرسل إليها، حيث تميَّزوا بجبروتهم وطغيانهم وقوتهم.**

3 **كلمة ﴿أَخَاهُم﴾ تبصِّرنا بأنه ينتمي إليهم في الأرض والنسب، فيجب تركيز الجهود الدعوية ليكون المصلح واحدًا من المجتمع الذي يراد إصلاحه.**

4 **وتبصِّرنا بأن الإخوة الإيمانية لا تلغي الأخوة الإنسانية، بل تصلحها وتقوِّيها وتوجِّهها.**

5 **أهمُّ أسس رسالة هود** عليه السلام **لإصلاح الأرض: أن يعبدوا الله** عز وجل **حال كونهم موحِّدين له في العبادة ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾** [الأعراف: 65].

فربما سأل سائل: ما دليل استحقاق الله عز وجل لأن يُعبَد دون ما سواه؟

الجواب:

1. أنه لا يوجد إله حقيقيٌّ يستحقُّ وصف الإلهية إلا هو ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 65] أي ما لكم حقٌّ ولا دليلٌ ولا منطقٌ في أن تتخذوا إلهًا حقيقيًّا إلا الله عز وجل.

2. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 65] أي: تعبدونه إلهًا واحدًا لتتقوا المخاطر المستقبلية التي تنتج عندما تتخذون إلهًا غيره، وهذه المخاطر نوعان:

- **دنيوية (1):** لأنكم ستفسدون حياة أنفسكم كما في واقع الأرض الآن.
- **أخروية (2):** لأنكم رفضتم أهمَّ واجبات الوجود وهو عبادة مَنْ خلقكم.

مشهد [2] هجوم قُوَى الملأ المستكبرة السريع على المصلحين

ليمنعوهم من التأثير فيهم وفي غيرهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: 66] ردَّ الملأ الذين غطَّوا عقولهم، فكفروا بدعوته دون تفكير، ووصفهم بـ﴿كَفَرُواْ﴾ لعله ليبين أن منَ الملأ مَنْ آمن، وهذا يعني عدم اليأس من إيمان الملأ. ووصف الملأ بأنهم ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ ليظهر ألَمُ هودٍ عليه السلام حينما يكون عدوه من قومه.

مشهد [3] توجيه التُّهَم الجاهزة التي توجِّهها وسائل إعلام قُوَى الملأ المستكبرة المعتادة إلى أعظم المصلحين

تهمة [1]: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: 66]

فكلمة ﴿إِنَّ﴾ لتأكيد التهمة، و﴿فِي﴾ للظرفية المحيطة تعني: تحيط بك السفاهة أي الاضطراب والضعف في الرأي فلا تدرك الواقع.

تهمة [2]: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: 66]

فكلمة ﴿إن﴾ لتأكيد التهمة، وكلمة ﴿لَنَظُنُّكَ﴾ تجعلهم يَظهرون بمظهر العدل، أي نحن غير متيقنين، لكن يغلب على ظننا أنك تنتمي إلى مجموعة من الكاذبين.

مشهد [4] 4

حقائق إقناعية: هود عليه السلام يدافع بأفضل الطرق

ويُظهر حقائق تُقنع أمَّته بصدقه:

حقيقة [1] أقنعهم بالجمع بين ضرورة الردِّ والتلطُّف فيه والقوة في بيان الحقائق

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ [الأعراف: 67] فقول الله عز وجل: ﴿قال﴾ يدل على ضرورة الردِّ، وتلمُّس التلطُّف حيث قال ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، وقال: ﴿لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ أتى بباء الإلصاق، فكأنه يقول: لَيْسَ بِي أَدْنَى شَيْءٍ مِنْ أنواع السَّفَاهَةِ وَشَوَائِبِهَا، نفى عن نفسه السفاهة في بساطة وصدق، ولم يتبرأ منهم هنا. قال الزمخشري -رحمه الله-: "وفي إجابة الأنبياء -عليهم السلام- أدب حسنٌ، وخلق عظيم، وحكاية الله عزّ وجلّ ذلك تعليمٌ لعباده كيف يخاطبون السفهاء". "الكشاف (2/116)"

حقيقة [2] أقنعهم بأن سبب الدعوة الإصلاحية ليس عقله المفكر، بل هو رسول

﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ﴾، وليس رسولًا من جهة بشرية قوية أو ضعيفة، بل هو رسول ﴿مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 67]، وهذا وصفٌ يدل على:

برهان قاطع على وحدانية مرسلِه في الألوهية، فهو رب العالمين، وليس ربًّا لجزء محدَّد في العالم، ورحمة، فمن تربيته لهم يرسل رسلًا يصلحون أخطاءهم، فربَّاهم:

1. بالإيجاد بأنْ خلقهم.
2. والإعداد بأنْ خلق لهم الحواس.
3. والإمداد بأنْ خلق لهم الأرض.
4. والإرشاد بأنْ أرسل لهم الرسل.

حقيقة [3] أقنعهم بأن واجبه الرسالي يقتضي التبليغ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ [الأعراف: 68].

التبليغ يعني: إيصال البلاغ إلى الذين أُرسل إليهم، و﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ بالجمع لتعدُّد أوامر الله عز وجل ونواهيه في الجوانب الفكرية، والنفسية، والاجتماعية، والسياسية، والفردية، والجماعية، وكلمة ﴿رَبِّي﴾ تبيِّن قوَّة الرسالة، ومصدرَها، فهو ربُّه الذي يعتزُّ بذكره.

حقيقة [4] أقنعهم بوصف نَفْسِه بأهمِّ أوصاف بناء الثقة: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: 68]

قدَّم قوله ﴿لكم﴾ ليبيِّنَ حرصه على مصالحهم، والأمِينُ: هو الثِّقَةُ الذي يأمن الناس من شره، ووصف نصيحته بالأمانة، وهي صفة تبعث الإنسان على إسباغ الأمن على غيره بحفظ حقوقهم، وقال عنها ﷺ:

«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له» "أحمد (12383)، وحسَّنه الأرناؤوط والألباني""

فالنصيحة تدلُّ على تقديمه خالص ما ينفعهم. والأمانة تدلُّ على التزامه بما أمر رب العالمين، كأنه يقول: عُرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة، فما حقي أن أُتهم، لماذا تتهمونني إذًا؟

حقيقة [5] أقنعهم بأن وجود رسالة إلهية يُكَلَّفُ بها رجل قضية منطقية عادلة، فلماذا تستنكرونها؟

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: 69]، يقنعهم بضرورة وجود النبوة:

1
فيحرك عقولهم من خلال أسلوب الاستفهام الإنكاري ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾، فينبغي أن تقتنعوا بضرورة وجود الوحي والنبوة، كأنه يقول لهم: أنتم ترون مقدار عناية ربِّكم بأجسامكم وبيئتكم فهل هناك عجب في أن يُكْمِلَ عنايته بكم، فينزل ذكرًا إليكم؟

2
استعمل لفظة ﴿الذكر﴾ المميزَّة؛ لأنها تدلُّ على أنهم سيكونون مذكورين عنده، ومذكورين في الحياة كلِّها، ويذكِّركم كيف تنظمون حياتكم.

3
أقنعهم بضرورة أن يكون النبيُّ رجلًا من البشر لا من غيرهم من الأجناس لا الملائكة، ولا الجن.

4
وكلمة ﴿منكم﴾ تدلُّ على أمرين معًا:

1 أن يكون الرسول بشرًا.

2 أن يكون من قوم المرسل إليهم ليعرفوا أمانته قبل الرسالة، وليظهر لهم أن عِزَّهُ عِزُّهم وأن شَرَفَهُ شَرَفُهم، وأنه يريد أن يرفعهم إلى المحلِّ الأعلى والمكان الأسمى.

حقيقة [6] أقنعهم بأهمية محتوى الرسالة الإلهية ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:69]

فأهمُّ محتويات الذِّكر:
الإنذار من الأخطار الواقعة أو المتوقعة، والإنذار يدلُّ على:

1 العلم بالماضي والحاضر والمستقبل

2 ويدلُّ على إشفاق المنذِر من أن يقع المنذَر في المهالك الحاضرة والمستقبلة.

حقيقة [7]

أقنعهم بالتذكير بالتاريخ والحاضر فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:69]

أي: لا تغفلوا عن التاريخ، واذكروا أن الله عز وجل جعلكم خلفاء من بعد قوم نوحٍ عليه السلام فصرتم ملوك الأرض، واذكروا ما حدث لهم عندما تمردوا على ما أنزل إليهم من ربهم.

حقيقة [8]

أقنعهم بالتذكير بعظمة النعمة التي ميزتهم عن قوم نوحٍ عليه السلام ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف:69]

﴿بَصْۜطَةً﴾

البَسْطة: الْوَفْرَةُ وَالسَّعَةُ والغنى، فزاد في خلقكم في أربع جهات:

1. في أجسامكم طولًا وعِظَمًا.
2. وفي عقولكم حيث يمثل العرب بأحلام عاد.
3. وفي كونكم من قَبيلَةٍ واحِدَةٍ مُتَشارِكِينَ في القُوَّةِ والشِّدَّةِ والجَلادَةِ.
4. وفي قُدْرَتِكم على السيطرة على غيركم.

حقيقة [9]

ختم حواره الإقناعي لهم بختام مثير لتفكيرهم

فحثَّهم على تذكر عجائب صنع الله عز وجل نِعَمًا ونِقَمًا، حتى يسهم ذلك التذكُّر في تحقُّق الفلاح لهم في كلِّ قرار يتخذونه، ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:69]

﴿ءَالَآءَ﴾

وردت 34 مرة، وهي جمع "إِلَى" بكسر "الألف" في تقدير ضِلع وأضلاع، ورجَّح الفراهي -رحمه الله- أن الآلاء معناها: "الفِعال العجيبة" فيدخل فيها النعم والنقم، أي عجائب لطف الله تعالى، وبطشه، وقدرته.

1

الآلاء تهدي إلى فاعلها وخالقها ومالكها، وهو الله جل جلاله، والهداية إلى الخالق تقتضي شكرَه على نعمه، واتقاءَه من أن تحلَّ على المغضوب عليه نقمُه.

2

أمرهم بأن يذكروا آلاء الله عز وجل؛ لِأَنَّ النَّفْسَ جُبلت على النسيان.

3

الذِّكر يؤدِّي إلى تحقيق النجاحات المتعدِّدة في الدنيا والآخرة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، والفلاح يقتضي الجهد ليجني الفالحُ ثمرةَ عملِه.

4

مشهد 5 [5]

استفزاز الباطل المجنون بالردِّ على التوحيد

نشر الملأ حملة تشويه همجية مضادَّة للأسلوب العقلاني المقنع حيث قالوا:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ (الأعراف:70)

1 اعتمدوا على عبادة التقاليد، والتخويف من الوافد الصحيح الجديد الذي سيحرِّر عقولهم من العادات الثقافية الجاهلة:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: 70]

[1] فكلمة ﴿قَالُوٓاْ﴾
تبصِّرنا بأن قوى الملأ لم تسكت، بل ردوا عليه

[2] وقوله ﴿أَجِئۡتَنَا﴾
تبصِّر بمقدار اهتمامه بتصحيح فكرهم المنحرف، واجتهاده، كأنه بعيد فتحرَّك نحوهم

[3] وكلمة ﴿وَحۡدَهُۥ﴾
حَالٌ مِن اسْمِ الْجَلَالَةِ، والتقدير: أنعبده حال كوننا موحِّدين له، وكأنهم لا يمانعون أن يعبدوه عندما يشركون به، كما قال مشركو قريش: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: 5].

2 استدلوا على صحة شركهم بأن صادروا عقولهم، وقلَّدوا آباءهم، فقالوا: ﴿وَنَذَرَ﴾ أيْ: نَتْرُكَ تركًا مهملًا لـ ﴿مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف:70] من الأولياء والشفعاء

فكلمة ﴿كَانَ﴾
تدلُّ عَلَى تأصُّل شركهم منذ القدم

وقوله ﴿يَعۡبُدُ﴾
صِيغَة مُضارع لاستحضار حال الآباء وهم يقومون بهذه العبادة.

3 يحدث مثل ذلك للأسف، فلَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَبِي طَالِبٍ:

((يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ)) فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. "البخاري

مشهد [6]

أظهروا القوة والانتصار

فقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:70] ردًا على قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:65]: وَالْأَمْرُ فِي قَوْلِهِمْ: فَأْتِنَا لِلتَّعْجِيزِ، فإن كان يخوفهم فليحقق التهديد الآن، واستعملوا ﴿تَعِدُنَآ﴾ محل (تتوعدنا) استهزاء به؛ لأن تهديده لهم بغضب الله عز وجل يعني تحقُّق الوعد له عليهم، فهل يطلب هذا الطلب عاقل؟ فإن جاءهم الهلاك فما الذي سيفيدهم إذن؟

وهذا التحدي غير المعقول يبصِّرنا أنهم هُزموا أمام حجَّته العقلية. تصوَّرْ طالبًا يخوِّفه أستاذُه من أنه إن لم يذاكر فسيفشل، وبدلًا من أن يستمع الطالب العنيد قال: أتحداك هات الفشل الآن إن كنت صادقًا.

مشهد [7]

الردُّ العقلي المتفوق

فلم يسكت هود عليه السلام، بل ردَّ في ثلاثة اتجاهات مشتركة:

اتجاه [1]

الدعاء عليهم والإخبار عنهم بالوقوع في عقوبة إلهية:
﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف:71].

1 فانتقل من لغته الهادئة السابقة إلى لغة شديدة موقظة، فهذا دعاء وخبر، فأخبرهم أنه يتوقع أنه سينزل عليهم رجس وغضب يدمرانهم، وجعل المتوقع بمنزلة الواقع.

2 و"الرجز" و"الرجس" بمعنى واحد عند بعض العلماء، ويظهر أن الرجس كلمة تدُلُّ عَلَى أمر قذر مستقبح منتن مدمِّر في جرمه ورائحته، أو على طاهر خالطه قَذَرٌ فنجَّسه، أي وقع عليكم من ربكم عذابٌ اختلَّ به تفكيركم بسبب عنادكم، فازددتم كفرًا كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:125].

3 وقوله ﴿وَغَضَبٌ﴾: صفة تجمع بين قوَّة وشِدَّة وغِلظة وحزم وجفاء، من قولهم: الْغَضْبَة وهي الصَّخْرَةُ الصُّلْبَةُ، أي وقع عليكم شِدَّة وجفاء وتحقير لكم من ربكم.

اتجاه [2]

بيَّن سبب هذا الغضب، وهو إصرارهم على تقليد آبائهم، فقال:
﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ [الأعراف:71].

[1] ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي﴾

همزة السؤال تصوِّر استنكاره الشديد، وقوله: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي﴾ تبصِّر بطريقتهم في الحوار، فهم يجادلون، والجدال لغة من جَدَل الحبل، أي: أحكم فَتْلَه، وهذا يعني أنهم يناقشونه بانغلاق شديد دون قلب مفتوح أو عقل متفتح.

[2] ﴿نَزَّلَ﴾

أتى بصيغة التنزيل؛ لأنَّ التَّفْعِيلَ يَأْتِي بِمَعْنَى الفِعْلِ المُجَدَّدِ والمتدرج.

[3] ﴿سُلۡطَٰنٖ﴾

من التسلط، فهو الحجة الواضحة التي تَتَسَلَّطُ عَلَى نَفْسِ الْمُعَارِضِ وَتُقْنِعُهُ.

كأن هودًا عليه السلام سألهم: ما الدليل على أن هذه الأوثان التي تعبدونها مع الله عز وجل تستحق أن تكون آلهة تعبد؟ هل أنزل الله عليكم سلطانًا أي: حجة قاطعة بوحي لا تشكون فيه، فأخبركم أنه ينبغي أن تعبدوها معه؟

سيجيبون: لا!

حينها سألهم: فما الدليل على استحقاقها لهذه المرتبة العالية؟

ربما أجابوا: إنهم آباؤنا الذين جعلوا لها هذه المرتبة، فهم سمَّوها آلهة، فسموا: العزى من العزيز، واللات من الإله، ونحن نقلدهم في ذلك.

وهنا يأتيهم الجواب الصاعق الموقظ: هل أنتم مجانين؟ لا تملكون عقولًا؟ كيف تعمدون إلى مخلوقات لا يمكن أن تكون أندادًا لله عز وجل، ولأنكم وآباءكم سميتموها آلهة تصبح حقًا مماثلة لله سبحانه وتعالى!

هذا القانون الكبير: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾

يعني أنه لا بدَّ في مسائل العبادات من دليل واضح أنزله الله عز وجل ليكون ذلك الفعل عبادة صحيحة.

اتجاه [3]

حذَّرهم من العواقب المستقبلية إن أصروا على الضلال، فالمستقبل قادم يحمل المخاطر إن لم يتوبوا فقال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف:71].

1. الْفَاءُ لِتَفْرِيعِ الْإِنْذَارِ على ما سبق، وصِيغَةُ الْأَمْرِ ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ لِلتَّهْدِيدِ.

2. واجه بذلك قولهم السفيه: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:70]، فكأنه يقول لهم: إن وقوع الدمار أو الهلاك بسبب ظلمكم لا يعود إليَّ، بل هو بيد الله عز وجل، أي: فانتظروا وعد الله الذي ينجِّي به المؤمنين، ويعاقب به المستكبرين

مشهد [8] 8

النهاية المحتومة للفريقين

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: 72]

1. ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾: الفاء تصوِّر التعقيب على القصة، والنهاية القادمة كأنها وقعت مباشرة بعد الحوار مع أن العادة أن تطول المدة بينهما.
2. ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾: ﴿نا﴾ تبصِّرنا بالتعظيم والتمجيد، والإنجاء يصوِّر التخليص الخفي السريع من النجوى وهي الكلام الخفي، والنجوة وهي المكان المرتفع.
3. ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾: والباء تعني الإلصاق والاستعانة والمصاحبة والسببية، فنجاتهم كانت بسبب رحمة الله عزوجل التي لاصقت كلَّ لحظاتهم، واستعانوا بها فصاحبتهم، وعظَّمها، فقال: ﴿مِّنَّا﴾.
4. ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾: فكان القطع لدابرهم أي لأواخرهم. أي أُخذوا جميعًا، واستؤصلوا عن آخرهم على خلاف أخذ البشر، فلا يمكنهم استئصال غيرهم عادة، وبيَّن الله عز وجل إهلاكهم تفصيلًا بالريح في سور أخرى كالحاقة والأحقاف والقمر.

5

قانون العدل بتلخيص جرائمهم الكبرى في جريمتين ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾

فأخبر الله أنهم كانوا يراوغون، فيزعمون الإيمان بالله لكنهم يصرُّون على الشرك.

إذا كان العهد الثاني قد تحدَّث عن القيادة البشرية الثانية (هود عليه السلام) ومحاربته للشرك، فما العهد الثالث من عهود تاريخ البشرية الفاصلة؟

الجواب: هنا يأتي:

العهد الثالث

القيادة الثالثة للبشرية: صالح عليه السلام يواجه إفساد الأرض بالشرك، ويطالب بإقامة مبادئ الاستخلاف الرباني، وذِكْر آلاء الله عز وجل، وتَرْك الإفساد [الأعراف 73-79]

وقد تسأل: ما المشاهد التي تضمَّنها العهد الثالث؟

الجواب: تضمن هذا العهد 5 مشاهد:

مشهد [1]

رحمة إلهية متصلة بالبشرية

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف:73] فالواو ربطت اللاحق بالسابق، أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا.

ثمود أمة عظيمة أقامت حضارة متقدمة ذات مصانع مبتكرة، قال بعض المفسرين: سُمِّيَتْ ثَمُودَ؛ لِأَنَّهُ اسْمُ أَبِيهِمُ الأَكْبَرِ، ويحتمل أنهم كانوا يَثْمُدون المكان: أي يهيِّئونه كالحوضِ ليجتمع فيه الماء من ثمد الماءَ: استنبطهُ من الأرض، والثَّمْدُ: أَن يَعْمِد إِلى موضع يُلْزم ماءَ السماءِ يجعَلُه صِنْعًا (وهو المكان الذي يجتمع فيه الماء، وله مسايل من الماء)، كما ذكر ابن منظور، وماءٌ مَثْمود: كَثُر عليه الناس حتى فني ونَفِدَ إِلا أَقلَّه.

﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾

الوصف بالأخوة يثبت الأخوة النسبية والإنسانية، ولكن الأخوة الإيمانية تهيمن عليهما، ويبصرنا بأن الرسول ينبغي أن يكون من جنس القوم؛ ليكون أقوى تأثيرًا عليهم.

مشهد 2 [2] صالح عليه السلام يبين أسس دعوته لتُصلح ثمود ما أفسدته في الأرض (الأعراف 73-74)

وقد تسأل: ما الأسس التي تضمنتها دعوة صالحٍ عليه السلام قومَه ليصلحوا ما أفسدوه؟

الجواب: تضمنت دعوة صالح عليه السلام 8 أسس، وهي:

أساس [1] عبادة الله وحده: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [الأعراف: 73]، فأقنع قومه عقليًا أولًا

[1] فكلمة ﴿قَالَ﴾

تبصرنا بقيامه بأداء رسالته وتبليغها.

[2] كلمة ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾

تبصرنا بأن البشرية كلها تشتغل بالعبادة، لكنْ منهم من يعبد نَفْسه، أو صَنَمه، وهو يأمرهم أن يَعْرفوا اسم الإله الذي يعبدونه، وهو الله جل جلاله.

[3] ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾

تبصِّر أنه لا يستحق اسم الألوهية أحدٌ سواه، فالعقل يأبى أن يكون له إله سوى رب العالمين.

أساس [2] وجو د البينة العامة دليل على صِحة الدعوة: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 73]

[1] ﴿بَيِّنَةٞ﴾

البينة هي الحُجَّة المنفصلة الواضحة الكاشفة للحقيقة، من (بَيْنَ) وهي كلمة تعني: انفصال الشيء وبُعْدَه وانْكِشَافَه عن غيره.

[2] قوله ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾

أتى بقد لتأكيد كلامه، ونكَّر كلمة ﴿بينة﴾ ليدل على أنها عَظِيمَةُ الْقَدْرِ، ظَاهِرَةُ الدَّلَالَةِ عَلَى مَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، فأول أنواعها إحياء المبدأ الفطري العقلي.

[3] ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾

يبصِّرنا بأَنَّ هذه البينة لَيْسَتْ مِنْ فِعْلِ صالح عليه السلام، بل من الله عزوجل الذي يربيهم على ما يصلح أحوالهم.

أساس [3]

الناقة بينة مادية من بينات صالح على صدق دعوته ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: 73]، فأقنعهم بدليل مادي محسوس ثانيًا

[1] ﴿هَٰذِهِ﴾

اسم إشارة للقريب تبصِّرنا أن الجميع كانوا يشاهدونها وهي تخرج من مكان ما، وبعضهم ذكر أنه الجبل.

[2] قوله ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾

الإضافة للتعظيم والتشريف، كقولك: بَيْتُ اللهِ، وأرض الله.

[3] ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾

جاءت لأجلكم حال كونها آية؛ لأن الله عز وجل خلقها مكوَّنة بلا واسِطَةٍ.

نقل الطبري -رحمه الله- عن ابن إسحاق

أنهم سألوا صالحًا عليه السلام أن يُريهم آية تكون مصداقًا لما يقول، فقال جُنْدَعُ بن عمرو: يا صالح، أخرج لنا من هذه الصخرة ناقةً مُخْتَرِجَةً جَوْفاء وَبْرَاء -والمخترجة: ما شاكلت البُخْت من الإبل- فإن فعلت آمنَّا بك وصَدَّقناك، وشهدنا أنَّ ما جئت به هو الحقّ! وأخذ عليهم صالح عليه السلام مواثيقهم: لئن فعلتُ وفعَل الله لتصدِّقُنِّي ولتؤمنُنَّ بي! قالوا: نعم! فأعطوه على ذلك عهودَهم. فدعا صالح ربَّه، فنظروا إلى الهضبة تتمخَّض بالناقة تمخُّض النَّتُوج -أي: الحامل من الدواب- بولدها فانصدعت عن ناقة كما وصَفوا، جوفاءَ وَبْرَاء نَتُوجًا، ما بين جنبيها لا يعلمه إلا الله عِظمًا، فآمن به جُنْدَع بن عمرو ومَنْ كان معه على أمره من رَهْطه، وكفر فريق منهم، وأراد "شهاب بن خليفة" أن يُسْلِم، فنهاه المستكبرون، فقال "مهْرَشُ بن غَنْمَة"، وكان مسلمًا:

وَكَانَتْ عُصْبَةٌ مِنْ آلِ عَمْرِو ... إِلَى دِينِ النَّبِيِّ دَعَوْا شِهَابَا
عَزِيزَ ثَمُودَ كُلِّهُمُ جَمِيعًا ... فَهَمَّ بِأَنْ يُجِيبَ وَلَوْ أَجَابَا
لأَصْبَحَ صَالِحٌ فِينَا عَزِيزًا ... وَمَا عَدَلُوا بِصَاحِبِهِمْ ذُؤَابَا
وَلَكِنَّ الْغُوَاةَ مِنْ آلِ حُجْرٍ ... تَوَلَّوْا بَعْدَ رُشْدِهِمُ ذُبَابَا

روى الطبري -رحمه الله- عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه:

أتيت أرض ثمود، فذرعت مَصْدرَ الناقة، فوجدته ستين ذراعًا.

"تفسير الطبري (12/ 539)"

أساس [4]

ضبط العلاقة بينهم وبين الناقة

[1] ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 73]

أي: اتركوها ترك الإهمال لأفعالها، فلا تثيروها، فهي ناقته تَأْكُل مِنْ أَرْضِه.

[2] ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأعراف: 73]

نهى عن مجرد المسِّ، والباء للتعدية، أي: لا توقعوا عليها سوءًا ولا تلصقوه بها، ويجوز أن تكون للمصاحبة أي: لا تمسوها بأدنى سوء، فيجوز أن يمسوها بخير، فإنْ صَاحَبَ مَسَّهُم إياها أدنى سوء فسيأخذهم عذاب أليم.

[3] ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: 155]،

قسَّم الماء بينهم وبينها: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: 155]، فذكروا أنها كانت تشرب كلَّ قطرة ماء في الوادي، ويحتلبون ما شاؤوا من لبن، فيشربون ويدَّخرون، حتى إذا كان يومهم يشربون ما شاؤوا من الماء، ويدّخرون. والظاهر أنهم ضاقوا بها لأنها من أعظم براهين صدق نبي الله صالح عليه السلام، لا لأنها ضيَّقت عليهم في معاشهم.

أساس [5]

استعمل بينة دليل التاريخ ثالثًا ليقنعهم: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ [الأعراف: 74]

[1] ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾

تعني تَذَكُّر ذلك بالعقول، ونشر التذكُّر في التربية والإعلام.

[2] ﴿خُلَفَآءَ﴾

جمع خليفة، والتاء للتقوية، أي خَلَف من قبله، وصار له الملك والسيطرة، فاعتبروا بما حلَّ بِعَاد قبلكم حين لم يقيموا مبادئ الاستخلاف.

أساس [6]

استعمل بينة دليل الواقع رابعًا ليقنعهم: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: 74]

[1]

﴿بَوَّأَكُمْ﴾ [الأعراف: 74]

أي: جعل لكم الأرض مَبَاءة ترجعون فيها، إلى مُهَيَّأ صالح مناسبٍ لكم مكانًا وكميةً وحالاً، يساوي ما آتاكم من القوة الجسدية والعقلية، حتى جعلتم الأرض كما تشاءون.

[2]

(السُّهول):

جَمْعُ سَهْل، وَهُوَ الْمُسْتَوِي مِنَ الْأَرْضِ، وَضِدُّهُ الْجَبَلُ، وهو المكان الناشز المرتفع، والقصور البيوت الواسعة الحجرية الفارهة المحصنة بالحيطان، والتنويع بين البيوت والقصور يدل على مقدار رفاهيتهم واحتياطاتهم الأمنية.

أساس [7]

استعمل دليل الآلاء، أي: عجائب صنع الله وأفعاله نِعَمًا ونِقَمًا خامسًا ليقنعهم: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 74]

أساس [8]

أمرهم بالمحافظة على صلاح الأرض إنسانًا وتصرُّفًا وبيئة، بأن حذَّرهم من صناعة الفساد في الأرض ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 74]

فلم يقل: لا تفسدوا، بل لا تعثوا، يُقَالُ: عَثَى يَعْثَى، وَعَثِيَ يَعْثِي عَثْيًا وَعَثَيَانًا، وَعَثَا يَعْثُو عُثُوًّا: إذا أفسد إفسادًا مظلمًا كبيرًا

قال ابن سيده -رحمه الله-:

أفسد أشد الإفساد

"المحكم والمحيط الأعظم (2/ 337)"

وقال رشيد رضا-رحمه الله-:

وَلَا تَتَصَرَّفُوا فِي هَذِهِ النِّعَمِ تَصَرُّفَ عَثَيَانٍ وَكُفْرٍ بِمُخَالَفَةِ مَا يُرْضِي اللهَ عز وجل فِيهَا حَالَ كَوْنِكُمْ مُتَّصِفِينَ بِالْإِفْسَادِ ثَابِتِينَ عَلَيْهِ.

"تفسير المنار (8/ 448)"

مشهد [3]

محو النور: تحرَّك المستكبرون لإيقاف تأثير الدعوة الإصلاحية لصالح عليه السلام [75-77]

وفيه 6 لقطات بصائرية:

لقطة [1] أتباع الأنبياء: مستضعفون وأغنياء أقوياء

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ [الأعراف: 75]

فالإيجاز الجذَّاب يصوِّر لنا أن طائفة آمنوا وهم صنفان: أقوياء ومستضعفون، وأبت طائفة منعها الاستكبار، والكبر حالة نفسية موجودة أصلها في الفقير والغني، فتوجَّه الملأ الذي يملؤون العين بتأثيرهم ليوقفوا تأثير صالح عليه السلام على الإنسانية، فخاطبوا المستضعفين من المؤمنين.

لقطة [2] وَصْفُ المُؤْمِنِينَ بالاستضعاف لأنَّ غَيْرَهم يَسْتَضْعِفُهم، لا لأنهم يطلبون الضعف

بل هم أقوياء أغنياء بالإيمان ولو استضعفهم غيرهم، وينبغي لهم أن يطلبوا القوة في حياتهم في أجسادهم وأموالهم، ولم يحسن الرازي -رحمه الله- حين استدلَّ بهذه الآية على فضيلة الفقر، فإن الله عز وجل لم يذكر الأغنياء من المؤمنين هنا؛ لأن المستكبرين أرادوا التركيز على المستضعفين.

لقطة [3] يحاول المستكبرون إيقاف النور من خلال الحوار والإعلام أولًا، قبل أن ينتقلوا إلى الأسوأ

وربما كان ذلك لمكانة صالح عليه السلام، ولتكاثر أتباعه، وليس الأمر لما ذكره ابن عاشور -رحمه الله- من التطور الاجتماعي البشري نحو العقل والاتزان، فالجاهلية الأخرى أفحش في وحشيتها من الأولى.

لقطة [4] تسليط وسائل التأثير لتشكيك المؤمنين والعالمين في رسالة المرسلين

فقال الملأ المستكبرون للمستضعفين من المؤمنين: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الأعراف: 75]: **فالسؤال يحتمل أن يكون لِلتَّهَكُّمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ، أو لفَهْم لماذا يتبعونه، مع أنه لا يظهر للمستكبرين أنه مرسل حقيقي من ربه.**

لقطة [5]

قوة المستضعفين: حيث ردوا بعزة مفاجئة: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: 75]

كأنهم قالوا: لا تسألوا هل نحن نعلم أن صالحًا مرسل من ربه، فهو رسول بصورة واضحة، بل ينبغي أن تسألونا: هل نجترئ فنؤمن به رغم اضطهادكم لنا، فنُعْلِمُكم بأننا نعمل بمقتضى هذا العلم، فإنا بما أرسل به مؤمنون، فأكَّدوا على إيمانهم من خلال (إنَّ) التأكيدية غير عابئين بتجبُّر المستكبرين.

وكل ذلك "مِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ فِي حِكَايَةِ كَلَامِهِمْ، وَلَيْسَ مِنْ بَلَاغَةِ كَلَامِهِم" كما يقول ابن عاشور -رحمه الله-.

لقطة [6]

القرار الأخير يلغي العقل: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: 75]

1. فأظهر الله الخلفية النفسية لأصحاب القرار الأخير، فوصفهم بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ ليبين أن ردَّهم نَبَع من استكبارهم، لا من تفكيرهم المنطقي.

2. قالوا في قرارهم: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فكفروا لا لأن صالحًا عليه السلام ليس مرسلًا، بل لأنهم استكبروا أولًا، ولأنهم لا يمكن أن يؤمنوا بشيء آمن به المستضعفون، فجعلوا معيار القبول والردِّ متعلِّقًا بالرتبة الاجتماعية والمالية.

مشهد [4]

مرحلة الاعتداء الجسدي، والجرائم الثلاثية

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف 77]

جريمة [1]

﴿فَعَقَرُوا ٱلنَّاقَةَ﴾

والعَقْرُ: قَطْعُ عُرْقُوبِ البَعِيرِ وقَوَائِمِه 1 2 أسْنَدَ العَقْرَ إلى جَمِيعِهِمْ

وعَبَّرَ بالعَقْرِ دُونَ النَّحْرِ ليصوِّر لنا تعذيبهم للناقة، حيث قطعوا العراقيب، فسالت الدماء، فتظل ترغو وتموت موتًا بطيئًا، فالعقر يُسْتَعْمَلُ في الفَساد، والنَّحْرُ في الانْتِفاعِ بالمَنحُورِ لَحْمًا وجِلْدًا وغَيْرَهُما، فلَمْ يُرِيدُوا بذَلِكَ الانْتِفاعَ باللَّحْمِ.

وبدأ بذلك واحد هو قُدَار بن سالف، قال النَّبِي ﷺ: ((﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾: انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ -أي: شديد القوة والشراسة- مَنِيعٌ فِي رَهْطِه)) "البخاري (4942)"، فجمع ثمانية حوله كوَّنوا حزب الإفساد النَّشط الذي خطَّط، ودعا وجمع الجماهير، وأدار المعركة ضد صالح عليه السلام، ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ [النمل: 48]، وتابعهم كفار ثمود: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: 29].

جريمة [2]

العتو ﴿وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ [الأعراف 77]، أي: تمردوا تمرُّدًا غاليًا في الباطل لا سبيل إلى إصلاحه

قَدَّمت كلمة ﴿عَتَوۡاْ﴾ ملخَّصًا شاملًا للأنشطة الجامحة المتمردة التي قاموا بها، وعدى الفعل بكلمة ﴿عَنۡ﴾ ليضمِّنَه مَعْنَى الْإِعْرَاضِ، ويكون التقدير: تمردوا متبجحين وتجاوزوا الحدود المعروفة في الإفساد والإجرام، وأعرضوا عن كل نُصْحٍ وُجِّهَ لهم، وقوله: ﴿أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ أتى بالمفرد المضاف ليشمل جميع الأوامر من عبادة الله عز وجل، والإصلاح في الأرض، وحِفْظِ الآية التي طلبوها.

جريمة [3]

الاستهانة بوعد الله عز وجل: ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف 77]

واجهوا صالحاً بالتحدي الطفولي المستكبر ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ﴾ نَادَوْهُ بِاسْمِهِ مجدَّدًا؛ تَهْوِينًا لِشَأْنِه، وَتَعْرِيضًا بِمَا يَظُنُّونَ مِنْ عَجْزِه، ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ اسْتِخْفَافًا بموعود الله عز وجل، كَأَنَّهم يَقُولُونَ: لن يَحْدُث ذلك.

مشهد [5] 5

ختام القصة

ختم الله عز وجل هذا العهد بذكر عاقبة قوم ثمود لما كذبوا صالحًا عليه السلام، وعقروا الناقة، فذكر نتيجتين:

نتيجة [1]

نزول العذاب في وقته المسمَّى عند الله عز وجل: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: 78]

1

فالفاء تفيد الترتيب الفعلي المعنوي والتعقيب والسببية، فالرجفة جاءت مرتبة على عتوِّهم، ولم يكن بَينهمَا إلَّا الزمان المناسب لعتوِّ الأمم، والأجل المسمَّى عند الله عز وجل لذلك.

2

تصوِّر كلمة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ شدَّة تناول هذه الرجفة لهم، حتى كأنها تلعب بهم بيديها، فالأخذ: يعني أنها أحاطت بهم، وتملكتهم تملكًا محاصرًا لهم، قاهرًا لأحوالهم.

3

و"الرجفة": "الفعلة"، وهي الحركة الشَّديدَةُ، فتضطرب الأرض وترتجّ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: 14].

4

(الدار) بالتوحيد: إشارة إلى وطنهم وأرضهم العامة، أما (الديار): فإشارة إلى مساكنهم وبيوتهم وقصورهم الخاصة.

5

قوله: ﴿جَٰثِمِينَ﴾: جمع جاثم، والجاثم هو الْمُكبُّ عَلَى صَدْرِهِ فِي الْأَرْضِ مَعَ قَبْضِ سَاقَيْهِ كَمَا يَجْثُو الْأَرْنَبُ يعني: أصبحوا سقوطًا هامدين موتى صرعى، لا يتحركون، لأنهم لا أرواح فيهم.

6

والرجفة والجثوم كانا جزاءين يقابلان العتو والتبجح، فالرجفة يصاحبها الفزع، والجثوم مشهد للعجز عن الحراك، وما أجدر العاتي أن يرتجف، وما أجدر المعتدي أن يعجز.

فإن قلت: كيف وصف القرآن عذاب ثمود بأوصاف مختلفة؟ هل هو تناقض؟

الجواب: يصوِّر القرآن لنا أنه حلَّ بهم أنواع من العذاب في تتابُع مرعب:

[1] ﴿الرجفة﴾

فجاءت (الرجفة) فأَخَذَتْهُمْ من تحتهم تزلزل ديارهم وأرضهم التي عليها يستقرون.

[2] و﴿الصّاعقة﴾

جاءتهم مِنْ فَوْقِهِمْ: ﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات:44].

وَصاحَبَ نُزُول الصَّاعِقَةِ صَيْحَةٌ شَدِيدَةُ الْقُوَّةِ وَالطُّغْيَانِ فصَخَّت آذانهم، ودمرت أجسادهم: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:67].

[3] و﴿الطَّاغِيَةُ﴾

اسْمٌ لِكُلِّ ما تَجاوَزَ حَدَّهُ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: 5]، فهي تصف ذلك كله.

عَنْ جَابِرٍ -رضي الله عنهما-، قَالَ : لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْحِجْرِ قَالَ:

((لَا تَسْأَلُوا الآيَاتِ ، وَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، فَعَقَرُوهَا، وَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا، وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا، فَعَقَرُوهَا، فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهْمَدَ اللَّهُ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ، إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللهِ، قِيلَ: مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: هُوَ أَبُو رِغَالٍ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ)) . "أحمد (14160)، وقال الأرناؤوط: حديث قوي، وهذا إسناد على شرط مسلم".

نتيجة [2]

إظهار نقاء المصلحين، ومحبتهم لصلاح البشرية

1 ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾	2 ﴿وَقَالَ﴾
في مكان ناجٍ من العذاب يراقبهم.	فالمصلحون لا يشمتون بالمعذَّبين، بل يعلنون تألُّمَهم لعدم انقياد المستكبرين للنصح الأمين، والسياق يصوِّر مقدار التألُّم والتلهُّف الذي سيطر على قلبه عندما رأى العذاب فتك بقومه.

3 ﴿يَٰقَوۡمِ﴾	4 ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾
يستدعي وشيجة القربى.	واللام واقعة في جواب القسم، والتقدير: والله لقد بذلت فيكم جهدي لأوصِّل لكم رسالة ربي، وأخلصت لكم القول الذي يرشدكم ويسعدكم: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: 79] مفاتيح الهلاك: التكبُّر على النصح، والخوف منه، والأصل محبة الناصحين.

إذا كان العهد الثالث قد تحدَّث عن القيادة البشرية الثالثة (صالح عليه السلام) ومحاربته للشرك، وإقامته مبادئ الاستخلاف، فما العهد الرابع من عهود تاريخ البشرية الفاصلة؟

الجواب: هنا يأتي:

العهد الرابع

القيادة الرابعة للبشرية: لوط عليه السلام يواجه إفساد الفاحشة للأرض

[الأعراف 80-84]

وقد تسأل: ما المشاهد التي تضمَّنتها قصة لوط عليه السلام؟

الجواب: تضمَّنت قصة لوط عليه السلام ستة مشاهد:

مشهد [1]

تظهر المناسبة والاتصال بين قصة لوط عليه السلام وما قبلها في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾ [الأعراف: 80]

1. فالواو والنصب يعبران عن اتصال وثيق بالعهود التاريخية السابقة، فالعامِلُ الذي نصب ﴿لُوطًا﴾ هو كلمة: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ التي بدأ الله عز وجل بها الكلام عن مسيرة الأنبياء لإصلاح الأرض والبشرية عندما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: 59]، فكأنه قال: وأرسلنا هودًا، وصالحاً، ولوطًا، أو يكون التقدير: واذْكُرْ لُوطًا؛ لشدَّة شذوذ الوضع الذي يعالجه في قومه.

2. لأن لوطًا عليه السلام يعالج وضعًا غريبًا جديدًا على البشرية في إفساده، فيجوز أن يكون المعنى: واذكر لوطًا، يا رسول الله ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: 80]، فيكون ﴿إِذْ﴾ ظرفًا لأرسلنا، أو واذكر لوطًا، و﴿إذ﴾ بدل منه، بمعنى: واذكر لوطًا وقت قال لِقَوْمِهِ.

3. لم يذكر الله تعالى قصة إبراهيم عليه السلام؛ لأن السورة تعرض ظهور الظالمين، وإبادة حضاراتهم المفسدة، حيث قال الله تعالى في أول السورة: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: 4]، أما قوم إبراهيم عليه السلام فلم يخرجوا في الجملة عن إفساد الأرض بأنواع من الشرك مثل شرك قوم نوح وهود وصالح عليهم السلام، وإبراهيم عليه السلام لم يطلب من ربه هلاكهم، بل قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: 48].

مشهد [2] 2

قام لوط عليه السلام برسالة الإصلاح الأخلاقي والأمن المجتمعي

فقدَّم أدوية متقنة لعلاج قومه من انحرافهم الشاذِ المدمِّر [الأعراف: 80-81]

علاج [1]

التركيز الشديد على الإفساد الخطير الذي اتصف به قومه، حيث صارحهم بخطر ما يفعلونه، فقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ [الأعراف: 80]، فلم يذكر قضية الألوهية، فلماذا؟

1

قيل اكتفاء بذكرها في قصص الأنبياء السابقين، وهذه علة عليلة؛ لأن الله عز وجل ذكرها في القصص الثلاث السابقة، والقصة الخامسة اللاحقة، فيحتمل أنه كان عندهم شيء من التوحيد، ولكنهم يأبون إلا هذه المعصية العظيمة، ومال ابن عاشور -رحمه الله- إلى هذا، فذكر أنَّ لُوطًا عليه السلام أُرْسِلَ لَهم لِنَهْيِهم عن الفاحشة، لا لِأنَّهم مُشْرِكُونَ بِاللَّهِ عز وجل، ورأى الرازي -رحمه الله- أنهم كانوا مشركين كغيرهم.

2

ركَّز على جريمتهم الشاذَّة المقزِّزة وما صَاحَبها من قطع السبيل، كما في سورة هود، والحجر، والنمل، والعنكبوت، وذكَّرهم بتقوى الله عز وجل:﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: 163]، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ [هود: 78].

3

هذه القصة تفصِّل حال الفاحشيين الذين قال الله تعالى عنهم في أول السورة: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 28].

4

وربما هوَّن بعض الناس من هذه الفاحشة الفظيعة؛ إذ يظنون أنها لا تتضمَّن عدوانًا مباشرًا على الآخرين، وأنها حرية شخصية محضة، فيهوِّنون منها مع أن حقيقتها اعتداء كامل على الوجود البشري، كجريمة الإجهاض لمن نُفِخ فيه الروح، وهي أكبر من جريمة أخذ المال بالباطل.

وربما تسأل: كيف حاول لوط عليه السلام أن يصف بقية أنواع العلاجات لنفسياتهم المريضة؟

هنا يأتي:

علاج [2]

بإمكانهم أن يعالجوا أنفسهم، فهم يأتون الشهوة اختيارًا لا اضطرارًا، فقوله: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ [الأعراف: 80] استفهام إنكاري يُفهم منه أنهم يأتون ذلك باختيارهم

وَالْإِتْيَانُ يصوِّر مجيء واحد إلى آخر لِلاسْتِمْتَاعِ المحرم المتجاوز للحدود الفطرية الإنسانية، فجعلوا ذلك هدفًا مميزًا في حياتهم، فإذا كانوا يأتونه، فيمكنهم أن يمنعوا أنفسهم منه.

علاج [3]

تبشيع ما يفعلونه، ووصفه بأقوى كلمة تجمع كلَّ ما يتقزز منه، فوصف ما يأتونه بأنه: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف: 80]

فعرَّفها بـ(أل)، وأفردها مع أن الفواحش كثيرة، والفاحشة: السيئة الفظيعة المقزِّزة المتمادية في القبح التي يستبشعها الناس.

علاج [4]

أخبرهم بالشذوذ القبيح لهذه الفعلة، فقال: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 80]، ففي فعلهم مخالفة السبيل الفطري المنطقي في اتصال الذرية الآدمية ببعضها:

﴿مِن﴾ الأولى زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق، وهذا يدلُّ على أنها شهوة شيطانية؛ إذ لو كانت جزءًا من النفسية الإنسانية لفعلها أحد من قبلهم، كأنه قال لهم: كما ابتدع ابن آدم الشقي قتل الإنسان، فكذلك ابتدعتم أنتم هذه الفاحشة المجرمة.

علاج [5]

الحديث الواقعي المباشر حول فعلهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ [الأعراف: 81]، وبعد مصارحتهم وإخبارهم بواقعهم يوبخهم عليه مستنكرًا عسى أن يحركوا شعورهم بالخطأ والمعصية:

1. فصَرَّحَ لهم هنا بما يوقظ فطرتهم، حيث ذكَّرهم بالصورة التي ينسونها في سكرة الشهوة، وهي الصورة التي تَشْمَئِزُّ مِنْها الْقُلُوبُ، وَتَنْفِرُ مِنْها الطِّبَاعُ أَشَدَّ نَفْرَةٍ، وهو أن يأتي الرجل الرجل.
2. كأنه أولًا قال لهم ﴿أإنكم﴾ بالاستفهام الإنكاري ليشنِّع عليهم، فما بعد همزة الاستفهام واقع وفاعله مذموم، وهذه قراءة الجمهور.
3. ثم كأنه قال لهم ثانيًا ﴿إنكم﴾ بالإخبار ليوبِّخهم على الواقع المرِّ الذي يعيشونه، وهذه قراءة نافع وأبي جعفر وحفص.

علاج [6]

الإرادة القوية تكبح الشهوة الغوية: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ [الأعراف: 81]

فكلمة ﴿شَهْوَةً﴾ مفعول له، أي تفعلون ذلك لا لصالحكم، أو نفعكم، أو نفع الإنسانية حولكم، بل للاشتهاء المحض، فقبَّح لهم الأمر، وأخبرهم أن مرضهم بسبب انحلال الإرادة السوية أمام الشهوة، وليس بسبب جين لا يستطيعون التخلص منه:

"الشهوة"

يقال: شَهِيَهُ واشتهاه يَشْهاهُ شَهْوةً، وهي اشتياق النَّفْس ونزوعها إلى ما تحبه وترغب فيه رغبة عارمة.

والشهوة نوعان:

1. **الصَّادقة**: ما يختلُّ الإنسان دونها كشهوة الطَّعام للجائع، أو ما يُتلذَّذُ به في موضعه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: 31].
2. **والكاذبة**: ما لا يختلُّ بعدمها الإنسان، وتورث التَّلَذُّذَ في غير موضعه.

فقوله هنا ﴿شَهْوَةً﴾ تعني:

1. أن حدة الشهوة هي دافع هذه الجريمة، لا الاستجابة للفطرة الإنسانية المعتادة.
2. أنهم يريدون قضاء شهوتهم دون أن يتحملوا تبعات إقامة الأسرة.

علاج [7]

صوَّر لهم أنهم سيَصِلُون إلى تدمير الإنسانية باستباحة هذه الجريمة

حيث قال لهم: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾، فاستغنوا عن النساء، فكيف سيؤول الأمر بهم؟ إلى الفناء والخلل السكاني.

علاج [8]

الإرادة القوية تكبح الشهوة الغوية: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ [الأعراف: 81]

لفت نظرهم إلى أن فعلهم إسراف سببه رغبة مريضة في تعدِّي طبيعة الإنسان، وليس استجابة فرضها جِينٌ بعينه، حيث قال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: 80]

1

﴿بل﴾ للإضراب، فأضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح، فالله تعالى لم يمنعهم من قضاء الشهوة الفطرية بإتيان النساء وَفْق الطريق الشرعي، لكنهم أصروا على الإسراف في استعمال القوة الجنسية في غير موضعها.

2

الإسراف تجاوز حد المباح إلى المكروه إلى الحرام.

3

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ تنفي الكذبة الكبرى المتدثِّرة بثوب العلم التي يزعمها مرضى الشهوات من أن إتيان الفاحشة استجابة لجينات في الإنسان؛ إذ حقيقة إتيان الفاحشة أنه تعدٍّ لحدود الإنسان كتعدِّي إنسانٍ على أرضٍ ليست له، أو على مالٍ ليس من حقِّه؛ لشهوة التعدِّي والسيطرة.

4

قضت المحكمة الأميركية العليا عام 2015م بالسماح بزواج الشاذِّين في الولايات المتحدة، والقرآن يكشف الكذب الكبير الذي يقترفه مرضى الفاحشة بقول لوط عليه السلام: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:80]، فلو كان هناك جين يجبر صاحبه على إتيان الفاحشة لظهر مع ظهور الإنسان، وكذلك قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:81] فالإسراف: تَعَدِّي الْحَدِّ وصولًا إلى الإهدار والإفساد.

5

أجرى باحثون في جامعة "نورث ويستيرن" الأميركية دراسة علمية عام 2014م شملت فحص الحمض النووي لـ400 ذكر ممن يأتي الفاحشة، فلم يتمكَّن الباحثون من العثور على جين واحد مسؤول عن توجُّههم الجِنْسي، وقالوا: بأن "الجينات كانت إمَّا غير كافية، وإمَّا غير ضرورية لجعل أيٍّ من الرجال شاذًا جنسيًا".

علاج [9]

الحث على الاعتراف بالأهواء المنحرفة

فإن قلت: كيف صار كلام لوط عليه السلام ملهمًا إذن في التعامل مع هذه الأنواع المخيفة من الشهوات المسرفة؟

الجواب: هذه الجمل الثلاث التي واجههم بها لوط عليه السلام:

1 قال لهم فيها: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:80]

فهي إذن ليست مسألة طبيعية دفعكم لها وجود جِينٍ أو جوهر ضمن تركيبكم الجسدي، فقد مضت البشرية قبلكم ولم يعرفوا هذه الجريمة التي تأتونها.

2 قال لهم فيها: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأعراف:81]

فالذي يدفعكم لها مجرد الاشتهاء، والاشتهاء لإتيان الرجال مثل الاشتهاء للمال الحرام، وللقتل الحرام لا حلَّ له إلا الكفُّ.

3 قال لهم فيها: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:81]

ففعلكم فيها تجاوزٌ للحلال إلى الحرام، والحلُّ لمثل ذلك الكفُّ عن الحرام، وقد قالوا:

ثلاثٌ مهلكاتٌ لا محالهْ ●●● هوى نَفْسٍ يقودُ إلى البَطَالهْ
وَشُحٌ لا يَزَالُ يُطَاعَ دَأبًا ●●● وَعُجْبٌ ظَاهرٌ في كُلِّ حَالَهْ

أبو جعفر أحمد بن ليون التُّجيبي

علاج [10]

سمى لوط عليه السلام فعل قومه (فاحشة) و(شهوة) و(إسرافًا)؛ لأنها تحتوي على مَفاسِدَ هائلة ذكرها محمد رشيد رضا -رحمه الله-:

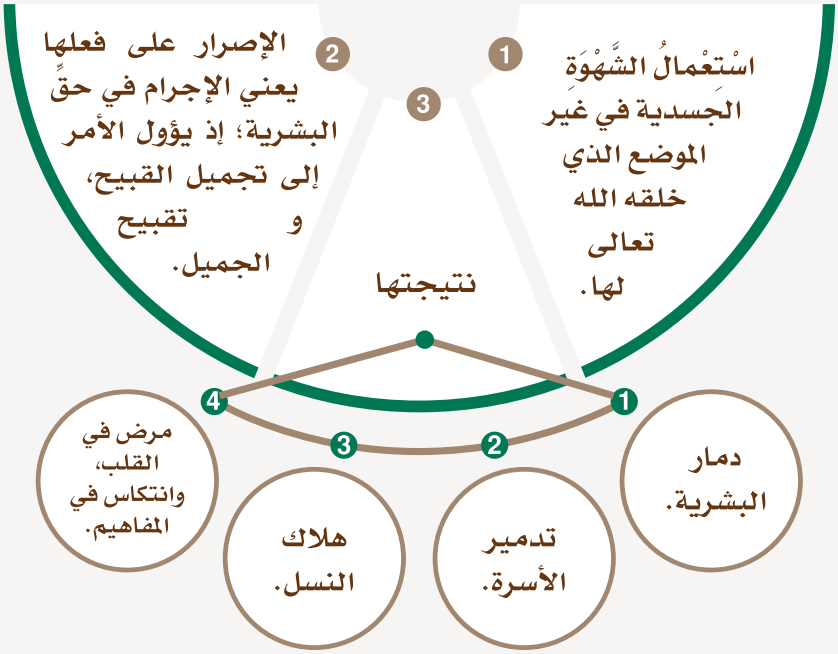

مشهد [3] 3

وقاحة واعتداء

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: 82]، **أصروا على جعل تلك الفاحشة نظام حياتهم، وحكموا على من يعالج أمراضهم بالنفي والتشريد**

1 الواو للاتصال بالعطف، والتقدير

فلم يتأثروا لحرص لوط عليه السلام ونُصْحِه.

2 ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾

الجواب: هو القول أو الفعل الذي به يجوب المتكلم الهواء الفاصل بين الطرفين فيخرقه واصلًا إلى الطرف المقابل له موافقًا أو مخالفًا.

3 الحصر في قوله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ﴾

تصوِّر لنا مصادرة عقولهم، وإصرارهم على شذوذهم، فليس عندهم إلا هذا الجواب.

4 التشريد الجماعي: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾

أجمعوا على تشريد لوط وآله؛ لئلا يؤثِّروا في الآخرين، وليكونوا عبرة، وخصَّصوا الإخراج من القرية؛ لأنها تعبِّر في القرآن عن الدولة التي تجمع مجموعة مدن -قيل كان عددها خمسًا- فالنفي من الدولة كلها.

5 ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾

أكَّدوا سبب الإخراج بالحرف ﴿إنَّ﴾، وهذا يدل على اعترافهم بطهارة آل لوط ونجاسة قومه، وكانوا جادِّين في جعل التطهُّر تهمة، ولم يكونوا يسخرون، أو يتهكَّمون، كما قاله بعض المفسرين.

6 تلمح في: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾

البراءةَ الكاملة للوط عليه السلام وبناته مما رماهم به كاتبو العهد القديم، حيث رموهم بزنا المحارم، والعياذ بالله.

مشهد [4]

الإنذار النهائي

فعندما تجمع بين الأعراف والنمل والشعراء والعنكبوت تظهر مشاهد القصة، وقرَّر الآلوسي -رحمه الله- مثل ذلك:

1. يظهر أنهم سَخِروا منه فأجابوه مستهزئين ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: 29].
2. فلما كرَّر الوعظ والعلاج ضجروا، وخافوا من تأثيره على غيره، فاجتمع مجلس أمنهم للتشاور، فقال بعضهم: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾ [النمل: 56]، فأيَّدت طائفة أخرى، فرددوا: ﴿أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾ [الأعراف: 82].
3. فأرسلوا الإنذار النهائي للوط عليه السلام ، وصوَّرته سورة الشعراء، فقالوا: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ [الشعراء: 167]، ويحتمل في الترتيب غير ذلك.

مشهد [5]

نجاة الأطهار الأخيار [الأعراف: 83]

[1] ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ [الأعراف: 83]

ذكر الله تعالى النجاةَ في محلها الترتيبي زمنًا وذِكرًا، حيث خرجوا من أرض العذاب، فعاقبةُ المؤمنين إلى نصر وتأييد وتمكين.

[2] ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ [الأعراف: 83]

استثنى الله تعالى امرأة لوط -عليه السلام-؛ ليبين سقوط النسب والصهر إلا أن يتقيَّد بالإيمان وتطبيقاته الأخلاقية، وليحذِّر من الخيانة الخفية.

[3] ﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾

أي: من الباقين الهالكين بعد ذهاب بيت المؤمنين، كما يبقى الغُبَار عن الذي يعدو فيَخْلُفه، كما يقول الراغب -رحمه الله-، أو الباقي المنفصل عن الأصل.

مشهد [6]

هلاك الأشرار

1 ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗا﴾ [الأعراف: 84]

وأرسلنا عليهم نوعًا من المطر عجيبًا: يعنى الحجارة، وحَرْفُ الاسْتِعْلاءِ ﴿عَلَيۡهِم﴾: لبيان أن العذاب صُبَّ عليهم من الأعلى

2 وقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

((مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ أَبَاهُ، مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ أُمَّهُ -إلى قوله- مَلْعُونٌ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ، مَلْعُونٌ مَنْ عَمِلَ بِعَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ)) **قَالَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِرَارًا ثَلَاثًا**. "أحمد (1875)، وحسَّنه الأرناؤوط، وصححه الألباني"، **وقال ﷺ**: ((لم تَظْهَرِ الفاحشةُ في قومٍ قطُّ حتى يُعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعونُ والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا)) "ابن ماجه (4019)، وحسَّنه لغيره الأرناؤوط، والألباني".

3 ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: 84]

فانظر في ختام الأمم ونهاياتها نظرين:

1 النظر المادي المحسوس

لمن مرَّ على تلك الأراضي، فهي أراضٍ معروفة.

2 النظر العقلي

بأن نبحث في تكوُّن الأمم، ودمار المجرمين.

4 "المجرم"

اسم فاعل من أجرم، لأن "الجُرم لا يطلق إلا على الذنب الغليظ"، كما يقول أبو البقاء. "الكليات (ص: 41)".

5 علم الله تعالى أن هذه الفاحشة ستشيع في العالم، ويُسَنُّ لها قوانين تحميها، فجاءت هذه الخاتمة محذِّرة كلَّ من يرتكب الجريمة ذاتها:

فإن لم يكونوا قومَ لوطٍ بعينهم ○○○ فما قومُ لوطٍ منهم ببعيدِ
وإنهم في الخَسْفِ ينتظرونهم ○○○ على موردٍ من مُهْلةٍ وصديدِ

إذا كان العهد الرابع قد تحدَّث عن القيادة البشرية الرابعة (لوط عليه السلام) ومحاربته للفاحشة التي ابتدعها قومه، فما العهد الخامس من عهود تاريخ البشرية الفاصلة؟

الجواب: هنا يأتي:

العهد الخامس

القيادة الخامسة للبشرية: شعيب عليه السلام يواجه الإفساد الاقتصادي للأرض والقرصنة الدَّولية [الأعراف 85-93]

وقد تسأل: ما المشاهد التي تضمَّنتها قصة شعيب عليه السلام مع قومه؟

الجواب: تضمَّنت قصة شعيب عليه السلام مع قومه سبعة مشاهد:

1 مشهد [1]

يُظهِرُ حرف الواو مشهد المناسبة والاتصال بين هذه القصة وما قبلها

حيث يقول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85]

1 أي أرسلنا نوحًا وهودًا وصالحًا ولوطًا -عليهم السلام- إلى أقوامهم، وأرسلنا شعيبًا عليه السلام إلى أُمَّة مدين.

2 يقترن عهد لوط بعهد شعيب -عليهما السلام- في القرآن المجيد؛ لأن أفظع فواحش قوم لوط عليه السلام إتيانُ الذُّكران، وأفظع فواحش قوم شعيب عليه السلام بعد الشرك الإفسادُ الاقتصادي.

3 سبب ذلك غير القرب التاريخي والجغرافي الارتباط الشديد بين الفساد الأخلاقي والفساد الاقتصادي؛ فإن الفساد الاقتصادي يجعل كلَّ شيء قابلًا للبيع بما في ذلك الدين والجسد والخُلُق، كما نشهد في الجاهلية المعاصرة، حيث يكون البيع أحدَ الأسباب الرئيسة ليعمل الناس في المجالات التي تدمِّر أخلاقَ الناس مثل: إشاعة الشذوذ مقابل المال، والأصوات الانتخابية.

مشهد [2] 1

أعمدة الإصلاح الإسلامي التي أظهرها شعيب عليه السلام

لتكون بصائر في دعوته [الأعراف85-87]

عمود [1]

إثبات الانتماء للناس يساعد على إصلاحهم ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ [الأعراف: 85]، فكلمة ﴿أَخَاهُمۡ﴾ تظهر اتصاله بهم نسبًا وحياة:

وقدَّم الله -عز وجل- اسم ﴿مَدۡيَنَ﴾

ليظهر لنا أهميتهم، وأهمية إصلاحهم، فهم أمَّةٌ بَنَتْ حضارة قوية بَيْنَ الحجاز وخَليج العَقَبَة بِقُرْبِ ساحِلِ البَحْرِ الأحْمَر، وتقوم على التلاعب الاقتصادي والتحكُّم الفاسد في النظام المحلي والدولي.

عمود [2]

أهمُّ قضية تُصلح أوضاع العالم عبادة الله لا شريك له:
﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [الأعراف: 85]:

[1] ﴿قَالَ﴾

تبصرنا بأنه باشر بتنفيذ مهمته العظيمة في إصلاح العالم حوله.

[2] ﴿يَٰقَوۡمِ﴾

تظهر لنا الحكمة النبوية باستدرار عاطفة قومه بتذكيرهم بانتمائه إليهم.

[3] ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾

العبادة: تذليل النَّفْس لمحبة الله الإله الحق، ومنح الخير للخلْق، وهي نظام الحياة الذي ينقذهم من الفساد في الأرض، فكأنهم سألوا: لماذا نعبد الله وحده دون سواه؟ فأجابهم:

[4] ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾

أي لا يمكن أن يكون لكم إله يستحقُّ العبادة غيره، فهذه الجملة تطلب توحيد الله -عز وجل-، وتبيِّن دليل هذا الطلب، فكيف تقارنون الله -عز وجل- بأحدٍ من مخلوقاته حتى تشركوا به، أو تعبدوا أحدًا غيره.

عمود [3]

وجود الحجة الدالة على صدق رسالته: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 85] أي: جاءتكم حجة ظاهرة واضحة شاهدة بصحَّة نبوَّتي أوجبت عليكم الإيمان بي:

1 كل نبيٍّ يكون معه بينة تشهد على نبوَّته كما قال النبي ﷺ:

((ما مِنَ الأنْبِياءِ نَبِيٌّ إلّا أُوتِيَ مِنَ الآياتِ ما مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ)) "البخاري (4981)".

2 رأى بعض المفسرين أن البينة المقصودة هنا:

معجزة مادية خارقة للعادة، لم يظهر تحديد لها.

3 أميل إلى أن البينة: البيانات الإيمانية المدهشة التي تصلح الواقع

ورجح هذا ابن عاشور -رحمه الله-، فَتَكُونُ البَيِّنَةُ أُطْلِقَتْ عَلى ما يُبَيِّنُ صِدْقَ الدَّعْوى، لا عَلى خُصُوصِ خارِقِ العادَةِ، ويحتمل أنه أراد إظهار معجزة مادية، فلما كذبوه لم يطلبوا منه ذلك، فلم يبرزها بخلاف قول موسى عليه السلام ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 105] طلب فرعون إبراز البينة، فقال: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ﴾ [الأعراف: 106].

هذه البينة مصدرها ﴿ربكم﴾، الذي أنعم عليكم

1. بالتربية
1. والإيجاد
2. والإعداد
3. والإمداد
4. والإرشاد
5. والإسعاد

عمود [4]

الإصلاح المالي ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: 85] أي: أتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به، وبالوزن الذي تزنون به.

1 الفاء وصلت ما بعدها بما قبلها عطفًا لإظهار نتيجة أو تفصيل

أي: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، ومن مقتضيات عبادته أن تصلحوا في الأرض بأن تُوفُوا الكيل والميزان، والإيفاء: بذل الحقِّ كما هو.

2 قد يزيد الموفِّي عليه سماحة منه،

فقد جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَتَقَاضَاهُ دَيْنًا كَانَ عَلَيْهِ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، حَتَّى قَالَ لَهُ: أُحَرِّجُ عَلَيْكَ إِلَّا قَضَيْتَنِي، فَانْتَهَرَهُ أَصْحَابُهُ، وَقَالُوا: وَيْحَكَ تَدْرِي مَنْ تُكَلِّمُ؟ قَالَ: إِنِّي أَطْلُبُ حَقِّي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلَّا مَعَ صَاحِبِ الْحَقِّ كُنْتُمْ؟» ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى خَوْلَةَ بِنْتِ قَيْسٍ فَقَالَ لَهَا: «إِنْ كَانَ عِنْدَكِ تَمْرٌ فَأَقْرِضِينَا حَتَّى يَأْتِيَنَا تَمْرُنَا فَنَقْضِيَكِ»، فَقَالَتْ: نَعَمْ، بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَقْرَضَتْهُ، فَقَضَى الْأَعْرَابِيَّ وَأَطْعَمَهُ، فَقَالَ: أَوْفَيْتَ، أَوْفَى اللَّهُ لَكَ، فَقَالَ: «أُولَئِكَ خِيَارُ النَّاسِ، إِنَّهُ لَا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لَا يَأْخُذُ الضَّعِيفُ فِيهَا حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ».

"ابن ماجة (2426)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (857): "هَذَا إِسْنَاد صَحِيح، رِجَاله ثِقَات"

3 الكيل والميزان من أدوات القياس

1 فالْكَيْلُ

تقدير الأشياء بحجومها

2 أما الوزن

فهو تقدير الأشياء بثقلها، أو بكتلتها للوصول إلى قدره المستقيم الدقيق.

لماذا فرَّق بين الكيل والميزان هنا، فلم يقل: المكيال والميزان، ولا الكيل والوزن، بل الكيل والميزان؟

الجواب:

الكيل هو المَكيل: أي الموجود في آلة الكيل، والتلاعب يكون فيه لا في إنائه الذي هو المكيال، أما الميزان فهو نفس الآلة؛ وقد يُتلاعَب بها مسبقًا، فيوهم المتعامل مشتريًا أو بائعًا أنه قد أخذ كامل حقه، والحقيقة الخفية أنه حدث التلاعب إما في المكيل، وإما في الميزان.

عمود [5]

حفظ الحقوق: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ [الأعراف: 85]:

1 قال ابْن العَرَبِيِّ -رحمه الله-:

"البَخْسُ: هو النَّقْصُ بِالتَّعْيِيبِ والتَّزْهِيدِ، أوِ المُخادَعَةُ عَن القِيمَةِ، أوِ الِاحْتِيالُ في التَّزَيُّدِ في الكَيْلِ والنُّقْصانِ مِنهُ"، أي: ولا تظلموا الناس حقوقهم، ولا تنقصوهم إيَّاها.

2 ينتفع الباخس بأشياء الناس بأقل من سعرها الحقيقي، ويتلاعب بعقول الناس، ويأخذ حقوقهم، فيوهمهم عدم جدوى تلك السلعة بينما هو راغب فيها، فإن صَرَفَ الناس عنها اشتراها الباخس بثمن زهيد.

3 فمن صور ذلك: أنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد، وقالوا هي زيوف فقَطَّعوها قِطاعًا، ثم أخذوها بنقصان ظاهر، أو أعطوه بدلها زُيوفًا.

4 جمع ﴿الناس﴾؛ ليبين أن أهل مدين يتعاملون مع العالم في دولتهم وخارجها بهذا النظام الباخس المجرم، فليس ما يفعلونه حالة فردية.

لماذا جمع شعيب عليه السلام بين هذين المَعْلَمين الإصلاحيين الكبيرين:
﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ [الأعراف: 85]؟

الجواب:

لأن إصلاحهما بداية للنهضة الاقتصادية والتنموية الشاملة، فجمع بين الإصلاح الاقتصادي: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، والإصلاح الحقوقي: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، ويؤدِّي ذلك إلى الثقة في الأسواق المحلية والعالمية، وتقام السوق العالمية على أساس التعاون والتبادل العادل.

عمود [6]

الحرص على المحافظة على صلاح البيئة، وذلك يعني إصلاح الأوضاع في الأرض إنسانًا وبيئة وأنظمة ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 85]، **وإفساد الأرض أنواع:**

1 إفساد أهلها
أي لا تفسدوا أهل الأرض بتخريب دينهم وأخلاقهم وعقولهم.

2 إفساد بيئتها
أي لا تفسدوا بيئة الأرض بتدمير خيراتها البرية والبحرية، حيث ينشأ المرابون والمطففون والشركات التي تدمِّر الأرض.

3 إفساد الأرض
عن العيش فيها.

ما الحكمة من قوله: ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾؟

الجواب:

1

لأن الله تعالى أصلح الأرض، وجعلها بيئة ليكون الإنسان فيها ممكَّنًا: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ [الأعراف: 10]، ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [النازعات: 30 - 33].

2

أصلحها تشريعًا وتنظيمًا عندما أرسل الرسل وأنزل الكتب.

عمود [7]

الاجتهاد في إظهار قيمة هذه البصائر، فتطبيقها يجلب أنواع الخير: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85]:

1 توجه شعيب عليه السلام بالخطاب إلى الجميع:

ليطبِّق المؤمنون مقتضيات إيمانهم، ولينتبه الكافرون إلى الإدارة الراشدة التي تنظِّم حياتهم.

[2] ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾

أي جميع البصائر التي تصلحكم ابتداء بعبادة الله -عز وجل-، ومرورًا بقواعد الإصلاح المالي والإداري.

[3] ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾

لأنه يحقِّق لكم كلَّ ما تطلبون من المكاسب المادية، والعقلية، والنَّفْسية، والشهوانية، والروحية في العاجلة والآجلة.

4 فمثلًا:

التشريعات الإسلامية يحرِّم الله تعالى فيها على المرء أن يظلم الآخرين، ويحرِّم على الآخرين أن يظلموه.

5 يبيِّن النبي ﷺ جانبًا عظيمًا من الخيرية التي تظهر لو اتبعنا ما أنزل الله تعالى إلينا، فيقول:

«إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الأَعْمَارِ».

""أحمد (25259)، وقال الأرناؤوط والألباني: إسناده صحيح، ورجاله ثقات"."

6 قيَّد الخيرية بالإيمان ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85]

لأنهم لا يمكنهم تطبيق شرع الله تعالى حقًّا دون الإيمان به، لأن الكافر المعادي "ناقِصُ المَدارِكِ كامِلُ المَهالِكِ" كما يقول البقاعي -رحمه الله-.

7 انظر مجتمعات بعض دول ما يسمى بالعالم الأول كيف تنظم خطف الأطفال من أهاليهم، وتبيح إشاعة الفاحشة، وتستبيح بكلِّ جرأة سرقة أموال مَنْ تسميهم العالم الثالث.



8 انظر كيف قتلوا عشرات الملايين من أبناء جنسهم في الحربين العالميتين، ولا يحميهم ولا يحمي العالم من شرورهم إلا الإيمان الحقيقي بالله تعالى، وليس ما يغرُّهم بهم كُهَّانهم.



9 قرَّر الألماني (إيمانويل كانت) (1804م) في كتابه "نقد العقل العملي":

ضرورة الاعتقاد بوجود الله تعالى، لتتكون السعادة وتظهر الفضيلة، فهي مرتبطة دائمًا بمفهوم المثال الأسمى، أو مفهوم الخير.

عمود [8] حِفْظُ العلاقات الدولية، وحراسة الطُّرُق العالمية: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: 86]، فنهاهم عن القرصنة العالمية التي يمارسونها على الناس:

1 رجَّح الطبري -رحمه الله-

أن نبيَّ الله شعيبًا -عليه السلام- إنما نهى قومه بهذا عن قطع الطريق، وأنهم كانوا قُطَّاع الطريق.



أي: لا تكونوا مركزًا للمؤامرات في العالم لتسيطروا على الأموال والخيرات

فتقعدوا قعود المتربِّص المترصِّد بجميع الطرق السهلة الواضحة التي يسلكها الناس، متوعِّدين لهم بشرٍّ إن لم يحقِّقوا لكم أهدافكم، مثل أنْ تأخذوا بعض أموالهم أو أكثرها.

عمود [9]

السماح للناس بحرية الإيمان، وحرية اللقاء بشعيب عليه السلام:
﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: 86]:

فلهذا القول معنى ثانٍ هو: لا تكونوا مركزًا للمؤامرات في العالم ضد الإيمان الحق

فتقعدوا قعود المترصِّد بكل طريق واضح لمن يريد أن يسمع شعيبًا عليه السلام، فتتوعدونه إن أتى شعيبًا عليه السلام أو آمن به بالعقوبات والمصائب مثل: التوعُّد بالقتل، والسجن، والضرب، وسلب المال، والإيذاء النفسي والجسدي.

عمود [10]

التوقُّف عن منع الناس من الثبات على الإيمان: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾، فكانوا يصدُّون مَنْ آمن بالله -عز وجل- عن الثبات على سبيله:

1

(صَدَّ): تصوِّر صَرْفَ المؤمنين عن الثبات على الإيمان، ومنعهم من البقاء عليه، مشتق من "الصَّدِّ" وهو الْجَبَلُ الذي يكون بجانب الوادي.

2

فسلَّطوا الترهيب والتشويه، واستعلموا سلطة الإعلام لصدِّ المؤمنين عن الإيمان،

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

"كانوا يجلسون في الطريق، فيخبرون مَنْ أتى عليهم: أن شعيبًا -عليه السلام-كذَّاب، فلا يفتنكم عن دينكم". "الطبري(12/557).

انظر: كيف يُبرز علم الاتصال القرآني في السورة من خلال قول شعيب عليه السلام:

﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: 86]

هم ينفِّذون الخطة الشيطانية التي وعد بها إبليس حرفيًّا عندما قال في أول السورة:
﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16]

عمود [11]

التحذير من إظهار سبيل الله مُعْوَجَّة أمام العالم:
﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: 86]

1

تطلبون سبيل الله عوجًا بتعليمها بصورة مُعْوَجَّة، وعدم إظهارها كما أنزلها الله تعالى.

2

إلْقاءُ الشُّكُوك والشُّبُهات حولها لتَظهر أنها طريق مُعْوَجَّة ليس فيها إلا الإرهاب.

3

ومن ذلك قولهم له: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ [هود: 87]، فسَخِروا منه، فقالوا: هل الصلاة تنظِّم الحياة في الفكر والمال؟

عمود [12]

نعمة الكثرة السُّكانية

فهي بوابة التمكين، ولكنها ليست إلا منَّةً من رب العالمين: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 86]:
واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلًا فَكَثَّرَكُمْ الله تعالى على ثلاث صور :

صورة [1]
قليلًا عددُكم فَكَثَّرَكُمْ الله تعالى ووَفَّرَ عَدَدَكم، فالكثرة العددية ليست نقمة، كما يزعم أغبياء نظرية الانفجار السكاني

صورة [2]
كنتم مُقلِّين فقراءَ فكثَّركم: أي فجعلكم مُكْثِرين مُوْسِرين

صورة [3]
كنتم أَقِلَّةً أَذِلَّةً فأعزَّكم بكثرة العَدَد والعُدَد

عمود [13]

الماضي بوابة المستقبل ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: 86]

1
أي انظروا نظر اعتبار في عاقبَةِ الذين أفسدوا في الأرض قبلكم: أي نهايتهم وآخر أمرهم.

2
فأهلك قوم نوح بالطوفان، وعادًا بالريح، وثمود بالصيحة، وقوم لوط رجمًا بالحجارة، وفصَّل لهم ذلك، فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود: 89]

عمود [14]

الحكمة التامة في التعامل مع البغي عند الانقسام إلى معسكر إيمان ومعسكر عدم إيمان

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾ [الأعراف: 87]

[1]

﴿طَآئِفَةٌ﴾

كلمة تصوِّر لنا أن كلًّا من الجهتين اتخذ شكل التحزُّب المكثَّف، فكلٌّ من الجهتين صار متعاطفًا متعاونًا مع أصحابه كالذي يطوف حول مركز لا يفارقه، من (طَوَفَ): وهي كلمة تدلُّ على دَوَرَانِ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ.

[2]

﴿وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾

عبَّر عن الطائفة الكافرة بأنها لم تؤمن، لزيادة التلطُّف؛ إذ لفظ الكفر قد يستفزُّهم.

[3] الصبر وعدم استفزاز الباطل والقوى المعتدية:

﴿فَٱصْبِرُواْ﴾

يصبر المؤمنون على أذى الكفار، ويصبر الكفار على ما يسوؤهم من إيمان المؤمنين، وهذا يعني عدم استفزاز الكفار على المواجهة، والتلطُّف في مخاطبتهم؛ لئلا يبغوا على الأبرياء.

4 دعاهم بهذا "إلى أعدل خطة، ووقف عند آخر نقطة، لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة.. نقطة الانتظار والتريُّث والتعايُش بغير أذى، وترك كلٍّ وما اعتنق من دِين، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين".

[5]

﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾

لأنّ حُكْمَه حقٌّ وعدل، لا يخاف فيه الظلم، ولا الرشوة، ولا المحاباة، ولا الغفلة، يعلم مثقال الذَّرة من الحقِّ والباطل.

⑥ حُكْم الله تعالى يراد به أحد ثلاثة أنواع:

[1] حُكْمه التشريعي

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [المائدة: 48].

[2] حُكْم الله تعالى الأخروي

﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7].

[3] حُكْمه القَدَري الكوني الفعلي الذي يَفْصِلُ فِيهِ الظالم والمظلوم

ومنه قوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الأنبياء: 112]، **حيث ينصر الله تعالى الْأُمَّة الأقرب إلى الْعَدْلِ وَالْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ.**

مشهد [3] النشاط المُجْرم

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ [الأعراف: 88]

[1] ﴿قَالَ﴾

تصوِّر تحرُّكَ المستكبرين، فلم يقبلوا كلَّ تلك البينات والخيرات التي عرضها شعيب عليه السلام، ولا قبلوا خطة التعايش.

[2] ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾

تصوِّر جنس المجرمين، فَهُمُ القوى الناشطة من الملأ الذين يملؤون العين بنفوذهم وأتباعهم وتجارتهم ولعبهم بصناعة القرار.

[3]

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾

لم يقل: قال الكفار، فالمستكبرون يبادرون بالاعتداء، والكبر أن يطلب صاحبه أن يَكْبُر فوق حَجْمِه، وصفاته العملية وصفها النبي ﷺ بقوله: ((بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناسِ)) "مسلم (178)"

[4]

﴿مِن قَوْمِهِۦٓ﴾

السُّنَّة أن تجد القوى المصلِحة معارضةً من أقرب الناس لها، فالمعارضة من قومه لا من غيرهم، فأولى أن يكون ذلك داعيًا لصدِّ بقية العالم.

[5]

﴿قَوْمِهِۦٓ﴾

تصوِّر شِدَّةَ الألم الذي يُسلَّط على شعيب عليه السلام، فيسُمِّي القوم بذلك؛ لأنهم يقومون عليه بما يحتاجه، فإذا بالطعن يأتي من قِبَلِهم، فيكون موقفُهم أشدَّ إيلامًا، كما قال طَرَفة بن العبد:

«وظُلمُ ذوي القُرْبى أشَدُّ مَضَاضَةً ... على المرءِ من وَقْعِ الحُسامِ المُهنَّدِ»

مشهد 4 [4]

القرار الظالم

خَيَّروا النبيَّ شعيبًا عليه السلام والمؤمنين بين قرارين فاجرين:

1 النفي والتشريد

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ [الأعراف: 88].

2 أو الرِّدَّة إلى الوثنية

والقبول بالملَّة الظالمة، والقبول بوضعية الإجرام الدولي بتطفيف المكيال وبقطع الطريق: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88].

خيار [1] النفي والتشريد

﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ﴾ [الأعراف: 88].

1 قدَّموا الخيار الأول، وهو التشريد؛ ليكون ورقة ضغط وإرهاب للمؤمنين، لأنهم يريدون تحقيق الثاني وهو أن يعيدوهم في ملَّتهم.

[2] ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ﴾

اللام في جواب القسم، والنون المشددة للتوكيد يصوِّران لنا كأنهم قالوا: نُقْسِم يا شعيب قَسَمًا مؤكَّدًا لا لَبْس فيه: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ﴾.

[3] ﴿يَٰشُعَيۡبُ﴾

وجَّهوا الخطابَ مباشرة للقيادة المؤمنة المصلحة لإرهاب الأتباع.

[4] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ﴾

نَصُّوا على الأتباع المؤمنين؛ لزيادة إرهابهم، ولتخويف شعيب عليه السلام؛ فإنه قد يكون محميًا بعصمة الله تعالى له، ولكنَّ قلبَه ربما تقطَّع ألمًا عندما يرى إيذاء أتباعه.

[5] ﴿مِن قَرۡيَتِنَآ﴾

القرية تطلق على الدولة العظيمة، وعلى عاصمتها.

خيار [2] الرِّدة الإجبارية إلى ملَّة الوثنيين

﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88].

اللام	والنون
في جواب القَسَم	للتوكيد: زيادة في إرعاب المؤمنين أي: أو نُقْسِم لتعودن في ملتنا.

لماذا استعملوا فعل ﴿لَتَعُودُنَّ﴾؟

الجواب:

لا لأن شعيبًا عليه السلام كان وثنيًا بالضرورة قبل النبوة، بل لأنهم أرادوا التباهي بأنهم الأصل، وأن الدِّينَ الذي جاء به شعيب عليه السلام طارئٌ غير معروف، ولأن بعض أتباع شعيب عليه السلام كانوا وثنيين.

لماذا عدَّى فعل ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ بكلمة ﴿فِى﴾، ولم يقل: لتعودن إلى؟

الجواب:

لأن كلمة ﴿في﴾ تصوِّر قوى الملأ المستكبرة لا تريد من شعيب عليه السلام ومن معه أن يعودوا إلى ملتهم عودة ظاهرية، بل يريدون أن يُثبتوا لهم انسلاخهم الكامل من الإسلام بأن يندمجوا في الملَّة الوثنية.

ما معنى ﴿مِلَّتِنَا﴾؟

الجواب:

الملَّة أصلها من: أَمْلَلت الكتاب، ومللَ في المَشْي: كأنه أسرع في طريق مسلوك محاكيًا السالكين من قبل، وقالوا: طريقٌ مَليلٌ إذا سُلِكَ كثيرًا وطالَ الاختلافُ عليه، فالملَّةُ: الطَّريقَةُ المسلوكة التي جرى عليها السابقون، وأسرع فيها السالكون حتى صارت واضحة المعالم، وَمِنْه الْملَل: وَهُوَ تَكْرَار الشَّيْء على النَّفْس حَتَّى تضجر.

ما الفرق بين الملَّة والدِّين والشريعة؟

الجواب:

1 ذهب الراغب -رحمه الله- إلى أن المِلَّة والدِّين مترادفان

2 والصحيح:

أن الدِّين:

يقال اعتبارًا بمَنْ شَرَعه وهو الله عز وجل، فتقول: هذا دين الله عز وجل

والمِلَّة:

تقال باعتبار من سَلَكها، كما قال تعالى: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: 37]، وذكرتُ بينهما سبعة فروق في المفصَّل.

3 يظهر لي أن المِلَّة هي أصل الدِّين الذي لا يطرأ عليه النَّسْخ كمسائل الإيمان، والشريعة هي القضايا العملية التي قد يطرأ عليها النَّسْخ.

4 فقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾

يبين الملَّة

ثم تقرأ:

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾

فهذه هي الشريعة

ثم بيَّن الله تعالى أن كلًّا من الأمرين يشكِّلان الدِّين فقال:

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5].

مشهد [5] 5

قوة الإيمان

حيث رد شعيب عليه السلام ردًّا حكيمًا قويًّا على التهديدات المستكبرة، وبصَّرنا ردُّه بالأسس الآتية في المحاورة

أساس [1]

المباشرة في الردِّ مع الحكمة في الأسلوب، فبيَّن كراهته وأتباعه للملة الظالمة التي يتبعها المستكبرون ﴿قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: 88]

﴿قال﴾

1 تبصِّرنا أن شعيبًا عليه السلام ردَّ من فوره على القوى المستكبرة، قال ابن إسحاق -رحمه الله- وكان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيبًا عليه السلام قال: "ذاك خطيب الأنبياء"! لحُسْن مراجعته قومَه.

"المستدرك (4071)، وسكت عنه الذهبي، وضعَّف الحديث بعض المعاصرين".



لماذا اتصل رد شعيب عليه السلام بكلام المستكبرين في آية واحدة؟

الجواب:

لعله ليبصِّرنا الله تعالى بضرورة الردِّ المباشر على التهديدات المستفزَّة، ولكن يجب أن يكون الردُّ جامعًا بين القوة والحكمة.

2 هذا من عطف التلقين كأنه قال:

أتخرجوننا من وطننا، أو تجبروننا على العودة في مِلَّتكم ولو كنا كارهين لكلٍّ من الأمرين؟

3 ألزمهم بذلك أن تكون ملتهم باطلة

وإلا لما جاز أن يعتنقها المرء حال كونه كارهًا، فإن الملة الحقَّ لا تُقبل ممن يكرهها، بل يدخلها المرء عن قناعة ومحبة. قارن بين هذه العقيدة المفسدة في الأرض، وبين قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256]



4 والآن تتجدَّد المِلَلُ التي تدعو إلى التزام نظام الفاحشة والعنصرية بأسماء متعدِّدة.

هذا الردُّ غير المتوقع جمع أربعة أوصافٍ تجعل قائله هو المنتصر الأعلى:

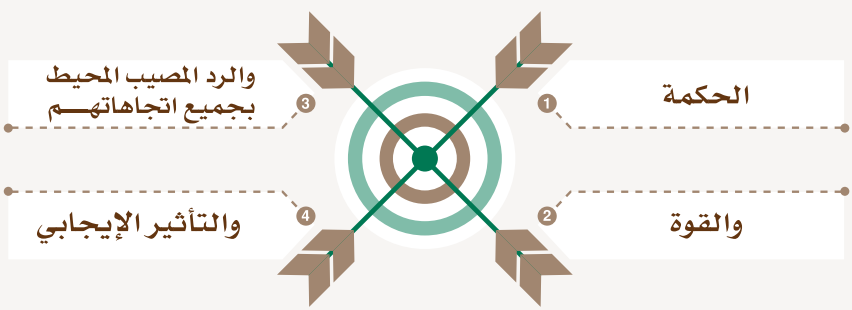



لماذا اختار أن يكون ردُّه مبدوءًا بالاستفهام لا بالإنكار؟

الجواب:

الاستفهام هنا يعكس مدى الذكاء المتوقِّد البرَّاق، والقدرة الحصيفة، والبديهة العظيمة، ويجعل شعيبًا -عليه السلام- مُحاوِرًا لهم، فلا يستفزهم أكثر بالإنكار المباشر.

يا مَنْ زَرَعْتَ الشَّرَّ لن تَجنيَ سِوى	●●●	شرٍّ وحقدٍ في الصدورِ دَفِينِ
سيزولُ حكمكَ يا ظلومُ كما انقضتْ	●●●	دولٌ أولاتُ عساكرٍ وحصونِ
ستهُبُّ عاصفةٌ تدكُّ بناءَهُ	●●●	دكًا .. وركْنُ الظلمِ غيرُ ركينِ
ماذا كسبتَ وقد بذلتَ من القُوَى	●●●	والمالِ بالآلافِ والمليونِ؟
أرهقْتَ أعصابَ البلادِ ومالَها	●●●	ورجالَها في الهدمِ لا التكوينِ
وبنيْتَ من أشلائنا وعظامنا	●●●	جسرًا به نَرْقَى لعلييـنِ
أظننتَ دعوتَنا تموتُ بضربةٍ؟	●●●	خابتْ ظنونُكَ، فهْيَ شرُّ ظُنونِ!

أساس [2]

تعظيم الله، ونسبة الإجرام الكبير إلى شعيب عليه السلام ومن معه إن رجعوا إلى الوثنية

﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾ [الأعراف: 89]

لما قال شعيبٌ عليه السلام:

﴿قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾

1

أي: أتخرجوننا من أرضنا أو تجبروننا على العودة في ملتكم القبيحة المذمومة المكروهة؟ ربما تعجب بعض السامعين من هذا الثبات، فسأل: ما المانع أن تعودوا إلى ملة قومكم، وتحافظوا على حياتكم؟ فيبيِّن شعيب عليه السلام السبب، فيقول: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ [الأعراف: 89]

ما معنى ﴿ٱفۡتَرَيۡنَا﴾؟

الجواب:

الافتراء: تقطيع الشيء المعنوي أو الحسي لإعادة صُنْعه صُنعًا عجيبًا مُحْكمًا، ومن ذلك يُقَالُ: فَرَى فُلَانٌ كَذِبًا يَفْرِيه، إذا قطَّع الكلامَ والتصوُّر، وأعاد بناءهما بناء محكمًا لكن في أي جهة هنا؟ في جهة الكذب، ولذلك جاءت كلمة ﴿كذبًا﴾ لتبين جهة الفَرْي، أي افترينا على الله افتراء كذبًا، فبلغنا أسوأ أنواع الكذب المحكم المُنَمَّق ليكون أبشعَ أنواعه.

2

﴿قد﴾

للتحقيق، و«هَذَا كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ لِبَيَانِ أَهَمِّ الْأَمْرَيْنِ وَأَوْلَاهُمَا بِالرَّفْضِ وَالْكَرَاهَةِ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَأْكِيدًا قَسَمِيًّا لِرَفْضِ دَعْوَةِ الْمَلَأِ إِيَّاهُمْ إِلَى الْعَوْدِ فِي مِلَّتِهِمْ، فَيَكُونُ مُقَابَلَةً لِقَسَمِهِمْ بِقَسَمٍ أَعْرَقَ مِنْهُ فِي التَّوْكِيدِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَعَجُّبًا خَرَجَ لَا عَلَى مُقْتَضَى الظَّاهِرِ». (تفسير المنار 5/9)

ما الأنوار البيانية التي تشرق من قوله تعالى: ﴿إِنْ عُدْنَا﴾؟

الجواب:

العود رجوعٌ إلى أمرٍ قولًا أو فعلًا لتكريره، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:28]، أو لجاذبٍ يتعلَّق به، كأن يكون هو الأصل، فلا بدَّ من الرجوع إليه، أو يزعمون أنه الأصل.

3 فقول شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ عُدْنَا﴾ لا يدل على أن شعيبًا -عليه السلام- كان على ملتهم الوثنية الفاسدة، بل دل على أمرين:

1. انتماء شعيب عليه السلام إلى ملتهم قبل النبوة إنما هو انتماء بالمجموع، وهم أرادوا منه العودة إلى الخضوع لنظامهم، وعدم انتقادهم حتى لو لم يفعل ما يفعلونه.
2. تواضعه واعترافه أن التغيير الذي حدث له إنما كان بسبب نور النبوة، فعَقلُه لا يقدر على الاهتداء إلى الحقِّ الكامل.

لماذا قال تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ﴾؟

الجواب:

النجاة تخليص لطيف يجعل الناجي مرتفعًا في نجاته على المنجو منه مشتقة من النجوة وهي الأرض المرتفعة، والتصوير هنا يدل على مقدار تفشي ملة الكفر، فكأنها بنُظُمِها المختلفة مجموعة من الوحوش المهلكة التي خلَّص الله تعالى منها شعيبًا -عليه السلام- ومن معه.

تبصِّرنا الآية أن المرتدَّ أعظم افتراء على الله عز وجل من الكافر الأصلي، لماذا؟

الجواب:

1 لأنَّ الكافر مفترٍ على الله تعالى الكذب، حيث يزعم أنَّ لله ندًّا، والمرتدُّ مثله ويزيد عليه عندما يزعم أنه قد تبيَّن له ما خفي عليه من التمييز بين الحقِّ والباطل.

2

لذا كان من الذين لم يعف عنهم النبي ﷺ يوم فتح مكة عَبْدُ اللَّه بْنُ خَطَل، قالوا: «كَانَ جُرْمُهُ أَنَّهُ أَسْلَمَ، وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَبَعَثَهُ رَسُولُ الله ﷺ سَاعِيًا، وَبَعَثَ مَعَهُ رَجُلًا مِنْ خُزَاعَةَ، فغدر به ابن خطل فقَتَلَهُ نائمًا، ثم ارْتَدَّ، ولَحِق بأَهْل مَكَّةَ، فقالوا: مَا رَدَّك إلَيْنَا؟ قَالَ: لَمْ أَجِدْ دِينًا خَيْرًا مِنْ دِينِكُمْ، وَكَانَ يَقُولُ الشِّعْرَ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ ﷺ، ويشنُّ حملة إعلامية على الإسلام بنشر ذلك.

أساس [3]

العودة إلى الملة الوثنية دمارٌ لوجود الإنسان في الأرض: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: 89]

1

لماذا قال شعيب عليه السلام ذلك ولم يقل مثلًا: يحرم علينا؟ إنها القوة والدِّقة، فالمعنى: ليست لنا كينونة، أي: ليس لنا وجود في هذا الكون إن عدنا إلى ملتكم الوثنية، أو سكتنا عن أفعالكم المجرمة، فنفيُ الكينونة أبلغُ من التعبير بنفي الشأن أو الفعل.

2

﴿وَمَا يَكُونُ﴾: لأن القبول بالوثنية يعني أن يعبد المرء ما يختاره لنفسه كأن يعبد الحجر أو البشر، وأن يغيِّر نظام الحياة ليدمِّر الإنسانية باسم حرية الميول الجنسية، وأن يوافق على أبشع الجرائم مثل: قتل الأطفال في بطون الأمهات باسم حرية الاختيار، وأن يوافق على قطع الطرق، واللصوصية المحلية والدولية.

أساس [4]

اعتزاز المؤمن بكمال ملك الله وحكمته: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: 89]

ما معنى هذا الاستثناء، مع أننا ننزه الله أن يشاء ردّة المؤمنين وعودهم في الكفر؟

الجواب: الاستثناء يظهر:

- كمال القوة في الردِّ على المجرمين
- وكمال الأدب مع الله -عز وجل- بتعظيم ملكه سبحانه وتعالى.
- وكمال الشعور بحِكْمته جل جلاله.

1 أي: لا يمكن أن نعود إلى مِلَّتكم إلا بأن نكون مغلوبين على أمرنا ممن بيده الخلق والأمر

فالاستثناء بالمشيئة زاد نفي العودة إلى الكفر توكيدًا؛ لأن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر، فكأنَّ شعيبًا -عليه السلام- أراد أن يوصل المستكبرين إلى اليأس من انصياع المؤمنين للتهديد، فقول شعيب -عليه السلام- كقولهم: لا أفْعَلُ ذَلِكَ إلّا إذا ابْيَضَّ القارُ (الأسفلت).

2 المشيئة الإلهية نجمعها مع الحكمة

فقد يشاء الله تعالى لعبد أن يرجع إلى الكفر جزاء وفاقًا على عناده، وهذا يجعلنا خائفين من العودة إلى الكفر أو الفسق، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: 35].

أساس [5] اعتزاز المؤمن بسعة علم الله -عز وجل- ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ [الأعراف: 89]، فهو يعلم من يستحقُّ أن يعاقبَه، فيُرجعَه إلى الوثنية الظالمة:

1 عرفنا هذا المعنى من خلال الارتباط الوثيق بين قوله جل جلاله:

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ وقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ [الأعراف: 89]

2 ﴿وَسِعَ﴾

فعل ماض، فَيَتَناوَلُ كُلَّ ماض، فيبصِّرنا أن الله تعالى عالمٌ بجَميع المَعْلُوماتِ سِعة عظيمة لا ندرك لَها حدودًا، فالله -عز وجل- عَلِمَ ما كان وما يكون، ومَا لم يَكن لو كان كَيْفَ كانَ يَكُونُ.

3 كما قال ابن القيم -رحمه الله- في الكافية (ص: 204):

وهو العليـــــمُ أحاطَ علمًا بالذي ●●● في الكونِ من ســـــرٍّ ومن إعلانِ
وبكلِّ شـــــــيءٍ علمُهُ سبحانه ●●● فهـو المحيـــــطُ وليسَ ذا نسيانِ
وكذاك يَعْلَمُ ما يكونُ غدًا وما ●●● قد كانَ والموجودَ في ذا الآنِ
وكذاك أمرٌ لم يكـــــن لو كان كيـ ●●● ـــفَ يكونُ ذاك الأمر ذا إمكـــــانِ

4 فالله يعلم حقيقة الإنسان، وهل هو صادق الإيمان أو مخادع، كما قال النبي ﷺ:

((وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا)) "مسلم(6816)".

ويحدث ذلك لأن الله تعالى قد علم من هذا المدَّعي الصلاحَ استحقاقَه لخاتمة السُّوء لتظهرَ حقيقتَه في الدنيا.

1 المستكبرون حَصَروا شعيبًا عليه السلام بين: التشرُّد من القرية أو العَود في وثنيتهم، وفي هذا الجواب الشعيبي: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ [الأعراف: 89] يذكر خيارًا ثالثًا هو: يحتمل في علم الله تعالى أنَّ نَبْقى في قريتنا من غَيْرِ أنْ نَعُودَ إلى ملَّتِكم، ولذا قال بعد ذلك: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾.

أساس [6]

الاعتزاز الكامل باللجوء إلى الله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾ [الأعراف: 89]

1 **قال البقاعي -رحمه الله-:**

كَأنَّ المُؤْمِنِينَ قالُوا: ما العَمَلُ وأيْنَ المَفَرُّ؟ فقالَ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: الَّذِي لَهُ الأمْرُ كُلُّهُ، ولا أمْرَ لِأحَدٍ مَعَهُ، وحْدَهُ لا عَلى غَيْرِهِ.

2 **التوكل**

من (وَكَلَ) أي اعتمَدَ على غيره في أمر نفْسه؛ لعجزه، أو لعدم كماله في القيام بشأنه، فالوَكيلُ: فعيلٌ بمعنى المفعول أي مُوَكَّل، فمَن تَوَكَّل عَلى اللَّهِ تعالى كَفاهُ اللَّهُ -جل جلاله-، ومن أوى إليه آواه.

3 **قدَّم الجار والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ ليفيد الحَصْر**

الحَصْر كأنه يقول: إلَيْهِ وَحْدَهُ لا إلى غيره وَكَّلْنَا كلَّ أمورنا من ثباتنا على ديننا، وصبرنا على اضطهادكم لنا.

4 **يعلِّمنا النبي ﷺ مثل ذلك، فكان يَدعُو:**

((رَبِّ أعنِّي ولا تُعِنْ عليَّ، وانصُرْني ولا تَنصُر عليَّ، وامكُر لي ولا تَمكُر عليَّ، واهْدِني ويَسِّر هُدَايَ إليَّ، وانصُرني على من بَغَى عليَّ))

"أبو داود (1510)، وقال الأرناؤوط: "إسناده صحيح".

5 وكان النبي ﷺ يقول:



((اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِى أَنْتَ الْحَىُّ الَّذِى لَا يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ)) "مسلم (6998)".

6 وكأنَّ الشيخ أحمد سحنون أخذ من هذا القَبَس قوله:

لا أبالي بالسِّجنِ إن كان في السِّجـ ●●● ـنِ رِضـا خالقـي فذلك حسبـي
إنَّ خَطْبًا فيه سلامـةُ ديني ●●● ورضا اللهِ لهو أيسـرُ خَطْبِ
يا إلهـي إني عبدتُك حبا ●●● فتقبل- يا رب- خالص حُبِّي
يا إلهي قد أَصْبحتْ دعوةُ الإسـ ●●● ـلام تشكـو بأرضنـا كلَّ جـدبِ
فأَغِثْهـا من بعدنـا بدُعاةٍ ●●● صالحين يُوْلُونهـا كلَّ خَصْبِ

هل التوكل على الله تعالى يقتضي تعطيل الأخذ بالأسباب؟

الجواب:

الجواب: لا! بل من شروط التوكل أن يقوم المتوكل بكل الأسباب والخطط المشروعة التي تسهم في تحقيق أهدافه

كما قال رشيد رضا -رحمه الله-:

«فَمَنْ يَتْرُكِ الْعَمَلَ بِالْأَسْبَابِ فَهُوَ جَاهِلٌ مَغْرُورٌ، لَا مُتَوَكِّلٌ مَنْصُورٌ وَلَا مَأْجُورٌ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . لِمَنْ سَأَلَهُ أَيَتْرُكُ نَاقَتَهُ سَائِبَةً، وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ تَعَالَى؟: اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ» "الترمذي (2517)، وقال الذهبي في المغني عن حمل الأسفار (ص:1640): " قَالَ يَحْيَى الْقطَّان: مُنكر. وَرَوَاهُ ابْن خُزَيْمَة فِي التَّوَكُّل، وَالطَّبَرَانِيّ من حَدِيث عَمْرو بن أُميَّة الضمري بِإِسْنَاد جيد بلفظ «قَيِّدْهَا»

"تفسير المنار (9/8)".

أساس [7]

طلب الفَصْل من الله تعالى، وإظهارُ السِّلْمية الحُكيمة أمام الاضطهاد الوثني عندما لا يكون هناك توازن في الرَّدْع، وبذا ختم شعيب عليه السلام بقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89]

لماذا ختم شعيب عليه السلام بذلك؟

الجواب: ليعلمنا مشهد الولاية

"نشهد ذلك المشهد الباهر: مشهد تجلِّي حقيقة «الألوهية» في نفس وليِّ الله ونبيِّه. إنه يعرف مصدر القوة، وملجأ الأمان. ويعلم أن ربه -عز وجل-هو الذي يَفْصل بالحقِّ بين الإيمان والطغيان"، وابتدأ هذا المشهد بالنداء العظيم: ﴿رَبَّنَا﴾.

ما معنى هذا الدعاء؟

الجواب: الفتحُ: جَعْلُ فُرْجةٍ، ضدُّ الْإِغْلَاقِ، وهو نوعان:

1 **مادي:**
ومنه: ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: 73]
ويسمَّى الخير النابع الذي تلاقيه فَتْحًا، فالْفَتْحُ: الْمَاءُ يَخْرُجُ مِنْ عَيْنٍ أَوْ غَيْرِهَا.

2 **معنوي:**
﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 96]
أي: لأرسلنا عليهم الخيرات التي تنتظر التدفُّق.

1 أي: ربنا أنت تربينا على الخيرات، ودَفْع الآفات، اجعل للحقِّ فُرجةً ليحكم ويحلَّ، وللباطل ليبيد وليضمحلَّ، واجعل لنا فُرجة إلى الخيرات المادية والمعنوية، ومن ذلك فتح النصر على الظالمين، فالفتح نتيجة، سببها أن يحكم الله تعالى بين الفريقين.

2 ومن الفتح أن يُمَلِّك الله تعالى الإنسانَ

1 الأدواتِ الماديةَ	2 والأدواتِ العقليةَ
التي تفتح له الأبواب المغلقة	التي تفتح له حلولًا تنصره على باطل المستكبرين.

3 لم يقل: افتح لنا على هؤلاء المجرمين بل قال:

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾

لأنه يُرِيدُ اسْتِعْطافَهم لِإسْعادِهِمْ

كما يقول البقاعي-رحمه الله-:

«وفيه إشارَةٌ إلى مَيْلِه إلى الدُّعاءِ بهدايَتِهِمْ... عُلِمَ مِن إشارَةِ قَوْلِهِ العِنايَةُ بقَوْمِه، ومِن عِبارَتِهِ الإنْصافُ مِن نَفْسِه، ولَوْ أرادَ تَرْجِيحَ نَفْسِه ومُتَّبِعِيه لَدَعا لَهم أنْ يُعامَلُوا بِالفَضْلِ، وأنْ يُعامَلَ ضِدُّهم بِالعَدْلِ» "نظم الدرر (5/8)"

قيَّدَ الفتح

﴿بِٱلْحَقِّ﴾

4 لتخويف المستكبرين، عسى أن يفكِّروا أنهم يسيرون على الباطل، فالحقُّ هو الأمر الفصل الثابت الذي يقوم عليه نظام السموات والأرض، وكلُّ جزء فيها من الذَّرة إلى المجرَّة.

مشهد [6] 6

تزايد تأثير شعيب عليه السلام، ووسيلة المستكبرين الأخيرة

إظهار المؤمنين بمظهر الخاسر [الأعراف:90]

الواو في قوله:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾

تشير إلى أن شعيبًا عليه السلام ازداد تأثيره لما خاطبهم بخطاب جمع فيه بين الثبات، والحنان على قومه، وتولي الله عز وجل، فكأن الله تعالى قال: فمالَ بعضُ المستكبرين أو اتباعهم إليه، فهدَّد الملأ ذوو النفوذ أتباعَه، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: 90]

لماذا وصف الله تعالى القوى الظالمة بالكفر هنا، ووصفهم في الآية (88) بالاستكبار؟

الجواب:

1. لينوِّع الأوصاف التي تليق بهم، فهم مستكبرون كافرون؛ فقد يوجد مستكبر مسلم، وقد يوجد كافر غير مستكبر، حيث قال في هذه السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 36]

2. ليناسب سياق الآيات، ففي الآية (88) ذكر الملأ المستكبر؛ لأنهم (بطروا الحق): أي دفعوه، و(غمطوا الناس): أي احتقروهم، وهنا في الآية (90) وصفهم بالكفر؛ لأنهم أصرُّوا على إخفاء الحقائق الكبرى في العالم، وأعظمها الإيمان بالله وبرسوله

لماذا خصَّص الكافرين بأنهم ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾؟

الجواب:

ليبصِّرنا الله تعالى بمقدار الآلام التي يجدها المصلحون؛ إذ يعاديهم أقرب الناس إليهم، وأنَّه قد يمنح فضله للبعيد المتواضع فيهتدي، ويحرمه القريب المستكبر فيضل.

لماذا وجَّهوا خطابهم لأتباع شعيب عليه السلام دونه؟

الجواب:

لينتقلوا من مرحلة الضلال حين هدَّدوا شعيبًا عليه السلام وأتباعه إلى تهديدهم بأنهم إن اتبعوا شعيبًا عليه السلام سوف يخسرون كلَّ شيء، فسوف يُعَذَّبون وتُدَّمر حياتهم.

لماذا هذا الوصف ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾؟

الجواب:

1. لأنه أقوى وصف يُخَوِّف به المستكبرون المؤمنين، أي إن اتبعتم شعيبًا عليه السلام فإنكم ستختارون الطَّرَف الخاسر

2. والخسارة انتقاص ما يُمْلَك مثل المقتنيات الخارجة كالمال، والنَّفسيَّة كالصِّحَّة، والخاسر يعني أنه هلك، ولم ينتفع بما عنده، وذهبت قيمته وكرامته، فأكَّدوا على أن أتباعَ شعيب عليه السلام لخاسرون بالقَسَم وبحرف التوكيد (إنَّ)، وباللام الداخلة على الخبر (لخاسرون)

كيف جعلوا أسلوبهم ساحقًا ماحقًا مخيفًا؟

الجواب:

أحاطوه بأقوى المؤكِّدات المشدَّدة: منها لام جواب القسم في قَوْلِهِمْ: (لَئِنْ)، والْجُمْلَةُ الِاسْمِيَّةُ وَتَصْدِيرُهَا بِـ "إِنَّ"، وَقَرْنُ خَبَرِهَا بِـ "اللَّامِ"، وتَوْسِيطُ (إِذًا)، وجعل الخبر اسم فاعل (لخاسرون) بدلًا من الفعل، وحَذَفُوا مُتَعَلَّقَ الْخَسَارِ؛ لِيُعَمِّمَ كُلَّ مَا يَصْلُحُ لَهُ، والتقدير: نحلف بأغلظ أيماننا لئن اتبعتم شعيبًا عليه السلام أي بقيتم على اتِّباعه أيها المؤمنون، ولئن فكَّر أحدٌ باتِّباعه فستكونن من الخاسرين الذين تخسرون كلَّ شيء

يصدق فيهم قول القائل:

زعمت سخينةُ أنْ ستغلبُ ربَّها ... وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالبُ الغَلَّابِ
وَلَيُهْزَمَنَ مُكَابـــــرٌ مستكبرٌ ... ولَتُدْحَضَنَّ مزاعمُ الكَذَّابِ
وليَخسأنَّ مجاهـــــرٌ متجاسرٌ ... مسترسلٌ في غَيِّه بحرابِ
وليَنصـــــرنَّ اللهُ دينًا خالدًا ... نصرًا مبينًا باهرَ الأسبابِ
نَشَرت رذائلَها المقيتـــةَ جهـــرةً ... تحوي عُفونةَ عُهْرِهم بذُبَابِ
يَطغى على فرش البغاة تجرَّدوا ... من سُترةٍ كانت لهم وثيابِ
حسبوا التَّعَري للعُصاةِ تقدُّمًا ... وتحضُّرًا في هيئةٍ ولُبَابِ

صبري الصبري



مشهد [7] 7

ختام القصة والنتائج المتوقَّعة المحسومة [الأعراف: 91 - 93]

نتيجة [1]

نزول العذاب على المستكبرين حتميٌّ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: 91]

[1] فالفاء للتعقيب

ويقتضي المباشرة، "وَهُوَ فِي كلِّ شَيْءٍ بِحَسبِه"، أي يقتضي مهلة زمنية تُناسب أن يتوب المستكبرون، وإلا أتاهم العذاب.

[2] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾

الأخذ تَنَاوُلُ شَيْءٍ بِالْيَدِ حيث تتملَّكه اليد وتحاصره بقبضتها محاصرة تامَّة، وتتصرَّف به، وكأنَّ الرجفةَ تناولتهم، وقبضت عليهم.

نتيجة [2] تنوُّع عذابهم إلى أنواع

1 ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾

الرجفة من (رَجَفَ) وهي حدث يسبِّب اضطرابًا شديدًا، وحركة عنيفة في أصل الشيء حتى تكاد أن تقلعَه أو تسبِّبَ قَلْعَهُ.

2 اجتمعت عليهم ظُلَّة عظيمة

﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ [الشعراء: 189] وصَحِبَها صيحةٌ عظيمة: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: 94]، وصَحِبَها أصوات القَلْع والقَرْع التي نتجت عن الرجفة المزلزلة من تحتهم، فاحْتَرَقَتْ أجْسادُهم، ودمَّرت منازلهم.

نتيجة [3] أصبحوا يوم العذاب في دولتهم جاثمين ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: 91]

جمع جاثم، والجاثم هو الْمُكِبُّ عَلَى صَدْرِهِ فِي الْأَرْضِ مَعَ قَبْضِ سَاقَيْهِ كَمَا يَجْثُو الْأَرْنَبُ يعني: أصبحوا سُقُوطًا، هامدين، موتى، صرعَى، لا يتحركون، لأنهم لا أرواح فيهم.

نتيجة [4] ذهاب الغنى، وظهور الطرف الخاسر: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 92]

1

الآية تبصِّر العالم بأن الأعمال بالخواتيم، والعاقبة للمتقين، والعبرة بالنهايات.

2

كرَّر الله تعالى قولَه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا﴾ ليحصر العذاب فيهم، وليُظهِر شدة ذلهم، وليظهر في المرتين معنى جديدًا يقابل أبرز تهديدين وجههما المستكبرون للمؤمنين:

1 تهديد [1] ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَا شُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَا﴾

والخاتمة: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا﴾

فهددوه بالإخراج ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾ [الأعراف: 92]، أي لم يَطُلْ مَقامُهم في العيش الرغيد متنعمين مستغنين عن غيرهم، فعن قتادة -رحمه الله- ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾: كأن لم يعيشوا، كأن لم ينعموا

كَأَنْ لَم يَكُنْ بين الحُجونِ إلى الصَّفا ۞ ۞ ۞ أنيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بمكَّةَ سَـــامِرُ

عمرو بن الحارث بنُ مُضاض، وقيل هو للحارث الجُرْهُميِّ

2 تهديد [2] ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: 90]

والخاتمة: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 92]

اغتروا بقوتهم وعلاقاتهم الدولية، فأظهروا الفساد، وأصرُّوا على العناد، فكانت خاتمتهم أن يكونوا من العريقين في الخسارة

نتيجة [5] قَطْعُ الأولياء المحبة للمستكبرين الأشقياء: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 93]

1 وَقْفَةُ الآسي المحب: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ﴾ أي مضى معرضًا عنهم، وأظهر عليه السلام نفسه الرحيمة، متألمًا عليهم، فناداهم بعد هلاكهم.

2 ناداهم كما نادى النبي ﷺ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ رَجُلًا مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ قُذِفُوا فِي بِئْرٍ بعد مقتلهم في بدر: «يَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ، وَيَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ، أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟». "البخاري (3976)"

3 تذكر المحب للانتماء: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ الذين كنت أنتمي إليهم، ويفترض أن أقوم بهم في الحياة، ويقوموا بي.

مهمة [1] 4

البلاغ: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾: والله تعالى لقد أوصلت إليكم كلَّ رسالة أمرني ربي أن أوصلها لكم بحرصٍ، وهذا يقتضي فعل جميع وسائل التبليغ، مثل: قنوات الإيصال الإعلامية.

مهمة [2] 5

النصح ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، النُّصْح: تَحَرِّي الفِعْل أو القَوْل المتقن الذي يجلب أجمل الصلاح للحال لأصدَّكم عن نصح إبليس الذي ظهر في قول الله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: 21]، وخصَّهم بالنُّصح ﴿لكم﴾.

لذا استكثر الصالحون من الناصحين، فقال عمر بن عبد العزيز لعمرو بن المهاجر -رحمهما الله-:

«إِذَا رَأَيْتَنِي قَدْ مِلْتُ عَنِ الْحَقِّ، فَضَعْ يَدَكَ فِي تَلْبَابِي، ثُمَّ هُزَّنِي، ثُمَّ قُلْ: يَا عُمَرُ مَا تَصْنَعُ»

"حلية الأولياء (5/ 292)".

6 مدافعة الأسى: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 93]، الأسى: شِدَّة الحزن مشتق من أَسَوْتُ الْجُرْحَ: إِذَا دَاوَيْتُهُ بإزالة كَسْره، وجَبْره.

كأن شعيبًا -عليه السلام- اعتراه ألمٌ على قومه كما قال ابن إسحاق -رحمه الله-، فدفعه بهذا السؤال الإنكاري، أي كيف أَحْزَنُ الْحُزْنَ الشَّدِيدَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ، وقد استحقوا الهلاك بإصرارهم على تغطية الحقِّ الواضح، وإيذائهم للمحبِّ الناصح.

7 يذكرنا الأَوْزَاعِيُّ -رحمه الله-، فيقول:

أَيُّهَا النَّاسُ! تَقَوَّوْا بِهَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي أَصْبَحْتُم فِيهَا عَلَى الهَرَبِ مِنْ نَارِ اللهِ المُوقَدَةِ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ، وَأَنْتُم عن قريبٍ مُرْتَحِلُونَ، وَخَلَائِفُ بَعْدَ القُرُونِ، الَّذِينَ أكلوا مِنَ الدُّنْيَا زَهْرَتَهَا، كَانُوا أَطْوَلَ مِنْكُم أَعْمَارًا، وَأَقْوَى أَجْسَامًا، وَأَعْظَمَ آثَارًا، فَجَذَّذُوا الجِبَالَ، وَجَابُوا الصُّخُورَ بِالوَادِ، وَنَقَّبُوا فِي البِلَادِ، مُؤَيَّدِينَ بِبَطْشٍ شَدِيدٍ، وَأَجْسَامٍ كَالعِمَادِ، فَمَا لَبِثَتِ اللَّيَالِي والأَيَّامُ أَنْ طَوَتْ مُدَّتَهُم، وَعَفَّتْ آثَارَهُم، وَأَخْوَتْ مَنَازِلَهُم، وَأَنْسَتْ ذِكْرَهُم: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: 98]. "الشكر لابن أبي الدنيا (ص: 14)".

كُتبَ الموت على الخَلقِ فكمْ ●●● فَلَّ من جيشٍ وأفنى من دُوَلْ
أينَ نُمرودُ وكنعانُ ومنْ ●●● مَلَكَ الأرضَ وولَّى وعَزَلْ
أينَ من سادوا وشادوا وبَنَوا ●●● هَلَكَ الكلُّ ولم تُغنِ القُلَلْ
أينَ أربابُ الحِجَى أهلُ النُّهى ●●● أينَ أهلُ العلمِ والقومُ الأوَلْ
سيُعيدُ اللهُ كلاً منهمُ ●●● وسيَجزي فاعلاً ما قد فَعَلْ

عمر بن الوردي



المحور الرابع



السُّنَنُ الاجتماعية العامَّة التي تجري في تاريخ الذرية الآدمية أمام دعوات الإصلاح النبوية، وخطوات القَدَر العادلة التي يُجازَى بها عمل البشر

[الأعراف ٩٤-١٠٢]

إذا كان المحور الثالث قد تحدَّث عن أهمِّ العهود التاريخية الفاصلة في تاريخ البشرية، فما الموضوع الذي دار حوله المحور الرابع؟

الجواب: هنا يأتي:

المحور الرابع

السُّنَنُ الاجتماعية العامَّة التي تجري في تاريخ الذرية الآدمية أمام دعوات الإصلاح النبوية، وخطوات القَدَر العادلة التي يُجازَى بها عمل البشر [الأعراف ٩٤-١٠٢]

المناسبة والاتصال:

1 أولًا: قَسَّمت سورةُ الأعراف تاريخَ الذرية الآدمية إلى خمسة عهود كبرى:

العهد الأول
عهد بزوغ الحضارة الإنسانية

حيث ذكر الله تعالى تهيئة الأرض لتتمكَّن فيها الذرية الآدمية، وذكر بداية وجود الإنسان بخلق آدم، والمعركة الأولى بينه وبين الشيطان، وكيف استطاع الشيطان أن يغرَّه عن اتِّباع ما أنزل إليه من ربِّه في شأن الشجرة، ثم استطاع تحقيق التوبة.

العهد الثاني
العهد القديم للذرية الآدمية

وفيه ذكر الله تعالى خمسة عهود فاصلة مَثَّلَت التاريخَ الأقدم لذرية آدم عليه السلام، وظهرت فيها أكبر الحضارات العالمية القديمة التي انحرفت عما أنزل إليها من ربها، وهي: عهد نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم السلام، وظهر فيها الصراع بين الشيطان وقبيله، وبين أعظمِ الأنبياء الذين حاولوا إصلاح الأرض بعد إفسادها.

العهد الثالث

عهد بقية الأمم التي جاءت إما موازية للحضارات الخمس الكبرى أو بعدها

وقد ذكرها الله تعالى في هذا المحور ذِكرًا إجماليًا، وبيَّن السنن والقوانين التي تجري عليها وعلى من قبلها ومن بعدها.

العهد الرابع

العهد الأوسط

وفيه ذكر الله تعالى التاريخ الإسرائيلي، وكيف أَسَّسه موسى عليه السلام، وكيف بَدَّلَ الذين ظلموا منهم قولًا غير الذي قيل لهم، فأعرضوا عن اتباع ما أُنزل إليهم.

العهد الخامس الأخير

العهد الجديد

وهنا تذكر لنا المعرفةُ القرآنية في سورة الأعراف عهدَ خاتم الأنبياء عليهم السلام، وعوامل الاهتداء به.

2 ثانياً: الواو الرابطة

فَصَّل الله تعالى العهدَ الأول والعهد الثاني في المحاور الثلاثة السابقة، وعطفت الواو في **قوله:** ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ [الأعراف: 94] **العهدَ الثالث على العهدين السابقين.**

3 ثالثاً: هذا المحور الرابع جِسْرٌ للانتقال بين العهدين الكبيرين:

عهد التاريخ القديم للذرية الآدمية، وعهد الحضارة الإسرائيلية، يلخِّص لنا التاريخ الكبير لبقية الحضارات والأمم التي لم تذكر في القرآن المجيد.

4 رابعاً: يجلِّي الله تعالى هنا السُّنَنَ المُسْتَمِرَّة والعادات المُسْتَقِرَّة والقوانين التي تجري على الحضارات

والصراع بين دعاة الخير وقوى الملأ المستكبرين الذين ينصرون القبيل الشيطاني، لِيَكُونَ الإجْمالُ كالضَّوابِطِ والقَواعِدِ الكُلِّيَّةِ لِتَنْطَبِقَ عَلى الجُزْئِيّاتِ.

5 خامساً: في هذا المحور تسعُ آيات لخَّصت السُّنَنَ الحيوية التي تحكم تاريخ الذرية الآدمية، وتعد أسبابًا مهمة في إصلاح الحاضر والمستقبل.

فإن قلت: ما السُّنن الحيوية التي تضمَّنها هذا المحور؟

الجواب: تضمَّن هذا المحور (18) سُنَّة، وهي:

سنة [1] سنة الإرسال وإقامة الحجة

فيرسل الله تعالى الرسل إلى الحضارات المختلفة (القرى) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ...﴾ [الأعراف: 94]:

1 أي:

نرسل رسلًا إلى كلِّ مجتمع للناس، وهي التي يسميها القرآن (قرية): أي حضارة.

لماذا استعمل لفظ ﴿قَرۡيَةٖ﴾ دون كلمة دولة أو مدينة؟

الجواب:

لأنها أقوى تعبيرًا، فهي مشتقة من قَرَيْتُ الْمَاءَ فِي الْمِقْرَاةِ: جَمَعْتُهُ، وتطلق على المِصْر الجامِع -كما يقول ابن سِيْدَه- فهي كلُّ مَكانٍ اتَّصَلَتْ به الأبْنِيةُ، واتُّخِذَ قَرارًا، وتتكون فيها مصادر القوة والثروة، قال الرازي رحمه الله: "ويَدْخُلُ تَحْتَ هَذا اللَّفْظِ المَدِينَةُ؛ لِأنَّها مُجْتَمَعُ الأقْوامِ" تفسير الرازي (14/321).

سنة [2]

سُنة إرسال الرسل عليهم السلام من أهل القرى إليها

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾

حيث عُدِيَّ أرْسَلْنا بِـ﴿في﴾ دُونَ (إلى)

لِأنَّ المُرادَ بِالقَرْيَةِ حَقِيقَتُها، وهي لا يُرْسَلُ إلَيْها وإنَّما يُرْسَلُ فِيها من أهلها إلى أهْلِها.

سنة [3]

دعوات الحقِّ يواجهها بالعداوة الملأ المستكبرون تعصُّبًا أو خوفًا على مصالحهم ونفوذهم.

سنة [4]

سُنة تغيُّر الأحوال: حيث تنزل على تلك الأمم أنواع مختلفة من الأزمات والنكبات

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾

1 التَّقْدِيرُ:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ [الأعراف: 94] **إلا دعا أهلها إلى ما فيه خيرُهم، فكذَّبوه، فقلبنا أحوالهم، فأخَذْنا أهْلَها بِالبَأْساءِ والضَّرّاءِ لَعَلَّهم يدركون مصالحهم الحقيقية، فيتذللون لربِّهم، ويتركون الاستكبار والغرور.**

2 وقع لآل فرعون المستكبرين مثل هذا، حيث قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 130]

3 صورت كلمة ﴿أَخَذْنَا﴾

العقوبة التي تحل بهم سريعةً خفيَّة قابضة عليهم قبضًا محكمًا.

[4]

﴿ٱلۡبَأۡسَاءِ﴾

من البؤس، وهي الشِّدَّة العظيمة، والقوة الكبيرة في أمرٍ محدَّد مكروه التي تجعل الإنسان بائسًا شديد الحاجة.

[5]

﴿ٱلضَّرَّآءِ﴾

من (الضَّرُّ)، وهي ذهاب النفع وسوءُ الحال في الجسد، أو المال، أو الجاه، فالبأساء بسبب ما حَوْله، والضراء بسبب خلل في نَفْسه.

[6]

﴿أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾

أي سلَّطنا عليهم من عندنا البأساء والضراء يتناولانهم تناولًا كما يتناول الآخِذُ طعامَه، وهذا الأَخْذ:

إما أن يكون عِقَابًا.

وإما أن يكون تَجْرِبَةً وَتَرْبِيَةً نَافِعَةً.

سنة [5]

الابتلاء الهادف: الهدفُ من تسلُّط البأساء والضراء الرحمةُ بالبشر

لعلهم يرجعون إلى القرار الصحيح، فيتَّبعون ما أنزل إليهم من ربهم: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: 94].

1 يأخذهم الله تعالى بالْمَصَائِبِ؛ لأنها تربِّي الناس على تَرْك الغرور والفساد

فَكلمة "لَعَلَّ": تُفِيدُ الْإِعْدَادَ لِلشَّيْءِ، وَجَعْلَهُ مَرْجُوًّا، وتعيدُهم إلى رشدهم.

2 قال رشيد رضا رحمه الله:

"وَقَدْ رُوِيَ لَنَا أَنَّ الْحَرْبَ الْعُظْمَى قَدْ كَانَ لَهَا هَذَا التَّأْثِيرُ حَتَّى فِي أَقَلِّ النَّاسِ تَدَيُّنًا، وَهُمْ أَهْلُ مَدِينَةِ بَارِيسَ، فَكَانَتِ الْمَعَابِدُ تُرَى مُكْتَظَّةً بِالْمُصَلِّينَ فِي أَثْنَاءِ شَدَائِدِ الْحَرْبِ".

"تفسير المنار (15/9)".

كيف عبَّرت كلمة ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ عن أدقِّ وصفٍ ينبغي أن يكون الناس عليه؟

الجواب:

لأنها اشتقت من تضرَّع يتضرَّع، تصوِّر رجوعَهم إلى الحقِّ كرجوع الرضيع إلى ضرع أمِّه حين يجوع، أو يشتاق إلى حضنها الدافئ، فالمتضرِّع هو الذي يُظهر الضَّعفَ والذُّل والخشوع والخضوع والدُّنوَّ من ربه:

إنْ مسَّنا الضُّر أو ضاقتْ بنا الحِيَلُ ●●● فلن يَخيبَ لنا في ربِّنا أملُ
وإنْ أناخَتْ بنا البلوى فإنَّ لنا ●●● ربًّا يُحَوِّلُها عنَّا فتنتقلُ
اللهُ في كلِّ خَطْبٍ حسبُنا وكفى ●●● إليه نرفعُ شكوانا ونبتهلُ

القاضي الصَّمدي

لماذا يأخذ الله عز وجل عباده بالبأساء والضراء مع أنه رحيم حليم؟

الجواب:

لأن الأخذ بالبأساء والضراء من أعظم علامات رحمته بهم، فينبِّههم بتلك القوارع الكونية، ليُفيقوا من غفلتهم، وقالت الحكماء: رُبَّ محسود على رخاء هو شقاؤه، ومرحومٍ من سُقْم هو شفاؤه، ومغبوطٍ بنعمة هي بلاؤه.

سنة [6]

تبديل السيئة الحسنة (الرخاء المستدرج):

فالعذاب الذي يصيب تلك الحضارات عذاب متقطع غير مستأصل، فيُعْقِب الله تعالى أزماتها بعض عهود الرخاء ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: 95]:

[1] ﴿ثُمَّ﴾

هذه الكلمة تنبهنا على حدوث شيء جديد بعد السابق

[2] ﴿بَدَّلْنَا﴾

والتبديل: التغيير من حالٍ إلى حال، ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾: وهي البأساء والضراء؛ لأنها تسوء الناس، ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾: وهي الرخاء والنعمة والسعة؛ لأنه يَحْسُن في أعين الناس.

سنة [7]

النمو المستغل

تتوالى على الغافلين أوقات الرخاء حتى يصلوا إلى مرحلة (النمو المغري) وكثرة النعماء:

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ [الأعراف: 95]

ولهذه السنة مظاهر تتمثل في:

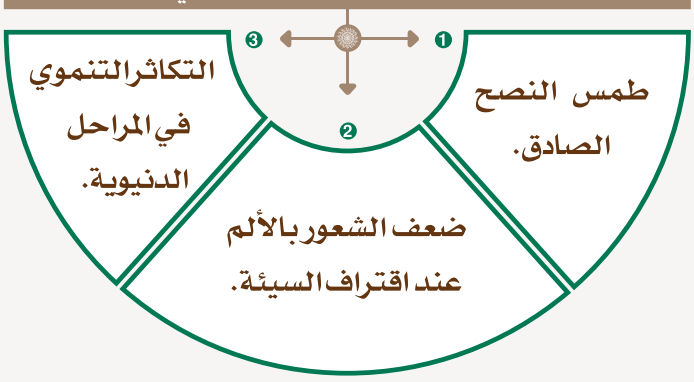

كيف صوَّرت كلمة ﴿عَفَواْ﴾ حاضر الحضارات ومستقبلها؟

الجواب:

عفا: يعني ترك الشيء على هيئة معينة مخصوصة تنطمس فيه معالمُه مقابل أن يَكثُر شيء فيه، فيُنسي اللاحقُ السابقَ، ويمحو ذِكْرَهُ، فاجتمع فيه الترك والمحو والزيادة في وقت واحد، ومن ذلك قولهم: قد عفا وَبَرُ البعير إذا زاد، وقولنا «أسألك العفو» أي: ترك العقوبة تركًا يؤدِّي إلى محوِ السابق غير المرغوب، ونموٍّ ما يقابله وهو المحبوب.

[1] فكلمة ﴿عَفَواْ﴾

صوَّرت لنا واقعهم، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: "حتى كَثُروا وكَثُرت أموالهم، وصوَّرت لنا نتيجة هذا الواقع، فقال قتادة رحمه الله: حتى سُرُّوا بذلك." تفسير الطبري (575/12).

[2] فيكون معنى ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ﴾

تُركوا فلم يُعاقَبوا، وجاءهم ما حَسُنت معايشتُه حتى كَثُروا عَدَدًا وأجيالًا، ونمت أوضاعُهم الاقتصادية، وقوتُهم الذاتية، ووسائل التبادل والتجارات والتواصل، فالله تعالى لم يَعْفُ عنهم، بل هم عفوا بسبب ذلك الترك.

3 من أمثلة ذلك:

أ النمو الاقتصادي والجسدي عند قوم هود عليه السلام

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۡۜطَةٗۖ﴾ [الأعراف: 69]

ب والنمو الحضاري التقدُّمي الأمني عند قوم صالح عليه السلام

﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ﴾ [الأعراف: 74]

ج النمو السكاني ذي المنافع المتعددة عند قوم شعيب عليه السلام

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 86]

سنة [8]

التفسير الخاطئ والتأثير السلبي النشط:

يصل صُنَّاع القرار إلى حالة التفسير الخاطئ للأحداث وإدارة الأفكار، ويُؤَثِّرون على جمهور الناس الأغرار: ﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف:95] فبدلًا من التضرُّع حال الشدَّة، والشكر حال الرخاء يظنون أن تبديل السيئة والحسنة قانونٌ يعمل بنفسه

1 ضربتهم الأقدار المتعبة المضنية السيئة التي تسوء من تَفِدُ عليه، فما تضرَّعوا، ومسَّتهم الأقدار الحسنة المفرحة فما شكروا.

2 عندما تَضْرِبهم البأساء والضراء لا يبحثون عن تفسير صحيح لما وقع، بل يزدادون إعراضًا واستكبارًا، ويحسبون أن السراء تَعْقُبُ الضراء من غير حكمة ولا ابتلاء، وأنه أصابهم ما أصاب آباءهم من قبل؛ لأن الأمور تمضي هكذا بلا تدبير.

3 هنا ترى مقدار الضلال الرهيب في التفكير: يشربون الخمور ويعملون على نشرها، يَفْجُرُون ويعملون على نشر الدَّعارة، يُرابون ويصرِّون على نشر المعاملات المالية المحرمة، يقتلون الضعفاء، ويغتصبون حقوق الأبرياء، وعندما تحدث لهم النكبات والزلازل والمصيبات يناديهم جانبٌ ضعيف منهم يقول: لماذا لا نتوب، فيجيبه الجانب القوي: ﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾، وهذا جهل بسُنَن الله تعالى الكونية والشرعية

4 هنا تظهر سنة الاستدراج، وهم لا يشعرون

فالاستدراج:

أن يبتعد من رحمة الله تعالى رويدًا رويدًا، ويقترب من عقابه تدريجيًا دون أن يحسَّ بذلك.

5 تفسير تغيرات الأحداث بالنسبة للمؤمن يلخِّصه الرسول ﷺ:

«عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ». "مسلم (7610)".

[6] كلمة ﴿ثُمَّ﴾

وذِكْرُ آبائهم يبصرنا أن الله تعالى يملي لهذه الحضارة الفاسقة حتى تتعاقب عليها الأجيال.

سنة [9] العقوبة المستأصلة تأتي مفاجئة بحدث غير متوقع:

﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: 95]

[1] الفاء

تفصح عن كلام محذوف، والتقدير: فاستمروا على فسقهم وتفسيرهم الخاطئ للأحداث، فكانت الخاتمةُ دمارًا مفاجئًا أصابهم.

[2] كلمة ﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾

صورَّت العذاب المستأصل؛ لأن الأخذ يدلُّ على تناول الشيء تناولًا سريعًا خفيًا مستوليًا مستحوذًا يجمع المأخوذين، ويقبض عليهم قبضًا محكمًا.

[3] كلمة ﴿بَغْتَةً﴾

تصوِّر مفاجأة صادمة مكروهة من حيث لا يحتسب، بخلاف ما له مقدمات كما قال ابن المعتز:

إذا بُغِتَتْ أشياءُ قد كان مِثْلُها ... قديمًا فلا تَعْتَدَّها بَغَتاتِ

وقَالَ يَزِيد بْنُ ضَبَّةَ الثَّقَفِيُّ:

ولكنَّهم ماتُوا وَلَمْ أَدْرِ بَغْتَةً ... وأَفْظَعُ شيءٍ حينَ يَفْجَؤُكَ البَغْتُ



فما الحكمة من قول الله بعدها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: 95] ؟

الجواب:

كلمة ﴿شَعَرَ﴾: من قولهم: شَعَرْتُ: أصبت الشَّعْرَ، وقد تكون الإصابة بحيث يُحِسُّ به بقوة وألم كمن شُدَّ شَعَرُه، وقد تكون خفيفة فلا يُحِسُّ به بوضع شيء على الشعر، فقولهم: شَعُرْتُ بِالشَّيْءِ، إِذَا علمت علمًا مصحوبًا بإحساس خفيف أو ثقيل في الدِّقَّة.

4 فالمباغتة

تعني المفاجأة الصادمة في المكان والزمان والكيفية بأمرٍ شديدٍ فظيع، وأما قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: 95] فيصوِّر أنهم فَقَدوا الإحساس الذي يجعلهم يعملون على فِعْل ما يدفع العذاب.

سنة [10] الإيمان والتقوى أهمُّ عوامل الحصول على البركات، وإنقاذ الحضارات من الأزمات والفوضى

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96]

1 هذه السُّنة تقابل السُّنَن السابقة وتضادها، وتكوَّنت هذه السُّنة من ثلاثة أركان:-

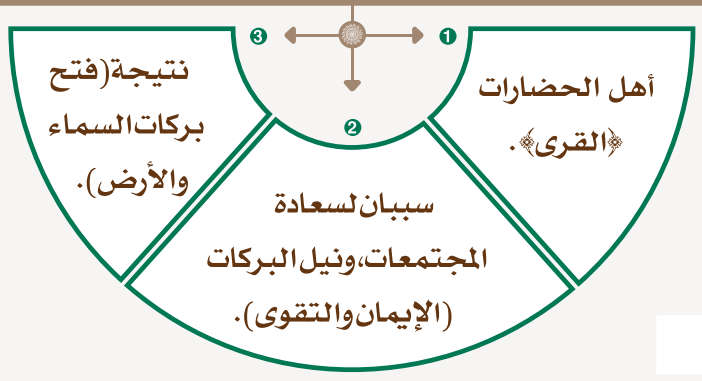

المعادلة:

أهل الحضارات (القرى) + الإيمان والتقوى = فتح بركات السماء والأرض

2 ﴿لو﴾: تبصرنا هنا بثَلَاثَة أُمُور:

1. بالشرطية في الزمان الماضي المكون من السَّبَب والنتيجة.
2. وكونهما في الْمَاضِي.
3. وَامْتنَاع النتيجة لامتناع السَّبَب

فالسبب: ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾

والنتيجة ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾

فامتنعت النتيجة لامتناع السبب.

3 تبصرنا هذه المعادلة القرآنية بأن من أهمِّ أهداف العبادة في الإسلام:

1. بناء الحياة الدنيا.
2. وإغداق النعم على أهل الأرض.
3. وفتح خزائن الكون ليتمتعوا بها، وليس مجرد العبادة.

4 هذه المعادلة العظيمة تخاطِب العالمين بما فيهم المسلمون، هنا نتذكر كلمات بديع الزمان النورسي رحمه الله:

"جاهلية الإسلاميين لا تقل عن جاهلية العلمانيين. فالأول ابتعد عن إنسانية الدين، والثاني ابتعد عن دين الإنسانية".

ركن [1]

القرى إشارة إلى كلِّ الحضارات:

ومنها السابق ذكرها، وهي: حضارة قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب عليهم السلام، وكذلك إلى الحضارات المتعدِّدة المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾[الأعراف: 94]

ركن [2]

السببان:

سبب [1]

لسعادة المجتمعات، ونيل البركات: الإيمان:

1

الإيمان معناه:

التصديق بالله والإقرار والتسليم له ظاهرًا وباطنًا

ومعنى ﴿آمن﴾:

دخل في الأمن وطمأنينة النفس، وحصل له الاطمئنان والراحة والسكينة، ويقتضي أن نتبع كلمات الله تعالى التي أنزلها على رسوله ﷺ، وأن نجعلها دستورًا للحياة.

2 الإيمان بالله تعالى دليل على:

1. سلامة في أجهزة الاستقبال الفطرية.
2. وصِدْق في الإدراك الإنساني.
3. وحَيويةٍ في البنية البشرية.
4. ورحابة في مجال الإحساس بحقائق الوجود.



وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية.



وهذه كذلك من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية"

4

الإيمان بالله يحرِّر الإنسان والمجتمعات من عبادة الهوى، ومن العبودية للعبيد، وهل يمكن لعُبَّاد العبيد أن يعمروا الأرض بالقسط؟! إنهم يبنون القصور لكن لأسيادهم، ويديرون المصانع لكن لأربابهم الذين لا يزيدونهم إلا خسارًا.. يستعملونهم كالآلات ثم يقذفونهم بعيدًا.

سبب [2]

التقوى:

1

وهي الوقاية الحقيقية والحماية الصادقة للإنسانية بترك كلِّ المكروهات والرذائل، ولا يتمُّ ذلك إلا إذا ملأ الإنسان نفسه بالفضائل، فالتقوى تُوْجِدُ الإنسانَ الصالح الذي يَعْمُرُ الحياة ويحمي نَفْسَه من نقاط الضعف الموجودة، والأخطار المستقبلية.

2

فيحمي الإنسان نَفْسَه من إضاعة حقوق الله تعالى، وحقوق العالم حوله، فالتقوى "يقظة واعية تصون من الاندفاع والتهور والشطط والغرور، وتوجه الجهد البشري في حذر وتحرج، فلا يعتدي، ولا يتهور، ولا يتجاوز حدود النشاط الصالح".

ركن [3]

النتيجة للإيمان والتقوى: ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 96]

[1] كلمة (فتح)

تبصرنا بإزالة العوائق بين طرفين، وكأنك ترى الإنسانية في طرف، والبركات الضخمة في السموات والأرض في الطرف المقابل، وبينهما حواجز منعت الإنسانية من الوصول، ومفتاح هذه الحواجز: الإيمان والتقوى، فالفتح عملية إلغاء الإغلاق، وإبعاد الموانع.

[2] ﴿بَرَكَٰتٖ﴾

جمع بركة مشتقة من (بَرَكَ)، فقالوا: ابتركت السماء وأَبْرَكتْ: دام مطرها، فيجتمع في البركة:



[2] ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾

مثل: الطاقة المائية والشمسية والهوائية، وغيرها مما يتوقعه الإنسان.

[4]

﴿والأَرْضِ﴾

مثل: النبات، والحيوان، والمعادن، والرمال والأحجار، وسائر النعم الكامنة، والظاهرة وغيرها مما يتوقعه الإنسان.

5 وجَمْعُ البركاتِ يصوِّر

تعدُّدَ أصناف البركات وأنواعها، وهيئاتها وكمياتها، وألوانها، وصُوَرها وأشكالها، ما يعهده الناس وما يتخيلونه، وما لم يتهيأ لهم في واقع ولا خيال، فهي بركات مفتوحة بلا حساب.

6 يريد اللّه تعالى من الناس

الإيمان الذي يُغدِق الأمن النفسي والجماعي

ويريد منا

التقوى التي تعني إيقاظ الضمير ومراقبة النفس، ونبذ الاستكبار

ويريد منا

رؤية محركات التاريخ الإنساني، وإدامة الاتصال باللّه تعالى، وعدم الاغترار بطراءة العيش ورخاء الحياة.

سنة [11] الأخذ العقابي العادل (عكس السنة السابقة):

فالتكذيب القولي أو العملي يؤدي إلى الأخذ العقابي العادل بما كسبت أيدي الناس:

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96]

[1] ﴿وَلَٰكِن﴾

حرف استدراك يبصرنا بعكس ما قبله أي لم يؤمنوا ولم يتقوا، فماذا فعلوا؟

[2] ﴿كَذَّبُواْ﴾

من (كَذَّب)، والكذب: مخالفة الواقع الصحيح، أي نسبوا الأنبياء والصادقين إلى الكذب.

3 استخدموا آيات الله تعالى النازلة أو الكونية ليحاربوا الله ورسله بدلًا من أن يستفيدوا منها في الإيمان والتقوى

النتيجة:

4 الأخذ العقابي ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، فالفاء للتفريع على التكذيب تفريعًا للنتيجة على السبب، والأخذ: يعني العقوبة المستولية السريعة القابضة عليهم قبضًا محكمًا

[5]

﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾

الباء سببية، وكلمة ﴿كَانُواْ﴾ تبصرنا برسوخهم في الأفعال القبيحة.

[6]

﴿يَكۡسِبُونَ﴾

الكَسْبُ: ما يجتهد الإنسان في تحصيله مما يعتقد أن فيه منفعةً له، وكلمة ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ تبصرنا أنهم لم يُكَذِّبوا فقط، بل جعلوا التكذيب مكاسب يسعون لها ويحققونها، فصارت الأعمال التي تدل على التكذيب مثل إشاعة الشرك، والفاحشة والإجرام، وأخذ حقوق الضعفاء.. كلها مكاسب لهم وإنجازات، وسيعاقبون بها عند رب الأرض والسموات

6 كأن الله تعالى يقول:

عطايانا سحائبُ مرسلاتٌ ○○○ ولكن ما وجدنا السائلينا
وكلُّ طريقِنا نَورٌ ونُورٌ ○○○ ولكنْ ما رأينا السالكينا
ولم نَجدِ الجواهرَ قابلاتٍ ○○○ ضياءَ الوحي والنورَ المبينا
ولو صَدَقوا وما في الأرض نهرٌ ○○○ لأجرينا السماء لهم عُيونا
وأخضعنا لُملكهم الثُّرَيَّا ○○○ وشَيَّدنا النجومَ لهم حُصونا
ولكن أَلْحدوا في خيرِ دينٍ ○○○ بنى في الشمس مُلْك الأولينا
تراثُ محمدٍ قد أهملوه ○○○ فعاشوا في الخلائق مهملينا
لقد ذهبَ الوفاءُ فلا وفاءٌ ○○○ وكيف ينالُ عهدي الظَّالمينا
إذا الإيمانُ ضاعَ فلا أمانٌ ○○○ ولا دُنْيا لمن لم يُحْيِ دِينا

(محمد إقبال)

8 يفصِّل النبي ﷺ بعض العقوبات على الكسب الحرام، فيقول:

((لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا.

وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَؤُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ.

وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا.

وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ.

وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ، إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ))

"ابن ماجه (4019)، وحسَّنه الأرناؤوط لغيره"

كيف نفهم هذه المعادلة مع أننا نرى الحضارات المكذِّبة المعاصرة أعلى مقامًا وأحسن نديًا، وأكثر رقيًا؟

الجواب:

أولًا: نفي الله تعالى أن يفتح عليهم البركاتِ العظيمةَ الحقيقيةَ من السماء والأرض، وهذا لا ينفي أن يفتح الله تعالى عليهم أصل الخيرات.

ثانيًا: الازدهار الدنيوي مقترن بالسعي في الأرض، والعدل في توزيع الموارد بصورة عامة، وهو الذي تفعله كثير من الأنظمة، ولكنها لو آمنت واتقت لوجدت البركات التي تجعل هذا الازدهار لا شيء مقارنة بالبركات التي ستجلب لها رسالة السعادة.

ثالثًا: الآية السابقة تخبرنا أن الحضاراتِ المكذِّبةَ تأتيها البأساء والضراء دون أن تستأصلها، ويختبرهم الله عز وجل بالحسنة التي تَحْسُنُ أحوالُهم الدنيوية معها حتى يصلوا إلى التكاثر التنموي والأخذ المستأصل يأتي في وقته المحدَّد عند الله.

رابعًا:

قشور الحضارات المزدهرة تخفي الكثير من الآلام، فأغنى دولة في الأرض يدخل في فئة الفقراء فيها ما يقرب من 38 مليون مواطن حسب تصنيف الدولة نفسها، وفيها نحو 600 ألف مُشَرَّد لا منزل له حتى عام 2021م، وبلغ الذين ليس لديهم تأمين صحي 30.4 مليون شخص عام 2018م.

خامسًا:

تعتمد كثير من الحضارات المكذِّبة في غناها على امتصاص أموال المستضعفين في الأرض، ويكفي أن تنظر في امتصاص مسوخ فرنسا لأفريقيا، ومثل ذلك في آسيا، فيقعون في سنة الله تعالى التي قال عنها: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف: 95]، وانظر كيف يعيش المجرمون بثروة المسلمين

كما قال إقبال رحمه الله:

ماذا دهَى الإسلامَ في أبنائه ○○○ حتى انْطَوَوْا في محنةٍ وعذابِ
فثراؤهم فقرٌ ودولةُ مجدِهمْ ○○○ في الأرض نهبُ ثعالبٍ وذئابِ
عاشوا بثروتنا وعِشنا دونهمْ ○○○ للموت بين الذُّل والإملاقِ

سادسًا:

الأخذ الإلهي يصيبهم، مثل الأزمات النفسية وشيخوخة الحضارات، وتناقص السكان، ووقعوا مجدَّدًا في الحروب التي ينشر نارَها كثيرٌ منهم في الأرض، وسبَّبوا لشعوبهم الخوف من البرد، والغلاء في المحروقات والأسعار.

سابعًا:

بيَّن الله تعالى أنه يمتِّعُ المكذبين، ولكنه يخصُّ بالبركات المؤمنين، فقال: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: 48]

سنة [12]

الأمن من مكر الله تعالى: أعظم علامات الخسارة الذاتية والحضارية

﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: 97-99] **فالتقدم المادي للحضارات المزدهرة لا يعني حصولها على بطاقة الأمان من الأزمات القوية المغيِّرة**

في هذه الآيات الثلاث ثلاثة أسئلة متتابعة يتبعها سؤال رابع مباشر، وتشعر بوقعها المنْكِر المتحدِّي تعقبها النتيجة التي تلخص السُّنَّة العامَّة:

سؤال [1]: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ [الأعراف: 97] ؟

[1] ﴿أَفَأَمِنَ﴾

دخلت الهمزة على فاء العطف، فالسؤال للاستنكار والتعجيب: هل هم مجانين ليأمنوا مكر الله تعالى وهم يعملون السيئات!

2 المعنى:

أفأمنوا أن يأتيهم عذابنا القويُّ حال كونهم أشدَّ راحة في بياتهم في الليل؟

3 ذكر وقت (البيات) حال (نومهم)؛

لأنهما يمثِّلان أشدَّ الأوقات التي تتملَّك المرء فيها الغفلة والشعور بالأمن والراحة، ويكون مسلوب الإرادة، مسلوب القوة، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه حشرة، فكيف ببأس اللّه -جل جلاله- الجبار؟!

سؤال [2]: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: 98]

1 قرأ الجمهور

﴿أَوَأَمِنَ﴾ بفَتْح الواو، وهو حَرْفُ العَطْف دَخَلَتْ عَلَيْه هَمْزَةُ السؤال، والمعنى: تَعَجَّبْ منهم وأنكِرْ عليهم أنهم أَمِنوا بأس الله تعالى في الليل حال نومهم، وفي الضحى حال لَعِبهم.



2 قَرَأَ نَافِعٌ ومن معه

بِسُكُونِ الْوَاوِ ﴿أَوْ﴾، والمعنى: أَأَمِنُوا الحال الأول أَوْ الثاني؟

3 الضُّحى

يجعل للاحتفال والعيد في أيام محددة في الأسبوع، ويكون حالهم كما قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يَتَجَدَّدُ لَعِبُهم، فيكونون أشدَّ غفلة.

تصوَّرْ فقط زلزالًا وقع في أحد الحالين، كيف يكون حالهم؟

سؤال [3]: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 99]

1

أنكرَ عليهم وعجَّبَ العالم من حالهم: أيظنون أن يقع لهم الأمن من مكر الله لو أراد أن يَصُبَّ عليهم بأسَه بسبب إجرامهم؟

2 قال قتادة رحمه الله:

"بَغَتَ القومَ أمرُ اللهِ، وما أَخَذَ اللهُ قوماً قَطُّ إلا عندَ سَلْوَتِهم وعِزَّتِهم ونَعْمَتِهم، فلا تَغتَرُّوا باللهِ، إنهُ لا يَغْتَرُّ باللهِ إلا القومُ الفاسقُونَ".

"ابنُ أبي حاتم (7294)".

ولكن ما معنى كلمة ﴿مكر﴾؟ ولماذا استعمل الأسلوب القرآني المتميز هذه الكلمة؟

الجواب:

1. أصل المكر: سَقْيُ الأرض لتليينها، فهو نوع من الاحتيال المحمود عليها، ويظهر أن معنى الْمَكْر عمومًا: الِاحْتِيَالُ لتحقيق أمرٍ قد يكون خيرًا، وقد يكون سوءًا.

2. ونعرِّفه بأنه التدبير الخفي الذي يُستدرَج فيه المكور به إلى ما يَحْذَرُه من الضر آخر الأمر بحيلة، كأن يكون ذلك على هَيْئَةٍ يَحْسَبُها مَنفَعَةً.

3. وتجمع التربية القرآنية بين حرمة الأمن من مكر الله، وحرمة القنوط من رحمة الله حيث قالَ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه:

"الكبائِرُ: الشِّركُ باللهِ، واليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، والقنُوطُ من رحمةِ اللهِ، والأمنُ من مَكْرِ اللهِ".

"المعجم الكبير (8783)، وصحَّحه ابن كثير".

4. ينقسم المكر إلى:

الأول: مكر محمود

1. إذا كان بشيءٍ شرعي لهدف صحيح شرعًا كأن ينصر الضَّعيف، كما فعلَ يوسف عليه السلام حين وضع صُوَاع الملك في رَحْل أخيه.

الثاني: مكر مذموم

2. إذا كان قبيحًا أو لهدفٍ باطلٍ شرعًا، فمِنْ مكر الله تعالى إمهالُ العبد وتمكينُه من أعراض الدُّنيا.

ويمكن تقسيم المكر باعتبار وسيلته وغايته إلى أربعة أنواع:

1. قد يكون لقصد حسن باستخدام وسيلة حسنة، وهذا الأحسن، ونجده في تعليم النبي ﷺ في قوله: ((رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ)) "أبو داود (1510)، وصحَّحه الأرناؤوط والألباني".

2. قد يكون لقصد حسن باستخدام وسيلة سيئة، وهذا قد يُحمد وقد يُذم.

3. وقد يكون لقصد سيء باستخدام وسيلة سيئة، وهذا مذموم.

4. وقد يكون لقصد سيء باستخدام وسيلة حسنة، وهو أسوأ الأنواع.

أيها المستبـــــــد كلَّ مراد ○○○ كنتَ تسعى إليه أصبح وَهْما
قضي الأمرُ وانتهى كلُّ شيء ○○○ وطوى اللهُ ما نشرتَ وأطمى
يحسب المرءُ أنه يعجزُ اللـ ○○○ ـهَ فيلهو ويملأ الأرضَ ظُلْما
ويرى الناسُ كالدُّمى يستجيبو ○○○ ن لما يبتغيـــه صُمًّـــا وبُكْمـــا
ويجيءُ القضاءُ حتمًا فلا يَقْـ ○○○ ـدر ردًّا لـــه ولا فيـــه حُكمًا

سؤال [4]: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ﴾ [الأعراف: 100]

[1] ﴿أَوَلَمْ﴾

دخلت همزة الإنكار والتعجيب على واو العطف، وتبعها حرف النفي، هنا تتابعت الأسئلة المنكِرة المعجِّبة من عدم الإفادة من التاريخ والماضي.

[2] ثم جاء الفعل ﴿يَهْدِ﴾

أي أو لم يُبيِّن لهم ذلك ويرشدهم إلى دروس التاريخ وسُنن البقاء وسُنن الهلاك!

[3] ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾

الوراثة: انتقال أمر مادي أو معنوي من السابق إلى اللاحق من غير تعب، ومن غير عقد، كالأموال المنتقلة، والأرض التي تملَّكها الأقوام الجُدُد بعد ذهاب السابقين، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: 59].

4

فيكون الكلام عن جميع الأفراد والحضارات التي جاءت بعد أفراد وحضارات مضت، فصارت إليهم الأرض من بعد أهلها السابقين، يتملَّكونها فلا ينازعهم فيها أحد، كالحضارات الأربع التي جاءت بعد قوم نوحٍ عليه السلام، فإن عادًا جاءت بعد قوم نوح عليه السلام، وورثت التحكُّم في الأرض المحيطة بها.

سنة [13]

استحقاق العذاب بسبب ذنوب العباد مقترن بمشيئة رب الأرباب:

فذنوب وارثي الأرض قد تسبِّب إيقاعَ العذاب المصيب لهم لو شاء الله تعالى، وقد يؤخِّر عذابهم ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: 100]

[1]

﴿أَصَبْنَٰهُم﴾

من (صَوَبَ)، وهي كلمة تدلُّ عَلَى وصول شَيْءٍ إلى مكانه المناسب الصحيح الذي يستقرُّ فيه، ويتَّسق مع بقية الأمور، ومِنْ ذَلِكَ الصَّوَابُ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ.

2 والتقدير:

أو لم يُبَيِّنْ الأخذُ الشديدُ للحضارات السابقة للحضارات اللاحقة الذين يتملَّكون الأرض مِنْ بعدِ مَنْ خلا قَبلَهم في ديارهم أن الله العلي العظيم لو يشاء في المستقبل لأوقع عليهم المصيبة التي تهلكهم بسبب ذنوبهم؟ أيأمنون أن نهلك الوارثين اللاحقين كما أهلكنا المورِّثين السابقين؟

3

ينذر الله عز وجل المسلمين والصالحين والمستكبرين بأنه لا يوجد لهم ضمان ولا عهد يعطيهم امتيازًا عن الأمم السابقة في السُّنَن الكونية والاجتماعية.

4 السؤال الرابع يجيب عن سؤال نشأ من السابق:

إن كان بأس الله تعالى سيأتي، فلِمَ لَمْ يأت لكثير من الحضارات الجديدة التي تتابعت في الذنوب والإجرام؟

الجواب:

أولم يستبن لهؤلاء الغافلين المستكبرين الجواب؟ لأن الله تعالى لم يشأ، ولو شاء لأصابهم ببعض ذنوبهم.

لماذا لم يشأ الله عز وجل حدوث ذلك؟

الجواب:

ليبين مُلكه، وحُكمه العظيم، وحِلمه، وعفوه، وإمهاله، وإعطاءه الفرص لهؤلاء الذين ضلوا سواء السبيل عساهم يرجعون.

سنة [14]

تتابع الذنوب يؤدي -مع تراكم الكِبْر والغفلة- إلى طبع القلوب

وطبع القلوب يعني إغلاق الأسماع عن الوحي ونصح الناصحين، وحينها لا يبقى إلا انتظار تحقق المشيئة الإلهية في تدمير القرى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100]

[1]

الواو في ﴿وَنَطْبَعُ﴾

عاطفة عند الزمخشري رحمه الله وصلت ما بعدها بكلام محذوف مفهوم من ما قبلها، والتقدير: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: 100] **لكنهم يغفلون ونطبع على قلوبهم، فهم لا يسمعون أيَّ تذكيرٍ يأتيهم، ولم يرتض ابن عاشور رحمه الله هذا المعنى.**

2 يمكن أن تكون الواو للتنويع، فتوعدهم الله تعالى بأمرين:

1. أحدهما: الإصابة ببعض ذنوبهم
2. والآخر الطبع على قلوبهم

والتقدير:

إنْ لَمْ نُهْلِكْهم بالعقاب نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

ولكن ما معنى ﴿وَنَطْبَعُ﴾؟ وكيف يحدث الطبع؟

الجواب:

1. (طَبَعَ):

1 كلمة تعني استقرار الشيء عند نهاية ينتهي إليها، ومن ذلك "طَبْعُ الْإِنْسَانِ وَسَجِيَّتُهُ" عند ابن فارس رحمه الله

2 وعند الراغب رحمه الله "هو أن تُصوِّرَ الشيءَ بصورة ما، كَطَبْعِ السِّكَّة، وطَبْعِ الدَّراهِم، وهو أعمُّ من الخَتم وأخصُّ من النَّقش".

2 فكأنَّ الطبعَ تحويل الحالة إلى طبيعة معتادة لا تتغير، فيطبع الله تعالى على قلب المتكبر بسبب تَكْرار تكبُّره، والطابَع يدلُّ على لزوم هذه الطبيعة دون تغيير.

3 فالطبع نقشُ المرءِ صورتَه وطبيعتَه وَفْقَ الاختيار الذي يختاره رويدًا رويدًا، وشيئًا فشيئًا، حتى تصبح اختياراته عادات له تنطبع حياته عليها، وحينها تصبح سجايا.

مراحل مسخ القلوب:

الطبع يقودنا إلى البحث عن مراحل مسخ القلوب، فما هي؟

الجواب:

مرحلة 1 الرين أو الران ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]

(الرَّيْنُ)

1 طبقة غريبة تتكوَّن شيئًا فشيئًا على الشيء حتى تحجب جوهره، كالصدأ الذي يعلو السيف، فيصبح كالغشاوة على حقيقتها وعلى قيمتها، وعلى عملها، حتى يغلب عليها ويفسدها، وَمِنْهُ أَرَانَ الْقَوْمُ: إِذَا هَلَكَتْ مَوَاشِيهِمْ.

2 بداية رين القلب نكتة سوداء في القلب الداخلي بسبب الذنب الخارجي. يبين النبي ﷺ ذلك:

((إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ، زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:14]))

" أحمد (7952)، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي، ورواه ابن ماجه (4244)، واللفظ له.

3 عَنْ مُجَاهِدٍ رحمه الله: قَالَ:

«نَبَتَتِ الْخَطَايَا عَلَى الْقَلْبِ حَتَّى غَمَرَتْهُ» شعب الإيمان للبيهقي (6813).

4 يفصِّل عليٌّ رضي الله عنه ذلك، فيقول:

«إِنَّ الْإِيمَانَ يَبْدُو لُمْظَةً بَيْضَاءَ فِي الْقَلْبِ، فَكُلَّمَا ازْدَادَ الْإِيمَانُ عِظَمًا ازْدَادَ ذَلِكَ الْبَيَاضُ، فَإِذَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ ابْيَضَّ الْقَلْبُ كُلُّهُ، وَإِنَّ النِّفَاقَ يَبْدُو لُمْظَةً فِي الْقَلْبِ، فَكُلَّمَا ازْدَادَ النِّفَاقُ عِظَمًا ازْدَادَ ذَلِكَ سَوَادًا، فَإِذَا اسْتَكْمَلَ النِّفَاقَ اسْوَدَّ الْقَلْبُ كُلُّهُ، وَايْمُ اللهِ، لَوْ شَقَقْتُمْ عَنْ قَلْبِ مُؤْمِنٍ لَوَجَدْتُمُوهُ أَبْيَضَ، وَلَوْ شَقَقْتُمْ عَنْ قَلْبِ مُنَافِقٍ لَوَجَدْتُمُوهُ أَسْوَدَ " . قَالَ: "وَاللُّمْظَةُ: هِيَ الذَّوْقَةُ، وَهُوَ أَنْ يَلْمُظَ الْإِنْسَانُ بِلِسَانِهِ شَيْئًا يَسِيرًا: أَيْ يَتَذَوَّقَهُ، فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ يَدْخُلُ مِنَ الْإِيمَانِ شَيْءٌ يَسِيرٌ، ثُمَّ يَتَّسِعُ فِيهِ فَيَكْثُرُ"» "شعب الإيمان للبيهقي (38)".



مرحلة 2 الإغفال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: 28] وتصحب المرحلة السابقة:

أيْ: لا تطع من جَعَلْنا قَلْبَهُ غافِلًا عَنْ ذِكْرِنا

لأنه لا يجاهد نفسه بل مال نحو المعاصي والهوى، فيعاقبه الله تعالى بأن لا يشرِّفه بذكره، مِن قَوْلِهِمْ: أغْفَلَ فُلانٌ إبِلَهُ: إذا تَرَكَها غُفْلًا مِن غَيْرِ سِمَةٍ وعَلامَةٍ تميزها.

مرحلة 3 بعد الرين والإغفال تأتي مرحلة موازية لما بعدها، وهي الطبع:

1 نسجٌ للنُّكَتِ السوداء في القلب حتى يغطي القلب، فيطبعه بطابعه، ويمنعه من أن تصل ألطاف الله تعالى إليه.

2 يصبح المطبوع على قلوبهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100]: أي نضع عليها طابَعًا يُثبت بقاء طبيعتها على ما اعتاده أصحابها من الذنوب، وعند ذلك لا يسمعون أي خيرٍ يصلهم من الآخرين.

مرحلة 4 مرحلة الأكنة والوقر

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۖ﴾ [الأنعام: 25]

الأكِنَّة:

1. الأكِنَّة: جمع (كِنٍّ)، وهو المكان أو الأداة المحيطة على هيئة محكمة تستُرُ ما فيها كالكنانة، وهي جَعْبةٌ غير مشقوقة من أَدَمٍ توضع فيها السِّهام.
2. فالأكِنَّة: هي الأجسام المحيطة بالقلوب تمنع أنوار الهداية من الدخول إليها كما أحاطت البيوت بمن فيها، والوَقر: الحِمْل الثقيل.

3. حتى تتضح الصورة العادلة: بعض الظالمين يُظهر الاستماع للهدى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ﴾ [الأنعام: 25]

4. لكنهم درَّبوا قلوبهم على عدم وعي الهدى، ودرَّبوا أسماعهم على جعل ما يستمعونه كأن لم يسمعوه، ودرَّبوا أعينهم على عدم رؤية الحق:

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: 5]

5. فعاقبهم الله تعالى بأن حقَّق لهم ما أصروا على بنائه لأنفسهم:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۖ﴾ [الأنعام: 25]

[6]

﴿وَقْرًا﴾

أي ثِقْلٌ فيستمعون كل شيء إلا الحق، فهو ثقيلٌ على نفوسهم الظالمة وهنا يقول الله عز وجل ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100]: أي لا يسمعون سماع انتفاع

مرحلة 5 **الإقفال بالأقفال:** ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: 24]

فتغلق المنافذ على تلك القلوب، ويصبح الشر لها أحب من كلِّ شيء؛ إذ لا منفذ للخير يصل إليه ليراه.

مرحلة 6 **الختم:**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ﴾

الختم

1 مصدر خَتَمَه يَخْتِمُه خَتْمًا، ويُسمَّى بُلُوغُ آخِرِ الشَّيْءِ ختمًا، والطبع مرحلة عامة بدأت قبل الختم، ثم يؤتى بأمر يختم على كلِّ ما سبق، كما تُختم الجرَّة بما يغلقها، وتُختم الورقة بنقش يمنع الزيادة عليها، والنقص منها، فختمُ القلبِ: منعُه من أن يَخرج منه شرٌّ أو ظُلمة، أو يدخله خير أو نور.

2 ذكر مجاهد بن جبرٍ رحمه الله ثلاثًا منها، فقَالَ:

الرَّيْنُ أَيسر مِنَ الطَّبْعِ — وَالطَّبْعُ أَيسر مِنَ الإِقْفالِ

والإِقْفالُ أَشدّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّه.

3 فكأنك أقفلت الظَّرْف ثم ختمت عليه، ووضعت عليه الطابَع وهو الختم.





مرحلة عامة:

يصاحب تلك المراحل مرحلة قسوة القلب، تبدأ مع الران، ثم تكبر وتزداد ضراوة حتى يصير القلب كالحجارة أو أشد.

سنة [15]

المعلومات الصحيحة الثاقبة تبني القرارات الصائبة:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ [الأعراف: 101]

[1]

﴿تِلْكَ القُرَى﴾

إشارة إلى قوة تلك الحضارات وعظمتها

﴿نَقُصُّ﴾

نحن ولست أنت.. فلم تأت بها من عندك، ولم تأت بها من مُعلِّم بشريٍّ علَّمك، بل نحن الذين نقصها عليك.

2 قَالَ: ﴿نَقُصُّ﴾ فأتى بالفعل مضارعًا ولم يقل: قَصَصْنَا

لأنه ينقلها كأننا نرى أحداثها، وكأنَّ مشاهدَها تتكرَّرُ أمام أعيننا.

3 كلمة (قصَّ):

تصوِّر دِقَّةَ تتبُّعِ تفاصيل القَصص في القرآن، فلا يوجد في التوراة المعاصرة قصة هود، وقصة صالح عليهما السلام، وما أكثر ما يوجد من الأكاذيب على الأنبياء مثل تصوريهم للوط عليه السلام وهو يَسْكر ويزني بابنتيه.

[4]

﴿أَنۢبَآئِهَا﴾

الأنباء جمع نبأ، وأصله الْإِتْيَانُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، ومعناه هنا: الْخَبَرُ المخصوص ذو الفائدة العظيمة الذي نُقل من جهة إِلَى جهة، ﴿مِن﴾ تَبْعِيضِيَّةٌ؛ لِأَنَّ الله تعالى قصَّ بعض أنبائها مما نحتاج إليه، وليس كل أنبائها.

[5] يصوِّر لنا قوله سبحانه وتعالى

﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾

أن القرآن يحتوي على الإعجاز الإنبائي القَصصي: حيث قصَّ الله تعالى علينا قصص الأمم بصورة لا يمكن أن نجد مثلها في دِقَّتها، وصدقها، وأثرها النفسي والاجتماعي في بناء الأفراد والأمم، والحفاظ على الحضارات من الانهيار.

6 قصَّ الله تعالى علينا أهمَّ قصص التاريخ القديم لنتخذ قراراتنا بصورة صحيحة

فأهمُّ القرارات الظالمة الخاطئة جاءت بناء على المعلومات الخاطئة مثل الذين اتخذوا قرارات الإلحاد أو الشرك أو الخرافات الدينية

كنظرية داروين

أو خرافة عبادة الأصنام لتقرِّب عابديها إلى الله -عز وجل- زلفى

أو خرافة التناسخ الوثنية بناء على أكاذيب الآلهة المتعدِّدة.

7 هذه القَصص ترد قول المتعصبين: إن رسول الله ﷺ تعلَّم القرآن من بشر

فقد قال (مكسيم رودنسون) في كتابه: "محمد":

"إن قصص القرآن ما هي إلا ترديد لما تعلَّمه محمد، وسرقه من الأديان السابقة، ومن الكتب اليهودية"

فإن كثيرًا من تفاصيل القَصص القرآني يخالف الكتب المتقدِّمة، ويصحِّحُها.

سنة [16]

القرار الأول المعاند الخاطئ قد يُنتج ركامًا من الخسائر

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: 101]

1 أيْ:

والحالُ أنَّهُ قَدْ جاءت تلك الحضاراتِ رسلُهم الذين يعرفونهم، واختصوا بهم مجيئًا مؤكدًا.

2 هذه الجملة الحالية جواب عظيم وتلخيص لأهمِّ حقائق تاريخ الأمم والحضارات؛ إذ ربما انبعث أناس بدافع الرحمة، فقالوا: وهل كانت هذه الحضارات تستحقُّ العقوبات؟ ألم يكن من الرحمة ألا تُدَمَّر؟ فجاء هذا الجواب.

[3]

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾

جمع البينة، مشتقة من بَانَ، وهي كلمة تدلُّ على بُعْدِ الشَّيْءِ وانفصاله مع انْكِشَافه ووضوحه، وذكرها الله عز وجل ليبصرنا أنَّ الرسلَ أقاموا على قومهم الحجج الواضحات.

[4] يمنحنا قوله تعالى:

﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾

عِدَّة صور منها:

صورة [1]

قام الرسل -عليهم السلام-بجهد عظيم، واتخذ المستكبرون قرارهم الأول الخاطئ بالتكذيب، فكرَّر الرسل -عليهم السلام- جهودهم، ولكن المستكبرين استمرُّوا في عنادهم بناء على قرارهم الأول: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾: أي فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم

صورة [2]

عند الطبري -رحمه الله-: فما كان هؤلاء الذين وَرِثوا الأرض من مشركي قومك من بعد أهلها، الذين كانوا بها من عاد وثمود، ليؤمنوا بما كذَّب به الذين ورثوها عنهم من توحيد الله تعالى ووعده ووعيده. "تفسير الطبري (9/12)".

وهذا معنى ما قرَّره الرازي -رحمه الله-:

﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾: بَعْدَ رُؤْيَةِ المُعْجِزاتِ بِما كَذَّبُوا بِهِ قَبْلَ رُؤْيَةِ تِلْكَ المُعْجِزاتِ." تفسير الرازي (14/324).

سنة [17]

تكرُّر أفعال الكفر يؤدِّي إلى أن يكون الكفر طبيعة

فيعاقب الله تعالى صاحبه بأن يطبع على قلبه ما جلبه لنفسه:

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 101]

1 في السُّنَّة السابقة أخبرنا الله تعالى أنه أرسل رسله -عليهم السلام-، فقابلهم المعاندون بقلوب مغلقة معاندة، فكذَّبوهم، فجاءتهم الرسل -عليهم السلام-بالبينات مرات، فما كانوا ليؤمنوا بسبب إصرارهم على قراراتهم الخاطئة من قبل، فتكرَّرت أفعال الكفر منهم.

[2]

﴿كَذَٰلِكَ﴾

هذه الكلمة تشير إلى ما سبق أي مثل الذي أشرنا له من تكرُّر أفعال الكفر والتكذيب، سبَّب لهم أن يحكم الله تعالى عليهم بالطبع على قلوبهم، فقد رسخت في الكفر، ولذا جاء الوصف ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ باسم الفاعل دلالة على رسوخهم في أفعال الكفر، ولم يقل: يطبع على قلوب من كَفَر.

3 الآية تحذِّر المسلمين من الخطر الكبير:

أن يقعوا في فخِّ (الطبع على قلوبهم)، فإن كلمة (كافرين) تشمل الكفر الْمُخرِج من الملة وكفر النعمة، وهو كفر الأشر والبطر والغرور الذي يؤدي إلى التساهل في قتل النفس المحرَّمة، والعدوان على أموال الناس وأعراضهم.

سنة [18]

الخيانة الأسرَة:

فخيانة العهد الذي بين الإنسان وربه يعني الوقوع في أسر الشيطان وقبيله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: 102] أي: فلا تحزنوا أيها المصلحون، وضَعُوا خطط إصلاح الأرض ضمن هذه الرؤية التي لا تستسلم للأحلام

[1]

﴿وَجَدْنَا﴾

من (وَجَدَ) وِجْدَانًا: أي ألفى الشيء قائمًا محسوسًا موجودًا ينظر إليه ببصره أو ببصيرته.

[2]

﴿عَهْدٍ﴾

هو الوَصِيَّةُ الموثقة التي يجب تعاهدها أي استحضارها في كلِّ وقتٍ حتى لا ينساها الإنسان.

[3]

و﴿عَهْدٍ﴾

نَكِرَةٌ في سِيَاقِ النَّفْي، وجاءت كلمة ﴿مِّنْ﴾ لتزيدها عمومًا ليشمل العهد كلَّ ما يمكن أن يُسمَّى عهدًا، سواء أكان عَهْدًا فِطْرِيًّا مثل فطرة الشعور بوجود الله أم شَرْعِيًّا أم عُرْفِيًّا.

4 من العهد قول الله عز وجل في الحديث القدسي:

«وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ» أي أزالتهم.

"مسلم (7309)".

ومن العهد:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: 60]

[5] صوَّر الله تعالى نقضهم للعهد بقوله:

﴿وَمَا وَجَدْنَا﴾

لأن الوِجدان كلمة عظيمة جدًا توضِّح كمالَ علم الله تعالى، وكمال عدله؛ فلم يحاسبهم بعلمه السابق، بل بواقعهم، فكأن الله تعالى يقول: اختبرناهم ليُوْفُوا بعهودهم، فلم يفعلوا، فإذا فتَّشت في أحوالهم لا تجد أثرًا للعهد

كم نطلبُ اللهَ في ضرٍّ يحلُّ بنا ○○○ فإنْ تولَّتْ بلايانا نَسِيناه
نَدْعُوه في البَحْرِ أنْ يُنْجي سَفِينَتا ○○○ فإنْ رجَعنا إلى الشَّاطِي عَصَيناه

6 يصوِّر لنا حديث السؤال في القبر بحثَ المَلَكين عن عهد الله عند الكافر والفاجر:

«وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ: مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي». "

أبو داود (4753)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح".

فتَّش الملكان عسى أن يجدا أثرًا لعهد الله في نفسه، فلم يجدا شيئًا.. هنا تشعر بقوَّة التصوير القرآني المدهشة لكلمة

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ﴾

[7]

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: 102]

﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة، ﴿وَجَدْنَا﴾: أي عندما اختبرهم الله تعالى ليتحقَّق ما يعلمه بالغيب في الواقع وجدنا أكثرهم فاسقين، وجاء التعبير عن الله -جل جلاله- بـ﴿نا﴾ الدالة على التعظيم

8 قيَّد وجود الفسق بالأكثر؛ ليبصِّرنا

أن قوى الملأ المستكبرة تكون نَشِطة جدًّا، فتجرَّ معها جمهورًا عريضًا من العامَّة ليمارسوا الفسق ويتلذذوا به.

الْفِسْقُ

هُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الأمر الفطري الطبيعي الذي يجب أن يكون عليه الإنسان، ومن ذلك: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ عَنْ قِشْرِهَا.

9

10 إذا اجتمع

الكفر + مع الفسق

- أريد بالأول: الكفر الأكبر
- وبالثاني: كبائر الذنوب

ويظهر ذلك في قوله تعالى:

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: 7]

11 ذِكْرُ العهد والفسق هنا تحذير للمؤمنين أن يقعوا فيه في معاصيهم الفردية أو الجماعية

وقد تكرَّر في القرآن بيان خطر الفسق، فهو بريد الكفر، وعندما تنظر انتشار الفسق في أمة النبي ﷺ، وخاصة تهاونهم في الظلم والقتل ونشر الفجور، تشعر بالخجل من صاحب الرسالة ﷺ، وتعلم كيف تحقَّقت سُنَّة عدمِ فتح البركات:

ما هم بأمة أحمد لا والذي فطر السماء ○○○ ما هم بأمة خير خلق الله بدءًا وانتهاء
إني أحار بهؤلاء! أحارُ نهجًا وانتماء ○○○ هذا إلى صنم يطيف به وذا عبد النساء
وهناك من ظنَّ الرياء براعةً فغلا رياء ○○○ والمال آلهة فقدَّسه وكان له الفداء



لعلك تسأل: فما المحور الجديد الذي تنقلنا إليه الآيات بعد انتهاء المحور الرابع؟

الجواب:

بعد هذا الاستعراض المثير للسُّنَن العامَّة التي تخضع لها البشرية في تقلباتها التاريخية بعد أن يأتيها الحق، ينقلنا الله عز وجل إلى عهد كبير جديد من عهود الذُّرية الآدمية، إنه العهد السادس.

المحور الخامس

العهد السادس من عهود الذرية الآدمية، ويمثل التاريخ الوسيط: العهد الإسرائيلي

[الأعراف ١٠٣-١٧١]

امتد هذا العهد في الآيات [103-171] من سورة الأعراف

وانقسم إلى ثلاثة فصول كبرى:

- فصل [1]: ظهور موسى عليه السلام، وعودة الإيمان بالله، وبداية الانبعاث الإسرائيلي [الأعراف: 103-126].
- فصل [2]: عهد المواجهة ونهاية التاريخ الفرعوني [الأعراف:127-137].
- فصل [3]: عهد التمكين الإسرائيلي: أهم مظاهر نقض الإسرائيليين للعهد الإلهي [الأعراف:138-171].

فإن سألت: ما الأسباب التي لأجلها كان الكلام عن هذا العهد أكثر تفصيلًا من الكلام عن الأمم السابقة؟

الجواب: أسباب تفصيل العهد السادس أكثر من غيره ما يأتي:

سبب [1] العهد الإسرائيلي يمثِّل أحد العهود الفاصلة في التاريخ البشري، وسيستمر أثره على البشرية إلى قرب قيام الساعة، فبنو إسرائيل من أكثر الأمم تأثيرًا في الواقع العالمي.

سبب [2] التشابه الكبير بين نبينا محمد ﷺ وبين كليم الله موسى عليه السلام: نبوة وأمة، وكتابًا، وعدوًّا.

سبب [3] أوتي موسى ﷺ أعظم الكتب التشريعية تأثيرًا قبل الإسلام وقبل القرآن، ولم يكن ذلك لمن قبله، وجاء القرآن مصدقًا له ومهيمنًا عليه.

قال الله تعالى:

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: 130]

سبب [4] بشَّر الله تعالى بالنبي ﷺ في التوراة والإنجيل تبشيرًا صريحًا: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: 157]، لكن الذين ظلموا بدَّلوا ذلك.

سبب [5] الإسرائيليون إمَّا أن يكونوا أئمة للاهتداء، وإما أن يكونوا أئمة للإضلال: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159]

سبب [6] واجه موسى عليه السلام العهد الفرعوني الذي اجتمع فيه أعظم أركان الطغيان.



سبب [7] تشابه مرحلتي الاستضعاف والاستخلاف عند الإسرائيليين وأمة النبي ﷺ.

سبب [8] يقدِّم القرآن القصة الحقيقية عن التاريخ الإسرائيلي، ويصحِّح ما يزيفه الإسرائيليون.

الفصل الأول من المحور الخامس

ظهور موسى عليه السلام، وعودة الإيمان بالله، وبداية الانبعاث الإسرائيلي [الأعراف: ١٠٣-١٢٦]

المناسبة والاتصال:

جاءت المحاور السابقة على النحو الآتي:

1. **المقدمة**
   حدَّثنا الله تعالى فيها أن القرآن كتاب الإنذار العالمي من المخاطر الواقعة والمتوقعة [الأعراف:1-9]
2. **ثم المحور الأول:**
   يفصِّل البداية والنهاية للرحلة الإنسانية الكبرى في مسيرة الحياة، وتضمَّن ذلك الإنباء بتفاصيل المعركة الأولى للإنسانية ضد الشيطان [الأعراف:10-53]
3. **ثم المحور الثاني:**
   يفصِّل المعالم العامَّة التي تعرِّف البشرية بربها، وتقتضي ضرورة اتباع المنزَل من رب العالمين [الأعراف: 54-58]
4. **ثم المحور الثالث:**
   يقصُّ علينا قَصص أهمِّ القيادات التاريخية التي واجهت الإفساد في الأرض قبل العصر الإسرائيلي [الأعراف: 59-93]
5. **ثم المحور الرابع:**
   يُبرز السُّنَن الاجتماعية العامَّة التي تَحْكم تاريخ الذرية الآدمية أمام دعوات الإصلاح النبوية، وخطوات القَدَر العادلة التي يُجازَى بها عمل البشر [الأعراف: 94-102]
6. **وهذا المحور**
   يمثِّل جسر انتقال بين المحور الثالث والمحور الخامس حيث يحدثنا بصفة مجملة عن الدعوات المصلحة الضخمة التي قام بها الأنبياء عليهم السلام، وعن ردود الأقوام، وكيف جرت سُنَّة الله تعالى فيهم

هنا تأتي دورة التاريخ الوسيط في حياة بني آدم ليحدِّثنا الله تعالى فيها عن العهد الإسرائيلي، ويبدأ الكلام عن هذا العهد بالفصل الأول الذي فصَّل الله تعالى لنا فيه: ظهور موسى عليه السلام، وعودة الإيمان بالله، وبداية الانبعاث الإسرائيلي.

فإن قلت: ما المشاهد التي تضمَّنها هذا الفصل؟

الجواب: تكون هذا الفصل من 10 مشاهد:

مشهد [1]

المواجهة الأولى بين موسى عليه السلام وفرعون

حيث جاء الإعلان عن مزايا بعثة موسى عليه السلام في تحرير الإنسان [الأعراف: 103-105]

وربما تسأل: ما المزايا التي تميزت بها بعثة موسى عليه السلام عن العهود السابقة؟

الجواب: تميزت بعثة موسى عليه السلام بـ(9) مزايا، وهي:

مزية [1]

تميز عهد موسى عليه السلام عن عهود الأنبياء السابقين بعظمة الإنجاز والبناء الحضاري، والتحرر الأممي: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: 103]، وأظهر لنا هذا التميز صلة هذا المحور مع المحاور السابقة بحرف عاطف مميز هو ﴿ثُم﴾، والحرف ﴿ثُمَّ﴾ يربط عاطفًا ما بعده على ما قبله، ويَقْتَضِي هنا ثَلَاثَة أُمُور

1. التَّشْرِيك فِي الحكم حيث يشارك هذا العهد العهود السابقة لذرية آدم في الأحوال العامة
2. التَّرْتِيب الزمني، فهو بعدها
3. التراخي الرُّتبي أي التميز

قال ابن عاشور رحمه الله:

"ثم للتَّراخي الرُّتْبِيِّ؛ لأنَّ بَعْثَةَ مُوسى وهارُونَ -عَلَيْهِما السَّلامُ- كانَتْ أعْظَمَ مِن بِعْثَةِ مَن سَبَقَهُما مِنَ الرُّسُلِ، فَقَدْ أتَتْ بِتَكْوِينِ أُمَّةٍ، وتَحْرِيرِها مِن اسْتِعْبادِ أُمَّةٍ أُخْرى إيَّاها، وتَكْوِينِ وطَنٍ مُسْتَقِلٍّ لَها، وتَأْسِيسِ قَواعِدِ اسْتِقْلالِها، وتَأْسِيسِ جامِعَةٍ كامِلَةٍ لَها، ووَضْعِ نِظامِ سِياسَةِ الأُمَّةِ" "التحرير والتنوير: (246/11)"، فهذا العهد عهدٌ مؤثِّر جدًّا على البشرية.

مزية [2]

الاشتراك في ابتعاث المنقذين للعالم من الظلم ﴿بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: 103] ، **فميَّز الله موسى عليه السلام في هذه السورة بذكر كلمة** ﴿بَعَثْنَا﴾ **بينما ذكر نوحًا عليه السلام بصفة الإرسال، فقال:** ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [الأعراف: 59]:

[1] ﴿بَعَثْنَا﴾

تدلُّ على إثارة الشيء من محله وتوجيهه ليصنع شيئًا يحرِّك الحياة ويغيِّرها بخير أو شر، كأنه يبعثها بعد موت، وَمِنْه قولُه تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: 56].

[2] ﴿أَرْسَلْنَا﴾

كلمة "أرسل" تدل عَلَى الِانْبِعَاثِ وَالِامْتِدَادِ على تُؤَدَةٍ واطمئنان، فَالرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ.

[3] فكلمة ﴿أَرْسَلْنَا﴾

تدل على الانطلاق مع السير السهل المطمئن الواثق الخُطَا، والبَعْثُ: هو الإرسالُ المقترن بالحياة والحركة والإثارة الموجهة، ويُتصوَّر من المبعوث القيام على تحقيق الرسالة كأنه يحيي الفكر الميت، ويبعث الروح العاقلة التي خبت في النفوس.

[4] ﴿بَعَثْنَا﴾

البعث يقتضي باعثًا وهو الله عز وجل، ومبعوثًا وهو موسى عليه السلام، ومبعوثًا به وهو المنهج، ومبعوثًا إليه وهم قوم موسى بنو إسرائيل، وفرعون وقومه.

[5] ﴿مِنْ بَعْدِهِم﴾

ذكر الله تعالى البَعْدية هنا مع أنها دخلت في كلمة ﴿ثم﴾؛ لإظهار سموِّ القيادات النبوية العظيمة التي حاولت إصلاح البشرية قبل موسى عليه السلام.

مزية [3]

تكرَّر اسم ﴿موسى﴾ في القرآن الكريم (136) مرَّة كما لم يتكرَّر اسم لنبي أو ملك:

كيف حمل اسم ﴿موسى﴾ إعجازًا قرآنيًا يدلُّ على صدق النبي ﷺ؟

الجواب:

1. يميل مفسرو التوراة إلى أن مَعْنَى ﴿مُوسَى﴾ الْمُنْتَاشُ مِنَ الْمَاءِ؛ أَيْ: الَّذِي أُنْقِذَ مِنْهُ، وعَنِ ابْنِ عَبَّاس رضي الله عنهما قَالَ: إِنَّمَا سُمِّيَ " مُوسَى عليه السلام؛ لِأَنَّهُ أُلْقِيَ بَيْنَ مَاءٍ وَشَجَرٍ، فَالْمَاءُ بِالْقِبْطِيَّةِ "مُو" وَالشَّجَرُ "سَى"، ولا يصح المعنيان؛ لأن الاسم ينبغي أن يكون بالقبطية لا بالعبرية.

2. ذهب رؤوف أبو سعدة رحمه الله -وهو خبير في القبطية والعبرية- إلى أن معناه تقريبًا "وليد" كما قالت امرأة فرعون: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: 9].

مزية [4]

﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ تميز موسى عليه السلام عن المرسلين قبله بنوع الآيات، وكثرتها

[1] ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾

الباء للمصاحبة أي بعثناه مصاحبًا للآيات التي تمثِّل الحجج العظيمة على صدق نبوته، وجمعها ﴿آياتنا﴾ ليبصرنا أنَّهُ تَعالى آتاهُ آياتٍ كَثيرَةً.

2 الآيات 3 أنواع:

1. الآيات الكونية
2. والمعجزات المادية الخارقة للعادات
3. وكلمات الله تعالى التي أوحى بها للأنبياء

وكلها علامات على وحدانية الله وإلهيته، وهي حجج الله عز وجل على خلقه، والمراد هنا آيات الوحي، والمعجزات المادية.

مزية [5]

حدَّد الله تعالى الجهة الأولى التي بعث إليها موسى عليه السلام، فقال: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، وتميز هذا التحديد بذكر مَلِك جبار طاغٍ، ومؤسسة نفوذ هائلة هم ملؤه:

1 لم يذكر هنا بني إسرائيل، ولا المصريين بل ذكر أهمَّ صنَّاع القرار: فرعون، وقوى الملأ المتنفذة.

2 **ذهب أبو سعدة في كتابه "العلم العجمي مفسَّرًا بالقرآن"**

إلى أن الكلمة (فرعون) مأخوذة من "بر-عا" المصرية القديمة، وتعني: البيت العظيم أو البيت الكبير كتسمية العثمانيين سلاطينهم: الباب العالي.

3 لم يكن النبي ﷺ ولا غيره يعرفون الهيروغليفية، ويلفت النظر أن امرأة فرعون دعت الله تعالى أن يبني لها بيتًا في الجنة، فقالت متبرئة من فرعون "البيت العظيم": ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ [التحريم: 11]، إنه إعجاز يخشع له العقل والقلب، فأين الصادقون من أهل الكتاب لتخبت قلوبهم للحقِّ المبين؟

4 يظهر أن موسى عليه السلام هرب من المؤسسة الفرعونية الباطشة شابًا قويًا وذلك غالبًا بين العشرين والثلاثين، ثم مكث في أرض مدين عشر سنين فذلك بين الثلاثين والأربعين، ثم رجع نبيًا وهو في نحو الأربعين، وبقي سنين يبلِّغ رسالته صابرًا.

مزية [6]

حدَّد الله تعالى مجمل رَدَّة الفعل المشتركة بين ملوك الحضارة الجديدة وملوك الحضارات السابقة، فقال: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۖ﴾:

1 **الباء ضمَّنت فعل الكفر:**

أي كفروا بالآيات، فكذبوها، أي فظلموا أنفسهم والعالم حولهم حين كفروا بها.

2 والباء للاستعانة:

أي استخدموها أداة للإجرام بدلًا من أن تكون آلاتٍ تجذب للعدل والإسلام، بأن يُعَمُّوا عن الناس أنوارها، بأن يوهموهم أنها سِحر أو افتراء.

3

يحرِّفونها ليجعلوها أداة لتشريعات مناقضة لها، فيستخدمونها لإثبات شرعية مزيفة، كمن يستدلُّ بالآيات على غير ما نزلت فيه.

4 قال البقاعي رحمه الله:

"كانَ ذَلِكَ مِن أعْجَبِ العَجَبِ، وهو أنَّ سَبَبَ العَدْلِ يَكُونُ سَبَبَ الظُّلْمِ، وكانَ هَذا الظُّلْمُ أعْظَمَ الفَسادِ". "نظم الدرر (19/8)".

مزية [7]

حدَّد الله تعالى المصير المعتاد لمن ظلم بالآيات، فقال: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: 103]، فالآية تبني التفكير الاستراتيجي عند كلِّ إنسان، فنهاية المفسدين واحدة:

[1] ﴿ٱلۡعَٰقِبَةُ﴾

مشتقة من (عَقِبَ)، وهي كلمة تدلُّ عَلَى مُؤخَّر شَيْءٍ، وَإِتْيَانِه بَعْدَ غَيْرِه على أنه متصل بما قبله اتصالًا وثيقًا، والعَقِبُ: مؤخَّر الرِّجْل، فالعاقبةَ ناتجة عمَّا سبقها، وتكون حسب حال الشيء من خير أو شر نحو: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83].

2 المعنى:

فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّامِعُ بِعَيْنِ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ كَيْفَ كَانَ نهاية أمر المفسدين، ولا تنظر إلى البدايات فحسب.

مزية [8]

حكمة موسى عليه السلام حيث اختار أن يكون اللقاء الأول له في مكان يجتمع فيه فرعون مع أركان مُلْكه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 104]:

1

بحكمته وتخطيطه البارع وصل إلى البلاط الفرعوني دون أن يؤخذ أسيرًا أو سجينًا، فسُمح له بلقاء فرعون أثناء حضور معظم أركان حُكْمِه والرأي العام من المصريين والإسرائيليين، بخلاف ما قرَّره ابن عاشور رحمه الله من أن دَعْوَةَ مُوسى عليه السلام أوَّلَ الأمْرِ كانت "قاصِرَةً عَلى فِرْعَوْنَ في مَجْلِسِه، بل خاطب فرعونَ وملأه والحاضرين ليمكِّن للناس أن يتناقلوا خَبَره.

2

اخترت أن يكون تقدير الواو في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ﴾ عطف تفصِّل أهمَّ الأحداث على الإجمال في الآية السابقة (103)، فكأنه قال: ثم بعثنا موسى... وكان من أهمِّ تفاصيل القصة أن قال عندما قابل فرعون: يا فرعون، أو: انتظر لتنظر كيف كان عاقبة المفسدين، وفي أثناء انتظارك ينبغي أن تعرف أن موسى عليه السلام سار على السنن الاجتماعية، فقد بعثناه فذهب إلى مصر، وقال لفرعون: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

[3]

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ﴾ [الأعراف: 104]

تبصِّرنا أن موسى عليه السلام لم يتأخر في توجيه خطابه إلى أهمِّ مراكز التأثير لإنجاح تبليغه الرسالة، فخاطب فرعون مباشرة، فلم يعتزله، ولم يصدر الأحكام التيئيسية من إيمانه بناء على معرفته السابقة به.

4 جمع موسى عليه السلام في هذا النداء بين أمرين عظيمين:

1

أظهر نفسه بمظهر الحرِّ القوي الذي لا يعبد البشر أو يذلُّ لهم، فلم يقل له: يا مولاي

2

وناداه بلقبه الذي يُعَظَّم به في بلده فجمع بين التلطُّف والاعتزاز.

مزية [9]

احتواء خطاب موسى عليه السلام على أهمِّ أسس الدعوة إلى الخير، وتحرير الإنسان، فذكر موسى (6) حقائق:

حقيقة [1]

الإخبار عن سبب رجوعه بعد خوفه وهربه، وهو أنه رسول ﴿إِنِّي رَسُولٌ﴾ [الأعراف: 104]، وكلمة ﴿إِنَّ﴾ تؤكِّد المعنى قبل أن ينكروا ذلك.

حقيقة [2]

حدَّد المرسِل بوصفه لا باسمه، فقال: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

1. المرسِل ليس ربَّ القَصْر أو الشَّركة أو الدولة، بل رب العالمين جميعًا، الذي ليس كمثله شيء، ومعنى ﴿رب﴾: السيد المطاع الذي خلق العالمين وربَّاهم بما يصلحهم شيئًا فشيئًا، ودبَّر حياتهم.
2. وَصْفُ الله تعالى بأنه ربُّ العالمين في رسالة موسى عليه السلام يردُّ على التحريف الذي في التوراة في سفر الخروج (3: 18) حيث يصف الله تعالى بأنه إله العبرانيين.
3. وَصْفُ الله تعالى بأنه رب العالمين يبين أن البشرية عرفت التوحيد منذ خَلْق آدم عليه السلام، فلم تبدأ البشرية -كما يقول بعض مزوري التاريخ- بالآلهة المتعدِّدة، بل بدأت بالتوحيد.

حقيقة [3]

تذكير الناس باسم رب العالمين ﴿الله﴾، فبعد أن وصف موسى عليه السلام مُرسِله بأنه رب العالمين، سمَّاه باسمه هنا ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: 105].

[1] فالتقدير:

﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

ورب العالمين اسمه الله عز وجل، وأنا حقيق على ألا أقول على الله عز وجل إلَّا الحق.

2 يظهر أن اسم (الله) كان شائعًا عندهم، بخلاف ما في التوراة المحرفة؛ إذ ترى موسى عليه السلام وشعبه لا يعرفون اسم ربهم، ففي سفر الخروج 3:

13 فَقَالَ مُوسَى للهِ: «فَإِذَا قَالُوا لِي: مَا اسْمُهُ؟ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ؟»

14 فَقَالَ اللهُ لِمُوسَى: «أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ».

3 القمص أنطونيوس فكري ذكر أن "أهْيَه" و"يهوه"

اسمان بمعنى واحد في صيغتين مختلفتين من فعل الكينونة في العبرية هو أو هي = To BE

حقيقة [4]

تعظيم المُرسِل والرسالة ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: 105]

1 أي حريٌّ بي وأنا الخائف منكم ألا أرجع إليكم فلا أقول على الله عز وجل إلا الحقَّ، وهذه العبارة تبصرنا بالجدية الصارمة عند ذكر القول المتعلق بالله تعالى؛ لزيادة تعظيمه وتمجيده.

2 حريص على أن لا أقول على الله عز وجل إلا الحقَّ، فالحَقُّ هو الثّابِتُ الدّائِمُ، والحَقيقُ مُبالَغَةٌ فيه، وكأن المَعْنى: أنا ثابِتٌ مُسْتَمِرٌّ على أنْ لا أقُولَ إلّا الحَقَّ.

وهذان المعنيان على قراءة الجمهور

[3] قرأ نافع:

﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَّآ أَقُولَ﴾

بمعنى: واجب عليَّ أن لا أقول، وحقٌّ عليَّ أن لا أقول، فرب العالمين لن يتركه يكذب عليه مهما طال الزمان، كما قال الله عن نبينا ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: 44 - 47].

[4]

﴿حَقِيقٌ﴾

أعظم من كلمة ﴿واجب﴾؛ لأنه يعني: واجب ثابت تستقيم به جميع الحقوق، والإخلال به يعني الإخلال بجميع الحقوق.

5 ما الذي يجعل موسى عليه السلام يرجع إلى أعدى أعدائه فرعون؟

ينبئنا موسى عليه السلام بذلك في هذه الآية الفخمة، فيقول: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾

حقيقة [5]

إظهار البرهان المادي على صدق موسى في ادعاء الرسالة ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 105]

1 كأنه قيل لموسى عليه السلام: أنت موسى الهارب منا ترجع رسولًا! ومِن مَن؟ من رب العالمين؟ ما الدليل على ما تدعيه؟، فقال:

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

موسى عليه السلام لم يسم إثباتاته: براهين بل ﴿بينة﴾ لماذا؟

الجواب:

كلمة ﴿بينة﴾ تصوره كأنه يقول: الأدلة التي جئت مصحوبًا بها ليست مجرد إثباتات، بل هي بينة عَظِيمَةِ الشَّأْنِ، ظَاهِرَةِ الْحُجَّةِ ترونها جئتكم مصحوبًا بها من مصدر إرسالي وهو ربكم سبحانه وتعالى، فالباء للمصاحبة.

[2]

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾

يبين لهم مصدر البينة، فهي ليست من عنده بل مصدر البينة هو الله تعالى، ووَصَفَ الله تعالى بالربوبية: لأن أوصاف الربوبية العظيمة فيها تودُّد؛ إذ تعني تربية البشر وفق الأصلح لهم. وليذكِّرَهم بأنهم مَرْبُوبُونَ، وربهم الله تعالى.

حقيقة [6]

تحديد المطلوب: أن يؤمن فرعون، ويحرر المستضعفين من عبودية البشر ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: 105]

1. الفاء للتفريع كأنه قال: بما أنني رسول وجئتكم ببينة من ربِّكم، فأرسل معي يا فرعون بني إسرائيل بِأَنْ تحرِّرَهم من رقِّ العبودية.
2. خطاب موسى عليه السلام كان لفرعون والحاضرين: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، لكنه عاد فأفرد الضمير ﴿فَأَرْسِلْ﴾؛ لأنه يطلب من صانع القرار أن يُنفِّذَ ذلك
3. ﴿فَأَرْسِلْ﴾: أي أطلقهم على هيئة رَسْلَة مريحة، ليتحرَّرُوا من عبوديتهم لك، وإسرائيل هو النبي يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وكلمة (إسرائيل) باللغة العبرية تعني عبد الله (إسر: عبد، وإيل: الله)، وذهب بعض المفسرين إلى أن معناها (صفوة الله، أو العبد المجاهد لله).
4. ﴿مَعِيَ﴾: تبصِّرنا أن الإرسال لا ليعيشوا حسب شهواتهم، بل ليكونوا مع نبيهم يرشدهم بالذي يأمرهم به ربهم عزوجل.
5. قارِنْ هذا التحرير الحقَّ بأسوأ تاريخ لاحتلال الشعوب الذي تمارسه دول عنصرية الفيتو.
6. استعبد الفراعنة بني إسرائيل بعد موت يوسف عليه السلام بإثارة الأسطوانة الشعبوية التي فيها تخويف من الأجنبي، فقد جاء في سفر الخروج1:

8 ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ.
9 فَقَالَ لِشَعْبِهِ: «هُوَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا.
11 فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ تَسْخِيرٍ لِكَيْ يُذِلُّوهُمْ بِأَثْقَالِهِمْ".

7 تحرير الشعوب من استعباد المجرمين مهمة إسلامية دائمة، ومن أجل ذلك يحاربون الإسلام، ويوضِّح الفرنسي الشهير (جوستاف لوبون) ذلك، فيقول:

مبدأ المساواة الذي أُعلن في أوربا قولًا لا فعلًا راسخٌ في طبائع الشرع (الإسلامي) رسوخًا تامًّا، وأنه لا عهد للمسلمين بتلك الطبقات الاجتماعية التي أدَّى وجودها إلى أعنف الثورات في الغرب ولا يزال يؤدي.

8 انتهى موسى عليه السلام من بيانه، فربما حدث صمتٌ عجيب للمفاجأة المدهشة..

ها هو موسى عليه السلام بعد أن ولَّى هاربًا يترقَّب يأتي بكلِّ جُرأة، ويخبر عن طبيعة مجيئه بكلِّ صراحة أمام فرعون الذي يعبده الناس، فأي تغيير حدث لنفسه؟ إنها النبوة

9 انظر جمال الصورة التي رسمها لنا القرآن عن اللقاء الأول بين موسى عليه السلام وفرعون ومن معه

بينما تذكر التوراة المحرفة أن موسى عليه السلام قابل بني إسرائيل أولًا قبل لقاء فرعون، وأن الشعب آمنوا، وإيمانهم كذب ظاهر؛ فالله تعالى يبين في القرآن أنه ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه بعد معركته ضدَّ السحرة، والتحريف في التوراة الموجودة كثير في هذه القصة.

مشهد [2]

محاولة خاسرة

فرعون يحاول صرف الأنظار عن موسى عليه السلام بالتحدي ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:106]

1. أمام هذه العَظَمة التي ظهر بها موسى عليه السلام لم يملك فرعون إلا أن يصطنع الحكمة أمام الآخرين، ويجيب قائلًا: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[الأعراف:106]

2. المعنى: إن كنت جئت من عند مَنْ أرسلك مصحوبًا بعلامة حقيقية تثبت حقيقة دعواك أنك رسول ربِّ العالمين فأحضرها عندي لتصحَّ دعواك ويثبتَ صدقُك.

3. تخلَّلت ﴿إِنْ﴾ الشرطية التشكيكية كلماته مرتين، وكأنها تُظْهِرُ أن فرعون هَدَف بذلك إلى أن يسحب الإعجاب الذي ربما سيطر على كثيرٍ من ملئه ومن حوله بموسى عليه السلام، وأن يحاول أن يشكِّك بما جاء به، ويخيفَ موسى عليه السلام ويزلزلَ ثِقتَه بنفسه.

4. ذكر موسى عليه السلام أنه جاء ببينة، وفرعون طلب آية.

وابن عاشور رحمه الله يضع ضابطًا يفرِّق بينهما، فيقول:

"إنَّ أكْثَرَ مَوارِدِ الآيَةِ في القُرْآنِ مُرادٌ فيه المُعْجِزَةُ، وأكْثَرَ مَوارِدِ البَيِّنَةِ مُرادٌ فِيهِ الحُجَّةُ" "التحرير والتنوير (40/9)"، والحُجَّةَ أعمُّ من المعجزَة.

3 مشهد [3]

موسى عليه السلام يُظهر الآيتين 1-2 من الآيات التسع

لتؤيد بيناتُه الماديةُ البيناتِ العقليةَ في إثبات الرسالة

الآية المادية [1]

آية في الآفاق: العصا تنقلب حية

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: 107]

1 الفاء تبصِّرنا بقبول موسى عليه السلام للتحدِّي الفرعوني، فألقى عصاه دون تأخُّر واثقًا من توفيق الله تعالى ومَعِيَّتِه، والفاء الثانية ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ تصوِّر بأن العصا تحوَّلت ثعبانًا على الفور، و﴿إذا﴾ للمفاجأة تبصِّرنا بعنصر المفاجأة، فهي تحولَّت فجأة، وهم تفاجؤوا.

2 لما كلَّم ربناسبحانه وتعالى موسى عليه السلام تحوَّلت العصا إلى حية ﴿تَسْعَى﴾، و﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أي تَتَحَرَّكُ كَما يَتَحَرَّكُ الجانُّ، وهي الحَيَّةُ البَيْضاءُ الخَفِيفَةُ، فجمعت بين الكِبَر باعتبارها حَيَّة، وخِفَة الحركة كأنها جانٌّ

3 ولما التقى بفرعون أول مرة، تحوَّلت إلى ثعبان مبين، وهو الحَيَّةُ الضَّخْمَة الطَّوِيلَة، وبعضهم يخصُّه بالذَّكَر الأَصْفَر الأَشْقَر، ووصفه بأنه ﴿مبين﴾؛ ليصوِّر لنا أن تحوُّله إلى ثعبان لم يكن تخيُّلًا ولا تلاعبًا بالأبصار، بل هو واضح لكلِّ من يراه

4 القرآن يصحِّح التوراة المحرفة، فالذي ألقى العصا موسى، وليس هارون عليهما السلام، ففي سفر الخروج 7:

8 وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ قَائِلًا: 9 «إِذَا كَلَّمَكُمَا فِرْعَوْنُ قَائِلًا: هَاتِيَا عَجِيبَةً، تَقُولُ لِهَارُونَ: خُذْ عَصَاكَ وَاطْرَحْهَا أَمَامَ فِرْعَوْنَ فَتَصِيرَ ثُعْبَانًا». 10 فَدَخَلَ مُوسَى وَهَارُونُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَفَعَلَا هكَذَا كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ. طَرَحَ هَارُونُ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عَبِيدِهِ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا.

الآية المادية [2]

آية في النَّفْس

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الأعراف: 108]

1

﴿نَزَعَ﴾

سحب يده أو جذبها بقوة فإذا هي فجأة تتحول إلى بيضاء بياضًا نورانيًا عجيبًا خارجًا عن العادة تَتَلَأْلَأُ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا مَرَضٍ عند كلِّ ناظرٍ لها، فليست لُعبةَ خفَّةِ يد، مع أن موسى عليه السلام كان آدَمَ، أي: يميل إلى السُّمْرة.

2

الآية تصحِّح رواية التوراة المحرفة

في سفر الخروج 4 التي ذكرت أن يد موسى عليه السلام عندما أخرجها صارت برصاء إلا أن تعني بذلك التعبير المجازي.

3

جمع بين آيتين متنوعتين

لأن كَثْرَةَ الدَّلائِلِ تُوجِبُ القُوَّةَ في اليَقِينِ وزَوالَ الشَّكِّ.

4

مشهد [4]

خطة مجرمة مستكبرة

فرعون وملؤه يرفضون الإيمان، ويلجؤون إلى خِطة ماكرة مضادة ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأعراف 109 - 110]

لقطة [1]

حتى نفهم آيات سورة الأعراف

هنا نقرِّر أنه بعد الآيتين كان يجب على فرعون أن يؤمن، لكنه لجأ إلى خطة ماكرة، وبصرتنا بذلك سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء: 34-35]

[1]

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ﴾

ليزيل الأثر الذي أحدثته بيناتُ موسى عليه السلام تعمَّد فرعون أن يوجِّه كلامه للملأ حوله مباشرة فهم أصحاب القوى والتأثير على العامَّة، ليوهمهم أن لهم مكانة بتوجُّهِهِ إليهم حتى يَطْرَبوا لهذا التشريف الموهوم، وعندها يتحمَّسون لتحقيق أهوائه، فيردِّدون ما قال، ويُبْدِعوا في تقديم خِطة المواجهة لموسى عليه السلام.

[2]

قال ابن عاشور رحمه الله:

"عَلِمُوا أنَّ مُوسى عليه السلام صادِقٌ فِيما ادَّعاهُ، تَدَرَّجُوا مِن مُجَرَّدِ الإباءِ المُنْبَعِثِ عَنِ الِاسْتِكْبارِ إلى البُهْتانِ المُنْبَعِثِ عَنِ الشُّعُورِ بِالمَغْلُوبِيَّةِ" "التحرير والتنوير (248/11)".

3 اخترع فرعون فكرة شيطانية تزيل تأثير بينات موسى عليه السلام عليهم، وعلى من حولهم

فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، فوصف موسى بأنه ساحر، وليؤثِّر عليهم أكثر لم يَنْسبه إلى السحر فحسب، بل وصفه بأنه ﴿عَلِيمٌ﴾ صيغة مبالغة: أي ساحر كبير متمرِّس في فنون السحر وأستاذ فيها، وأكَّد على ذلك بـ﴿إِنَّ﴾ التأكيدية، واللام ﴿لَسَٰحِرٌ﴾

السِّحر

4 مشتق من السَّحْر، وهو عضو من الجسد وَهُوَ مَا لُصِقَ بِالْحُلْقُومِ وَالْمَرِيءِ مِنْ أَعْلَى الْبَطْنِ، إلى الرِّئَة، وأسْحارُ الفلاة: أطرافها تخدع الناظر لها، فشَبَّهَ "سحر الساحر" بذلك؛ لتخييله إلى من سَحَره أنه يرى الشيء بخلاف ما هو به، فهو إِخْرَاجُ الْبَاطِلِ فِي صُورَةِ الْحَقِّ.

5 يُكتسب السحر عن طريق التعلُّم والدُّرْبة والاتصال الوثني بين عالمي الجن والإنس، يظهر أنه بدأ ببابل ثم شرَّق فتعلَّمه الهنود، وغرَّب إلى المصريين والأفارقة والأوربيين.

6 جعل الراغب ورشيد رضا -رحمهما الله- السِّحْر ثلاثة أنواع مع خلاف بينهما، وأهمها:

1 مَا يَعْمَلُ بِالْأَسْبَابِ الطَّبِيعَةِ مِنْ خَوَاصِّ الْمَادَّةِ الْمَعْرُوفَةِ لِلْعَامِلِ الْمَجْهُولَةِ عِنْدَ مَنْ يَسْحَرُهُمْ بِهَا، وَمِنْهَا الزِّئْبَقُ الَّذِي قِيلَ: إِنَّ سَحَرَةَ فِرْعَوْنَ وَضَعُوهُ فِي حِبَالِهِمْ وَعِصِيِّهِمْ، فهي قائمة على إدراك القوانين الكيميائية والفيزيائية.

2 مَا مَدَارُهُ عَلَى تَأْثِيرٍ خارجيٍّ خفيٍّ قويٍّ يتصل أصحابه فيه بالشَّيَاطِينَ، وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْأَوْفَاقَ وَالطَّلْسَمَاتِ لِلْحُبِّ وَالْبُغْضِ، وقال فيه الراغب -رحمه الله-: استجلاب معاونة الشَّيطان بضرب من التَّقرُّب إليه.

7 شَوَّهَ مقصد موسى عليه السلام في تحرير بني إسرائيل من عبودية فرعون، وحَوَّلَهُ من هدفٍ مشروع إلى هدفٍ خطيرٍ، فقال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾

8 وهذه النسبة الغريبة ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ يخوِّف بها بني إسرائيل ومن يؤمن به من المصريين

أي يخرجكم من أرضكم التي صارَتْ لَكم مَوْطِنًا، فألِفْتُموها، وعَشِقْتُموها.

9 عجز فرعون عن وضع خطة للتعامل مع بينات موسى، فاتهمه بالسحر، لكنه توجَّه نحو الملأ يستثير عواطفهم ليخترعوا له حلولًا قويَّة للتعامل مع موسى عليه السلام، فقال: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ من المؤامرة وهي المشاورة، كما قال تعالى: ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: 6]، فالطغاة حينما تتزلزل أقدامهم يلجؤون إلى الشعوب.

لقطة [2]

تمجيد الأفكار الفرعونية

صوَّرت لنا سورة الأعراف قوى الملأ المتنفذة تمجد الأفكار الفرعونية، وترددها، وتبحث عن آلية تنفيذية لمواجهة موسى عليه السلام ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝١١٠﴾ [الأعراف: 109-110]

[1]

﴿ٱلْمَلَأُ﴾

هم القوى المتنفِّذة المؤثِّرة التي تملأ العين، فقذف الشيطان في نفوسهم ما يحافظون به على مصالحهم الفاسدة، وقدَّموا للشيطان مادة عَمَلِه بعدم مجاهدة أهوائهم الفاسدة، ورغباتهم الباطلة، فرددوا كلام فرعون، ووسَّعوا دائرة طلب المقترحات، فتوجهوا إلى بعضهم وإلى الحاضرين ليوسعوا دائرة المواجهة الشعبية لموسى عليه السلام.

[2] جمع الزمخشري رحمه الله بين السورتين بهذه الطريقة، فقال:

"قاله ابتداء فتلقَّته منه الملأ، فقالوه لأعقابهم، أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ" "الكشاف (139/2)".

3 ذكر الله عز وجل الملأ في هذه السورة في ثمانية مواضع، ومجموع المواضع التي ذُكرت فيها هذه الكلمة في القرآن (30)، وذلك يبين تأثيرَهم وخطرَهم على العالم عندما يحاربون الحقَّ، وتسخيرَ الناس لأهوائهم ومصالحهم.

4 قالوا مثل فرعون ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ وهي كلمة فيها غرابة عند صدورها من فرعون ومن ملئه

وهي من تَآمَرَ الْقَوْمُ وَائْتَمَرُوا، مِثْلَ تَشَاوَرُوا وَاشْتَوَرُوا، وهذه الكلمة تُظهر دهاء فرعون وملئه للعبث بعقول الجماهير؛ إذ صورته وهو يرحب بالشورى (والديمقراطية!)، وينتظر من شَعْبه إبداعاتهم لكيفية مواجهة موسى عليه السلام، فبدلًا من أن يفكِّروا في الإيمان سيفكِّرون الآن في العدوان.

5 اختلف كلام الملأ عن فرعون في كلمة واحدة هي ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾

حيث قال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: 35]، بينما أطلق الملأ، ولم يقيِّدوا تأثير موسى عليه السلام على الناس بالسحر، ربما لأنهم يتهمون موسى عليه السلام بالتآمر على إخراج الناس من أرضهم مطلقًا حتى لو لم يستخدم السحر، وبذلك ضخَّموا تهمة موسى عليه السلام لزيادة التقرُّب من فرعون، وتنفير الناس من موسى عليه السلام

6 من أهم عوامل التفكير الشيطاني لفرعون وملئه ما وصفه الله تعالى لنا في أول هذه السورة وأول هذه القصة، وهو

الظلم بالآيات

أي تحويل الآيات من وسائل للإيمان إلى وسائل لأنْ يظلم الإنسان بها نَفْسَه والكون عندما يشوهها ويحجب الناس عن رؤية الحق فيها: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الأعراف: 103]

مشهد [5] **5** الخطة الخماسية لمواجهة موسى عليه السلام: فرعون يخدم موسى عليه السلام:

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف: 111-112]، فسخَّر اللهُ عز وجل فرعونَ وجنودَه وإمكاناتِه ليُظهر انتصار موسى، وهذا معنى أنه رد كيده في نحره

1 بدلًا من الحُكم على موسى عليه السلام بالقتل أو السجن نجد ظهور مقترح لخطة خماسية لمواجهته

[2]

﴿قَالُوٓاْ﴾

توضِّح تفعيل النشاط المبدع في نصرة الباطل، فأصحاب الاقتراح سيحظون بمكانة أكبر عند فرعون، والقائل واحدٌ أو أكثر؛ إذ تبدأ الفكرة من واحد، فيردِّدها آخرون تصديقًا وتطويرًا، وربما كان القائل من الملأ وربما كان من الجمهور.

3 يحتمل عندي أن تعمية القائلين كان من أجل الإشارة إلى المجموعة الصالحة في البلاط الفرعوني

فبدلًا من أن يجعلوا فرعون يتخذ قرارًا متشدِّدًا مع موسى وأخيه عليهما السلام قاموا بتوجيه الحديث إلى هذا المقترح لحماية موسى عليه السلام، ومن هذه المجموعة الرجل الذي يكتم إيمانه، وامرأة فرعون

4

كان لهذا المقترح أثره في رفعة موسى عليه السلام، وإعطائه فرصة كبيرة لإظهار حجته ونشر دعوته

الخطة الخماسية الفرعونية لمواجهة موسى عليه السلام تكوَّنت من خمسة إجراءات

إجراء [1]

ليتصف بالحكمة وعدم التسرع ﴿أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾

أي أَخِّر الحكم الفصل في موسى وأخيه عليهما السلام، وهذا التأخير انتصار لموسى عليه السلام؛ فتحول من مطلوب مطارد إلى مرهوب يخاف فرعون أن يقتنع الناس ببيناته

إجراء [2]

أولى الخطوات العملية في تنفيذ الخطة: صدور الأمر الملكي: ﴿وَأَرۡسِلۡ﴾

أن يأمر أتباعه بأن ينطلقوا مرسلين منه في المدائن ليبلغوا رسالته إلى نوابه، ويكون الرسول مبعوثًا يبعث الحياة بهمته ونشاطه في هذه الرسالة، ولذا جاء التعبير في الشعراء ﴿وَٱبۡعَثۡ﴾ [الشعراء: 36]

إجراء [3]

تحديد مكان التنفيذ وكيفيته

الإرسال ينبغي أن يكون في المدائن وليس إليها فحسب: ﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ﴾

﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾

1

جمع مدينة مَأْخُوذَةٌ مِن مَدَنَ: إذا أقامَ بِهِ، وتقتضي اتِّباع سياسات وأنظمة محدَّدة إذا اشتققناها مِن دانَهُ يَدِينُهُ: أي ملكه وَسَاسَه وحاسَبه، وجمع المدائن يدلُّ على اتساع ملك فرعون.

2 وقالوا: ﴿فِي ٱلۡمَدَآئِنِ﴾ لا إلى المدائن

لأن الرسل لن يكتفوا بأن يبلغوا الرسالة، بل سيتعاونون مع من في المدائن من المسؤولين لإنجاح المهمة.

إجراء [4]

يقوم الرسل المبعوثة بالتعاون مع السلطات المحلية بحشر الناس جميعًا

﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾

1 فالحَشْرُ: إخراج الناس من مقرّهم ودفعهم بلطف أو بعنف، بمحبة أو بقهر إلى مكان جامع يجتمعون فيه ليَظهر الساحر العليم الأقوى بينهم

2 فيجوز أن يكون ﴿حَٰشِرِينَ﴾ مفعولًا به، والتقدير: وأرسل مبعوثين حاشرين في المدائن، ويجوز أن تكون كلمة ﴿حَٰشِرِينَ﴾ حالًا لمفعول به محذوف أي أرسل مبعوثيك حال كونهم حاشرين الناس ليختاروا منهم كلَّ ساحر عليم، فيأتوك بهم

3 الإجراء يبين دقَّة القبضة الإدارية الفرعونية المحكمة للأقاليم التي تخضع لحكمه، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله: ﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾: الشُّرَط.

" تفسير الطبري (23/13)".

إجراء [5]

اختيار من تنطبق عليه الشروط: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾

بعد أن يتم الحشر للجميع تجرى المباريات لاختيار الأقوى بينهم في السحر، فيُجمع كلهم لمواجهة موسى عليه السلام

1. وقَرَأَ حَمْزَةُ والكِسائِيُّ وخلف العاشر ﴿بِكُلِّ سَحّارٍ﴾ لتصوِّر لنا هذه القراءة صنفًا آخر من الحاضرين يؤكِّدون على أن الذي يأتي هو السحار أي الذي بلغ أعلى درجات الحذق في السحر، وليس الساحر العادي

2. ويحتمل أن يقترح بعضُهم حَشْرَ كلِّ سحار أي قيادي، ويقترح آخرون حَشْرَ كلِّ ساحر عليم، لَعَلَّهُ يُوجَدُ عِنْدَ بَعْضِ المبتدئين أو المقلِّين مَا لَا يُوجَدُ عِنْدَ الْمُكْثِرِينَ مِنْهُ.

3. قِيلَ: كَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، وَقِيلَ: ثَمَانِينَ أَلْفًا، ولا يوجد دليل على ذلك، ولكن هذه الفعاليات لجمع السحرة يدل على ازدهار صَنعة السحر في ذلك الزمان، وعلى كثرة السحرة.

مشهد [6]

وصول السحرة

إنهم سحرة محتاجون لَمِلك يحتاجهم ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ [الأعراف113-114]!!، وفيه لقطتان:

لقطة [1]

وصول السحرة إلى بلاط فرعون

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ [الأعراف: 113].

1

مصر مشهورة في ذلك العهد بالسحر فهو من الثقافة العامة

تكلم الباحثون عن "لعنة الفراعنة" بعد اكتشاف (هوارد كارتر) لمقبرة توت عنخ آمون، وقيل: طقوس السحر الأسود كانت تقام بلغة الجن "السريانية".

2 **إغراءات المنافسة، الأقوياء يتكلمون أولًا**

قرَّر كبار السحرة أن يُذكِّروا فرعون بمكافآت التغلُّب على موسى عليه السلام ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ [الأعراف: 113] **بالإخبار** ﴿إن﴾ قَرَأَ بها نافِعٌ، وابْنُ كَثِيرٍ، وحَفْصٌ، وأبُو جَعْفَرٍ، وتصوِّر السحرة المتكلمين مطمئنين بأن مكافأتهم محفوظة

يقول الزمخشري رحمه الله:

"كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر". "الكشاف (2/139)".

3 **عندها سأل جمعٌ من السحرة الأقل شأنًا:**

﴿قَالُوا أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ بصيغة السؤال.

4 **التنكير في قولهم: ﴿لَأَجْرًا﴾ للتعظيم** فالمقام يقتضي أن يكونوا يتوقعون أجرًا كثيرًا.

[5]

﴿إِن كُنَّا نَحْنُ﴾

الضمير ﴿نَحْنُ﴾ يؤكِّد الضمير في ﴿كُنَّا﴾؛ ليَشْعر بقوة شخصيتهم، ولكن ﴿إن﴾ تصوِّر لنا احتياطهم في ذلك لا لخوفهم من الهزيمة، بل للتأكيد على أن يعلم فرعون أنهم كانوا سببًا في هزيمة موسى عليه السلام.

لقطة [2]

الرد الفرعوني: التطمين والإغراء

أجابهم فرعون بأمرين

[1] **الأول** ﴿قَالَ نَعَمۡ﴾ [الأعراف: 114]

فيكون جوابه على قراءة الإخبار إثباتًا للحق الذي ادَّعاه المخبرون وتأكيدًا لقولهم، وفي قراءة الاستفهام جوابًا عما سأل عنه السائلون.

[2] **والثاني:** ﴿وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾

والواو للعطف على محذوف سدَّ مسدَّه حرف الإيجاب، كأنه قال إيجابًا لقولهم: إن لنا لأجرًا: نعم إن لكم لأجرًا، ﴿وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾: أي مستشارين وجلساء دائمين، فَيَجْتَمِعُ لَكُمُ الْمَالُ وَالْجَاهُ، فأثبت لهم فرعون الأجر وزادهم أنهم من المقربين مطلقًا تشجيعًا وتحميسًا.

3 انظر الصورة التي ترسمها الآيات

فرعون المدعي الألوهية يحتاج لمن يغلب موسى عليه السلام من أجله، والسحرة الذين يخيفون الناس يحتاجون إلى مكافأة لا يستطيعون أن يحصلوا عليها بحيلة سحرية.. ضعف الطالب والمطلوب.

4 عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

«فأرسل في المدائن حاشرين، فحُشِرَ له كلُّ ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعملُ هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحَيَّات. قالوا: والله ما في الأرض قوم يعملون بالسحر والحيَّات والحبال والعِصيِّ أعلم منا، فما أجرنا إن غلبنا؟ فقال لهم: أنتم قرابتي وحامَّتي، وأنا صانع إليكم كلَّ شيء أحببتم»

"تفسير الطبري (436/5)، وحسَّنه إسلام منصور (والحامَّة: خاصة الرجل من أهله وولده وذوي قرابته).".

مشهد [7] 7

أحداث معركة (بينات الإيمان في مواجهة سحر الطغيان):

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأعراف:113-114]

وفي هذا المشهد (6) لقطات:

لقطة [1]

المواجهة يوم الزينة

والأطراف الحاضرة هي:

1. موسى وهارون عليهما السلام.
2. فرعون وقوى الملأ المتنفذة المكوَّنة من وزرائه ومستشاريه وأركان دولته، وجنوده.
3. السحرة المحشورون من المدائن.
4. الجماهير التي جُمعت.

لقطة [2]

إعلان القرار الظالم

حشر فرعون كيده، وقبل بدء التحدي أعلن القرار الذي توصل إليه بعد النظر في أمر موسى عليه السلام: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24].

فهذا المشهد وقع -فيما تدبرته- قبل بدء المباراة بصورة مباشرة، وكأنه قال: جاءني هذان الرجلان يدعوانني لعبادة ربٍّ آخر، ولكنني أنكرت دعواهما، فأنا ربكم الأعلى، وطلبت منهما آية على دعواهما، فأخرجا لي شيئًا من السحر، فحشرت السحرة ليتحدوهما، والآن سأثبت لكم أنني ربكم الأعلى.

لقطة [3]

أصوات الباطل المخادع تسبق وتبدأ التحدي

وتتنافس لتنصر الطغيان، والصنف الأول من السحرة يبدؤون بمحاولة إظهار قوتهم، وعدم مبالاتهم ببينات موسى عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾

[1]

﴿قالوا﴾

تبصرنا بأنهم بادروا مبادرة خاطئة، والمبادرة في موضعها مسارعة إلى الخيرات، وفي غير موضعها عجلة إلى الهلكات، وتماسك عندها موسى عليه السلام، فلم يتعجل لوثوقه بالنتيجة

[2] تفاخروا بالتحدي، وتظاهروا بالثقة فقالوا

﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾

وكلمة ﴿إمَّا﴾ حَرْفٌ يَدُلُّ عَلى الاختيار بَيْنَ شَيْئَيْنِ أوْ أشْياءَ، فهو تخيير يصحبه فرط الثقة والإرهاب لموسى عليه السلام

لقطة [4]

موسى عليه السلام يفاجئ المغرورين

فقد أجاب على تحديهم واستفزازهم جوابًا يعكس سكينة الواثق من النصر الإلهي ﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ﴾

تعال نرتب أحداث هذه اللقطة جيدًا لنجمع بين سورتي الأعراف وطه:

1

تَقَدَّمَ صنفٌ من السحرة متباهيًا وصفته سورة طه ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ [طه 65] كأنهم يقولون: انتبه لنفسك، واحذر: إما أن تلقي، وإما أن نكون أول من ألقى، فإذا ألقينا فربما لم تستطع حَراكًا لقوة سحرنا.

2

وحينها رد موسى عليه السلام على هذا الصنف بما يناسب تحديه، فقال واثقًا من بيناته وربه: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ [طه:66] وكأن المعنى: لا أكون أول من ألقى بل ألقوا أنتم.

3

وقبل أن يلقوا تَصِف سورة الأعراف أنه انبعث صنف آخر امتلأ غيظًا من عدم مبالاة موسى عليه السلام بهم، ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: 115]

4

هنا رد عليهم موسى عليه السلام برد مباشر: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟﴾ [الأعراف: 116] تشعر أن موسى عليه السلام يقولها لهم غير مبالٍ ولا عابئ، "فقَبِلَ التحدي، وترك لهم فرصة البدء، واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة".

5

أمرهم موسى عليه السلام بأن يُظهروا للناس السحر، لا لأنه يأمرهم بكبيرة من الكبائر، بل ليجعل العالم يرون أقصى ما يمكنهم فعله، وأنه دليل ضعفهم أمام آيته الكبرى، وقال لهم: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [يونس: 80 الشعراء: 43] بِصِيغَة العُمُوم، كأنه يقول لهم: لا تتركوا شيئًا تستطيعون إلقاءه إلا ألقيتموه.

لقطة [5]

سحر عظيم يسرق عقول الناس ويرهبهم

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾

1 عدَّى الله فِعْلَ (سَحَرُوا) إلى (أَعْيُنَ)

ليصوِّر لنا العين وهي من أهم وسائل الإدراك المادي، والملحدون يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا بما تراه أعينهم، وها هي العين تُخدع، ويبصِّرنا الله أن السحر هنا عبارة عن تَخَيُّلاتٍ مَرْئِيَّة، وأنها لا تدوم طويلًا.

2 قَالَ الْجَصَّاصُ رحمه الله:

«قِيلَ: إِنَّهَا كَانَتْ عِصِيًّا مُجَوَّفَةً قَدْ مُلِئَتْ زِئْبَقًا، وَكَذَلِكَ الْحِبَالُ كَانَتْ مَعْمُولَةً مِنْ أُدْمٍ؛ أَيْ: جِلْدٍ، مَحْشُوَّةً زِئْبَقًا، وَقَدْ حَفَرُوا قَبْلَ ذَلِكَ تَحْتَ الْمَوَاضِعِ أَسْرَابًا، وَجَعَلُوا أَزْوَاجًا ملأوها نَارًا، فَلَمَّا طُرِحَتْ عَلَيْهِ، وَحَمِيَ الزِّئْبَقُ حَرَّكَهَا» "أحكام القرآن (52/1)".

3 وقال السيد رشيد رضا رحمه الله:

«وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِحِيلَةٍ أُخْرَى كَإِطْلَاقِ أَبْخِرَةٍ أَثَّرَتْ فِي الْأَعْيُنِ» "المنار (58/9)"".

[4]

﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾

أي طلبوا أن يدخلوا الرَّهَب أي الخوف والفزع إلى الحاضرين من الناس، ويحتمل أنهم دبَّروا تمثيلية لإيقاع الرهبة في قلوب الناس بأن اتخذوا من يساعدهم على إدخال الرعب في قلوبهم، قالَ الزَّجّاجُ رحمه الله: اسْتَدْعُوا رَهْبَةَ النَّاسِ حَتَّى رَهِبَهُمُ النَّاسُ. " معاني القرآن (366/2)"، أي: بَعَثُوا جَماعَةً يُنادُونَ عِنْدَ إلْقاءِ ذَلِكَ: أيُّها النّاسُ احْذَرُوا! فَهَذا هو الِاسْتِرْهابُ

لقطة [6]

إلقاء موسى عليه السلام:

يظهر موسى عليه السلام بصفاته القيادية البشرية القوية، فينفِّذ ما يأمره الله تعالى به من إلقاء العصى، فتكون المفاجأة المدوية؛ إذ تتغير موازين معركة لصالح البينة، ويذهب إرهاب السحرة ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[الأعراف:117]

[1]

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾

تصوِّر لنا التأييد الإلهي للرسل عليهم السلام، حيث يمدُّ الله تعالى موسى عليه السلام بالوحي ليعلِّمه كيف يتعامل مع الموقف.

[2]

﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾

تصوِّر لنا أن الله تعالى حدَّد الواجب عليه بدِقَّة.

[3]

﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: 117]

تصوِّر كلمة ﴿إذا﴾ المفاجأة المذهلة التي صعقت فرعون لأن كلَّ الكيد الذي جمعه ذهب هباء. تصوِّر أن جهد كلِّ تلك الأشهر انهار بمجرد إلقاء موسى عليه السلام عصاه، فقد صارت عصا متحركة لها فمٌ عظيم ابتلعت كلَّ ما أمامها مما ألقاه السحرة في منظر توقَّفت عنده الأنفاس.

[4]

﴿تَلْقَفُ﴾

تصوِّر كلمة ﴿تَلْقَفُ﴾ القوة التي وضعها الله في العصا، فهي من لَقِفَه لَقْفاً أي: تَناولت عصيهم وحبالهم تناولًا سريعًا بفمٍ واسع كفَمِ الحوض يلقف الماء، فابتلعتهم.

5 انطلقت خيالات بعض الناس في ذِكر ما لم يرد له ذِكر في القرآن والسنة

فزعموا أن موسى عليه السلام ألْقى عَصاهُ فَإذا هي ثُعْبانٌ مُبِينٌ، فَعَظُمَ حَتّى كانَ كالجَبَلِ، وطالَ حَتّى جازَ النيلَ

وعلق ابن عطية رحمه الله:

«وهَذا قَوْلٌ بَعِيدٌ مِنَ الصَوابِ مُفْرِطُ الإغْراقِ لا يَنْبَغِي أنْ يُلْتَفَتَ إلَيْهِ» "المحرر الوجيز (439/2)".

لماذا عبر عن عصيهم وحبالهم بقوله: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾؟

الجواب:

لأن (أَفَكَ) كلمة تدُلُّ عَلَى قلبٍ للوضع الصحيح ماديًا، مثل قلب ديار قوم لوط بعد أن قلبوا حقيقة الشهوات الإنسانية، أو معنويًّا كالقلْب أو الصرْف من الحقِّ إلى الباطل، فعصيُّ السحرة وحبالهم وأفعالهم إفك؛ لأنها قلبت ما يراه الناس، وأثَّرت عليهم حتى كادوا يقلبون تفكيرهم، ويظنون أن ما فعله السحرة حقيقي.

8 مشهد [8]

النتائج المفاجئة لتحدي البينة مقابل السحر

﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ [الأعراف118-122]

وفي هذا المشهد (3) نتائج:

نتيجة [1]

إظهار البيان الإعلامي رقم واحد عن الانتصار الموسوي، وانتصار بينات الإيمان مقابل سحر الطغيان ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف 118]:

[1] **صوَّرت كلمة ﴿فَوَقَعَ﴾**

قوةَ ظهور الحقِّ؛ لأنها تدلُّ على مقدار رسوخ الحقِّ، وأنه أصبح سيد الواقع، فقد جاءت من (وَقَعَ): أي سقط من أعلى ليَثْبُتَ في مكانه، فلا يمكن تغييره.

[2] **﴿ٱلۡحَقُّ﴾**

هو الأمر الثابت الذي تثبت عليه جواهر الأشياء، وحركة المواد في السموات والأرض. أي صار الحقُّ الذي به قامت السموات والأرض الواقعَ وسيدَ الموقف.

[3] **﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**

بعد أن وقع الحقُّ ربما سألوا، فماذا بشأن الذي عمله الطرف المقابل؟ جاء الجواب: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

[4] **﴿بَطَلَ﴾**

أي ذهب واضمحلَّ وزال وانتهى، كأن لم يكن، فذهبت آثاره ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي انقضى وتلاشى كل الذي عمله فرعون ووزراؤه ومستشاروه ومخابراته وسحرته.

نتيجة [2]

ظهور الهزيمة الماحقة لفرعون ومؤسساته الإعلامية والثقافية والأمنية: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: 119]

[1] الفاء من ﴿فَغُلِبُوا﴾

الفاء لتفصيل ما وقع، ﴿غُلِبُوا﴾: أي أصابهم الغَلَب، وهي الهزيمة الكبرى، وأصل ﴿غَلَبَ﴾ أن تتناول وتصيب غَلَبَ رقبته، فيكون أدنى منك ﴿هُنَالِكَ﴾: أي في ذلك المكان، وذلك الزمان، وفي بلاط فرعون وتحت قدرته وإرادته وإشرافه.. غُلِبوا وهم تحت تصرُّفه وفي مناطق سيطرته.

[2] ﴿فَغُلِبُوا﴾

فعل مبني لما لم يُسَمَّ فاعله يصوِّر أصناف المغلوبين؛ مثل فرعون وهامان وجنودهما، والسحرة وكلِّ المناصرين لباطل فرعون مثل قارون، ومنافقي بني إسرائيل الذين حشدوا أموالهم وطاقاتهم ضدَّ موسى عليه السلام.

[3] ﴿وَانقَلَبُوا﴾

اشتقت من (قَلَبَ)، أي ردَّ شَيْئًا مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ معاكسة، وهو هنا رجوع وارتداد من حالة إلى حالة معاكسة لها، وكلمة ﴿انقلبوا﴾ تصوِّر الفرح الذي بدا عليهم، والنشوة التي صاحبت احتفالاتهم، والتعاظم والكبر إلى العكس أي تحولت حالهم، فمن العز إلى الذل، ومن الكبر إلى الصَّغار.

[4] فقوله: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ﴾

بيانٌ يصور النتيجة:

- الهزيمة المعنوية حتى كأنَّ موسى قبض على رقابهم الغليظة فتمكَّن منها
- وأما التصوير لأحوال أجسادهم وأعينهم ووجوههم فنجده في قوله تعالى: ﴿وَٱنقَلَبُوا صَٰغِرِينَ﴾.

[5]

﴿صَٰغِرِينَ﴾

حال يَدُلُّ عَلَى قِلَّةٍ وَحَقَارَةٍ وانخفاض جِرْم الشيء، وهبوط سَمْك (طول) أجسادهم المتعالية بسبب الذلة التي غشيتهم، فالصَّغَرُ: ضِدُّ الْكِبَرِ، فيقال: صَغُرَ صِغَرًا فهو صاغر: هان قَدْرُه وذلَّ.

6 انقلاب المستكبرين من حالة التعاظُم إلى حالة الصَّغار تذكرنا بطلب العكس:

أن يبحث المرء عن الحالة التي ينقلب فيها من حالة الصغار إلى حالة العظمة والمجد، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: 173، 174]

ويقول أحمد محرم رحمه الله:

سَلِ الأحياءَ والموتى جميعًا ○○○ أَكُنَّا أمَّةً مُستضعفينا
ليالي يبعثُ الإسلام منا ○○○ عزائمَ تخضعُ المتغطرسينا
نثلُّ عروش جبارين غلبًا ○○○ ونجتَثُّ الممالكَ فاتحينا
وقائعُ تَرْجفُ الدولاتُ منها ○○○ ويذكرُها القياصرُ صاغرينا

نتيجة [3]

آية عظيمة تُظهر المفاجأة الأضخم: استسلام المتخصصين في المواجهة، وإشراق نور الإيمان في قلوب السحرة ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: 120 - 122]

1 رأى السحرة أن الذي ألقاه موسى عليه السلام ليس بسحر قطعًا

حيث تغيَّرت طبيعة العصا تغيُّرًا كاملًا فتحوَّلت إلى شيء حيٍّ متحرك يبتلع أشياء محدَّدة هي العِصي والحبال التي أمامه بصورة غريبة لا تُعرف في عالم السحر، وكانُوا عالِمِينَ بِحَقِيقَةِ السِّحْرِ، فوَجَدُوا مُعْجِزَةَ مُوسى عليه السلام خارِجَةً عَنْ حَدِّ السِّحْرِ.

2 المفاجأة التي رأوها لم يستطيعوا أن يعبِّروا عنها بلسانهم، ولم تعد التعبيرات تسعفهم، فاتجهوا دون تردُّد إلى الفعل فورًا:

﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: 120]

[3]

كلمة ﴿أُلۡقِيَ﴾

بالبناء لما لم يسمَّ فاعله تصوِّر حركتهم قوية متأثرة في الهُوي إلى السجود، كأن هناك من دفعهم دفعًا إلى الأرض، فخرُّوا ساجدين "إنها صولة الحق في الضمائر، ونور الحقِّ في المشاعر، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقي الحقَّ والنور واليقين".

4 أثناء هُويهم إلى الأرض، وأثناء سجودهم وبعد سجوهم رددوا:

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾

لأنهم أرادوا أن يبينوا سبب السجود.

5 قال ابن عباس رضي الله عنهما:

لما رأت السحرة ما رأت، عرفت أن ذلك أمر من السماء وليس بسحر، فخرُّوا سُجَّدًا، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: 121-122] "تفسير الطبري (13/ 32)"

[6]

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

هذا الوصف هو الوصف الأعظم، تكرَّر في سورة الأعراف خمس مرات، وفي القرآن 42 مرة، ولا يمكن لأي إنسان أن يعارضه. (الله رب العالمين)، فماذا يقول عابدو الأحجار والأشجار والطبيعة والبشر عمن يعبدونهم؟

7 الدكتور (مارتن ريس) في كتابه "فقط ستة أرقام" يفرد الفصل الأخير ليحدِّثنا عن ثلاثة خيارات متاحة لتفسير الضبط الدقيق للكون: العِناية، الصُّدْفة، الأكوان المتعدِّدة".

قلتُ: والثاني عبث، والثالث هروب ويرجع إلى أن نقول: فمن وراء الأكوان المتعدِّدة لو وجدت؛ لأن الأكوان المتعددة تعني العوالم، والله رب العالمين، وأما الخيار الأول: العِناية، فهذا معنى كلمة ﴿رب العالمين﴾ التي تعني: أنه المربي للشيء المصلح له، وهو سيده، وهو ملكه، وهو مالكه.

[8] أضافوا:

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾

لئلا يتوهَّم أحد أنهم سجدوا لموسى أو لهارون عليهما السلام، أو لفرعون، فزادوا كلامهم وضوحًا، وإيمانهم تفصيلاً، فقالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

9 مشهد [9]

ابتكار مجرم

ابتكر فرعون خطة ماكرة قاسية لصرف الأنظار عن انتصار بينات موسى في مواجهة كيد فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

1 أولًا: أصبح الدليل الذي بذل فرعون وملؤه كلَّ جهدهم لإحضاره دليلًا عليهم، بل أصبح هذا الدليل بينة جديدة لموسى عليه السلام، والمتوقع أن يلين فرعون، ويرى الحقَّ بيِّنًا فيتبعه، فهل أذعن فرعون بعد كلِّ هذه المكابرة؟

2 ثانيًا: أبى فرعون إلا كفورًا، فوضع الخطة (ب) ربما قبل البدء، وربما بعد اللحظة التي ظهرت فيها هزيمته، فما أول عناصر هذه الخطة؟

عناصر الخطة الفرعونية (ب) ليصرف الناس عن الإيمان بموسى عليه السلام (15) عنصرًا:

عنصر [1]

(محاكمة صورية مزوَّرة)

بدأ فرعون بصورة خبيثة محاكمة السحرة بالتحقيق معهم بصورة تشغل الجمهور فيصدقون تمثيليته: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ [الأعراف: 123]

تصوِّر هاتان الكلمتان انصراف فرعون تمامًا عن تذكر التحدِّي الذي كان قبل المبارزة، وكان الواجب: أن يعلن أن موسى عليه السلام غلب، وأنه سيؤمن به.

عنصر [2]

التحقيق في التهمة الأولى

الدخول في الإيمان، وتصوِّر لنا ذلك قراءة الاستفهام عن الإيمان في قول الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ أَءَامَنتُم﴾ [الأعراف: 123] قراءة نافع وغيره

1 يتظاهر فرعون بأنه يسأل السحرة هل دخلتم في الإيمان؟ وهذا يدلُّ على أن للإيمان القيمةَ الكبيرة في الحياة الإنسانية، ولتلاعب فرعون جعله تهمة كبيرة.

2 كلمة ﴿ءَامَنتُم﴾: جاءت من (أمن)، فالكلمة تدلُّ على الْأَمْنِ وطمأنينة النفس والراحة والسكينة، وزوال الخوف، وذهاب الشَّكِّ والاضْطِرابِ.

3 فالإيمان أمان وعِلم، والشكُّ والإلحاد والشرك والوثنية والطاغوتية قلقٌ وحيرة واضطراب وخوف وجهل.

4 كلمة ﴿آمن﴾ تأتي:

أولًا: غير متعدية

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [البَقَرَة: ١٠٣] أي دخلوا في الإيمان.

ثانيًا: متعدية بالباء

كما في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٣٦] فيكون معناها أقرَّ والتصق إيمانه بالقلب التصاقًا لا ينفك في التصور والفِكر، وفي القول والذِّكر، وفي العمل والحركة، ويصدِّق بالله وبكلَّ شيء جاء به الله تعالى، كما يمكن أن تدلَّ على السببية، أي آمنتم بسببه.

ثالثاً: متعدية باللام

كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العَنكَبُوت: ٢٦] فيكون معناها: اطْمَأنَّ،

عنصر [3] تثبيت التهمة الأولى

وتبصِّرنا بذلك قراءة الإخبار في السور الثلاث: الأعراف وطه والشعراء أيضًا، حيث يقول الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم﴾ [الأعراف: 123] وهي قراءة حفص وغيره :كأن فرعون انتقل من لفظة الاستفهام إلى الإخبار ليُثبِّتَ عليهم التهمة.

عنصر [4] التحقيق في التهمة الثانية

تهمة تصديق موسى عليه السلام، والتصديق بما جاء به، ويبصِّرنا بذلك قراءةُ الاستفهام المتعدية بالباء في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [الأَعراف: 123] فـ(آمن) هنا تتضمن معنى صدَّق ووثَّق.

عنصر [5]

إثبات التهمة الثانية

ويبصِّرنا بذلك قراءة الإخبار المتعدية بالباء: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [الأعراف: 123] هنا انتقل من مجرد التحقيق حول جريمة التصديق إلى إثباتها، فكأنه صاح بهم مخبرًا لا مستفهمًا: آمنتم به أي: إذن تقرون بأنكم دخلتم في الاعتقاد الديني الذي جاء به موسى عليه السلام.

عنصر [6]

التحقيق في التهمة الثالثة

وهي الاتباع والانقياد لموسى عليه السلام في كلِّ ما يقوله، ويبصِّرنا بهذا قراءة الاستفهام في سورة الشعراء وطه حيث قال الله عز وجل: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [طه: ٧١]

أي لم تكتفوا بأن تؤمنوا مطلقًا حتى اخترتم أن تؤمنوا لموسى عليه السلام، فكلمة ﴿ءَامَنتُم﴾ صوَّرت لنا أن فرعون جعل الإيمان تهمة، ثم جاءت اللام بعدها لتصوِّر لنا تهمةً ثانية ﴿ءَامَنتُم له﴾، فكأنه يقول لهم: هناك تهمة جديدة نسألكم عنها: بعد أن آمنتم، وبعد أن آمنتم بموسى عليه السلام، هل آمنتم له أي هل اتبعتموه فانقدتم لكلِّ ما يقوله؟

عنصر [7]

تثبيت التهمة الثالثة

تهمة الانقياد لموسى عليه السلام، ويصوِّر لنا هذا قراءة الإخبار عندما تعدَّى الفعل ﴿آمن﴾ باللام، وذلك في سورتي طه والشعراء في قوله: ﴿قال ءَامَنتُم له﴾

كلُّ هذه العناصر السبعة تبصرنا بها هذه الكلمات الثلاث

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ آمَنتُم﴾

ثم ننظر هل يتعدَّى بالباء أم باللام، وهل القراءة بالإخبار أم بالاستفهام.

عنصر [8]

تثبيت التهمة الرابعة

وهي تهمة ارتكاب التُّهم الثلاث السابقة قبل الاستئذان من فرعون، ويصوِّر لنا ذلك قوله: ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾

1. فكأنه لما أثبت عليهم التُّهم الثلاث أراد زيادة التشويش عليهم، وإظهار عظمته أمام الحاضرين، فقال لهم: ولو فعلتم ذلك كلَّه بعد أن تكونوا استأذنتم مني لربما أذنت لكم، لكنكم فعلتم هذا كله قبل أن آذن لكم.

2. كيف صوَّرت لنا ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ دليلًا جديدًا على أن ما جاء به موسى عليه السلام حقٌّ؟

لِأنَّهُ لَوْ كانَ إلَهًا لَما جازَ أنْ يَأْذَنَ لَهم في أنْ يُؤْمِنُوا بِموسى عليه السلام مَعَ أنَّهُ يَدْعُوهم إلى إلَهِيَّةِ غَيْرِهِ، ونقل هذه البصيرة الرازي رحمه الله. "تفسير الرازي (14/ 339)"

عنصر [9]

تلفيق تهمة خامسة

(الكذب عن علاقة خفية لموسى بالسحرة):

أظهر نفسه بمظهر المكتشف لشيء خطير يتمثَّل في أن موسى عليه السلام هو كبير السحرة الذي علمهم السحر، ويبصرنا بذلك ما ورد في سورة طه والشعراء: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾ [طه: 71]

عنصر [10]

تلفيق تهمة سادسة

تهمة التآمر المشترك، بين موسى عليه السلام والسحرة قبل بدء التحدِّي، ويبصرنا هذا قوله في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الأعراف: 123]

1

كأن فرعون أضاف:

بما أنه كبيركم الذي علمكم السحر، فقد التقيتم في المدينة قبل أن تتواجهوا، وهناك مكرتم مكرًا مشتركًا، واتفقتم على حيلة لإظهار انتصاره، فإيمانكم لَيْسَ لِقُوَّةِ الدَّلِيلِ، بَلْ للتآمر.

2

﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾

المكر: يعني البحث عن خطة خفية دقيقة لتحقيق هدف أو أهداف صحيحة أو فاسدة، ويدخل فيه أن يقوم الماكر باستدراج غيره إلى ما يحذره، وقد يمدح وقد يذمُّ، ولذلك اشتقَّ من التمكير، وهو احتكارُ الحبوب في البيوت.

3

فلماذا أضاف كلمة ﴿في المدينة﴾؟

لأن الحاضرين قد يتساءلون: فأين كان اللقاء بين موسى عليه السلام والسحرة، فالجميع تحت رقابة فرعونية؟ فافترض أن السحرة عندما دخلوا المدينة توسلوا بأساليب ماكرة ليتصلوا بموسى عليه السلام.

عنصر [11]

تلفيق تهمة سابعة

وهي أن كل هذا المكر كان لهدف مدمِّر للشعبين المصري والإسرائيلي بتشريدهم من بلادهم، فقال: ﴿لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَآ﴾

1

أوهم الحاضرين أن الهدف الحقيقي لموسى عليه السلام والسَّحَرَةِ أن يعملوا على إخراج أهل مصر منها، وذلك يعني إبطال مُلك المصريين، وتشريدهم، وكذلك تشريد الإسرائيليين.

2

تصوَّرْ أنه يدغدغ مشاعر الإسرائيليين الذين يذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويجعلهم الآن مع المصريين في جبهة واحدة ضدَّ موسى عليه السلام.

عنصر [12]

التمهيد المرعب لصدور حكمٍ مخيف

في المحكمة الفرعونية للقضايا المستعجلة، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 123]: أي ما سأفعل بكم، وما تلقون من عقابي إيَّاكم على جرائمكم السبع.

عنصر [13]

عاد فرعون مجددًا بنبرات تهديدية

أكثر قوة، فكرَّر العبارة بصورة تأكيدية أكثر قسوة، وهذا ما تنبئنا به سورة الشعراء: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ﴾ [الشعراء: 49].

فأكَّد عبارته التهديدية الآن باللام، وكأنه قال العبارة ذاتها مرتين متتابعتين ليزيد في رعبهم ورعب الحاضرين والغائبين، فالذي فكَّر بانتصار موسى عليه السلام سيخاف من تبعات ما سيحلُّ به عند سماع هذا التهديد المرعب.

عنصر [14]

ثم أصدر الحكم المحدد

فقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰف ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 124].

1 فاللام في قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾

واقعة في جواب القسم، والنون للتوكيد، فكأنه حلف بنفسه أو بآلهته أن يقطِّع أطرافهم

2 التشديد في الطاء

فلم يقل: أَقْطَع بل أُقطِّع، وهذا أفظع وأبشع، فشدد الفعل للشدة في القطع، فسيجعل القطع متكررًا، وكثيرًا

[3]

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

فكلمة ﴿ثم﴾ للترتيب، والترقِّي في التعذيب أي سيفعل بهم ذلك بعد أن يقطِّع أيديهم وأرجلهم، حيث سيزدادون وجعًا، والصَّلْب بعد القطع؛ ليبقيهم ماثلين أمام الناس زيادة في إرعابهم.

[4]

﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾

أي لأجعلنكم على الخشبة حتى تموتوا عليها جوعًا وعطشًا، وثقَّل الكلمة، ولم يقل: (لأَصْلبنكم) ليصوِّر الشِّدَّة في الصَّلْب، مثل دَقِّ الجسد بمسامير. هكذا يعبِّر فرعون عن دمويته المريضة، وبشاعات جرائمه المتتابعة.

عنصر [15]

أعاد فرعون كلامه

أعاد فرعون كلامه الدموي المريض ليسمع الجميع، وليرعب الحاضرين، وليتناقلوا ما حدث، وتصور سورة طه ذلك: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: 71].

1

فالكلام ليس على سبيل التكرار، فأعاد فرعون الكلام موجَّهًا إلى السحرة أيضًا، ولكنه يريد أن يُسمِع الجميع ما يرعبهم، فزادت سورة طه، فحدَّدت مكان الصَّلْب وهو جذوع النخل.

2

قدَّم لنا الحرف ﴿في﴾ صورة مرعبة تتناسب مع بطش فرعون، فيصلبهم لا ﴿على﴾ جذوع النخل، بل ﴿في﴾ جذوع النخل، لأنه سيسمِّرهم حتى كأنهم دخلوا فيها.

مشهد [10] 10

المفاجآت تتوالى

المؤمنون الجدد يعلنون بياناتهم، ويسجِّلون بطولات عظيمة لا تصدق: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف:125-126]

إعلان [1]

النظر إلى المنقَلَب الحقيقي

نزل النور الإلهي على أفئدة السحرة، فتحوَّلوا إلى حكماء ثابتين على الحق المبين، ونظروا إلى حقيقة الحياة: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: 125]

[1]

﴿قَالُوٓاْ﴾

شرح الله تعالى صدروهم للإسلام، فانبعث أحدهم يردُّ على فرعون:

تنفَّسَ الصُّبحُ والآمالُ زاهرةٌ
تفتَّحت عن شبابٍ زاهرٍ عَطِرِ

يَهُزُّه الشوقُ والتَّحْنَانُ مضطربًا
إلى حنانٍ وشوقٍ في الرُّبا نَضِرِ

[2]

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾

أي: متحولون من هذه الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية، كأنهم قالوا: هل تهددنا بما نشتهي أن يكون، وهو أن ننقلب إلى ربنا، وأنت بتهديدك تريد أن تعجل بنا نحوه تعالى ذكره.

[3]

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾

فلا نبالي بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته، وخلاصنا منك ومن لقائك.

إعلان [2]

الإيمان بالآيات فور مجيئها

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ [الأعراف: 126]

[1]

﴿تَنقِمُ﴾

أنكرت علينا كارهًا، والمعنى: وما الذي أنكرته علينا، فعِبْتَهُ وكرهته ورفضته؟ أهو اتخاذنا القرار الصحيح باتباع أفضل الأمور، وهو الإيمان بآيات ربنا لما جاءتنا؟! أليس هذا أعظم ما ينبغي أن يعظَّم ويمجَّد وتتبعه أنت ونحن؟ وهو أصل المفاخر كلِّها؟

2 هذا من باب المدح بما يشبه الذم، أو تأكيد الشيء بما يشبه نقيضَه

إعلان [3]

دعاء الفوز بطلب الصبر على الإسلام مهما كانت الآلام

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: 126]

1 فسألوا الله أمرين:

الأول

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾

من أَفْرَغْتُ الدَّلو: صببت ما فيه، فشعروا بما سيأتيهم من البلاء الهائل، فتصوَّروا كأنَّ الصبر مجموعٌ في دلو كبير، وسألوا الله أن يصبَّه من الدلو إليهم ليملأ أجسادهم وقلوبهم. قالَ مُجاهِدٌ رحمه الله: المَعْنى: صُبَّ عَلَيْنا الصَّبْرَ عِنْدَ الضَّلْبِ والقَطْعِ.

2 قرَّر الرازي رحمه الله أن قولهم -رحمهم الله-: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾

أكْمَلُ من أن يقولوا: أنْزِلْ عَلَيْنا صَبْرًا؛ فإفْراغَ الإناءِ هو صَبُّ ما فيه بالكُلِّيَّةِ، فَكَأنَّهم طَلَبُوا مِنَ اللَّهِ كُلَّ الصَّبْرِ لا بَعْضَه. "تفسير الرازي (14/340)"

لم نخش طاغوتًا يحاربنا ولو ○○○ نصبَ المنايا حولنا أسوارا
ندعو جهارًا لا إلهَ سوى الذي ○○○ صنعَ الوجودَ وقدَّر الأقدارا
ورؤوسُنا يا ربِّ فوق أكُفِّنا ○○○ نرجو ثوابَك مغنمًا وجِوارا

[3] الثاني

﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾

طلبوا أن يفرغ الله تعالى عليهم صبرًا، وأن يمتد هذا الصبر في حياتهم حتى يتوفاهم الله عز وجل وهم ثابتون على الدِّينِ الحَقِّ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى عليه السلام وهو الإسلام، وذِكْرهم لكلمة ﴿مسلمين﴾ يدلُّ على أن أسماء المعالم الكبرى لما أنزله الله تعالى واحدة: فاسم رب العالمين هو الله، ودينه هو الإسلام.

[4] السحرة بعد إيمانهم أنموذج مدهش للثبات والتحدي وتحقيق الهدف:

فهم الذين كانوا يسألون فرعون الأجرة ليهزموا موسى عليه السلام فتملأ قلبك السكينة وأنت ترى انتصار الإيمان على جميع أسلحة الطغيان، وانتصار العزيمة الصادقة على الآلام الفائقة، وانتصار «الإنسان» على الشيطان.

هيمنة القرآن وبيانه لزيف تحريف كَتَبة التوراة:

1

تقرأ في سفر الخروج 7 تأخُّرَ ذكر البينتين العظيمتين لموسى عليه السلام بصورة غير مناسبة، فالمتوقع أن يطلب فرعون بينة على أن موسى عليه السلام رسول في أول الأمر كما رأينا في السرد القرآني للقصة.

2

لكنك تجد فرعون في التوراة يطلب ذلك متأخِّرًا بعد عِدَّة مواقف، فقد ذكرت التوراة المعاصرة أن فرعون التقى بموسى عليه السلام، ثم شدَّد الأعمال الثِّقال على بني إسرائيل، ثم تضجَّر بنو إسرائيل من إرسال موسى عليه السلام مع أنها تزعم أن شيوخ بني إسرائيل آمنوا به، ثم إن موسى عليه السلام انزعج وتضجَّر من ذلك، وهو يخاطب ربَّه عز وجل، وهنا يأمره ربه مجددًا بالدخول على فرعون.

3 لم تقصَّ التوراة المعاصرة شيئًا من الجهد الذي بذله فرعون لاختيار أمهر السحرة بخلاف القرآن.

4 يقصُّ علينا القرآن المجيد الحوار الذي دار بين السحرة وبين موسى عليه السلام قبل أن يُلقوا حبالَهم وعِصيَّهم، ولا نجد ذلك في التوراة المعاصرة.

5 تفاصيل تثبيت الله عز وجل لموسى عليه السلام حينما واجه السحرة غير موجودة في التوراة المعاصرة.

6 يقصُّ علينا القرآن المجيد أن الذي فعله السحرة هو أنهم سحروا أعين الناس، واسترهبوهم، وخيَّلوا إلى موسى أن عِصيَّهم وحبالَهم تسعى، ولكن التوراة المعاصرة في سفر الخروج 7 تزعم أن عِصيَّ السحرة صارت ثعابين بالفعل.

7 وأما ثبات السحرة بعد إيمانهم وكلُّ ما فصَّله القرآن فلا نجد له أثرًا في التوراة المحرفة، وكأن ذلك ليتناسب مع هدف واحد يريده كتبة التوراة هو تعظيم الجنس الإسرائيلي لا تعظيم الإيمان والمؤمنين.

إذا كان الفصل الأول من المحور الخامس قد تحدَّث عن ظهور موسى عليه السلام، وبداية الانبعاث الإسرائيلي، فما الفصل الثاني، وما الموضوع التي تحدَّث عنه؟

الجواب: هنا يأتي:

الفصل الثاني من المحور الخامس

العهد الإسرائيلي: عهد المواجهة ونهاية التاريخ الفرعوني [الأعراف: ١٢٧-١٣٧]

المناسبة والاتصال:

1 بدأ الحديث في الفصل الأول من المحور الخامس من هذه السورة

عن ظهور موسى عليه السلام، وعودة الإيمان بالله عز وجل، وبداية الانبعاث الإسرائيلي، واستغرق الآيات [الأعراف: 103-126]

2 وخُتِم بالنتائج المذهلة

التي ترتَّبت على المواجهة الكبرى بين بينات موسى عليه السلام وسحرة فرعون، ومن أهمِّ النتائج: إيمان السحرة، وخروجهم من عبادة فرعون إلى عبادة رب العالمين

3 يصوِّر لنا الفصل الجديد

الأحداثَ التي بعد ذلك

وانقسم هذا الفصل إلى ثلاث مراحل:

- مرحلة 1: إدارة التوحُّش بسبب التوجُّس [الأعراف: 127-129]
- مرحلة 2: مرحلة أخذ العقوبات الجزئية مع الإملاء والإمهال [الأعراف: 130-135]
- مرحلة 3: نتائج الصراع بين دعوة الحق الموسوية ودعوة الباطل الفرعونية [الأعراف: 136-137]

مرحلة 1 إدارة التوحُّش بسبب التوجُّس [الأعراف: 127-129]

هنا نرى إدارة التوحُّش الفرعوني ضدَّ المستضعفين بسبب توجُّس المستكبرين وأصحاب المصالح أن تضيع مصالحهم بالدخول في الإيمان [الأعراف: 127-129]

وربما تسأل: ما المشاهد التي احتوتها آيات هذه المرحلة؟

الجواب: في هذه المرحلة تنقل لنا السورة 5 مشاهد:

مشهد 1 [1] اجتماع العدوان

مجلس الأمن الفرعوني يجتمع ليمنع الناس من الإيمان بالله ورسولَيه موسى وأخيه عليهما السلام ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف 127]

1 رُعب الملأ من الإيمان:

ترتَّب على انتصار موسى عليه السلام في مواجهة السِّحر، إسلام السَّحَرة، فخاف الملأ على مصالحهم وشهواتهم، وهم الذين يملؤون العين بسبب تميزٍ عندهم في الفصاحة المؤثِّرة، أو في الشخصية الجاذبة (الكاريزما)، أو في التفوُّق الاستثماري، أو في القوة الجسدية، أو في الإبداع الترفيهي

2 الاجتماع الآثم:

فاجتمعوا بفرعون، وطالبوه بما يريده هو، وهو البطش بموسى وأخيه عليهما السلام، وقومهما ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [الأعراف: 127]، والتقييد بأنهم من (قوم فرعون) للاحتراس، فلم يكن معهم أحدٌ من مرتزقة بني إسرائيل

3 المغالطة الفجة:

﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: 127]، **يغالطون في تشخيصهم للمشكلة، فقالوا: ﴿أَتَذَرُ؟﴾، السؤال ظاهره التوبيخ، ولكن حقيقته إغراؤه بالقضاء على مُوسى عليه السلام وقَوْمِه، وعدم التأخُّر في ذلك.**

4 كلمة ﴿تَذَرُ﴾:

من وذر يَذَرُ الشيءَ أي: يقذف الشيء الذي ينفصل مع أنه يفترض فيه الاتصال، وليس كما قال الراغب : لقلَّة اعتداده به فحسب، أخذًا من الوَذَرَة: القطعة الصغيرة من اللَّحم لا عظمَ فيها، وليس لها طول فليست شرائح

فقولهم: ﴿أَتَذَرُ﴾

أي: أتتركهم بعيدًا عن دائرة اهتمامك، مع شدة اتصالهم بحياتك؛ إذ هم خَدَمُك؟

5 النصح الكاذب:

فقد ذكروا خطرين من موسى عليه السلام وقومه:

[1] ﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾

وهم يعنون: أن تنتشر دعوة الحق والعدل فيصبح المضطهدون مساوين للمستكبرين في الإنسانية، فعدُّوا الإيمان إفسادًا في الأرض.

[2] ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾

أي: فلا يتبعوه في دينه، الذي هو نظام حياته.

6 التوافق المتآزر للحرص على المصالح المشتركة:

يكشف لنا القرآن أن فرعون قال: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: 26] **ذكر فرعون الخطرين ذاتهما لكنه قدَّم وأخَّر بالنسبة لكلام الملأ، فيبدو أن الملأ رددوا عبارته أو سبقوه حرصًا على مصالحهم، وشعورًا منهم بأن ذلك هو ما يبغيه فرعون.**

7 كيف يقولون: ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾؟

هل كان لفرعون آلهة يعبدها؟ ألم يقل: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24]، ونفى الألوهية عن غيره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: 38]؟

الجواب:

1 قيل لأن آلهته الشمس

وهو ابنها كما يدَّعي الفراعنة، والشمس مما يعظِّمه المصريون والعالم ضمن معبوداتهم الباطلة الكثيرة، وجاء أنهم يسمونها (رَعْ).

2 ويظهر أن الإضافة في قولهم: ﴿ءَالِهَتَكَ﴾ تعني:

وآلهة منك، لأنه منح بعض من حوله منزلة الآلهة، فيكون تعظيمها تعظيمًا له، فهو الرب الأعلى عندهم، وهو يُعيِّن أربابًا بجواره، لكن العبادة إنما تكون له، وقرَّر الزمخشري والبقاعي رحمهما الله قريبًا من هذا.

3 هذا التقرير ينسجم مع اللغة المصرية

إذ يظهر أن الفراعنة استعملوا كلمة إله أو ربٍّ لكلِّ سيِّدٍ معظَّم مثل: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: 42].

جاء في آخِرِ الْأَثَرِ الْمِصْرِيِّ الْوَحِيدِ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ (وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِرَقْمِ 34025 الْمَحْفُوظُ فِي مَتْحَفِ مِصْرَ) أَنَّ مِصْرَ هِيَ السَّلِيلَةُ الْوَحِيدَةُ لِلْمَعْبُودِ (رَعْ) مُنْذُ وُجُودِ الْآلِهَةِ، وَأَنَّ الْإِلَهَ "رَعْ" الْتَفَتَ إِلَى مِصْرَ فَوَلَدَ "مِنْفِتَاحَ" مَلِكَ مِصْرَ، وقد اختُلف مَن فرعون الذي بُعث إليه موسى عليه السلام، ويظهر أنه فرعون ذاته الذي تربى موسى عليه السلام عنده خلافًا لنص التوراة المعاصر الذي فرق بين فرعون التربية وفرعون الخروج

هنا يأتي سؤال: بعد أن قال الملأ: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف: 127] ما القرار الذي أصدره فرعون؟

الجواب: هنا يأتي المشهد الثاني:

مشهد [2]

صدور القرار المجرم

والتأييد الجماعي لهذا التوحش الفرعوني: فرعون يصدر قراره المجرم بزيادة اضطهاد المستضعفين:

1. أظهر نفسه هائجًا مائجًا، فقال: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ [الأعراف 127]
2. قرأ أهل الحجاز بفتح النون وضم التاء مخففًا ﴿سَنَقْتُلُ﴾، والقراءة تصوِّر اتخاذ قرار القتل دون تردُّد
3. وقرأ الباقون ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ بضم النون وتشديد التاء المكسورة، والقراءة تصوِّر تكثير القتل، وتكريره، والإيلام الشديد الذي يصحبه أثناء القتل، فهو قتل بتنكيل وخزي.
4. كلمة ﴿رجال﴾ تقابلها كلمة ﴿نساءهم﴾، ولكن فرعون في قراره استخدم كلمة ﴿أبناء﴾؛ ليجعل التنكيل يطال الصغار والشباب بصورةٍ أكبر حتى يُحْدِثَ إرعابًا هائلًا في الوسط الإسرائيلي، ويصبح الآباء حريصين على منع الأبناء من الإيمان، بل تحوَّل كثير من الشيوخ والشباب إلى جواسيس يعينون فرعون على رصد المؤمنين من الشباب المتحمِّسين.

لماذا قال فرعون بعد ذلك: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾؟

الجواب:

يريد أن يملأ نفوس الملأ بالاطمئنان أن انتصار موسى عليه السلام في معركة البينة ضدَّ السحر لا يعني أن له التمكُّنَ والغلبة، كأنه يقول: نحن القاهرون لموسى عليه السلام ومن معه، فلَا يستطيعون خُرُوجًا مِنْ حَظِيرَةِ تَعْبِيدِنَا، وهو يريد أن يستر خوفه من أن يمسَّ موسى عليه السلام

مشهد [3] 3

تنفيذ القرارات الفرعونية الظالمة

والتوجيهات الموسوية الأربعة لمعالجة الواقع [الأعراف: 128]:

آية المشهد: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128]

أولًا: ما العلاقة بين هذه الآية وما سبقها؟

الجواب: يتساءل القارئ بعد قراءة ما سبق: هل نفَّذ فرعون ومجلس أمنه تهديداتِهم المجرمة ضد بني إسرائيل؟ فظهر لنا من مفهوم الحوار بين موسى عليه السلام وقومه أن فرعون نفذ تلك

ثانيًا: الإيمان يعني انتظـــار المعجـــزات

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ [الأعراف: 128] هذه جملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا، والتقدير: فلما نفَّذ فرعون قراراتِه المجرمةَ، ووجد بنو إسرائيل شِدَّةً عظيمة، فربما تساءل السامع: هل أتى موسى عليه السلام بمعجزات جديدة ليحمي بني إسرائيل؟ فيأتي الجواب: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ [الأعراف: 128].

ثالثًا: لم يعزل موسى عليه السلام نَفْسَه عنهم في برج عاجيٍّ

ولم يكتف بتوجيه الأوامر، بل كان يلتقي بهم، ويخوض لحظاتِ الحياة في وسطهم، وكلُّ ذلك يعكس جوانبَه القيادية العظيمة، ولذا ذكر لهم موسى عليه السلام أربعة توجيهات، فأمَرَهم بشَيْئَيْنِ، وبَشَّرَهم بشَيْئَيْنِ:

أمر [1]

﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ 1

طلب عون الله عز وجل ليستعدُّوا لمفاجآت البلاء وتحديات الأعمال الصالحة والنهوض والبناء، وعدَّى الفعل المضارع بالباء ليجعلوا استعانتهم لاصقة لا تنفك ﴿بِٱللَّهِ﴾ الَّذي لا أعْظَمَ مِنهُ، كأن موسى عليه السلام قال: أي فلا تظنوا أنني أستطيع لكم شيئًا.

أمر {2}

2 ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾

1 الصبر حبس النفس على شيء مع تضييق مجال الحركة فيه حتى كأن الإنسان يتكوَّم فيه فلا يتزعزع ولا يجزع، كما تتكوَّم صُبرُة الطعام وتتراكم.

2 ويعني: التّبَاعُدُ عَن المُخَالفَاتِ (صبر عن المعصية)، والعيش مع البَلْوى بِلَا ظُهورِ شكْوى، والمجاهدة في فعل الطاعات.

3 وعرفه الراغب رحمه الله: بأنه حبس النَّفْس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه.

3 بشارة {1} ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾

بعد الاستعانة والصبر سيتغير التاريخ؛ فالله عزوجل يداول السيادة في الأرض بين الناس، فقد يليها الأشدُّ إجرامًا أو الأكثر صلاحًا.

4 بشارة {2} ﴿وَٱلۡعَاقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾

1 والعاقبة: من (عَقِبَ) وهي كلمة تدلُّ عَلَى تَأْخِيرِ شَيْءٍ وَإِتْيَانِهِ بَعْدَ غَيْرِهِ على أنه متصل بما قبله اتصالًا وثيقًا كعَقِبِ الرِّجل.

2 والمتقون هم الذين وَقَوا أنفسهم من كلِّ ما يسبِّب الضرر من الجرائم والرذائل، ولا يكمل ذلك إلا بملء النفس بالفضائل.

3 والمعنى: ختام الأمر سيستحقُّه المتقون، ولكنه متصل بما قبله من الاستعانة والصبر.

5 عندما تجمع بين الأمور الأربعة تشعر بأن موسى عليه السلام ينبههم:

01 بأن النهاية سعيدة ضاحكة مستبشرة للمتقين.

02 وبأن العاقبة الحقيقية هي الآخرة. قال الحسن رحمه الله: (وَالْعَاقِبَةُ)، أي: الآخرة للمتقين خاصة، وأمّا الدُّنيَا فإنها بالشركة بين أهل الكفر وأهل الإسلام، يكون لهَؤُلَاءِ ما لأُولَئِكَ. "تفسير الماتريدي (4/541)"

03 فسُنَّة الله عز وجل في الكون أن يمهل الظالمين ويبتلي المظلومين، ويخبرنا النبي ﷺ بهذا عندما سئل: أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: "الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ" "أحمد (1481)، وحسَّن إسنادَه الأرناؤوط والألباني في مشكاة المصابيح (1562)".

04 وبأن لا يتوقعوا النصر السريع.

5 قال محمد بن بشير:

إنَّ الأمورَ إذا انسدَّتْ مسالكُها ○○○ فالصبرُ يَفْتُقُ منها كلَّ ما ارْتَتَجَا

لا تيأسنَّ وإن طالت مطالبةٌ ○○○ إذا استعنتَ بصبرٍ أن ترى فَرَجَا

أَخْلِقْ بذي الصَّبرِ أن يَحْظَى بحاجتِهِ ○○○ ومُدْمنِ القَرْعِ للأبوابِ أن يَلِجَا

مشهد [4] 4

الموقف العام لبني إسرائيل من التوجيهات الموسوية الأربعة [الأعراف: 129]

آية المشهد:

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129]

أولًا: لما أمرهم موسى عليه السلام بالاستعانة بالله والصبر

حينها ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ فهل تضجَّروا من رسالة موسى عليه السلام؟

ثانياً: هذا القول قد يكون شكوى دون تضجـُّر من الرسالـــة:

1 مثل ابتهال الأنبياء عند عناد قومهم، كقول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾ [يونس: 88]

2 وقول خَبَّاب بْن الأَرَتِّ رضي الله عنه، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ "البخاري (6943)"

ثالثاً: وقد يكون تضجُّرًا من الرسالة

كمن قال الله تعالى فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ [الحج: 11]

رابعاً: وقوم موسى عليه السلام منهم قلَّة مؤمنة كانوا يَشْكُون مع محبتهم للرسالة

ولكنهم متلهِّفون يبتغون النصر، ومنهم من كان متضجِّرًا متذمِّرًا من رسالة موسى

خامساً: كان فرعون يسوم بني إسرائيل سوء العذاب قبل رسالة موسى عليه السلام

لكن ذلك ازداد شراسة بعد مجيئه وانتصاره في معركة البينة ضدَّ السِّحر، فالقرآن يصحِّح لكَتَبة التوراة الحالية الذين ذكروا أن فرعون شدَّد على بني إسرائيل بعد رسالة موسى عليه السلام، وجعلوا التشديد ليس قتلًا للأبناء، بل شيئًا محدودًا

ففي سِفْرِ الْخُرُوجِ 5:

6 فأمر فرعون في ذلك اليوم مُسَخِّري الشعبِ ومَدَبِّريه قائلًا:

9 لِيُثَقَّلِ العملُ على القومِ حتى يشتغلوا به، ولا يلتفتوا إلى كلام الكَذِبِ»

سادساً: ظاهر ترتيب آيات القرآن هنا أن اشتداد الأذى كان بعد انتصار موسى عليه السلام

في معركة البينة ضدَّ السِّحر، وبعد اجتماع مجلس الأمن الفرعوني، وعندما ننظر في التوراة الحالية نجد أنها تحدِّثنا أن اشتداد الأذى على الإسرائيليين كان قبل ذلك، وهنا ترى هيمنة القرآن مجدَّدًا على التوراة الحالية

مشهد [5] 5

تذكُّرُ سُنَّةِ تداول الأيام

فأجابهم موسى عليه السلام بأن تنبّأ بثلاثة مآلات مستقبلية لهم [الأعراف: 129]:

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأَعْرَاف: 129].

مآل [1]

هلاك عدوِّ الإسرائيليين (فرعون ومؤسَّساته) ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾

استعمل مُوسى عليه السلام ما يقابل كلمة ﴿عَسَىٰ﴾ بلغته ليحثَّهم على التفاؤل بالمستقبل، وأن يتَّجهوا في رجائهم إلى الله عز وجل ليغيِّر حالهم، فكلمة ﴿عَسَىٰ﴾ تحمل معنى الإطماع والإشفاق، قالَ الزَّجّاجُ: "(عسى): طمعٌ وإشفاق، إلا أنَّ ما يُطْمِعُ اللَّهُ فيه فهو واجبٌ" "معاني القرآن للزجاج (2/ 367)".

مآل [2]

أن يستخلف الله بني إسرائيل بعد هلاك عدوهم ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾

وكلمة ﴿خَلَفَ﴾

ضدّ تقدَّم وسَلَف، قال الراغب رحمه الله: "والخِلافةُ: النِّيابة عن الغير إمَّا لغَيبةِ المنوب عنه، وإمَّا لموته، وإمَّا لعجزه، وإمَّا لتشريف المُسْتَخْلَف"، "المفردات (ص: 294)" والمعنى: ويجعلكم خلفاء في الأرض لكم الملك والأمر والنهي.

مآل [3]

أن يَظهر للبشرية حقيقةُ العهد الإسرائيلي ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، فهل سيكون مثلَ العهد الفرعوني أم سيقيم الإسرائيليون أمر الله تعالى في الأرض؟

﴿فَيَنظُرَ﴾

1 النظر: تَقْلِيبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشيءِ ورؤيَتِه، والمنظور قد يكون محسوسًا، وقد يكون معقولًا.

2 والمعنى:

فينظر الله عز وجل واقعًا كيف تصرفاتكم: هل ستهدون بالحقِّ، وبه تعدلون، أم ستختارون الفسق، وهو يعلم عز وجل أفعالكم قبل ذلك، لكنه يمنحكم الفرصة؛ لإظهار حقيقتكم، ليقيم الحجة عليكم وعلى الناس كما أقامها على فرعون وقومه.

3 قالَ الزَّجّاجُ رحمه الله:

"لِأَنَّ اللَّهَ تَعالى لا يُجازِيهِمْ عَلى ما يَعْلَمُهُ مِنهم...وإنَّما يُجازِيهِمْ عَلى ما وقع مِنهم". "معاني القرآن للزجاج (2/367)".

4 هذه الآيات كلها تقصُّ على الصحابة رضي الله عنهم واقعهم ومستقبلهم، حيث ستمرُّ عليهم السُّنَن ذاتها

ولذا قال النبي ﷺ:

«إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ». "مسلم(7048)".

بينة القرآن بين التصديق والهيمنة على الكتب السابقة

ما الفرق بين ما ورد في القرآن، وما ورد في التوراة المعاصرة في موضوع إيمان بني إسرائيل؟

الجواب:

1 في التوراة الحالية تجد في سفر الخروج 4 أن بني إسرائيل آمنوا قبل التقاء موسى عليه السلام بفرعون، وإيمانهم بسبب عنصرهم، لا لأنهم يجب أن يؤمنوا بالله فيما يظهر، حيث جاء فيه:

> 31 فَآمَنَ الشَّعْبُ. وَحِينَ سَمِعُوا أَنَّ اللهَ افتقد إِسْرَائِيلَ، وَأَنَّهُ نظر مَذَلَّتَهُم، خرُّوا وَسَجَدُوا.

2 اللقاء ببني إسرائيل قبل لقاء فرعون لا نجده في القرآن الكريم، ولكن إيمانهم كَذِب، فلم يؤمن لموسى عليه السلام إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم، وذلك بعد انتصار موسى عليه السلام على السحرة حسب ترتيب الآيات.

3 النَّفَسُ العنصريُّ يصبغ التوراة المعاصرة؛ إذ في سفر الخروج 5:

22 فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، لِمَاذَا أَسَأْتَ إِلَى هذَا الشَّعْبِ؟ لِمَاذَا أَرْسَلْتَنِي؟ 23 فَإِنَّهُ مُنْذُ دَخَلْتُ إِلَى فِرْعَوْنَ لأَتَكَلَّمَ بِاسْمِكَ، أَسَاءَ إِلَى هذَا الشَّعْبِ. وَأَنْتَ لَمْ تُخَلِّصْ شَعْبَكَ».

4 وليست هذه الصورة المخبتة التي يصوِّرها لنا القرآن، ففيها يُعَظِّم موسى عليه السلام ربَّه عز وجل في القرآن، ويثق بنصره، وتحقيق موعودِه، وفيها ترى «النبيَّ» العظيم الكليم عليه السلام يُذَكِّر قومه بحقائق الوجود الكبير: حقيقة الألوهية -ليس الإله العنصري- وحقيقة الابتلاء، وتداول الأيام، وتحقيق العبودية.

5 ترى التركيز دائمًا على النَّفَسِ العنصريِّ في التوراة المعاصرة، وكأن الله عز وجل إلهٌ لجنسٍ خاصٍّ من البشر، وليس ربًا للعالمين، ففي الخروج: 6

7 وأَتَّخِذُكُم لي شَعْبًا، وَأَكُونُ إِلَهَكُمْ.

5 فترى هيمنةَ القرآن على الكتب السابقة، وإظهارَه لخطأ المحرِّفين.

وقد تسأل: إذا كانت المرحلة الأولى قد تناولت الإدارة الفرعونية للتوحُّش ضدَّ المستضعفين، فما المرحلة الثانية؟ وهل انتهى التاريخ عند بطش فرعون بهم؟

الجواب: هنا تأتي:

مرحلة 2 مرحلة أَخْذِ العقوبات الجزئية مع الإملاء والإمهال [الأعراف: 130- 135]

فأمام إدارة التوحُّش الفرعونية، وصبر بني إسرائيل دخلت مرحلة جديدة، حيث يَظهر الأخذُ العقابيُّ لفرعون ومن معه ولكن بصورة جزئية، وهنا نشهد مسَّ السراء والضراء

وربما تتساءل: وما المشاهد التي تضمَّنتها هذه المرحلة؟

الجواب: تضمَّنت هذه المرحلة 9 مشاهد:

مشهد 1 [1] المعجزة 2، 3

الجدب ونقص الثمرات آيتان لموسى عليه السلام يهدِّدان الأمن الغذائي لآل فرعون [الأعراف:130]

آية المشهد:

﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 13]

1 ضخامة الأحداث:

يوضِّح ذلك واو القَسَم، واللام الداخلة في جواب القَسَم، وحرف التحقيق (قد) في قوله ﴿وَلَقَدۡ﴾، والتقدير: وعِزَّتنا لقد أخذنا آل فرعون بالسنين، فجرى على آل فرعون ما يجري على كلِّ أمَّة من الأخذ الجزئي لها بأنواع من العذاب

2 ﴿أَخَذۡنَآ﴾ الأخذ:

يدلُّ على تناول الشيء وَجَمْعه وقَبْضه، والسياق سياق عقوبة شديدة فيقتضي: أن يكون الأخذ سريعًا، خفيًا، مستوليًا، مستحوذًا، يحوز المأخوذين، ويقبض عليهم قبضًا محكمًا معنويًا وماديًا، ويقترن بالقهر الشديد، والاستيلاء، كما تأخذ أنت سلاحك بمهارة وقوة واستيلاء، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]

[3]

﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾

كلمة (ءَالَ) لها معنيان متقابلان: ابتداء الأمر وانتهاؤه، فالأسرة ابتداء الجماعة، والجماعة نهايتها، والسياق هنا يُظهِر لنا أن جميع من كان في مصر أصابته السنين، لكنه خص آل فرعون أي أهله وأتباعه؛ لأنهم أصحاب المصالح العليا، فهم المتضررون الأكثر؛ ويحتمل أن منازل الإسرائيليين لم تكن مخالطة للمصريين.

[4]

﴿بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾

العقوبة التي أخذ بها آل فرعون نوعان:

1

﴿ٱلسِّنِينَ﴾

أي بالجُدُوب سنة بعد سنة، والقُحُوط، و«السَّنَة» يغلب إطلاقها على الحَوْل الذي فيه جَدْب، وجَمَعَها باعْتِبار تكرُّرها وكَثْرَة مَواقِعها.

2

﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾

أي عدم إخصاب الأرض، وضآلة المحصول الزراعي واختبرناهم مع الجُدُوب بذهاب ثمارهم وغلاتهم إلا القليل.

ويصوِّر النبي ﷺ ارتباط السنين ونقص الثمرات، فيقول:

«لَيْسَتِ السَّنَةُ بِأَنْ لَا تُمْطَرُوا، وَلَكِنِ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا، وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا» "مسلم (7397)"

جمع بين السنين ونقص الثمرات

ليصوِّر لنا أنه يصيب كلَّ فئة بما يناسبها، فالسنون لباديتهم وأهل مواشيهم، ونقص الثمرات لمدنهم، ورأى البقاعي رحمه الله أن السنين لقلَّة الغيث فيأكلهم القَحْطُ وتيبس حياتهم، ونقص الثمرات: بالعاهاتِ التي تصيب الثمار حتى لو وجدوا بديلًا لنزول الغيث. "نظم الدرر (38/8)".

5 ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾:

أي رجاء أن يتذكَّروا؛ إقامةً للحجة عليهم، حيث عالجهم ربهم عزوجل بأنواع من التربية: رخاء، وشِدَّة، بسُنَّة الحسنة والسيئة كما في المحور الرابع.

﴿يَذَّكَّرُونَ﴾

التذكُّر من قولهم: ذَكَرْتُ الشَّيْءَ، أي استحضرت الصورة القائمة، فأوصلني تذكُّرها إلى فَهْمٍ ثاقب وعملٍ صائب يحدث به الاتعاظ والانزجار والتوبة، حيث يَتَذَكَّرُونَ عَجْزَ مَلِكِهِمُ الْجَبَّارِ الْمُتَغَطْرِسِ، وَعَجْزَ آلِهَتِهِمْ أمام قوة الله عز وجل.

6 هنا تعجب من مستكبر مثل (ستيفن هوكنج) يقول ما لا تقوله الأنعام:

"لأن ثمة قانونًا مثل الجاذبية، صار بمقدور الكون أن يخلق نفسه من عدم...عليه يمكن القول إن الكون لم يكن بحاجة إلى إله يشعل فتيلًا ما لخلقه"

تَكَبُّرٌ! واللهُ أخذه بالحسنة عندما منحه ذكاء، وبالسيئة عندما أصابه بالشلل، فهل تذكَّر؟ لقد ازداد استكبارًا.

يرقِّق قلوبنا ابن الجوزي رحمه الله عند سماع هذه الآية، فيقول:

«فَمن رُزق مَا يحب فليشكر الرزَّاق، وَمن أصابه مَا يكره فليتَّهم نَفْسه فِي مُعَاملَة الخلَّاق»

"التذكرة في الوعظ (ص64)"

2 مشهد [2]

السُّنَّة التي تكشف نفسية المعاندين

يفسِّرون الأحداث تفسيرًا خاطئًا، ويصرُّون على أنهم مستحقون لكل حسنة، وأن السيئة إنما تحدث بسبب غيرهم.

آية المشهد:

﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: 131]

1 الفاءُ في قَوْلِهِ ﴿فَإِذَا﴾:

لِتَفْرِيعِ هَذا الخَبَرِ عَلى الآية السابقة ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾[الأعراف: 130]

[2]

﴿جَآءَتۡهُم﴾

هذه الكلمة تصوِّر الأقدار جائية قادمة للإنسان لا يستطيع لها دفعًا، فلا يمكنهم أن يصنعوها، ولكنهم يمكن أن يختاروا أسبابها.

[3]

﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾

مشتقة من (حَسُنَ) الشيء إذا ظهر نقاؤه وصفاؤه وجماله وإشراقه، وتميَّز عن القُبْح والسُّوء الذي يحيط به، كالقمر ذي الضوء والبياض النقي، يقال له: الحاسن، والحَسن: كلُّ مبهج مرغوب فيه، فالحسنةُ يُعبَّر عنها عن كلِّ ما يسرُّ الإنسان من النِّعَم، مثل: النصر، والغنيمة، والخَصْب، والسَّعَة، والظَّفَر، والعيش الرَّغَد، والتقدُّم الاقتصادي. والسيئة تضادُّها.

[4]

﴿قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾

بدلًا من أن تُذكِّرَهم الأحوال الحسنة بربِّهم عز وجل يقولون: ﴿لَنَا هَٰذِهِ﴾: اللام للاستحقاق، فَلا يَرَوْنَ النِّعَم الحَسَنَةَ نِعْمَةً من الله عز وجل، بل يرون أنهم يستحقُّونها، وتختصُّ بهم.

[5]

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾

﴿إِنْ﴾: شرطية احتمالية، ﴿تُصِبْهُمْ﴾: أي تأتيهم مصيبة واقعة بهم دون أن تخطئهم.

[6]

﴿سَيِّئَةٌ﴾

اشتُقت من ساء يَسُوء سُوءًا، والسوء: ما يوجع المرء أن يقع فيه أو يقع به أو يقع عليه، فهي كلمة تجمع كلَّ ما يغمُّ الإنسان من الأحوال النَّفْسيَّة، والبدنيَّة، والخارجية، من فوات مال، وجاه، وفَقْدِ حميم، أو جَدْب، أو مرض، أو ضعف اقتصادي.

لماذا استعمل فعل المجيء مع الحسنة، واستعمل فعل الإصابة مع السيئة؟

الجواب:

لأن ﴿جَآءَتْهُم﴾ تعني وَصَلتهم من جهة أخرى، والحسنة من فضل الله عز وجل دائمًا، وأما ﴿تُصِبْهُم﴾ فمن (صَوَبَ)، وهي: كلمة تدلُّ عَلَى الصواب، أي على وصول شَيْءٍ إلى مكانه المناسب الصحيح، ومِنْ ذَلِكَ الصَّوَابُ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، فالإصابة جاءت في الشرِّ لتدلَّ على عدل الله عز وجل عندما يصيب عباده بمصيبة؛ إما ابتلاء وإما عقوبة.

[7]

﴿يَطَّيَّرُوا﴾

أي يَتَطَيَّرُوا، أي يتشاءمون؛ لأنهم كانوا يرون حظَّهم متعلِّقًا بخرافات مثل طيران طير بعينه، والتطير عادة جاهلية، فقد كانت العرب تجعل حركة الطيور مرشدة لها، فَإِذَا طَارَتْ يمينًا تَيَمَّنَتْ؛ أَيْ: رَجَتْ وُقُوعَ الْيُمْنِ وَالْخَيْرِ، ويسمونه الطَّائِرَ السَّانِحَ، وَإِذَا طَارَتْ شمالًا تَشَاءَمَتْ، وَتَوَقَّعَتِ الشَّرَّ ويسمونه الْبَارِحَ، ولعل التشاؤم لوجود الطير في الهواء كأنه بلا مستقر.

[8]

﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾

يُظْهِرون التشاؤم ويقولون: ما أصابنا هذا إلا بك يا موسى وبمن معك، ذهبت حظوظنا من الرخاء والعافية، مذ رأيناكم.

9 هذه دعوى يكرِّرها المجرمون دائمًا

ليصرفوا الناس عن حقيقة الأحداث، إذا حدثت المصائب اتهموا الصالحين

مشهد [3] 3

الردُّ على ناشري الإشاعات المضللة

حيث قال الله عز وجل في الردِّ على مغالطات آل فرعون: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾[الأعراف:131]

1 فالردُّ واجب، لكنه يجب أن يكون حكيمًا

فقد قال أحمد رحمه الله:

«إذا سكتَّ أنت وسكتُّ أنا فمتى يعرف الجاهلُ الصحيحَ من السقيم؟»

وقال ابن تيمية رحمه الله:

«وَلَوْلَا مَنْ يُقِيمُهُ اللَّهُ عز وجل لِدَفْعِ ضَرَرِ هَؤُلَاءِ لَفَسَدَ الدِّينُ، وَكَانَ فَسَادُهُ أَعْظَمَ مِنْ فَسَادِ اسْتِيلَاءِ الْعَدُوِّ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ» «مجموع الفتاوى (28/ 232)».

[2]

﴿أَلَا﴾

أداة افتتاح تنبيهية ليهتموا بما بعدها.

[3]

﴿إِنَّمَا﴾

تفيد الحصر والقصر لهذه القضية، فحينما تلاعبوا بالناس، وأوهموهم أن موسى عليه السلام ومن معه سببُ المصائب أخبرهم أنه لا يمكنهم أن يقولوا ذلك؛ لأن موسى عليه السلام ومن معه لا يستطيعون أن يسبِّبوا لهم المصائب حتى لو أرادوا ذلك.

[4] يكون لقول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾

معنيان:

معنى [1]

حظوظهم المقسومة خيرًا وشرًا إنما جاءت من عند الله عز وجل، فكما قَسَّمَ لكم من الخير قَسَّمَ لكم الشَّرّ بِقَضائه وحكمته

معنى [2]

سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده، وسيعاقبون بما يناسبه في الوقت الذي يريده الله عز وجل

4 مشهد [4]

الجهل سبب المصائب والتفسيرات الخاطئة

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: 131] فهذا الختم له معنيان:

معنى [1]

الفعل لازم يدلُّ على نفي صفة العِلم أي: أكثر الناس لا علم عندهم، وفي هذا إشارة إلى العامَّة.

معنى [2]

أن نعلِّق العلم بمحذوف، والمحذوف يشمل كلَّ عِلم ينبغي أن يُعلَم، فكثير منهم لا يعلمون ما يجب من الحقائق؛ لأنهم يصرُّون على مصادرة عقولهم، واتباع المضلين.

من ذلك أنهم لا يرون وراء هذا الكون مُكَوِّنه وهو الله عزوجل الفعَّال لما يريد، فـ(خروشوف) صاحب الاشتراكية «العلمية!» يتحدث عن معاكسة «الطبيعة!» عندما نقصت الثمرات والغلَّات في المعسكر الشيوعي كلِّه.

مشهد [5] 5

تطبيع الحياة مع الإلحاد

ومنع العقول من رؤية الحق مهما ظهر في المستقبل: ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: 132]، فيجعل المجرمون والغافلون كلَّ آية مادية تظهر خارقة للعادة جُزءًا من الواقع الطبيعي:

كلمة [1]
﴿وَقَالُوا﴾

هذه واو الاتصال "العطف" تبصِّرنا بأنهم اجتمعوا، ثم خلصوا إلى قرار، ثم تأتي كلمة ﴿قالوا﴾ لتصوِّر أنهم أعلنوا ذلك القرار، وواو الجماعة تصوِّر اتفاقهم، وتعاونهم.

كلمة [2]
﴿مَهۡمَا﴾

اسم شرط، ذكر الرازي رحمه الله أن أصلها (ما ما)، الأولى هي (ما) الشرطية، والثَّانيَةُ لتوكيده عند الخَليلِ والبَصْريِّينَ، وقيل: أصلها (مَه) الَّتي بِمَعْنى الكَفِّ، أي: (اكْفُفْ)، دَخَلَتْ عَلى (ما) الشرطية لِلْجَزاءِ، كَأنَّهم قالُوا: اكْفُفْ ما تَأْتنا بِهِ مِن آيَةٍ فَهو سحر، ولن نؤمن لك.

كلمة [3]
﴿تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ﴾

أي تجيئنا مصاحبًا لأقوالك بكلِّ آية هي معجزة خارقة للعادة، فاعترفوا أنها آية، وقيل: سموها آية سُخريَّة، وأرى أنه يمكن حمل الكلمة على المعنيين

كلمة [4]
﴿لِتَسۡحَرَنَا بِهَا﴾

أي لتُخفي علينا به خديعتك لنا، فلا نبصر الحقيقة بأعيننا، وهنا وقعوا في التناقض، فسمَّوا ما يأتي به آية، ويعنون المعجزة المادية الحقيقية، ثم كذبَّوا فادَّعوا أنه سيسحرهم بها.

كلمة [5]

﴿فَمَا﴾

الفاء داخلة في جواب الشرط، و(ما) لنفي ما بعدها: مهما تأتنا به من آية فماذا سنفعل؟ هنا تأتي الفاء لتمهِّد لجواب الشرط.

كلمة [6]

﴿نَحْنُ﴾

تصوِّر التكاتُف الجماعي بين الملأ وغيرهم من آل فرعون.

كلمة [7]

﴿لَكَ﴾

تصوِّر أنهم يمكن أن يؤمنوا بأي شيء لأي جهة ما عدا ما يدعو إليه موسى عليه السلام وتصوِّرُ مقدار العقل المغلق، والنَّفْس المتعصبة، أو كأنهم يقولون: فإن لم نؤمن لك فأحرى ألا نؤمن لغيرك.

كلمة [8]

﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾

الباء دخلت على ﴿مؤمنين﴾؛ لزيادة التأكيد على نفي الإيمان. وخلاصة المعنى: تقوم وسائل إعلام المستكبرين ببثِّ دعاية للصَّدِّ عن الإيمان، فيقولون: مهما جاء الرسول بآية، فهي سحر، وإذا كانت سحرًا فلا يمكن الإيمان بما يقول صاحبها. لقد أغلقوا على أنفسهم كلَّ منافذ التفكير.

مشهد [6] 6

المعجزات 5-9 التي أصاب الله عز وجل بها آل فرعون [الأعراف 133]

آية المشهد:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:133]

آية [5] ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾

1

مشتق من (طَوَفَ)، وهي كلمة تدلُّ على دَوَرَانِ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ، وَأَنْ يُحَفَّ بِهِ، فيطلق على كلِّ حادثة تحيط بالإنسان، وصار معروفًا في الماء المتناهي في الكثرة الذي يغمر الأرض بما فيها من بَشر وحَجر.

2

فطاف بهم المطر الشديد الذي ربما صحبته شِدَّة الريح، وترتَّبت عليه الأوبئة والموت للأرواح، والدمار للمحاصيل.

آية [6] ﴿ٱلْجَرَادَ﴾

1

جمع جَرادَة مِنَ الجَرْد، وهو أَخْذُكَ الشَّيْءَ عَنِ الشَّيْءِ عَلى سَبِيلِ النَّحْت والسَّحْق، ومنهُ يُقالُ لِلثَّوْبِ الَّذي قَدْ ذَهَبَ وَبَرُهُ: جَرْدٌ، وأَرْضٌ جَرِدَةٌ لا نَباتَ فِيها، والجراد حشرات تَنْتَشِرُ بكثافة، فتُهلك الزَّرْع، وتدمِّر المحاصيل وعَنْ مُجَاهِد رحمه الله قَالَ: "كَانَتْ تَأْكُلُ مَسَامِيرَ رُتُجِهِم"، وهي الأبواب". "المجالسة وجواهر العلم (94/3)".

2

وبين رَسُولُ الله ﷺ هذه الآية، فقال: "لَا تَقْتُلُوا الْجَرَادَ، فَإِنَّهُ مِنْ جُنْدِ اللهِ الْأَعْظَمِ"

"الطبراني في الأوسط (9277)، وضعَّفه الهيثمي في المجمع (6073)، وتعقَّبه الألباني في الصحيحة (2428)".

آية [7] ﴿ٱلْقُمَّلَ﴾

1. الجراد سُلِّط على طعامهم، والقُمَّل على أجسامهم، ويدخل فيه:
2. السُّوس الذي يخرج من الحنطة، والبراغيث، وصغار القِردان التي تمتص دَمَ الإنْسانِ جمعها قُراد، وتتشبَّث بأصول الشَّعَر.
3. في التوراة المعاصرة سفر الخروج: 8 ذكر الذباب، وليس القُمَّل، وهذا من مواضع هيمنة القرآن على التوراة.

آية [8] ﴿ٱلضَّفَادِعَ﴾

الجراد اجتاح مطاعمَهم، والقُمَّل أجسامَهم، والضفادع مراقدَهم.

آية [9] ﴿ٱلدَّمَ﴾

1. قيل: اجتاح الدَّمُ مشاربَهم، فانقلبت مياهَهُمُ كُلُّها دَمًا مُنْتِنًا، وقيل: بل سلَّط الله عز وجل عليهم الرُّعاف (الدم الذي يخرج من الأنف).
2. من مواضع هيمنة القرآن على التوراة المعاصرة هنا أن كاتبها ذكر الضفادع في سفر الخروج بعد الدَّم، وليس قبله كما يشير إليه ظاهر القرآن.
3. ومن أغرب ما فيها أن كاتب التوراة زعم أن العرَّافين أصعدوا الضفادع، وكذلك الدَّم على أرض مصر بسحرهم، فجعل المحرِّفون آية موسى عليه السلام وما يفعله السحرة شيئًا واحدًا، كأنهم يمنحون آل فرعون العذر في عدم إيمانه، بل نصَّ على ذلك في التوراة-الخروج7، فقال: 22 وَفَعَلَ عَرَّافُو مِصْرَ كَذلِكَ بِسِحْرِهِمْ. فَاشْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ.

فما معنى قوله: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾؟

الجواب:

1. أرسلنا هذه الآيات صفتها أنها ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾، قد فُصِّل بينها بفاصل زمنيٍّ مناسب عساهم يتوبون أو يذكَّرون

2. ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي مُزيلاتٍ للبس، فلا شُبْهَةَ في كَوْنِها آيات، وليست سحرًا كما يفترون، وكما أحدث كاتبو التوراة اللبس بشأنها.

هل عمَّت هذه الكوارث الساكنين في مصر من الأقباط والإسرائيليين؟

الجواب:

يظهر أنه كان يوجد "الأبارتايد" أي الفصل العنصري، حيث كان الإسرائيليون يسكنون في مكان مختلف عن المصريين، فتأتي الكارثة، فتصيب آل فرعون، ويحمي الله عز وجل منها المستضعفين، ومن العجيب أن الإسرائيليين يكرِّرون نظام الفَصَل العنصري اليوم في فلسطين بصورة أبشع.

مشهد [7] 7

ردَّة فعلهم على الآيات الخمس الأخيرة

الاستكبار والإجرام يحركانهم لاتخاذ قرار عدم الإيمان ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[الأعراف:133]، فالفاءُ لِلتَّفْرِيعِ والتَّرتيبِ، أيْ: إن سألت عن رأيهم في الآيات العظيمة، فاعلم أنهم استكبروا وكانوا قومًا مجرمين، فرفضوا الإيمان فاتصفوا بصفتين خطيرتين:

الأولى: الاستكبار: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾

1. أي: تعاظموا في ذواتهم من "كَبِر" أي: زاد عمره، أو غَلُظ حجمه، أي عَدُّوا أَنْفُسَهُمْ أكبر من أن يصدِّقوا بِمُوسى عليه السلام.

2. عرَّف النبي ﷺ الكبر، فقال: «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ» "مسلم (178)" أي: رَدُّ الحقِّ، واستصَغار الناس.

الثانية: الإجرام: ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾

أي: رسخوا في إجرامهم، فمنعتهم شهواتهم المجرمة من أن ينقادوا للحقِّ.

1. (المجرم): اسم فاعل من أجرم، و(جَرَم) أي: كَسَبَ ثمرًا جريمًا أي: يابسًا رديئًا، فاقتطعه، والمصطلح القرآني يخصِّص وصف المجرم بمن اقترف الذنوب العِظام الفاحشة التي فيها اقتطاع لجرمٍ.

2. فآل فرعون اقتطعوا بذنوبهم أجرامًا، أي: أجزاءً من عقول الناس وأبدانهم، وأقواتهم.

يحسبُ المرءُ أنه يُعْجِزُ اللـــــ ○○○ ـــــهَ فيلهو ويملأُ الأرضَ ظُلْمًا
يتسامى فلا يرى مَنْ يُسَامِيه ○○○ وفي الناسِ من هو أَسْمـــــى
ويرى الناس كَالدُّمَى يستجيبونَ ○○○ لما يبتغيـــــه صُمًّا وبُكْمَـــــا
ويَجِيءُ القضاءُ حَتْمًا فلا يَقْـــــ ○○○ ـــــدرُ ردًّا له ولا فيـــــه حُكْمًا

ما الفائدَةُ من المعجزات مع علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون بها؟

الجواب:

1. لإقامة الحجة على من عاش في زمن فرعون.
2. لإقامة الحجة على بقية البشرية الذين يزعمون أن مجرد وجود الآية المعجزة سيجعل الناس يؤمنون، فها هم تتوالى عليهم الآيات، وما آمن منهم إلا قليل.

مشهد [8] 8

فَزَعُ آل فرعون إلى موسى عليه السلام عند كل آية من الآيات الخمس

وإعلانهم الرغبة في الإيمان: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: 134]

[1]

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾

أي حين أنزل الله تعالى بهم الرِّجْز، والرِّجز: مشتقٌّ من (رَجَزَ)، وهي كلمة تدُلُّ عَلَى اضْطِرَابٍ وثِقَل، فيقال: ناقة رَجْزَاءُ: إذا تقارب خطوها واضطرب لضعف فيها، والرَّجَزُ: دَاءٌ يُصِيبُ الْإِبِلَ فِي أَعْجَازِهَا، فَإِذَا ثَارَتِ النَّاقَةُ ارْتَعَشَتْ فَخِذَاهَا.

2 ورد عن سعيد بن جبير رحمه الله بسند -قال عنه ابن حجر رحمه الله: مُرْسَلٌ جَيِّدُ الْإِسْنَادِ-

أن الرِّجز كان آية مستقلة، وهو طاعون ضَرَب آلَ فرعون دون بني إسرائيل، فارتجزت منه أجسامهم وأبدانهم.

3 ولكنني في ريب كبير من هذه الرواية، ويظهر أنها نقلٌ إسرائيلي

وقد ضرب الطاعون بني إسرائيل، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«الطَّاعُونُ رِجْزٌ أَوْ عَذَابٌ أُرْسِلَ عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ، أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ». "مسلم (5825)".

4 توقُّف الطبري رحمه الله

فرأى أنه يحتمل أن يكون طاعونًا، ويحتمل أن يكون وصفًا عامًا لما كان يحدث لآل فرعون عندما تضربهم آية من الآيات الخمس، وذهب الرازي رحمه الله إلى أنه كان وصفًا عامًا للآيات السابقة، وهذا الظاهر. "الطبري (117/2)، الرازي (347/14)".

[5] ﴿قَالُوا يَـٰمُوسَى﴾

يلجؤون لموسى عليه السلام، لأنه يتولى زمام الأمور في إظهار الآيات، ومناداته باسمه دون وصفه يدلُّ على قسوة قلوبهم، وعدم اعترافهم برسالته.

[6] ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾

اعتراف منهم بأن موسى عليه السلام لا يملك من أمره شيئًا، وأن الأمر بيد الله عز وجل الذي أرسله، وقالوا: ﴿رَبَّكَ﴾ ولم يقولوا: ﴿ربنا﴾ لأنهم لم يؤمنوا بعد بأن الله عز وجل ربُّ العالمين، بل هم يؤمنون بتعدُّد الآلهة، ولمعرفتهم بمكانة موسى عليه السلام عند ربه عز وجل.

[7]

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾

لها ثلاثة معانٍ:

معنى [1]

بحقِّ ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوَّة.

معنى [2]

ادْعُهُ بِالَّذي عَهِدَ بِهِ إِلَيْكَ أَنْ تَدْعُوهُ بِهِ، أي: بما عَلَّمَكَ رَبُّكَ من وسائِلِ الإجابَةِ.

معنى [3]

الباء أداة قَسَم وجواب القَسَم، أيْ: أقْسَمْنا بِعَهْدِ اللَّهِ عِنْدَكَ ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾.

[8]

﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾

أي: الآية من الآيات الخمس.

9 وعدوه بأمرين:

[1] ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾

فموسى عليه السلام مرسل لآل فرعون، ولبني إسرائيل، وهذا أعظم ردٍّ على بطلان اليهودية العنصرية.

[2] ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

9 مشهد [9]

تفسير الخلود في النار

حيث راوغ آل فرعون وكذبوا في الوعد بالإيمان على تتابع الآيات ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف:135]

1

يكشف الله عز وجل عنهم الرجز في كلِّ مرَّة بعد أن يَعِدُوا موسى عليه السلام بالإيمان، ولكنهم ينكثون، وكأنهم يقولون ما قاله إسحاق رابين في نكثه للعهود في أيامنا حينما قال: لا توجد مواعيد مقدَّسة.

[2]

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾

أي أن الرِّجز في الآيات الخمس مثَّل عذابًا جزئيًا، فهو السيئة التي مسَّتهم دون أن تدمِّرهم أجمعين، ثم يكشف الله عز وجل عنهم ذلك، وهذه هي الحسنة التي تَعْقُب السيئة، وحدثنا الله عز وجل عنهما في قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾[الأعراف:95].

[3]

﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾

جواب لمَّا، يعنى: فلما كشفناه عنهم فاجأوا بالنكث مباشرة.

4

هذه المراوغة مع كثرة الآيات يكشف لنا لماذا حكم الله تعالى على قومٍ من المجرمين بالخلود في النار، فهم مهما وَعدوا بالإيمان فإنهم يعودون إلى الكفران.

[5] كلمة

﴿يَنكُثُونَ﴾

تصوِّر أنهم ينقضون عهودهم كما ينقض النَّكَّاث الخيوطَ القديمة ليعيد فَتْلَها بصورة جديدة، وكذلك يفعلون، فينكثون ليعيدوا صناعة دينهم بصورة غير التي وَعدوا بها، وهي الكفر، والفعل المضارع في محله العظيم ﴿يَنكُثُونَ﴾ يدلُّ على استمرار نكثهم لكلِّ ما يلتزمون به.

6 سياستهم المظلمة المجرمة تكيل بمكيالين

فتارَةً يُكَذِّبُونَ مُوسى عليه السلام، وعند حلول المصائب يفزعون إليه، ثم يعودون لشهواتهم.

إذا كانت المرحلة الثانية قد تحدَّثت عن العقوبات الجزئية التي حلَّت بفرعون وقومه، وأنها لم تؤثِّر فيهم؛ إذ أصرُّوا على الكفر، فقد تتساءل: ماذا كانت النتيجة بعد ذلك؟

الجواب: هنا تأتي المرحلة الثالثة لتبين النتيجة الحاسمة لهذا الصراع:

مرحلة 3 نتائج الصراع بين دعوة الحق ودعوة الباطل الفرعونية

وتدمير النظام الظالم، وتغيير التاريخ باستخلاف المستضعفين [الأعراف: 136-137]:

آيات المرحلة:

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾

نتيجة [1] قرار إلهي بالانتقام من المجرمين ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الأعراف: 136]

[1] (الفاء) في ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾

فاء الفصيحة تُفصح عن كلامٍ محذوف، ففرَّعت النتيجة على المقدِّمات، والتقدير: منح الله عز وجل آل فرعون فُرُصًا كثيرة، لكنهم أبوا إلا سلوك طريق الاستكبار والإجرام. قال الطبري رحمه الله: "فلما نكثوا عهودهم ﴿انتقمنا منهم﴾".

[2] ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾

يرى الطبري رحمه الله أن معناها: انتصرنا منهم بإحلال نقمتنا بهم، وهذا الانتقام يختلف عن الذي كان يصيبهم من القوارع الجزئية المؤقتة، فهو عبارة عن دمار كامل.

3 الانتقام من نَقِمْتُ الشَّيْءَ نَقْمًا

وهو الإنكار المصحوب بتعييب أفعالهم المجرمة وتعذيبهم عليها.

[4]

﴿مِنْهُمْ﴾

حدَّد الله عز وجل مَنْ أصابهم بنقمته، وهم هؤلاء المجرمون الناكثون.

نتيجة [2]

سقوط الجبابرة المجرمين بإغراق فرعون وجنوده ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [الأعراف: 136]

فتحقَّقت سُنَّة الله عز وجل التي قال عنها موسى عليه السلام:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ [الأعراف: 129]

[1]

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾

الفاء تفسيرية، فقرار الانتقام مجمل كأن سائلًا سأل: كيف حدث الانتقام؟ فبيَّن الله عز وجل تفصيل ذلك بقوله: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾.

[2]

﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾

يصوِّر كيفية الإغراق، ويرى الجوهري والزمخشري -رحمهما الله- أن اليمَّ مشتق من يَمَّمته، أي: قصدته

وخالف د. جبل رحمه الله

فرأى أن القَصْد جاء من (أَمَم) لا من (يَمَمَ)، "تهذيب (2064/5)، الكشاف (148/2)، الاشتقاقي (2015/4)"، ويظهر أنه الماء الذي يجتمع قاصدًا شيئًا محدَّدًا، كما قصد اليمُّ آلَ فرعون، وكالنهر يجري قاصدًا وِجهته.

3 واختار الله تعالى لفظ اليمِّ دون لفظة البحر

لأن الْيَمَّ هُوَ الْبَحْرُ فِي اللُّغَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْمُوَافِقَةِ لِلْعَرَبِيَّةِ فِي الْأُلُوفِ مِنْ مُفْرَدَاتِهَا، كما قال السيد رشيد رضا رحمه الله "المنار (83/9)"، وقيل: هو البحر الأحمر، وقيل: النيل.

4 ولكن الذي يظهر:

أن موسى عليه السلام اتجه نحو خليج السويس المتفرع عن البحر الأحمر

5 والإغْراقُ

الإلْقاءُ في الماءِ الَّذِي يَغْمُرُ مكامن تَنَفُّس المُلْقَى، فيموت لذلك.

فلماذا جاء بعد ذلك: ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾؟

الجواب:

لأن الله تعالى يَذْكر للعالم عدله فيهم، فالباءُ في ﴿بَأَنَّهُم﴾ لِلسَّبَبِيَّةِ، فذكر الله عز وجل سببين كبيرين لهلاك آل فرعون:

سبب [1]

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾

أي كذَّبوا آياتنا، واستعملوها دليلًا ضدَّ نبوة الأنبياء، بدلًا من أن يقولوا الحقَّ بأنها آيات صحيحة.

سبب [2]

﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾

فتكذيبهم، لم يكن بتأويل أو شبهة، بل إصرار على الغفلة عن الآيات، وعناد، ﴿وَكَانُواْ﴾ أيْ: جِبِلَّةً وطَبْعًا ونظام حياة، و ﴿غَـٰفِلِينَ﴾ أثبتت لهم الغفلة؛ لأنها جمع مذكر سالم، فيغلب على استعماله أن يكونوا راسخين في هذه الغفلة.

وقد تسأل: ما معنى الغفلة؟

الجواب:

الغفلة تدلُّ على عدم الاهتمام، وذهاب المبالاة، وانصراف التركيز لقلَّة التَّحفُّظ والتَّيقُّظ كما يقول الراغب رحمه الله، فيترك الشَّيْء سَهْوًا، أو عَمْدًا، وهو مؤاخذ في ذلك كلِّه غالبًا؛ لأنه لم يبال بالمقدِّمات، مثل السَّكْران يَذْهب عَقْله لكنه مؤاخذ؛ فهو الذي جلب السُّكْر لنفسه. وهذا تعريف أدقُّ، وهذا يعني أن الغفلة تعني عدم الاهتمام وفقدان المبالاة وخلو الإنسان من التركيز.

نتيجة [3]

ظهور عهد التمكين الأول للمستضعفين الإسرائيليين بأن استخلفهم الله تعالى:

﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ [الأعراف: 137] **فتحقَّقت سُنَّة الله تعالى التي قال عنها موسى عليه السلام:** ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 129]

[1] كلمة

﴿أَوۡرَثۡنَا﴾

تعني: نقلنا الأمور المادية والمعنوية من السابق إلى اللاحق من غير تعب من اللاحق، ولا إذن من السابق.

لماذا حدث التمكين؟

الجواب:

لظلم الظالمين للمستضعفين ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾، وهذا السبب الأول للتمكين، فمن مقتضيات تداول الأيام أن يصبح المستضعفون وارثين.

[2] كلمة

﴿يُسْتَضْعَفُونَ﴾

تعني: أن فرعون ومؤسساتِه وملأَه كانوا يطلبون ضَعْفَهم، ويؤكِّدونه، ويشدِّدون عليه بقوتهم، ويُذَكِّر الله عز وجل بذلك بني إسرائيل حتى لا يفعلوا بغيرهم ما صنعه فرعون بهم، وفي توراة اليوم في سفر الخروج20: 2 «أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ".

3 بيَّن الله تعالى ما الشيء الذي أورثه للمستضعفين، فقال:

﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾

فروى الطبري رحمه الله عن الحسن رحمه الله:

الشام

الطبري (76/13)

ورأى الزمخشري رحمه الله

أنها أرض مصر والشام

الكشاف (149/2)

ويظهر

أن الأرض المباركة الخاصَّة هي الشام، والعامَّة تمتد بين الشام إلى اليمن وبين الفرات إلى مصر كما في قول ربِّنا عز وجل:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء 81]

[4]

﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾

أي جعلها الله عز وجل بلادًا ذات خير نامٍ متكاثر، فظهرت البركة في أرْضِها، وفي أرْزاقِها، وفي رِجالِها، وفي جَميعِ أحْوالِها.

5 وفي مجلة المنار (16/ 433) يثبت الدُّكْتُور مُحَمَّد تَوْفِيق صِدْقِي رحمه الله أن بني إسرائيل حكموا مصر ردحًا من الزمن.



نتيجة [4]

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: 137]

1 يرى الطبري رحمه الله في تفسيره (77/13)

أن كلمة الله الحسنى هي وعدُ الله من إهلاك عدوِّهم وتمكينهم، و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: مؤنث الأحسن أي: كلمته التي تقتضي الأحسن في الكون، لأنه يتحقَّق بها العدل.

2 وهي قوله تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: 5]

3 وذكر الله عز وجل هنا السبب الثاني من أسباب توريث الأرض، وهو الصبر

﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾، فالصبر الإيجابي مفتاح وراثة الأرض، فمن قابل البلاء بالجزع وَكَله الله عز وجل إليه، فعن الحسن رحمه الله: "عجبت ممن خفَّ كيف خفَّ، وقد سمع قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾" "الكشاف (149/2)"، ومعنى خفَّ: طاش جزعًا وقلَّة صبر.

4 هنا يضع السيد رشيد رضا رحمه الله تعقيبًا مهمًا، فيقول:

"وَإِذْ كَانَ قَدْ تَمَّ وَعْدُ اللهِ تَعَالَى لَهُمْ بِذَلِكَ، ثُمَّ سَلَبَهُمُ اللهُ عز وجل تِلْكَ الْأَرْضَ بِظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِلنَّاسِ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ مُقْتَضَى الْوَعْدِ أَنْ يَعُودُوا إِلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَى؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَمَّ، وَنَفَذَ صِدْقًا وَعَدْلًا"

"تفسير المنار(88/9)".

نتيجة [5]

تدمير حضارة الظالمين: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: 137]

1 دمَّر: من دَمَرَ القَوْمُ يَدْمُرُونَ دَمارًا، إذا هَلَكُوا جَمِيعًا ، فالدَّمَارُ: الهلاكُ المفسد الحياة

وقال رشيد رضا رحمه الله: إِدْخَالُ الْهَلَاكِ عَلَى السَّالِمِ وَالْخَرَابِ عَلَى الْعَامِرِ،

ورأى ابن عاشور رحمه الله أنه التخريب الشديد "تفسير المنار(88/9)، التحرير والتنوير(78/9)".

[2]

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾

يشير الطبري رحمه الله "في تفسيره (78/13)"إلى أن المعنى: وأهلكنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العِمارات والمزارع ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾: يبنون من العمارات والقصور، وكانوا يرفعون العروش من الأبنية المشيدة في السماء.

3 هذا التعبير ﴿وَمَا كَانُواْ﴾

يشير إلى أن الصناعة سرت فيهم سريان الطَّبع، وأن بناء العروش كان جزءًا من حياتهم القوية، ونفسيتهم المُحِبَّة للحركة والعمل والإبداع، فكلمة ﴿كان﴾ هنا تدلُّ على العادة، ويرى البقاعي رحمه الله أن هذا التعبير يدلُّ على ما هو كالجِبِلَّةِ والطَّبْعِ "نظم الدرر (45/8)".

4 أحيا النبي ﷺ ذكرى نجاة موسى عليه السلام وهلاك فرعون بصيام ذلك اليوم شكرًا لله وحمدًا

فعن ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَجَدَهُمْ يَصُومُونَ يَوْمًا -يَعْنِي عَاشُورَاءَ- فَقَالُوا: "هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ، وَهْوَ يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى عليه السلام، وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ، فَصَامَ مُوسَى عليه السلام شُكْرًا لِلَّهِ" فَقَالَ: «أَنَا أَوْلَى بِمُوسَى مِنْهُمْ» فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ.». "البخاري (3397)".

5 هذا الصيام بقيت بعض آثاره عند اليهود ففي توراة اليوم في سفر الخروج12:

42: "هِيَ لَيْلَةٌ تُحْفَظُ لِلرَّبِّ لِإِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. هذِهِ اللَّيْلَةُ هِيَ لِلرَّبِّ. تُحْفَظُ مِنْ جَمِيعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي أَجْيَالِهِمْ.

43 وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَارُونَ: "هذِهِ فَرِيضَةُ الْفِصْحِ: كُلُّ ابْنِ غَرِيبٍ لاَ يَأْكُلُ مِنْهُ".

إذا كان الفصل الثاني من المحور الخامس قد تحدَّث عن عهد المواجهة ونهاية التاريخ الفرعوني، فماذا صنع بنو إسرائيل بعد ذلك؟ هل حقَّقوا شروط الاستخلاف وحافظوا على العهود والمواثيق؟

الجواب: هنا يأتي:

الفصل الثالث

عهد التحرُّر الإسرائيلي: إفسادهم في الأرض بتأسيس الأنقاض الكبرى للميثاق الإلهي [الأعراف: ١٣٨-١٧١]

فكرة هذا العهد وكيف يُظهر القصة الحقيقية للتأسيس لنقض ما أنزل الله عز وجل:

1 يُظهر الله عز وجل لنا في هذا العهد حقيقة التفكير الإسرائيلي العام

بعد أن حقَّق الله تعالى إهلاك عدوِّهم، وجعل لهم الاستخلاف في الأرض، فهذا العهد يبين الأمر الثالث في قول موسى عليه السلام: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129].

2 يدور هذا العهد حول قضية السورة الأساسية، وهي:

اتباع ما أنزل الله، فيكشف لنا القرآن أن أشرار بني إسرائيل لم يتبعوا ما أنزل الله عز وجل، بل نقضوه، وصاروا يؤسِّسون للفساد في الأرض، ويمارسون ما لم يمارسه فرعون من أنواع النقض القبيحة.

3 كلُّ ذلك لبيان الواقع الإسرائيلي الخطير

وليحذر المؤمنون في خططهم المستقبلية في التعامل معهم، ولينتبهوا أن يقعوا فيما وقعوا فيه.

4 هنا يواجه موسى عليه السلام معركة أخرى أضخم وأقسى مع النفس البشرية

التي ألهمها الله تعالى فجورها وتقواها، ومع التواءاتها وانحرافاتها، ورواسب الجاهلية فيها؛ فالمكر الذي سلَّطه إخوة يوسف عليه السلام على أخيهم لم يكن وليد الذُّل، ولا الطاغوتية، فقد كانوا يعيشون في كنف بيت النبوة.

المناسبة وجمال الاتصال بين هذا العهد وما سبقه:

1 بدأ هذا العهد بقول الله تعالى:

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ [الأعراف: 138]، وتصوِّر الواو انتقالًا حكيمًا منطقيًا من عهد تعذيب بني إسرائيل إلى عهد الاستعداد للتمكين، حيث انتهت سيادة فرعون وتبَّرها الله تتبيرًا كما يقول الزمخشري رحمه

2 يرى البقاعي رحمه الله حُسْنَ موقع هذا المحور

بعد قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف:137]؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قِيلَ ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ [الأعراف:137] تَشَوَّفَتِ النَّفْسُ إلى فِعْلِهِمْ حالَ الرَّخاءِ: هَلْ شَكَرُوا؟ فَبَيَّنَ أنَّ كَثِيرًا مِنهم كَفَرُوا تَصْدِيقًا لِقَوْلِه ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖ﴾ [الأعراف:102] وما شاكلَهُ.

"نظم الدرر (69/8)"

وانقسم هذا العهد إلى سبعة أقسام، تمثِّل سبعة أنواع من النقض، وهي:

النقض الأكبر الأول

المطالبة الإسرائيلية بتأسيس الشرك والجهل والباطل في الأرض [الأعراف: ١٣٨-١٤١]

النقض الأكبر الثاني

تأسيس بني إسرائيل دار الفاسقين الذين خرجوا عن الاصطفاء الإلهي لموسى عليه السلام، وأَخْذِ كتابه بقوة: [الأعراف: ١٤٢- ١٤٧]

النقض الأكبر الثالث

النَّقْض العِجْلي: حيث أَسَّس الظالمون دار الفِسق الإسرائيلية، فافتتحوها بعقلية العِجْل الإسرائيلي، وتدور حول الإلحاد الصريح، واستضعاف المصلحين [الأعراف: ١٤٨-١٥٣]

النقض الأكبر الرابع

وهو نقض مستقبلي، ويتعلق بنقض الإيمان بالنبي الخاتم ﷺ [الأعراف:١٥٤-١٥٨]

النقض الأكبر الخامس

"العقلية التَّبْديلية الإسرائيلية": نقض الأخذ بأحسن الكتاب، وذلك بتحريف التبديل [الأعراف:١٥٩-١٦٢]

النقض الأكبر السادس

"العقلية التلاعبية الحُوتية" وتتعلَّق بتحريف التأويل [الأعراف:١٦٣-١٦٧]

النقض الأكبر السابع: "العقلية الجَبَلية الإسرائيليَّة"

نَقْض أخذ الكتاب بقوة بتشريع التلاعب في تطبيقه، وتمني المغفرة عند تجاوز حدوده [الأعراف: ١٦٨-١٧١]

النقض الأكبر الأول

المطالبة الإسرائيلية بتأسيس الشرك والجهل والباطل في الأرض [الأعراف: ١٣٨-١٤١]

لعلك تسأل: ما المشاهد التي تضمَّنها هذا النقض الأول؟

الجواب: تكون هذا النقض من مشهدين:

مشهد [1] التأسيس الإسرائيلي للتفكير الوثني عند من أنزل الله تعالى عليهم آياته

كلمة [1] ﴿وَجَوَزْنَا﴾

مشتقة من (جَوَزَ) وتدلُّ على قَطْع وَسَط الشَّيْءِ إلى آخره، أي: عبرنا بهم، فجعلناهم يقطعون جَوْزَ -أي وَسَطَ- الطريق اليَبَس الذي انشقَّ عنه البحر، وساقَهُ عَلى طَرِيقِ المُفاعَلَة تَعْظِيمًا لَهُ.

كلمة [2] الضمير في ﴿وَجَوَزْنَا﴾

يبصرنا ضمير العظَمة الإلهية ﴿نا﴾ بالقدرة الإلهية، والإنعام الرباني، والقدرة والإنعام يوجبان تمجيد المقتدر، والإيمان بالمنعِم الأعظم جلَّ مجده.

كلمة [3-4] ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾

الباء لمصاحبة المجاوزة، وحدَّد الله تعالى الذين جاوز بهم؛ تذكيرًا لهم بضعفهم، وضخامة الإنعام عليهم.

كلمة [5] ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾

يحتمل عندي أن البحر المقصود هنا بحر القُلزُم، أما اليمُّ المذكور في غرق فرعون فهو النيل، ويحتمل أنهما واحد، وهو أحدهما.

كلمة [6]

﴿فَأَتَوْاْ﴾

الفاء تبصرنا بأن هذا الحدث كان من أوائل الأحداث الكبيرة لهم بعد المجاوزة.

كلمة [7]

﴿أَتَوْاْ﴾

تبصرنا بأن أحداث الحياة محطَّاتٌ اختبارية، فهم جاءوا مجيئًا تأتى لهم فيه أن يُظهِر الله تعالى حقيقة إيمانهم، فمجيئهم كان مخططًا له قَدَرًا ليُختَبَروا، فلم يقل: فمرُّوا، بل أتوا.

كلمة [8]

﴿عَلَىٰ﴾

تبصرنا بأنهم لم يقصدوا ذلك هم، فعدَّى الفعل بـ﴿على﴾ ليبين أنه أراد أنهم مرُّوا دون تخطيط، لكنهم لمَّا رأوهم من بعيد قصدوهم.

كلمة [9]

﴿قَوْمٍ﴾

أي جماعة يقوم بعضهم لبعض في حياتهم وأوضاعهم.

كلمة [10]

﴿يَعْكُفُونَ﴾

تصوِّر مقدار الخشوع والخضوع من ﴿عَكَفَ﴾، وهي أن تُقبِل عَلَى أمرٍ تعظيمًا له إقبالًا قويًّا شاملًا، وتحبس نفسك عليه.

كلمة [11]

﴿عَلَىٰٓ﴾

تصوِّر مقدار انحطاطهم، وهُوِيِّهم خاضعين ساجدين، أو جالسين جلسة العبودية أمام هذه الأصنام.

كلمة [12]

﴿أَصۡنَامٖ﴾

تصوِّر الجهة التي حبسوا أنفسهم تعظيمًا لها، وهي الأصنام: جمع صَنَم، وهو كلُّ جُثَّةٍ مُصوَّرةٍ منصوبة معَظَّمة.

كلمة [13]

﴿لَّهُمۡ﴾

تصوِّر زيادة اللوم عليهم كأنهم بلا عقل، فاللام تفيد أن الأصنام مِلكٌ لهم، فكيف يجعلون شيئًا يملكونه يملكهم؟!

كلمة [14]

﴿قَالُواْ﴾

جواب على سؤال: فماذا فعلوا لما رأوا ذلك؟ هل دعوهم إلى الله عز وجل؟ وواو الجماعة تصوِّر لنا أن هذا الفريق كثيرٌ نَشِطٌ فيهم، فكأن جميعهم قال ذلك، وليس كذلك.

كلمة [15]

﴿يَٰمُوسَى﴾

تصوِّر لنا مقدار جرأتهم في الباطل، وتفكيرهم في صناعته، فهم يطلبون من أعظم القيادات الدينية أن يجعل لهم أبطل الباطل حقًّا، فيصبغون الصبغة الشرعية على باطلهم بفساد وإفساد القيادات الدينية، ونادوه باسمه لا بوصفه على طريقة الفُسَّاق في سوء الأدب مع أنبيائهم عليهم السلام.

كلمة [16-21]

﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾

أي خصِّص شيئًا ليكون لنا إلهًا، أي: مألوهًا نعبده، ويصوِّر لنا ذلك أنهم يصنعون الإله على حسب ما تشتهيه أهواؤهم لا وَفْق الحقِّ.

وتبصرنا كلمات الآية بـ:

بصيرة 1

التقليد العَفِن مصدرٌ من مصادر وضع التشريعات والنظم في الفِكر الإسرائيلي، وسار على ذلك بعض المنحرفين من المسلمين، حيث يتشبَّه الإنسان بالآخرين، ولو كانوا أحطَّ فكرًا وسلوكًا.

بصيرة 2

جحود نعمة الله عز وجل، والعكوف على عبادة المواد المنظورة المجسَّمة جزءٌ من طبيعة كثير من الإسرائيليين.

بصيرة 3

يميل فِكْرُ نَشِطين إسرائيليين إلى الانجذاب نحو الشرك، وتطبيع الحياة معه.

يكشف الطبري رحمه الله أن ابن جُريج رحمه الله

يرى أن تلك الأصنام لها علاقة بعبادة وثنيَّة باقية إلى اليوم، فيقول: ﴿عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾ قال: تماثيلِ بَقَرٍ، فلما كان عِجْلُ السامريِّ شُبِّه لهم أنه من تلك البقر، فذلك كان أوَّلَ شأن

"الطبري (13/80)"

كان قُدَمَاءَ الْمِصْرِيِّينَ يَعْبُدُونَ عِجْلًا اسْمُهُ (أَبِيسُ)، ويحنِّطونه، ويصنعون تماثيل على هيئته، وبين قَرْنَيْهِ يجعلون رمزًا لقرص الشمس، ويُزَيَّنُ بالأَصَلة (الحَيَّة)، أو الكُوبرا (أفعى سامَّة).

بصيرة 4

يبصِّرنا الطلب الإسرائيلي ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ بأنهم لم يتابعوا موسى عليه السلام إيمانًا، بل طلبًا للهرب من فرعون، فبدَّلوا وصية أبيهم يعقوب عليه السلام حينما قال لهم: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: 132]

بصيرة 5

وصفُ القرآنِ العظيم يهيمن على وصفِ التوراة الحالية التي ذكرت في سفر الخروج 14 أن بني إسرائيل آمنوا بعد هلاك فرعون، وهذا من التناقض، فقد زعموا أنهم آمنوا أول ما جاء موسى عليه السلام.

ونجد في التوراة توحيدًا عظيمًا من القلة المؤمنة ففي الخروج 15:

1 حِينَئِذٍ رَنَّمَ مُوسَى وَبَنُو إِسْرَائِيلَ هذِهِ التَّسْبِيحَةَ لِلرَّبِّ وَقَالُوا: «أُرَنِّمُ لِلرَّبِّ فَإِنَّهُ قَدْ تَعَظَّمَ. الْفَرَسَ وَرَاكِبَهُ طَرَحَهُمَا فِي الْبَحْرِ.

2 الرَّبُّ قُوَّتِي وَنَشِيدِي، وَقَدْ صَارَ خَلاَصِي. هذَا إِلهِي فَأُمَجِّدُهُ، إِلهُ أَبِي فَأُرَفِّعُهُ.

مشهد [2] 2

ردودُ موسى عليه السلام على هذا النقض الإسرائيلي

وكشفُه حقيقة النشاط الإسرائيلي ونزعته الوثنية:

آيات المشهد:

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١﴾ [الأعراف: 138-141]

رد [1]

ذكَّرَهُمْ بطبيعتهم الجاهلة بقوة وغلظة تكافئ نفسيتهم المعتدية التي تحتاج لمجاهدة قوية: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: 138]

كلمة [1] ﴿قَالَ﴾

يجب الردُّ على الجهالات العامَّة، فلم يسكت موسى عليه السلام، بل أجابَهم بقوةٍ ليس فيها لين، ولا مداهنة.

كلمة [2] ﴿إِنَّكُمْ﴾

يؤكِّد لهم أنْ يعترفوا بحقيقتهم الرديئة.

كلمة [3] ﴿قَوْمٌ﴾

أيْ: ذَوُو قِيامٍ في شَهَواتِ النُّفُوسِ كما يقول البقاعي رحمه الله، وتبصِّرنا الكلمة بقيام بعضهم لبعض في نصرة الجهل والشهوة الحرام.

كلمة [4] ﴿تَجْهَلُونَ﴾

الفعل المضارع يبصِّرنا بأن الجهل طبيعة فيهم، لا يَنْتَقِلُونَ عَنْهُ في ماضٍ ولا مُسْتَقْبَلٍ.

و(جَهِلَ) يأتي بمعنيين:

1. أَحَدُهُمَا: خِلَافُ الْعِلْمِ.
2. وَالْآخَرُ: خلاف الرُّشد والحِلم، ويعني الخفةَ والطيش.

> منعت الشريعة من اتخاذ تماثيل؛ لأَنَّهَا -كما يقول السيد رشيد رضا رحمه الله- إِمَّا شِرْكٌ، وهذا أعظم الذنوب، وإِمَّا ذَرِيعَةٌ إِلَى الشرك، وإِمَّا تَشَبُّهٌ بِأَهْلِ الشرك. "(تفسير المنار 93/9)"

رد [2]

بَيَّنَ لَهُمْ فَسَادَ مَا طَلَبُوهُ في الدنيا، فالوثنية والشرك تتبيرٌ للحياة: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: 139] أي تسبِّب الْخُسْران والهَلاك

كلمة [1]

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾

يؤكِّد موسى عليه السلام كلامه، ويشير إلى الوثنيين بصورة مباشرة.

كلمة [2]

﴿مُتَبَّرٌ﴾

من (تَبَرَ): كلمة تدلُّ على الكسر والْهَلَاك والإهلاك، فيقال: تَبَرَهُ وتَبَّرَهُ تتبيرًا: كسَّره وأهلكه ودمَّره، حتى أحاله إلى قِطَعٍ لا قيمة لها.

كلمة [3-5]

﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾

أي الذي هم فيه متبَّرٌ، وقدَّم الخبر ﴿مُتَبَّرٌ﴾ لإيحاشهم من النهاية التعيسة لحياة أولئك

رد [3]

بيَّن لهم فساد ما طلبوه في الآخرة، فهم يَتعبون في عبادتهم، وهي لا تفيدُهم نَفْعًا في الدُّنْيا والآخرة: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 139] فعطف الاسم في قوله ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ على الاسم في قوله: ﴿مُتَبَّرٌ﴾.

لماذا وصف الله تعالى عملهم بأنه باطل مع أنه سبق أنْ قال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ ؟

الجواب:

يجيب البقاعي رحمه الله بأن الشَّيْء قَدْ يُهْلَكُ في الدُّنْيا، وهو حَقٌّ، فأضاف لهم أن عملهم باطل في الآخرة. (نظم الدرر 71/8)

كلمة

﴿وَبَٰطِلٌ﴾

من ﴿بَطَلَ﴾، تعني أن يمكث الشيء قليلاً ثم يذهب، وينتهي كأن لم يكن، ويلمس الطبري المعنى، فيقول: "﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ من عبادتهم إياها، فمضمحلٌّ، لأنه غير نافعهم، ولا مدافع عنهم، ولا منقذهم من عذابه". (الطبري 13/83)

رد [4]

انتقل من أسلوب الزجر الغاضب المُنْكِر، إلى التذكير المنبِّه المشفق، فأوضح لهم المطلوب منهم، وهو الثبات على العبادة الصحيحة، وبيَّن لهم فظاعة أن يستبدل الإنسان بالإله الحق إلهًا باطلًا: ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا﴾ [الأعراف: 140]

بيَّن ابن عاشور رحمه الله

أن هذا مِنَ الِارْتِقاءِ في الِاسْتِدْلالِ عَلى طَرِيقَةِ التَّسْلِيمِ الجَدَلِيِّ، أيْ: لَوْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ الآلِهَةُ باطِلًا لَكانَ في اشْتِغالِكم بِعِبادَتِها والإعْراضِ عَنِ الإلَهِ الَّذِي أنْعَمَ عَلَيْكم كُفْرانٌ لِلنِّعْمَةِ ونِداءٌ عَلى الحَماقَةِ. (التحرير والتنوير 9/83)

كلمة [1]

﴿قَالَ﴾

أعادها ليصوِّر لنا شِدَّة حرصه عليه السلام على نصحهم، وقلقه من تفكيرهم.

كلمة [2]

﴿أَغَيۡرَ﴾

هذه الكلمة أَعَمُّ الْأَلْفَاظِ التي تدل عَلَى المخالف للمذكور سابقًا، فتشْمَلُ أَخَسَّ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَعْجَزَهَا عَنِ النَّفْعِ وَالضُّرِّ كَالْأَصْنَامِ، وَيَشْمَلُ أَفْضَلَهَا وَأَكْمَلَهَا كَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، لِيُثْبِتَ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ مَخْلُوقٌ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ مَعَ اللهِ تَعَالَى، وَإِنْ عَلَا قَدْرُهُ، وَعَظُمَ أَمْرُهُ كما يقول رشيد رضا رحمه الله. (المنار 9/100)

كلمة [3]

﴿ٱللَّهِ﴾

لفظ الجلالة المعظَّم، وذِكْرُه هنا يثبت أن موسى عليه السلام كان يذكره دون ترجمة، فهذا الاسم العَلَم، وتتساءل: أين هو في الميراث اليهودي الآن؟

كلمة [4-5]

﴿أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا﴾

مشتقة من بغى يبغي إذا طلب الشيء طلبًا تجاوز المعتاد

والبَغْيُ والابتغاء عند الراغب رحمه الله على ضربين:

1 أحدهما محمود

وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التطوع.

2 والثاني مذموم

وهو تجاوز الحقِّ إلى الباطل.

فقوله:

﴿أَبۡغِيكُمۡ﴾

أي: أطلب لكم بشِدَّة وهِمَّة لأكبر الباطل.

الهمزة في قوله:

﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا﴾

للسؤال الإنكاري الشديد المصحوب بالتعجُب، فينكر أن يتصوَّروا أنَّ الإلَهَ شيء يُصنع ويُتَّخَذُ، فالإلَهُ هو الذي وهب الحياة.

في التوراة الحالية وصية متكرِّرة تمنع بني إسرائيل من الشرك، ففي الخروج 20:

2 أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ.

3 لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي.

4 لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا، وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ.

رد [5]

التحذير من نسبة الافتراء للأنبياء عليهم السلام، حيث قال: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ [الأعراف: 140]

فقال: ﴿أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ ولم يقل: (تبغون إلهًا)؛

لينبههم إلى أن وظيفته التحذير من الشرك فكيف يطلبون تغيير رسالته؟ فحدَّثهم عن الله عز وجل من أول رسالته، فماذا كانت رسالته إلا التعريف بالله عز وجل من الأساس؟

رد [6]

التذكير بتوجيه الشكر للمنعم الأحد: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 140]

1

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾	﴿وَهُوَفَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾
تبصِّرنا أن الله عز وجل يُعبَد لأنه الله عز وجل.	تبصِّرنا أن الله عز وجل يجب أن يُعبَد لإنعامه.

2 قَدَّمَ موسى عليه السلام ذِكْرَ الْأَهَمِّ الْمَقْصُودِ بِالذَّاتِ

فَقَالَ: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾، ثم قدَّمَ الواجب عليه فكيف يبغيهم إلهًا غير الله عز وجل؟ ثم ذكَّرهم بشكر النعمة التي لا يمكن أن يجدوا مثلها نعمة.

3 لم يقل: وأنتم مفضلون على العالمين

للتنبيه أن الله تعالى خصَّهم بالتفضيل، لا الأصنام التي يريدون أن يجعلوا لهم منها إلهًا، ولا لمزية عندهم تجبره على هذا التفضيل.

4 التفضيل هنا حسب السياق واضح

فالمراد: فضَّلهم الله عَلى عالَمِي زَمانِهِمْ، وليس المراد أن جنسهم مفضلٌ لذاته، فموسى عليه السلام قال الله عز وجل له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: 144]، **فإن لم يستقم -وحاشاه- كانت الحجة عليه أكبر.**

رد [7]

تأليه الحافظ الأعظم الذي نجَّاهم من أعظم الأخطار، فضرب لهم موسى عليه السلام مثلًا بالتذكير بأعظم النعم التي فضَّلهم الله عز وجل بها على العالمين: ﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ [الأعراف: 141]

كلمة [1]
الواو العاطفة في ﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم﴾

تصوِّر اتصالها بما قبلها، والتقدير: فضَّلكم على العالمين، ومن تفضيله لكم اذكروا إذ أنجاكم من آل فرعون.

كلمة [2]
﴿إِذۡ﴾

تكرَّر ذكر هذه النعمة العظيمة في ثلاث سور: البقرة، والأعراف، وإبراهيم عليه السلام لثلاثة أمور لافتة:

1 وُجِدَ هذا التَّكرار في كتابهم المقدس كما في سفر الخروج 13: 3، وفي سفر اللاويين (26: 45)، وغيرها في مواضع متعددة مثل قوله في سفر (التثنية 5: 15) "وَاذْكُرْ أَنَّكَ كُنْتَ عَبْدًا فِي أَرْضِ مِصْرَ، فَأَخْرَجَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ مِنْ هُنَاكَ بِيَدٍ شَدِيدَةٍ".

2 كلُّ آية تصوِّر شيئًا زائدًا في النعمة، وزائدًا في البلاء لا يوجد في الآية الأخرى.

3 إقامة حجة الله عز وجل عليهم وعلى العالم، فقد قال: ﴿وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾.

كلمة [3]

﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾

الإنجاء: التخليص بصورة فيها إظهار الارتفاع، وفي هذه الكلمة قراءتان توضِّحان منظرين بإيجازٍ معجز:

قراءة ابْن عَامِرٍ

﴿أنجاكم﴾

حيث خاطبهم مُوسَى عليه السلام بصورة مباشرة.

قراءة الْبَاقِينَ

﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾

الذي خاطبهم هو اللهُ عز وجل ليتمِّم كلام مُوسَى عليه السلام عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ عَنِ الْحِكَايَةِ عَنْهُ، والمخاطبون يشملون الماضين منهم وكلَّ من جاء بعدهم، فابتغى غير ما أنزل الله عز وجل.

كلمة [4-6]

﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾

حدَّد الله عز وجل الجهة التي أنجاهم منها، وهي فرعون، ومن معه من أقربائه، وملئه، وجنوده، ومؤسَّساته.

ثم ذكَّرهم بالجرائم الثلاث الكبرى التي تسلَّط بها آل فرعون عليهم:

جريمة [1] ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾

كلمة [7] ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾

أي يقصدون تعذيبكم حتى أصبح التعذيب سِيْمَا لحياتهم، أي: علامة يتلذَّذون به، ويعتادونه، كما يسوم الناسُ الإبل بإيرادها إلى المياه لتشرب، وعندما قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يمكن أن يكون السَّوم بالخير، فجاءت:

كلمة [8-9] ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾

يوضِّحان أنه أسوأ سَوم، فالسُّوء: القبح الشنيع، والعذاب ما يسلب عُذُوبة الحياة، أي: يذيقونكم أفظع العذاب حال كونهم متلذِّذين بذلك، ويشمل ذلك كلَّ أنواع الإهانات، والاضطهاد الحِسيِّ والمعنويِّ.

جريمة [2] في الكلمتين [10 - 11] ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾

خصَّص موسى عليه السلام بالذِّكر مثالًا صارخًا من سوء العذاب على طريقة بدل بعضٍ من كلٍّ، وهو قتل الأبناء

ما الفرق بين ما صوَّرته سُوَر البقرة، والأعراف، وإبراهيم عليه السلام في ذكر هذه الجرائم؟

الجواب:

1 في سورة البقرة

قال: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [البقرة: 49]، فالذي خاطبهم هناك هو النبي ﷺ، وناسب أن تأتي كلمة ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ التي تصوِّر الذبح المباشر للعدد الكثير منهم، لتناسب كلمة ﴿نَجَّيْنَٰكُم﴾، التي تدلُّ على كثرة مواضع النجاة.

2 في سورة الأعراف

رسم صورة أخرى، فقال: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأعراف: 141]، والمخاطِب هو الله عز وجل، والتذكير على لسان موسى عليه السلام، وذكر صورة أخرى غير التذبيح هي صورة القتل والتقتيل سواء عن طريق التذبيح أم عن طرق أخرى أشنع وأبشع وأشدَّ، وترسم لنا سورة الأعراف صورة آل فرعون وهم يتفنَّنون في الإجرام ﴿يُقَتِّلُونَ﴾.

3 في سورة إبراهيم

التذكير على لسان موسى عليه السلام ، حيث قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [إبراهيم: 6] فزاد الواو قبل ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ ليظهر أن التذبيح شيء آخر غير سَومهم سوء العذاب.

جريمة [3] في الكلمتين [12 - 13]

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ﴾

أي يُبْقُون النساء على قيد الحياة، فهل ذلك جريمة؟

الجواب:

1. الجانب المظلم في هذا الخبر إبقاء الإناث على قيد الحياة حتى يكبرن ليصبحن نساء، فيستخدمونهن في أنواع من الإجرام التي يتعرض لها النساء من قِبَل تجار الرقيق الأبيض.

2. آل فرعون يقتلون الأبناء الصغار فِعلًا أمام ذويهم، وفي ذلك أعظم المعاناة، ويقتلون الأبناء الكبار عندما يريدون، مقابل استحياء النساء، فلم يقل الإناث؛ لأن آل فرعون يحرصون على بقائهن ليكن نساء بالغات يقمن بالأعمال الشاقة والمحرَّمة.

كلمة [14-20]

﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

البلاء يطلق على النعمة، وعلى النقمة، وكلاهما اختبار في هذه الحياة، أي: في سومهم إيَّاكم سوء العذاب، وتذبيح أبنائكم وإبقاء نسائكم على قيد الحياة ليختبركم هل تثبتون على دين الله عز وجل، وفي إنجائكم من ذلك كلِّه نعمة عظيمة ليختبركم هل تشكرون؟

النقض الأكبر الثاني

تأسيس بني إسرائيل دار الفاسقين الذين خرجوا عن الاصطفاء الإلهي لموسى عليه السلام، وأَخْذِ كتابه بقوة: [الأعراف: ١٣٨-١٤١]

المناسبة والاتصال وفكرة القسم:

1 ينقلنا الله عز وجل من النقض الأول الذي أظهره بنو إسرائيل

بمجرد نجاتهم من البطش الفرعوني حين أرادوا تأسيس الشرك في الأرض على يد نبيهم إلى الاصطفاء الإلهي الخاص لموسى عليه السلام في الميقات الذي حدَّده ربه عز وجل، وهناك تضيء الحياة كلُّها، ويَحْبُوه الله عز وجل ويحبونا بالمجد الذي يكتنزه الكتاب الذي كتبه له.

2 يربط الله عز وجل بين هذه اللحظات الحاسمة في تاريخ البشرية

وبين الفسق الكبير الذي سيسلكه بعض النَّشطين الإسرائيليين، وهم يؤسِّسون لدار الفسق التي تحارب الرُّشد وتتَّبِعُ سبيل الغي.

ربما تسأل: ما المشاهد التي تضمَّنها هذا النقض الثاني؟

الجواب: تضمَّن هذا النقض 4 مشاهد:

مشهد [1] 1 ترتيب الميقات الإلهي لموسى عليه السلام [الأعراف 142]

آية المشهد:

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ [الأعراف: 142]

1 كلمة [1] ﴿وَوَاعَدْنَا﴾

1

تبصرنا بأن الله عز وجل نظَّم حياة الأنبياء عليهم السلام كما دبَّر سائر أنواع الحياة، وكلمة (وَعَدَ) تدل على الخير في الأصل، فيقال: أَرْضُ بَنِي فُلَانٍ وَاعِدَةٌ، إِذَا رُجِيَ خَيْرُهَا.

[2] كلمة ﴿وَعَدَ﴾

تبصرنا بأن الله عز وجل ألزم موسى عليه السلام أن يأتي إلى مكانٍ محدَّدٍ في زمنٍ معين مستقبلًا ليتشرَّف بتكليم ربِّه عز وجل.

[3] وفي ﴿وَاعَدْنَا﴾

قراءتان:

قراءة أَبي عَمْرٍو وأبي جعفر وَيَعْقُوب ﴿وَعَدْنَا﴾

لأن الله عز وجل هو الذي حدَّد الميقات لموسى عليه السلام.

قراءة الْبَاقِينَ ﴿وَاعَدْنَا﴾

مِنَ الْمُوَاعَدَةِ، والْمُفَاعَلَة، تصوِّر أن الوعد كان من الله عز وجل، وكان موسى عليه السلام شديد الالتزام به، كأنه أنشأه أول مرة، ولذلك عَجِل إلى ربِّه عز وجل.

[4] ضمير ﴿نَا﴾

الدالُّ على التعظيم للتشريف الإلهي للكليم عليه السلام.

2 كلمة [2] ﴿مُوسَىٰ﴾

1

حدَّد الله عز وجل بهذا اسمَ العبد الصالح الذي اصطفاه الله عز وجل بهذا الموعد.

3 كلمة [3-4] ﴿ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾

1

العدد والزمان يصوِّران دِقَّة تنظيم الموعد، واللَّيْلَة تَشْمَلُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فِي عُرْفِ الْعَرَبِ، وذَكَر الليالي دون الأيام؛ لأن الأيام تتبع الليالي، ولأن ناشئة الليل أشدُّ وطأً وأقوم قيلًا.

4 كلمة [5-6] ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾

1 الإتمام جعلُ الشيء تامًا، وتمام الشيء عند الراغب رحمه الله: انتهاؤه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارجٍ عنه، ويقابله الناقص. (المفردات ص168)

2 يظهر لي أن الفرق بين الكمال والتمام: أن التمام بلوغ أصل الشيء ما يحتاجه، لكنه يقبل الزيادة، وأما الكمال، فلا يقبل الزيادة.

3 فزاد الله عز وجل عبده موسى عليه السلام عشرًا تفضُّلًا منه

وروى الطبري رحمه الله عن مجاهد ومسروق رحمهما الله -ونُسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما- أنهم قالوا:

"ذو القعدة، وعشر ذي الحجة." (ابن أبي حاتم 5/ 1557)

5 كلمة [7-11]

﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾

﴿مِيقَٰتُ﴾: مشتق من (وَقَتَ)، وتعني الوعد الذي جُعِل له وَقْتٌ، ومكانٌ محدَّدان.

ما الحكمة في ذِكْرِ الثَّلَاثِينَ ثُمَّ إِتْمَامِهَا بِعَشْرٍ؟

الجواب:

لأن الوعد كان مقتصرًا على ثلاثين ليلة، ثم زادها الله عز وجل عشرًا تشريفًا لموسى عليه السلام، وابتلاءً لقومه ليظهر له وللعالم طبيعتهم أثناء غياب أعظم رسلهم، وذكر الزمخشري والرازي رحمهما الله قِصصًا وأسبابًا لا تصحُّ.

ما الفائدة من قوله: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ مع أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّ الثَّلَاثِينَ مَعَ الْعَشْرِ يَكُونُ أَرْبَعِينَ؟

الجواب: قال الرازي رحمه الله:

لِيَزِيلَ تَوَهُّمَ أَنَّ ذَلِكَ الْعَشْرَ مِنَ الثَّلَاثِينَ، لِأَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ مِنَ الثَّلَاثِينَ كَأَنَّهُ كَانَ عِشْرِينَ، ثُمَّ أَتَمَّهُ بِعَشْرٍ، فَصَارَ ثَلَاثِينَ فَأَزَالَ هَذَا الْإِيهَامَ. (تفسير الرازي 14/352)

مشهد 2 [2]

استخلاف هارون عليه السلام لإدارة بني إسرائيل في غياب موسى عليه السلام {الأعراف: 142}:

آية المشهد:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: 142]

أجرى موسى عليه السلام عددًا من الترتيبات الإدارية للمحافظة على حياتهم واستقامتهم في غيابه

وتمثلت في القوانين الآتية:

قانون [1] هارون يكون خليفة أخيه موسى عليهما السلام، فهو صاحب الكلمة الأولى بينهم:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ [الأعراف:142]،

1 كلمة [1] ﴿وَقَالَ﴾

1. الواو تظهر اتصال ما بعدها من الترتيبات على ما قبلها، التي حدَّدت غياب موسى عليه السلام.
2. ﴿وَقَالَ﴾ يقتضي ضرورة وجود قول شفويٍّ أو ما يقوم مقامه ككتاب.

2 كلمة [2] ﴿مُوسَىٰ﴾

تحدِّد القائم الأول بالأمر، وتبصِّرنا بمدى إدراك موسى عليه السلام لخطر غيابه، وأهمية الإجراءات التي تترتَّب على ذلك.

3 كلمة [3-4] ﴿لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾

تحدِّدان النائب المستخلَف في إدارة بني إسرائيل على وجهٍ لا يقبل التأويل، وتبصِّرنا بأن التعيين يكون بأمرٍ مُوَجَّه من القائد إلى من يستخلفه على وجهٍ يعرفه الناس.

4 كلمة [5] ﴿ٱخۡلُفۡنِي﴾

1. مشتقة من خَلَفَ ضدُّ تقدَّم وسَلَفَ.

2. قال الراغب رحمه الله: "وخَلَفَ فلانٌ فلانًا: قام بالأمر عنه، إمَّا معه وإمَّا بعده"، والخِلافةُ: النّيابة عن الغير إمَّا لغَيبة المنوب عنه، وإمَّا لموته، وإمَّا لعجزه، وإمَّا لاختبار المستخلَف. (المفردات ص294)

5 كلمة [6] ﴿فِي قَوۡمِي﴾

أي كن خليفتي النائب عني في إدارة قومي وتطبيق منهج الله عز وجل فيهم، وكلمة ﴿قَوۡمِي﴾ حدَّد مجال سلطة هارون عليه السلام، بكلمة تدلُّ على محبة موسى عليه السلام لقومه

قانون [2] يتَّبع هارون سبيل الإصلاح في قومه ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾

1. يُقَالُ: صَلُحَ بِفَتْحِ اللَّامِ وضمها من قولهم: أَصْلَحَ إِلى دابَّته: أَحْسَنَ إِليها وتَعَهَّدَها، وتدلُّ على استقامة الشيء على أصلِ أمرِه الحَسَن، وإزالة ما كان فيه من فسادٍ أو اعوجاج.

2. لم يحدِّد أين يكون الإصلاح، ولا كيف، لتمتدَّ يد هارون عليه السلام للقيام بالإصلاح في كلِّ ما يمكنه، فيصلح في إقامة المنهج الإلهي، وفي تيسير المعايش الدنيوية، مع الأفراد، والمجموعات، ففتح له الباب واسعًا ليُظهِر مهاراتِه في القيام بكلِّ أنواع الإصلاح الممكنة.

قانون [3]

عدم السير أو الخضوع لمجموعة الضغط المفسدة، فيحرم على هارون عليه السلام أن يتَّبع سبيل المفسدين: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

1 هذا النهي محقِّق للأهداف بأبلغ أسلوب

فهو جامع لكلِّ ما تحتاج الدول والحكماء والعلماء والإداريون أن يقولوه ليطمئنوا إلى عدم تسرُّبِ أدنى خلل.

2 كلمة [1-2] ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾

لا تَسِرْ خَلَفَ من يسبقك برأيه أو بفعله إذا كان مفسدًا.

3 كلمة [3] ﴿سَبِيلَ﴾

هو الطَّريق المسبَّل الممتدُّ طولًا الذي فيه سهولة ووضوح، أي ولا تَسِرْ وراء الطريق الواضح الذي انتهجه المفسدون، فموسى عليه السلام يعلِّم أخاه أن يتقي الطريق التي اتَّضح أنها نهج المفسدين، ويحذر من تلبيس المفسد عليه، وأمَّا ما لم يتضح، فيتروَّى فيه، وينظر.

4 كلمة [4] ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

جمع مفسد، وهو الذي أخرج الخلْق عن الحالة المستقيمة المعتدلة، قليلًا كان الخروج عنه أو كثيرًا، حتى يصير أمرهم إلى البطلان والاضمحلال، ويشمل الإفسادُ العبثَ بالموارد والأجهزة، وإثارة الحروب والفتن، وإفساد البيئة، والمنافع الدينية والدنيوية.

5 هذه الوصية الجامعة تضمُّ معاني منها:

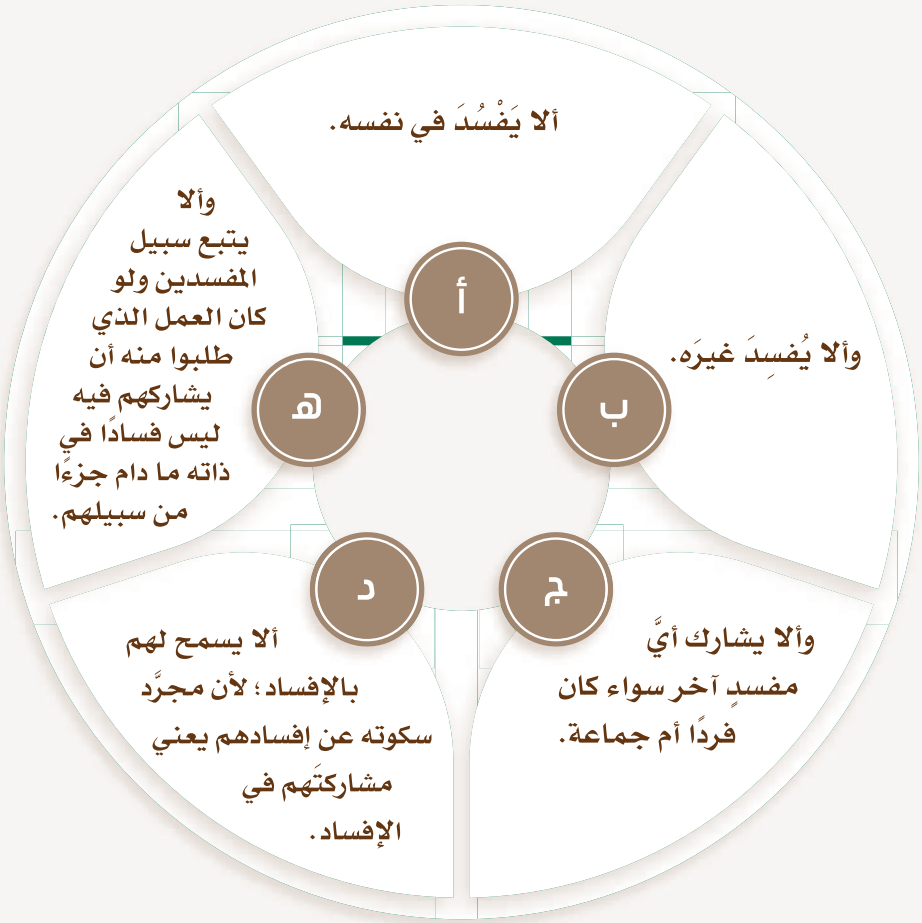

6 الوصية تشير أن ملامح قوة مفسدي بني إسرائيل تتزايد

فبعضهم ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف: 138]، **قال البقاعي رحمه الله:**

"فاختلفوا عن الطريق كما تفرس فيهم موسى عليه السلام". (نظم الدرر 8/ 76)

7 يرى ابن عاشور رحمه الله أن وصية موسى عليه السلام قد جمعت مِلَاكَ السِّيَاسَةِ

فَإِنَّ سِيَاسَةَ الْأُمَّةِ تَدُورُ حَوْلَ مِحْوَرِ الْإِصْلَاحِ، بِأَنْ تَكُونَ الْأَعْمَالُ عَائِدَةً بِالْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ لِفَاعِلِهَا وَلِغَيْرِهِ. (التحرير والتنوير 9/ 87)

مشهد [3] 3

أحداث الميقات الإلهي التي أظهرت فضائلَ موسى عليه السلام

وشوقَ المحبة الأعظم: [الأعراف: 143-144]

آيات المشهد:

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف 143-144]

بصرَّتنا الآيتان بأمرين عظيمين:

الأول: أحداث الميقات، وهي:

1. كلام موسى مع ربِّه سبحانه وتعالى.
2. شوق موسى عليه السلام لرؤية الله عز وجل بعد تكلُّمه معه.
3. مَنْحُ موسى عليه السلام الألواح التي كتب الله عز وجل فيها تفصيل كلِّ شيء.

الثاني: فضائل موسى عليه السلام

وقد ذكرت آيات هذا المشهد (12) فضيلة لموسى عليه السلام، هي:

فضيلة [1]

استجابة موسى عليه السلام لربِّه عز وجل في الميقات المحدَّد:

1 كلمة [1] ﴿وَلَمَّا﴾

الواو عاطفة تصل الحدث الجديد بالحدث السابق.

2 كلمة [2] ﴿لَمَّا﴾

تربط جملتين:

الأولى:

كلام الله عز وجل لموسى عليه السلام

الثانية:

موسى عليه السلام يستثمر فرصة كلام الله عز وجل له، فيطلب أن يراه.

3 كلمة [3-4] ﴿جَآءَ مُوسَىٰ﴾

تصوِّران حركة موسى عليه السلام من مكان لآخر استجابة لربِّه عز وجل.

4 كلمة [5] ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾

تصوِّر تعظيم الميعاد الإلهي، فاقترن بـ(نَا) الدالَّة على التعظيم، أي: للزمان والمكان المحدَّدين، واللام تصوِّر التزام موسى عليه السلام بالميقات مكانًا وزمانًا، وأن تعجُّلَهُ المذكور في سورة طه كان عن

فضيلة [2]

تشرَّف موسى عليه السلام بأن كلمه ربُّه عز وجل:

﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾

الواو تصوِّر الحدث الذي وقع بعد مجيء موسى عليه السلام حيث كلَّمه ربُّه المربي له المعتني به، فهذا الوصف ﴿رَبُّهُۥ﴾ يصوِّر تحبُّبَ الله عز وجل له، ولا داعي للزيادة على ذلك، فقد كلَّمه ربُّه عز وجل بكيفية تليق بجلاله، والله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورَى: 11].

فضيلة [3]

إظهار موسى عليه السلام الشوقَ الأعظم للربِّ الأكرم: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾:

1 لما وجد موسى عليه السلام لذَّة مناجاة الله عز وجل

وشعر بقوة أنسها طَمَحَت نفسُه للمرتبة الأعلى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾:

«وما المرءُ إلا حيثُ يجعلُ نَفْسَهُ ... فَكُنْ طَالِبًا في النَّاسِ أَعلى المَرَاتِبِ»

[2]

كلمة ﴿أَرِنِىٓ﴾

تعني امنحني قوَّة الرؤية التي بها تجعلني أستطيع النظر إليك، أو كما قال الزمخشري رحمه الله: "اجعلني متمكِّنًا من رؤيتك بأن تتجلَّى لي فأنظر إليك وأراك". (الكشاف2/ 153)

[3]

﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾

تصوِّر الشوق الذي اجتاح موسى عليه السلام فسأل الأمر الأعظم الأجلى، يحدوه الطموح الأعلى، والشرف الأبقى.

[4]

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾

تصوِّر الحكم الجازم في رؤية الله عز وجل في الدنيا، فلا يمكن للإنسان أن يرى ربَّه عز وجل في الدنيا.

5 ويقرر ابن هشام رحمه الله أن ﴿لَنْ﴾ لَا تفيد توكيد النَّفْي، ولا تأبيده

فلو كانت للتأبيد لم يُقيد منفيها بِالْيَوْمِ في قوله: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: 26]، ولكان ذكر الْأَبَد في قوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: 95] تَكْرَارًا، ونقل الرازي، وعلى إثره البقاعي رحمهما الله أن كلام الله عز وجل هنا يشهد بوضوحٍ على أنه يُرى جلَّ مجده، فلو كان تَعَالَى مُسْتَحِيلَ الرُّؤْيَةِ لَقَالَ: (لَا أُرَى)، أو (لن أُرى). (الرازي 14/355، نظم الدرر 8/78)

6 فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ رحمه الله

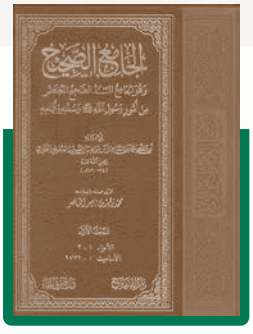

أَحَدَ عَشَرَ حَدِيثًا فِي إثبات رؤية الله عز وجل في الآخرة، وَجَمَعَ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله فِي (حَادِي الْأَرْوَاحِ) مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ فَكَانَ ثَلَاثِينَ حَدِيثًا، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رحمه الله: "وَأَكْثَرُهَا جِيَادٌ". (فتح الباري 13/434)

7 قال رشيد رضا رحمه الله:

"خُلَاصَةُ الْخُلَاصَةِ أَنَّ رُؤْيَةَ الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ عز وجل فِي الْآخِرَةِ حَقٌّ، وَأَنَّهَا أَعْلَى وَأَكْمَلُ النَّعِيمِ الرُّوحَانِيِّ الَّذِي يَرْتَقِي إِلَيْهِ الْبَشَرُ فِي دَارِ الْكَرَامَةِ وَالرِّضْوَانِ... وَهِيَ "رُؤْيَةٌ بِلَا كَيْفٍ".

(المنار 9/154).

فضيلة [4]

مواساة موسى عليه السلام عند عدم إجابة طلبه، حيث قال الله عز وجل: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ﴾

[1] ﴿وَلَٰكِنِ﴾

يصوِّر حرف الاستدراك الرحمة الإلهية العظيمة بموسى عليه السلام، فيبصِّرنا أن الله عز وجل لما مَنع موسى من رؤيته سبحانه وتعالى لم يكن لعدم أهلية دينية، بل لنقصٍ في قدرته وتحمُّلِه في الدنيا.

[2] ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾

حتى ينظر إلى الجبل كاملًا ينبغي أن يكون بعيدًا عنه شيئًا ما.

[3] ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾

أي فإن ثبت الجبل قارًا مكانه فسوف تراني، فأمره أن يقارن قدرة تحمُّلِه مع قدرة تحمُّلِ جبل عظيم، فإذا لم تتحمَّل قُوَّة الْجَبَلِ فمن باب أولى ألا تتحمَّل قوة موسى عليه السلام.

4 فالتجلي للجبل:

تقريبٌ إيضاحيٌّ ليدرك موسى عليه السلام عدم إمكانية الرؤية في الدنيا.

فضيلة [5]

إظهار مزية موسى عليه السلام عن قومه في سؤال الرؤية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ [الأعراف: 143].

فالصعقة التي أصابته كانت أثرًا من آثار لطف الله عز وجل به عندما تجلى الله عز وجل للجبل، أما صعقة قومه فكانت عقوبة على تعنتهم في سؤال الرؤية:

1 كلمة [1] ﴿فَلَمَّا﴾

الفاء تصوِّر ترتيب الأحداث، فالحدث الذي وقع بعد ما سبق هو التجلِّي للجبل، وكلمة ﴿لَمَّا﴾: تصوِّر حدثين وقعا مقترنين: تجلِّي الله للجبل، وجَعْلَهُ دكًا.

2 كلمة [2-3] ﴿تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ﴾

مشتقة من (جَلَوَ)، وتعني: انزياح حجاب لينكشف الشَّيْء ويبرز، فتَجَلَّى هنا: أزاح الحجاب، فانْكَشَفَ وبرز، فقد قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ...حِجَابُهُ النُّورُ -وَفِي رِوَايَةِ النَّارُ- لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» (مسلم (293))، والسُّبُحات: نوره تعالى، وجلاله، وبهاؤه، وعظمته.

3 كلمة [4] ﴿لِلْجَبَلِ﴾

فتجلى للجبل لا لغيره.

4 كلمة [5-6] ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾

(دَكَّ): كلمة تدلُّ على تسوية للشيء حتى يتطامن وينسطح، يُقَالُ دَكَكْتَ الشَّيْءَ، مِثْلُ دَقَقْتَهُ، أي: فَتَتَّهُ حتى سوَّيته، وَمِنْهُ النَّاقَةُ الدَّكَّاءُ، وَهِيَ الَّتِي لَا سَنَامَ لَهَا.

5

فقرأ جمهور القراء:

﴿دَكًّا﴾

مقصورًا بالتنوين أي: فَتَّتَهُ، أي سوَّاه بالأرض، فأصبح مدكوكًا لا ارتفاع له.

6

وقرأ الكوفيون سوى عاصم:

﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾

فالتقدير: جعل الجبل أرضًا دكاء، قال ﷺ: «فَسَاخ الجبلُ»، "الترمذي (3074)، وصحَّحه الألباني والوادعي"

فإذا ساخ ظهرَ وجهُ الأرض، فصار بمنزلة الناقة التي قد ذهب سنامها، وصارت دكاء بلا سنام، فالقراءتان تصوِّران الجبل يسيخ، ويتفتَّت في الوقت ذاته حتى يصبح موضعه أرضًا سهلة مطمئنة مسطحة.

[7] مال ابن عاشور رحمه الله

إلى أن الَّذِي انْدَكَّ مِن الجبل لَمْ يَرْجِعْ، وَلَعَلَّ آثَارَ ذَلِكَ الدَّكِّ ظَاهِرَةٌ فِيهِ إِلَى الْآنِ. (التحرير والتنوير 9/ 93)

[8]

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾

الواو تصوِّر حَدَثًا ثالثًا وقع مع الحدثين السابقين: تجلِّى الله عز وجل للجبل، فحدث للجبل ما هو أعظم من عدم الاستقرار، فجعله دكًا، فصار المشهد ذا هيبة كبيرة.. وسقط موسى عليه السلام صَعِقًا لرؤيته اندكاك الجبل، فما الذي سيحدث له لو تجلَّى الله عز وجل له؟!

[9]

﴿وَخَرَّ﴾

أي: سقط سقوطًا سريعًا يُسْمع له وَقْعٌ.

[10]

﴿صَعِقًا﴾

مشتقة من صَعِق، إذا حصلت له في جسده هدَّة كبيرة كأنها شرارة كهربائية مصحوبة بصوت، فيصحب الصعقَ الموتُ أو الإغماءُ، ويروي الطبري رحمه الله عن ابن زيد رحمه الله قال: "مغشيًا عليه". (الطبري 97/13)

[11] خرَّ موسى عليه السلام صَعِقًا من آثار اندكاك غيره

فكيف كان سيحدث لجسمه لو كان التجلِّي له؟ لو كان التجلِّي له لَانْتَثَرَ جِسْمُهُ فُضَاضًا.

فضيلة [6]

الإنابة السريعة لموسى عليه السلام من سؤالٍ لم يكن خطأً في أصله، حيث قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143].

1 كلمة [1]

﴿فَلَمَّا﴾

الفاء صوَّرت الأحداث التالية لما سبق، وكلمة ﴿لَمَّا﴾ قرنت حدثين وقعا هما:

1. إفاقة موسى عليه السلام.
2. وإعلانه التوبة، فلم يتأخَّر في ذلك.

2 كلمة [2]

﴿أَفَاقَ﴾

مشتقة من ﴿فَوَقَ﴾ فالْإِفَاقَةُ: رجوع الوعي إلى الإنسان بعد ذهابه

3 كلمة [3] ﴿قَالَ﴾

بمجرد أن أفاق أعلن توبته عليه السلام، فذكر ثلاث جمل:

- [1] ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾
- [2] ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾
- [3] ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

4 كلمة [4] ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾

من (سَبَحَ)، وأصلها الحركة السريعة الخفيفة في وسطٍ آخر: كحركة مَنْ يخترق الماء، ويجتازه جاعلًا جسده في وَسَطه، فكلمة ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تعني: ننسب لك التنزيه والتعظيم اللائقين بك فليس كمثلك شيء. قال البقاعي رحمه الله: "أي تنزيهًا لك عن أن أطلب منك ما لم تأذن فيه".

(نظم الدرر 8/ 79)

5 كلمة [5-6] ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾

تعني: رجعت إليك رجوعًا خاصًا أترك فيه ما تكره، وأُقْبل فيه على ما تحب، فالتوبة تجمع خمسة أمور:

1. الاستحياء، والندم على فعله
2. وترك الذنب لقُبْحه
3. والعزيمة على ترك المعاودة
4. وتدارك ما أمكنه أن يُتدَارك من الأعمال
5. وتحرِّي الجميل فيما يستقبل.

6 كلمة [7-9] ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

الأولية هنا هي التي يراد بها المبادرة إلى كمال الاستسلام، فهي الأولية الإضافية وليست التاريخية، فـ"تعبيره بالإيمان في غاية المناسبة لعدم الرؤية؛ لأن شرط الإيمان أن يكون بالغيب". (نظم الدرر 8/ 79)

7 قال ﷺ:

«لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ الْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّه». "البخاري (2411)".

فضيلة [7]

اصطفاء موسى عليه السلام على الناس برسالة الله وكلامه: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: 144].

1 لما منعه الله عز وجل من رؤيته في الدنيا

أراد أن يبين أن ذلك لا يقلِّلُ منزلته عنده، وكأنه يقول له: يا موسى لا تلتفت إلى ما منعتك، والتفت إلى عظيم ما أعطيتك.

2 كلمة [1] ﴿قَالَ﴾

تصوِّر التكريم الإلهي العظيم بمخاطبة موسى عليه السلام في سياق المدح.

3 كلمة [2] ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾

تصوِّر التشريف الأكبر حيث ذكر الله –جلَّ مجدُه– اسم موسى عليه السلام بصورة مباشرة.

4 كلمة [3] ﴿إِنِّى﴾

تصوِّر جلال الألوهية؛ إذ إن الله عز وجل هو الذي حكم بهذا الاصطفاء لا سواه.

5 كلمة [4-6] ﴿ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾

تصوِّر الخير الأعظم الذي اكتنزه موسى عليه السلام في زمنه، والاصطفاء: يدلُّ على أن المختار صفوةٌ من الناس، أي: جعلتك أصفى بني جنسك، وأنقاهم من أي شَوْبٍ، والْمَعْنَى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ مُفَضِّلًا إِيَّاكَ عَلَى النَّاسِ.

6 كلمة [7-8] ﴿بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾

تصوِّر التشريف، والتكليف، وعبودية موسى عليه السلام، وألوهية الله عز وجل، فالتشريف لأن موسى عليه السلام رسولُ ملكِ الملوك وكليمُه، والتكليف لأنه يجب أن يوصل الرسالة.

فضيلة [8]

الاصطفاء يعني الامتثال والاقتفاء، والشكر الدائم على النعماء:

﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: 144].

1 كلمة [1] ﴿فَخُذْ﴾

الفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها، فكأن الله عز وجل يقول: لأنني اصطفيتك فخذ ما آتيتك.

﴿خُذْ﴾

تصوِّر أن الله عز وجل يعلِّم موسى عليه السلام أن يتناول ما آتاه الله عز وجل تناولًا سريعًا لا تردُّدَ فيه، كأنه يقبض عليه قبضًا ماديًا.

2 كلمة [2-3] ﴿مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾

﴿مَا﴾ تصوِّر المأخوذ، فهي بمعنى الذي، أي: خذ الذي آتيتك أيًّا كان، ففيه مجدك، ومجد العالم بعدك، والإيتاء: إعطاءٌ مع تهيئة المؤتِي للمؤتَى له.

3 كلمة [4-6] ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

أي: اجعل نفسك ضمن الشاكرين الذين رسخ شكرهم لربِّهم عز وجل ودام.

فضيلة [9]

الكتابة القيمة: فالمنهج الإلهي العظيم الذي أعطاه الله عز وجل موسى عليه السلام كان مكتوبًا على ألواح: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾ [الأعراف: 145].

[1]

﴿وَكَتَبْنَا﴾

تصوِّر الواو شيئًا جديدًا من النعم الخاصَّة بموسى عليه السلام، ويحتمل أن يأمر الله عز وجل القلم أو المَلَك بالكتابة، كما قال ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». "أحمد (22705)، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن"

[2]

﴿نا﴾

تدلُّ على التعظيم وتعبِّر عن عظمة النعمة.

[3]

﴿فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾

تصوِّر الأداة التي كتب فيها هذا الكتاب الهادي، جمع لَوح، وَهُوَ قِطْعَةٌ مكوَّنة مِنَ الْخَشَبِ أقرب إلى الاستطالة، ويعقد البقاعي رحمه الله هنا مقارنة جميلة، فيقول: «وأعظم من هذا جعل قلب النبي الأمِّيِّ لوحًا قابلًا لما يلقى إليه جامعًا لعلوم الأولين والآخرين». (نظم الدرر 8/ 80).

4 الألواح:

جمعٌ، ولايثبت عددها، ويصحِّح القرآن هنا التحريف الذي في التوراة، ففيها أنهما لوحان فقط كما في سفر الخروج 24: 12

فضيلة [10]

الألواح التي أُعطيها موسى عليه السلام دليل شامل للحياة الدنيا والآخرة:

﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 145].

[1] ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾

تصوِّر تنوُّعَ المكتوب ليشمل كُلَّ شيء يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مُوسَى عليه السلام وَقَوْمُهُ في إدارة حياتهم الدينية والدنيوية.

[2] ﴿مَّوْعِظَةً﴾

تصوِّر صياغة المكتوب في هيئة الكلام الرقيق المشفق المحبِّ للعالَم، فالموعظة: هي التَّذْكِيرُ بِالْخَيْرِ على هيئة مشفقة، ترقِّق القلب، وتقترن بالتخويف من المستقبل إن لم يستمع الوعظ.

[3] ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾

تصوِّر أن المكتوب لم يقتصر على الوعظ، بل امتد إلى تفصيل الاحتياجات البشرية، مما لا يستطيع البشر أن يحكموا فيه بأنفسهم، ويرى ابن كثير رحمه الله أن الألواح كانت كَالتَّعْوِيضِ لَهُ عَمَّا سَأَلَ مِنَ الرُّؤْيَةِ وَمُنِعَ منها. (تفسير ابن كثير 3/ 474)

4 يظهر أن مما كُتب لموسى عليه السلام في الألواح ما جاء في سفر الخروج 20:

2 «أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ

3 لَا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي

4 لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا، وَلَا صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ

5 لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدْهُنَّ.

فضيلة [11]

الأخذ القوي: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: 145] فالله عز وجل أمره، وهو عنده وجيهٌ، فيمتثل أمرَه.

1. فالقُوَّةُ: مَلَكَةٌ أو طاقة يستطاع بها التمكُّن والاقتدار من الحفاظ على شيء، أو إنتاج شيء بشِدَّة وإحكام.
2. أي تناولْها بنفسك وعزيمتك وعملك تناولًا سريعًا مستحوذًا عليه بقوَّة قلبية معنوية يظهر من خلال الجد في العمل.
3. الأخذ بقوة يعني: الجدَّ والصدق في التمسُّك والتطبيق.

فضيلة [12]

تعاهد قومه بالحكمة ليأخذوا بأحسن الكتاب الإلهي: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: 145]

[1] ﴿وَأْمُرْ﴾

تصوِّر وجوب أن يُحَوِّلَ موسى عليه السلام المكتوب إلى نظام حياة.

[2] ﴿قَوْمَكَ﴾

تحدِّد المبلَّغين، وتصوِّر أن الجميع قائم على غيره منهم؛ ليستقيموا على الشريعة.

[3] ﴿يَأْخُذُوا﴾

يوجب عليهم أن يتناولوا المكتوب تناولًا سريعًا مباشرًا مستوليًا عليهم في قلوبهم وحياتهم.

[4] ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾

الحُسْن نقاء الشيء وجمالُه، وتميُّزُه في الجمال عن الخشن والغليظ والسيء، كالقمر ذي الضوء والبياض النقي، فيقال له: الحاسن.

نتساءل: كلمة ﴿أَحْسَن﴾ صيغة تفضيل، فهل المعنى: يأمر موسى عليه السلام قومه أن يأخذوا بأحسن كلمات الكتاب، ويتركوا الحَسَن؟

الجواب:

قَالَ قُطْرُبٌ رحمه الله -ومال إليه ابن عاشور رحمه الله-: يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها أَيْ: بِحُسْنِهَا وَكُلُّهَا حَسَنٌ، فهو وَصْفٌ مَسْلُوبُ الْمُفَاضَلَةِ، مَقْصُودٌ بِهِ الْمُبَالَغَةُ فِي الْحُسْنِ. (التحرير والتنوير 9/101)

يظهر لي أن الأحسن هنا أي: استعمال كلِّ آية في موضعها المناسب، فوقت الصلاة تطبِّق آية الصلاة، ووقت الصيام تطبِّق آية الصيام، ووقت البرِّ تطبِّق آية البرِّ.

مشهد 4 [4] الإعلام بحقيقة دار الفاسقين

آيتا المشهد:

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: 145-146]

1 كلمة [1] ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾

تبصِّر بأن الله تعالى سيُري بني إسرائيل ومِنْ بَعْدِهم العالَمَ دار الفاسقين رأي العين؛ فإن الإراءة بصرية؛ لتعديتها إلى مفعولين: الكاف، وكلمة ﴿دَارَ﴾، ويحتمل أن تكون الإراءة بالوصف بصورة قوية حتى كأنها مرئية بالعَين.

2 الخطاب لموسى عليه السلام ودخل معه قومه

لأنه أمرهم بالأخذ بأحسن الكتاب، ومن بديع الخطاب القرآني التفاتُهُ من المفرد إلى الجمع ليحقِّق مقاصدَه الحكيمة في التبليغ العالمي.

3 كلمة [2] ﴿دَارَ﴾

هي المَحَلُّ يَجمَعُ البِنَاءَ، من دَارَ يَدُورُ، لكَثْرةِ حركَاتِ النَّاسِ فيهَا، واعتبارًا بدورانها الذي لها بالحائط، وتُطْلَق على القرية والمدينة والدولة والقبيلة باعتبار أن كلًّا منها تَجَمُّعٌ واحد.

4 كلمة [3] ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

الفاسق هُوَ الخارج عَنِ الأمر الفطري الطبيعي، من: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ إذا خرجت عَنْ قِشْرِهَا لرداءتها، فالفسق: خروج عن النظام الحقِّ إلى الباطل بالمعاصي الكبيرة.

والسؤال: ما المقصود تحديدًا بدار الفاسقين؟

الجواب:

﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

تبصِّرنا أن الله عز وجل يصف حال دار السُّوء كأننا نراها، فتحتمل الكلمة معنيين:

1. الأول: دارهم في الآخرة، وهي جهنم، وهذا تفسير الطبري، ورواه عن مجاهد والحسن رحمهم الله. (الطبري 11/16)
2. الثاني: دارهم في الدنيا، فتكون مركز الحرب على اتِّباع ما أنزل الله عز وجل، ويدخل فيها:
   - منازل المجرمين، مثل دار قوم فرعون ومن هَلَك قبلُ، وهذا تفسير الزمخشري، واستبعده ابن عاشور رحمهما الله. (الكشاف 2/158، التحرير والتنوير 9/102)
   - الْمُرَادَ: الْبِشَارَةُ بِأَنَّهُ تَعَالَى سَيُورِثُهُمْ أَرْضَ أَعْدَائِهِمْ وَدِيَارَهُم، ويفتح لهم أرض الفاسقين الآخرين، ورجَّحه ابن عاشور رحمه الله.

③ ويظهر لي أن هذا المصطلح القرآني ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يشمل المعاني السابقة، ويمكن أن نضيف إليها: دار الفاسقين الذين يخرجون عن طاعة الله ونظامه، وينشرون الفساد في الأرض من بني إسرائيل ومن غيرهم، ويناسب هذا المعنى الآيةَ التي بعدها، حيث ذكر الله عز وجل الصفات التي تنطبق على كلِّ فاسق إلى يوم الدين.

5 فصَّل الله تعالى صفات الفاسقين:

صفة [1] الصَّرْف عن آيات الله عز وجل: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾ [الأَعْرَاف: 146]

1 كلمة [1] ﴿سَأَصۡرِفُ﴾

تصوِّر لك المُلك الإلهي الواسع، فهو الذي يعطي ويمنح، و(صَرَفَ) يعني: ردَّ الشيء من حالة إلى حالة، أو أبدله بغيره، أو وجَّهَهُ إلى جهة أخرى.

2 كلمة [2-3] ﴿عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾

الآيات: إما آيات الوحي، وإما آيات الكون، وإما المعجزات.

3 أعظم العقوبات أن يصرف الله عز وجل أحدًا عن آياته فلا ينتفع بها

فالملحدون ينصرفون عن آيات الآفاق والأنفس، وعن آيات الوحي مستكبرين، والاستكبار قد يصيب قلب المؤمن دون أن يشعر.

4 قال ابن جريج رحمه الله مبينًا مثالًا للآيات: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾:

عن خلق السموات والأرض والآيات فيها، سأصرفهم عن أن يتفكَّروا فيها ويعتبروا. (الطبري 13/ 112)

فماذا يكون المعنى الإجمالي لقوله: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾؟

الجواب: ذكر المفسِّرون معنيين لها:

1. أنَّا يوفقهم الله عز وجل إلى معرفة هذه الآيات، والشعور بلذَّة معانيها، ويصوِّر ابن عيينة رحمه الله أن هذه العقوبة غير مختصة بالمتكبرين الإسرائيليين، فيقول: أَنْزِع عنهم فَهْم القرآن، وأصرفهم عن آياتي (الطبري 13/ 112)، وهذا تفسير بضرب المثال.

2. ذكر الزمخشري وأشار إليه ابن عاشور -رحمهما الله- أنه يحتمل أن يكون المعنى: سأصرفهم عن تعطيلها وإبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون أن يبطل آية موسى عليه السلام. (الكشاف 2/158، التحرير والتنوير 9/103)

هل معنى قول ربِّنا عز وجل: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 146] أنهم مُنِعوا من الإيمان، وليس لهم حرية الاختيار؟ وهل يعني ذلك أن لا ندعوهم إليه، ولا نذكرهم به؟

الجواب:

1. بل حباهم بالاختيار، فقال لهم: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الانشقاق: 20]، ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ [المدثر: 49]

2. ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ **تبصِّرنا أنهم اختاروا أرذل الأفعال، فاستحقُّوا أن يصرفهم الله عز وجل عن آياته، وهذه الصفات:** ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾، ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾، ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾، ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾، **فكلُّها اختيارهم.**

صفة [2] التكبُّر في الأرض بغير الحقِّ: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾

[الأَعۡرَاف: 146]

1 ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾: أي يضخِّمون أنفسهم، ويجعلون لحياتهم دورًا أكبر من حجمهم، فيَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ.

2 الوصف ينطبق على كلِّ من اتصف به سواء انتمى للمسلمين أم للكافرين، فهل ينفع المسلم الجغرافي -كما يقول رشيد رضا- انتماؤه عندما يتكبُّر في الأرض بغير الحقِّ؟

3 ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: تصوِّر الكلمتان مدى ضآلتهم في هذا الكون العظيم، فالأرض جزء محدود من أقطار السموات.

لماذا قيَّدَ الله التكبُّر بأنه ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾؟

الجواب:

1 ليكون وصفًا لواقعهم المريض؛ لأنهم يفعلون ما لا حقَّ لهم فيه.

2 لإخراج مواضع يجوز أن يتكبَّرَ فيها الإنسان كالتكبُّرِ على المتكبِّرين.

صفة [3] عدم الإيمان بأي آية مهما تكاثرت أنواعها وأفرادها: ﴿إِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ [الأعراف: 146]

فلا يؤمنون بأيِّ آية، سواء أكانت آية كونية، أم آية قرآنية، أم آية خارقة للعادة.

صفة [4] عدم اتخاذ سبيل الرُّشد سبيلًا: ﴿إِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146]

1. لا يكلِّفون أنفسهم أن يأخذوا القرار الصحيح عندما يرون الطريق الواضح للرشد، فلا يتناولونه ويقبضون عليه ليكون منهج حياتهم.

2. الرشد هو المعنى المتماسك الموثوق منه في صحَّته وهدايته إلى الخير تماسك الرَّشادة، وهي الصخرة، فالرُّشْد يُسْتَعْمل فِي كُلِّ مَا يُحْمَد، والغَيُّ فِي كلِّ مَا يُذَمُّ.

صفة [5] اتخاذ سبيل الغيِّ سبيلًا: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146]

1. يتلهَّفون باحثين عن سبيل الغيِّ ليتخذوه منهجًا واضحًا في الحياة، والغيُّ ما يؤدي إلى الهلكة.

2. يقرِّب الزمخشري رحمه الله الصورة العجيبة في الآية، فيقول: وما أَسْفَهَ من ركِب المفازة -أي الصحراء- فإن رأى طريقًا مستقيمًا أعرض عنه وتَرَكَه، وإن رأى مُعْتَسَفًا مُرْدِيًا أخذ فيه وسَلَكَه، ففاعِلُ نحو ذلك في دينه أَسْفَهُ". (الكشاف 2/ 159)

صفة [6]

التكذيب بآيات الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 146]

1 هذه الصفة سببٌ ونتيجة، والتقدير: لماذا اتصف هؤلاء المجرمون بهذه الصفات العفنة؟

الجواب ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فلم يعرضوا عن سبيل الرُّشد، ويتبعوا سبيل الغيِّ لأن الله عز وجل أكرههم، بل لأنهم اختاروا التكذيب بآيات الله.

2 عبَّر عن صِفتهم بالفعل الماضي: ﴿كَذَّبُواْ﴾؛ ليبين اختيارهم الأول.

صفة [7]

ترسُّخُ الغفلةِ عن آيات الله عز وجل: ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 146]

كلمة ﴿كَانُواْ﴾: تدلُّ على حالهم الراسخ في الماضي، وكلمة ﴿غَٰفِلِينَ﴾: جمع مذكَّر سالم يصوِّر رسوخهم في هذه الغفلة، والغفلة تعني: عدم الاهتمام، وذهاب المبالاة، وانصراف التركيز بسبب قِلَّة التَّحفُّظ والتَّيقُّظ.

صفة [8]

التكذيب بلقاء الآخرة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأعراف: 147]

أي: كذَّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة، ويتحقق لقاء الآخرة بأن يواجهوها عندما يبعثون، ويلقون الله جلَّ مجده حينها حيث يكون القضاء الحقُّ.

النتيجة لمن كانت هذه صفاته: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 147]

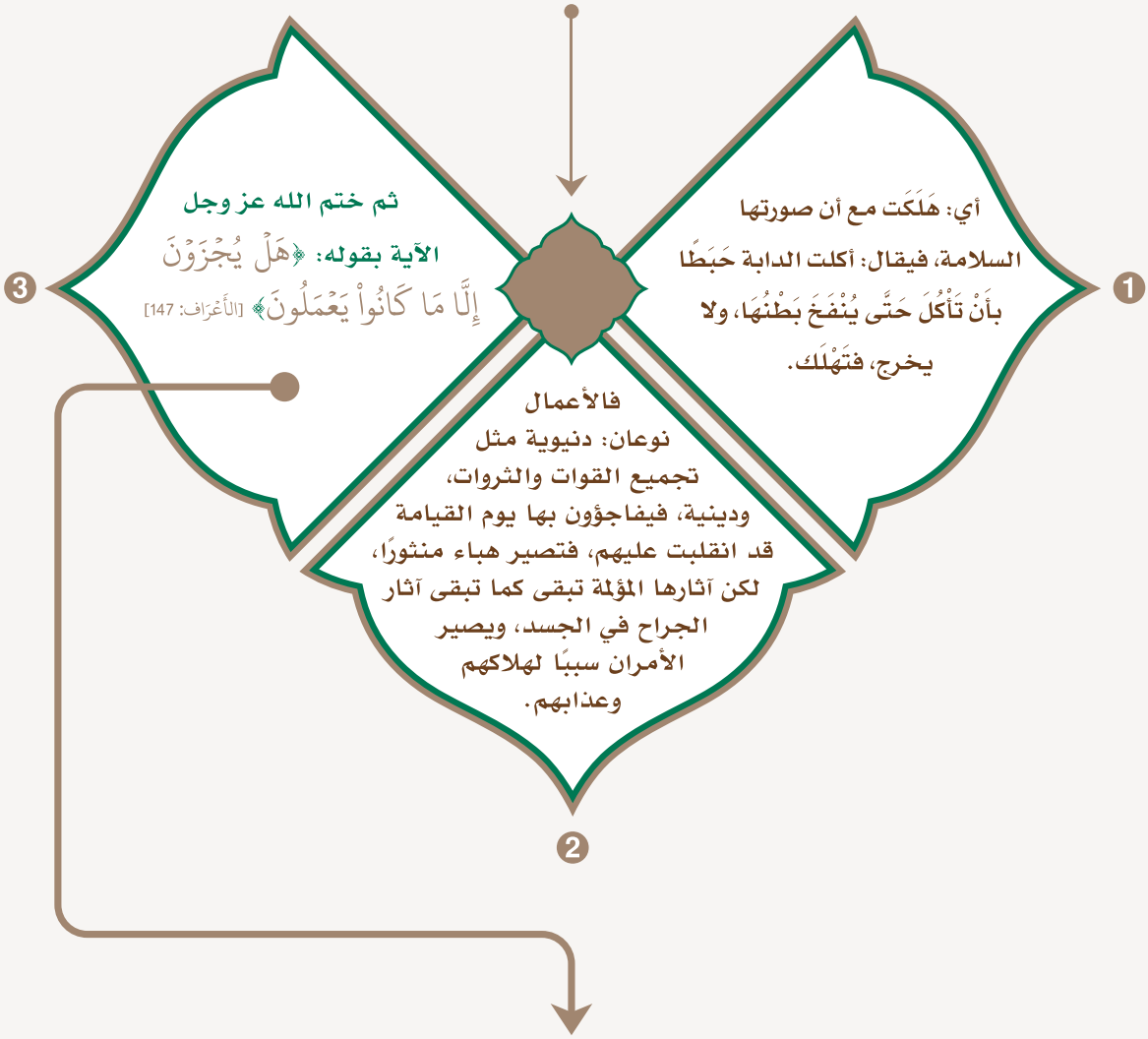

لتبين عدلَ الله عز وجل؛ لأنهم جُوْزُوا بأعمالهم، لا بشيء أُكرِهوا عليه. وجاءت الجملة على طريقة السؤال؛ لأنه أقوى وأدلُّ على المقصود، فقد جمع الإثبات والنفي والتحقيق مع المتَّهمين، والمحاسبة لهم، وزجر المُستَنْكِر لهذا المصير، فكأنه قال: ألا ترى العدل في عقوبتنا لهم؟

قد تسأل: نقض بني إسرائيل الأول للميثاق الإلهي كان بمطالبتهم بتأسيس الشرك، والنقض الثاني كان بتأسيس دار الفاسقين، فما النقض الثالث؟

الجواب: هنا يأتي:

النقض الأكبر الثالث

النَّقْض العِجْلي: حيث أَسَّس الظالمون دار الفِسق الإسرائيلية، فافتتحوها بعقلية العِجْل الإسرائيلي، وتدور حول الإلحاد الصريح، واستضعاف المصلحين [الأعراف: ١٤٨-١٥٣]

ربما تسأل: ما المشاهد التي تضمَّنها هذا النَّقض؟

الجواب: تكوَّن هذا النَّقض من 3 مشاهد:

مشهد [1]

بداية التأسيس الفعلي الخطير لدار الفسق الإسرائيلية [الأعراف: 148]

آية المشهد:

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 148]

1 كلمة [1] ﴿وَٱتَّخَذَ﴾

الواو وما بعدها توضِّح المناسبة والاتصال بين هذا المشهد وما قبله، حيث رأينا النَّقْض الأكبر الأول الذي اقترفه بنو إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون، حين طالبوا بتأسيس الشرك على يد نبيِّهم عليه السلام، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ في الآيات [الأعراف: 138-141].

2 ثم حذَّرنا الله عز وجل في النقض الثاني

من تأسيس المستكبرين لدار الفاسقين في أثناء ميقات الله عز وجل لموسى عليه السلام في الآيات [الأعراف: 142-147]، وهنا لا بد أن يطرأ علينا سؤال: فماذا فعلت بنو إسرائيل في تلك المدَّة؟

3 يأتي هذا القِسم ليُظهر مفاجأة قاسية صادمة

فقد أسَّس الفاسقون الإسرائيليون دار الفسق، بأن اتخذوا العجل إلهًا، ورَأَسَهُمْ المستكبرون الذين إن يروا كلَّ آية لا يؤمنوا بها.

[4]

﴿وَاتَّخَذَ﴾

تصوِّر حماستهم لإقامة الشرك الوثني، فجاء التعبير بالاتخاذ بدلًا من أن يقول: "وعبدوا العجل" ليصوِّرَ أنهم تناولوا العجل تناولًا سريعًا قويًا متمكِّنًا، فلم يتسرب الخوف إليهم من هذا الذنب العظيم.

5 كلمة [2-3] ﴿قَوْمُ مُوسَىٰ﴾

تصوِّران لنا جسامة المسؤولية عن أفعالهم، حيث نسبهم إلى موسى عليه السلام، وتصوِّرُ كذلك أنهم مسؤولون بمجموعهم عن الجريمة التي يقوم بها أفراد عندما لا يُنكَر عليهم.

[6]

﴿قَوْمُ﴾

تضاد ما فعلوه؛ فالأصل أن يقوموا على إرث موسى عليه السلام ويَرْعوه رعاية القائم على الشيء، لكنهم عكسوا الأمر.

7 كلمة [4-5] ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾

تصوِّران أنهم نقضوا العهد بمجرد أنْ غاب عنهم.

8 كلمة [6-7] ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾

تصوِّران الأداة التي استعملوها في بناء العجل الذهبي، والحُلِيُّ: اسم لما يُتزَيَّن به من الذهب والفضة.

9 وهي الحُلِيُّ التي حملوها من مصر سرقة

حيث قالوا: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: 87]، فسمَّوها أوزارًا، فاعترفوا بأنها لم تكن تحل لهم، بخلاف النصِّ التوراتي الغريب الذي أكدَّ على الطبيعة السارقة لهم.

ففي سفر الخروج 12:

35 وَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. طَلَبُوا مِنَ الْمِصْرِيِّينَ أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ وَثِيَابًا

36 وَأَعْطَى الرَّبُّ نِعْمَةً لِلشَّعْبِ فِي عُيُونِ الْمِصْرِيِّينَ حَتَّى أَعَارُوهُمْ. فَسَلَبُوا الْمِصْرِيِّينَ.

10 نَسَبَ الحُلِيَّ إليهم ليبيِّنَ عقيدتهم فيها

وليُعَظِّم جريمتهم، فهم متحكِّمون فيها، ويزعمون أنهم صنعوا إلهًا منها.

11 كلمة [8-11] ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾

تصوِّر مقدار غباوة فكرة الشرك، حيث جعلوا إلههم عجلًا، والعجل: ولد البقرة، مشتق من العَجَلَةُ، وهي الإسراع في الشيء.

12 لا مزية له إلا أنه جَسَد

أي: كتلة مُجَسَّدة على هيئة عجل لا روح فيها، له خوار، وهو صَوْت الثَّوْر.

13 كلمة [12-13] ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾

سؤال تعجيبي من حالهم.

14 كلمة [14-19] ﴿أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾

تصوِّرُ أن هذا العجل الجَسَد يفقد صفات المخلوق، فأنى له أن يتصف بصفات الإله الخالق؟! فهو

﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾

فهل أخبرهم حين اتخذوه إلهًا أنه إله؟

﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾

فيدلُّهم على ما ينفعهم.

15 قال أبو حيان رحمه الله:

"فانتفاءُ التكليم يستلزم انتفاءَ العلم، وانتفاءُ الهداية إلى سبيل يستلزم انتفاءَ القدرة، وانتفاءُ هذين الوصفين يستلزم انتفاءَ باقي الأوصاف". (البحر المحيط 5/177)

16 لماذا عبدوه إذن؟

الجواب: تقليدًا للوثنيين، فقد رأوا الْمِصْرِيِّينَ عبدوا الْعِجْلَ "أَبِيسَ"، ومرُّوا بعد نجاتهم على قوم يعكفون على أصنام لهم.

17 كلمة [20-22] ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾

فلم يكونوا جاهلين بل ظالمين، والظلم وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِه الْمُخْتَصِّ بِهِ؛ إِمَّا بِزِيادةٍ أَو بِنُقْصَانٍ، وَإِمَّا بِعُدُولٍ عَن وَقْتِه ومَكَانِه، وقد ارتكبوا أعظم الظلم، حين نسوا الله عز وجل، وعبدوا عجلًا، واسم جمع المذكر السالم ﴿ظَٰلِمِينَ﴾: يبصِّرُ بتكرُّر الظلم منهم حتى رسخ.

مشهد [2] 2 حركة التوبة المضادَّة للظلم

تنقلنا الآيات مباشرة إلى مشهد طائفة من بني إسرائيل يعلنون التوبة بعد أن اكتشفوا مقدار الجريمة التي وقعوا فيها:

آية المشهد:

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 149]

1 كلمة [1] ﴿وَلَمَّا﴾

الواو تبين المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها، فالآية السابقة صورَّت جرأتهم على الظلم الأكبر، وهو الشرك، وهذه الآية طَوَت الزمان، وصورَّت اللحظة التي رجعوا فيها إلى الله عز وجل، وكلمة ﴿لَمَّا﴾: تقرن بين لحظة شعورهم بالندم، وبين عبارات التوبة التي ردَّدوها.

2 كلمة [2-4] ﴿سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾



3 كلمة [5-8] ﴿وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ﴾

تصوِّر أنهم تيقَّنوا بضلالهم حتى كأن الخطيئة التي فعلوها شيءٌ محسوسٌ يرونه بأعينهم، أي ولما سقطت الأوهام والحسرات في أيديهم، وعاينوا أنهم قد ضلوا معاينة الذي يرى الضلال مجسَّدًا لجأوا إلى استغفار ربِّهم عز وجل.

4 كلمة [9-18] ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

1 تصوِّر أنهم تابوا بعد أن تيقَّنوا أنهم ضلوا، وعبَّروا عن توبتهم بهذا الدعاء الذي طلبوا فيه الرحمة، والمغفرة.

2 قَدَّمُوا الرَّحْمَةَ عَلَى الْمَغْفِرَةِ؛ لِأَنَّهَا سَبَبُهَا.

3 سلكوا أسلوب آدم وزوجه عليهما السلام في التوبة حينما قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

4 قرأ الجمهور بالياء في ﴿يَرْحَمْنَا﴾ و﴿وَيَغْفِرْ﴾، وبالرفع في قوله: ﴿رَبُّنَا﴾ على وجه الخبر، كأنهم يخبر بعضهم بعضًا بذلك.

5 قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر: ﴿لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا رَبَّنَا وتَغْفِرْ لَنَا﴾ على الدعاء والتضرُّع لربِّ السماء.

6 فأَقْسَمُوا إِنَّهُ لَا يَسَعُهُمْ بَعْدَ هَذَا الذَّنْبِ إِلَّا رَحْمَةُ رَبِّهِمُ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْء.

مشهد [3] 3

إجراءات موسى عليه السلام لمواجهة دار الفسق الإسرائيلية

[الأعراف: 150-153]:

آيات المشهد:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾ [الأعراف: 150-153]

فإن سألت: ما الإجراءات التي اتخذها موسى عليه السلام لمواجهة تأسيس دار الفسق الإسرائيلية؟

الجواب: اتخذ موسى عليه السلام لمواجهة دار الفسق الإسرائيلية 9 إجراءات، وهي:

إجراء [1] رجوع موسى عليه السلام لمواجهة بني إسرائيل ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾

تصوِّرُ الجهد الدائب الذي يقوم به موسى عليه السلام في متابعة رعيَّته، حيث رجع فور أن عَلِم بالظلم الخطير الذي ارتكبه قومه.

إجراء [2]

إيقاد العاطفة الصادقة بالغضب المناسب للتعامل مع جريمة من هذا المستوى الخطير ﴿غَضْبَىٰ﴾، فالغضب في موضعه صفة قيادية:

1. عرَّف الراغب رحمه الله الغضب بأنه ثوران دم القلب إرادة الانتقام (المفردات ص: 608)، ولذلك قال ﷺ: «اتّقوا الغَضَبَ فإنَّه جمرة توقد في قلب ابن آدم، ألا ترون إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه». (البغوي في شرح السنة (4039)، وقال: حديث حسنٌ)

2. هذا تعريف غير دقيق، فالغضب قد يكون بسبب أمرٍ لا يوجب الانتقام، بل التأديب.

3. الصحيح أنه صفة تجمع بين قوة وشدة وغلظة وحزم، ولذا قال ابن فارس رحمه الله: "أصل صحيح يَدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ وَقُوَّةٍ"، وكأنه اشتق من: تسمية الصَّخْرَة الصُّلْبَة الْغَضْبَة. (مقاييس اللغة 4/428)

إجراء [3]

إيقاد العاطفة الصادقة بالأسف المناسب للتعامل مع جريمة من هذا المستوى الخطير ﴿أَسِفًا﴾، فالأسف في مكانه المناسب صفة قيادية:

1 رأى الطبري رحمه الله:

أن الأسف منزلة أعلى من الغضب، فهو شدة الغضب، والتغيظ به على من أغضبه.

(تفسير الطبري 13/120)

2 عرَّف الراغب رحمه الله الأسف:

بأنه ثوران دم القلب شهوة الانتقام، فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضبًا، ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزنًا. (المفردات ص: 75)

3 يظهر لي أن أصل معناه:

الحزن المقترن بالرثاء المشفق على المأسوف عليه، والتلهف على المتأسَّف عليه لحال بائس وقع فيه، مشتقٌ من الأرض الأسيفة وهي الَّتِي لَا تُنْبِتُ شَيْئًا، والْجَمَلُ الْأَسِيفُ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَكَادُ يَسْمَنُ، وسدَّد الله عز وجل ابنَ فارس رحمه الله فقال في تعريفه: "أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْفَوْتِ وَالتَّلَهُّفِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ". (مقاييس اللغة 103/1)

4 الغضب:

لأن القائد الراشد المؤمن ينبغي أن تمتلئ نفسه بالحِدَّة والجفاء، والقوة والشدة والغلظة والحزم في معاملة المغضوب عليه عندما يصنع ما يوجب الغضب.

5 والأسف:

لأن القائد الراشد يجب أن يحزن حزنًا يتلهف فيه على المأسوف عليهم من قومه؛ لأنهم أصرُّوا على اتِّباع خطوات الشيطان، ولم يقاوموا أهواء النفوس.

إجراء [4]

الإنكار القوليُّ الإعلاميُّ التعليميُّ العامُّ على مؤسِّسي دار الفسق العجليين ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:150]:

1 كلمة [1] ﴿قَالَ﴾

خاطب موسى عليه السلام الجميع، فيدخل فيه عبدة العجل، والمؤمنون من بني إسرائيل.

2 كلمة [2-5] ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ﴾

بئس فعل ماض لإنشاء الذمِّ، وفاعله ضمير مستتر فيه دلَّ عليه (ما)، و(ما) نكرة تامة في محل نصب على التمييز، والتقدير: بئس الخلافة خلافةً خلفتمونيها بعد أن تركتكم، وقد علَّمتكم خير ما تحيون به.

3 كلمة [6-8] ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾

أي: أسبقتم أمر ربكم، ولم تنتظروا أمره ونهيه كما يقول النحاس رحمه الله. (معاني القرآن 82/3)

إجراء [5] أوَّلية عاجلة: أظهر موسى عليه السلام ضرورة دفع المفسدة الكبرى قبل أن يخبر بالمصلحة العظيمة المنتظرة ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف:150]:

1

أي: وضعها جانبًا وضعًا سريعًا قد تصحبه القوة، فلم يخبرهم بما فيها حتى يعالج المفسدة الكبرى التي أمامه.

2

جاء في رواية ضعيفة عن ابن عباس رضي الله عنهما "أنها تكسَّرت، فرُفِعَت إلا سُدُسُها" (تفسير الطبري (15141)، حسب ترقيم إسلام منصور وصحَّح إسناده)، ومثل هذه القصص تعارض مقاصد إنزال الكتاب، وتعارض ظاهر الألفاظ القرآنية.

إجراء [6] عدم استثناء أحد من المحاسبة حتى لو كان نبيًّا! والبدء بمحاسبة القيادة التي استخلفها: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف:150]:

1 كلمة [1] ﴿وَأَخَذَ﴾

تصوِّر قوة المحاسبة؛ إذ صَاحَبَها هذا الفعلُ الذي يصوِّر يدَ موسى تتناول رأس نبي الله هارون عليهما السلام بشدَّة.

2 كلمة [2-3] ﴿بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾

الباء في قوله: ﴿بِرَأْسِ﴾ تصوِّر الالتصاق المحكم بين اليد والرأس.

3 كلمة [4-5] ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِ﴾

تصوِّر العنف البالغ في محاسبة أخيه.

إجراء [7]

علنية المحاسبة؛ حيث طلب موسى أن يُظهِر المُحاسَب (هارون) عليهما السلام عُذْرَه بصورةٍ علنيةٍ أمام الجماهير ﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ﴾ [الأعراف:150]؛

إجراء [8]

طلب تقديم تقرير عما حدث: طلب موسى عليه السلام من أخيه أن يقدِّم تقريرًا كما في سورة طه: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ۝٩٣﴾ [طه:92-93]: فقدَّم تقريرًا وافيًا تضمَّن النقاط الآتية:

1. نادى موسى عليه السلام بلفظ يثير تَحَنُّنَهُ عليه حيث قال: ﴿ٱبۡنَ أُمَّ﴾
2. نهاهم عن شركهم ومُنْكَرِهم بالقول، وأراد أن ينكر بالفعل، لكن من معه كانوا الأقل، لذا قال: ﴿إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي﴾
3. التمس من أخيه أمرين:

1. أن يقبل عذره، فلا يُشمت به الأعداء الذين استضعفوه لما أنكر عليهم: ﴿فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ أي: لا تجعل للعدوِّ شعورًا بالقوة مقترنًا بإحساسهم بنقصي، بسبب ظهوري مستضعفًا أولًا، ثم معاقبًا منك على أمرٍ لم أستطعه ثانيًا، وسمَّى عَبَدة العجل أعداء، وحسبك بهذا إظهارًا لخطر دار الفاسقين التي أقاموها.
2. ﴿وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فلا تجعلني في صفِّهم، وقد قاومتهم حسب استطاعتي.

إجراء [9]
إصدار قرارات بناء على الحقائق التي أظهرتها المحاسبة:

قرار [1]
استغفر موسى عليه السلام لنفسه ولأخيه عن شبهة التقصير:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف:151]:

لا يظهر لي أنه استغفر من فِعْلِه بأخيه كما ذهب له الطبري رحمه الله (تفسير الطبري 133/13)؛ **فمحاسبته لأخيه عليهما السلام فعل طبيعي يقتدى به، بل طلبُ المغفرة من شبهة تقصير وقعا فيها في سياسة بني إسرائيل.**

قرار [2]
أصدر موسى عليه السلام حكمه في مؤسسي دار الفسق الإسرائيلية الأولى وأتباعهم ممن اتخذوا العجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ [الأعراف:152]

[1] ﴿إِنَّ﴾

تؤكِّد صيغة القرار.

[2] ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾

حدَّد المحكوم عليهم ليُخرِج المسلمين الذين ثبتوا على دينهم واستضعفوا.

[3] ﴿سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾

تصوِّر أمرين يلحقان بهم، ولا يتركانهم: غضب من الله والناس، وذِلَّة، وحدد ذلك بالحياة الدنيا ليبين أن عقاب الآخرة أشد إلا لمن تاب.

[4] ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾

يوضِّح هذا القَبَس عدالة العقوبة، أي: ومثل هذه العقوبة يجب أن تكون لكلِّ مفترٍ، لأنها تُجازيه، أي: تكافئ عمله السيء.

5 والمفترون هم

الذين قطعوا الكلام والتصورات وأعادوا بناءهما بناء محكمًا في جهة الكذب، ولا توجد فرية أعظم من قول السامري ومن تابعه: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: 88].

6 قرأ أبو قلابة رحمه الله يومًا هذه الآية، فقال:

"هي والله لكلّ مفترٍ إلى يوم القيامة". (تفسير الطبري 13/ 135)

قرار [3] فتح باب التوبة أمام الضالين من عوام الناس: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأعراف:153]

[1] ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾

الواو توضِّح تكملة القرارات بصلتها بما قبلها، ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: صنف ممن ضلَّ وزلَّ.

[2] ﴿ثُمَّ﴾

تصوِّر أن التوبة مقبولة مهما تأخرت مادام الإنسان حيًا.

[3] ﴿تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ﴾

توضِّح شرطين لقبول العائدين إلى الله عز وجل: التوبة، والإيمان ليُنَبِّهَ أن اتخاذ العجل كان كفرًا أكبر.

[4] ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

تأكيد على أن الله عز وجل فتح لهم باب مغفرته بستر خطيئاتهم، ودفع عقابها، وإنزال رحماته بجلب خيراتها، وأتى بصيغة المبالغة: ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ ليبين سعة مغفرته، ورحمته سبحانه وتعالى.

5 عَن ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه:

أَنَّهُ سُئِلَ عَن الرَّجُلِ يَزْنِي بِالْمَرْأَةِ، ثُمَّ يَتَزَوَّجُهَا، فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ عَشْرَ مَرَّاتٍ، فَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِهَا وَلَمْ يَنْهَهُمْ عَنْهَا. "تفسير ابن أبي حاتم (9010)"

قد تسأل: نقض بني إسرائيل الأول للميثاق الإلهي كان بمطالبتهم بتأسيس الشرك، والثاني: بتأسيس دار الفاسقين، وتحدَّث النقض الثالث عن العقلية العِجْلية التي نادت بالإلحاد الصريح، فما النقض الرابع؟

الجواب: هنا يأتي:

النَّقْض الأكبر الرابع: "العَقلية السَّفَهية الإسرائيلية"

وهو نقض مستقبلي، ويتعلق بنقض الإيمان بالنبي الخاتم ﷺ [الأعراف:١٥٤-١٥٨]

نقض مفاجئ في هذا الفصل:

تفاجئ هذه السورة الوثنيين في مكة، والعالم من بعدهم؛ إذ تبين لهم صدق سيدنا محمد ﷺ في دعواه أنه رسول للعالمين، حيث تأتي الآيات محذِّرة الإسرائيليين ومَنْ معهم من النَّقْض المستقبليِّ الخطير [الأعراف: 154-158].

لعلك تسأل: ما المشاهد التي تضمَّنها هذا النَّقض؟

الجواب: تكوَّن هذا النَّقض من 5 مشاهد:

1 مشهد [1]

في الألواح هداية ورحمة لا تتحقَّق إلا لمن يتصف بالرهبة من ربِّه عز وجل

ومن ذلك أن يَرْهَبَ عقوبة الله عز وجل في عدم الإيمان بالنبي الخاتم ﷺ [الأعراف: 154]

آية المشهد:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: 154]

1 كلمة [1] ﴿وَلَمَّا﴾

الواو تربط هذا النقض بما قبله، ومن أبرز ما تظهره:

1 الربط القوي بين التوبة عن عبادة العجل الإسرائيلي، وبين اتِّباع الرسول الأمِّيِّ ﷺ.

2 في النقض السابق قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف:150]، فماذا كان مصير الألواح؟ فابتدأ هذا النقض بذكرها، وكلمة ﴿لَمَّا﴾ شرطية ربطت حالة موسى عليه السلام بعد أن سكت عنه الغضب بتناوُلِه الألواحَ تناولًا محكمًا معظَّمًا.

2 كلمة [2-5] ﴿سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾

انظر لهذا التصوير الفخم: فلم يقل: ولما هدأ الغضب، بل: سكت الغضب، فكأن الغضب كان يتكلَّم مزعجًا لموسى عليه السلام ليقوم بكل الإجراءات التي اتخذها لمعالجة جريمة قومه، ويرى الزمخشري رحمه الله أن الغضب كان يغريه ويأمره لينفذ تلك الإجراءات. (الكشاف 163/2)

3 كلمة [6-7] ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾

أي: تناولها تناولًا محكمًا، وهذا يدلُّ على أنها لم تنكسر كما يزعم محرِّفو التوراة، ومن نقل عنهم من المفسرين دون تثبُّتٍ.

4 أكمل موسى عليه السلام دفع المفسدة الكبرى

التي أساسها إقامة دار الفاسقين بعبادة العجل، ثم أظهر المصلحة العظمى التي تحتويها الألواح.

5 ثم أكمل هنا أوصاف المكتوب في الألواح

بعد أن ذَكَرَ بعضها في الآية (145) فوصفه هناك بأنه:

1. مكتوب ﴿وَكَتَبْنَا﴾ .
2. يشمل أسس الكلام عن كلِّ شيءٍ تحتاجه البشرية ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.
3. موعظة ترقق القلوب ﴿مَّوْعِظَةً﴾
4. يفصل كلَّ شيء يحتاجون لتفصيله ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ .
5. وهنا في الآية (154) أضاف: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى﴾: إرشاد دقيق لتنظيم حياة البشرية للأحسن في الدارين.
6. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ في أحكامها، وتطبيقها، وفي هذا ردٌّ على العنف الهائل الذي أضافه المزورون إلى نسخ التوراة.
7. لا يمكن أن يتحقق الخير الذي فيه إلا لمن يتصف بصفة الرهبة من الله ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾: أي لمن يرهبون ربَّهم عز وجل لا غيره، ولذا أخَّر الفعل، وقدَّم كلمة ﴿رب﴾، واللام: لَامُ الْأَجْل، وَالْمَعْنَى: لِلَّذِينِ هُمْ لِأَجْلِ رَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ، لَا رِيَاءً، ولا سُمْعَةً كما يقول الرازي رحمه الله، ورأى ابن كثير رحمه الله أن ضمن معنى يرهبون: يخضعون. (تفسير الرازي 15/374، تفسير ابن كثير 3/ 478)

6 كلمة ﴿يَرْهَبُونَ﴾

تدلُّ على أنه شدَّد عليهم، ووصَّاهم بما يرهبهم، والرهبة: الخوف الذي يورث تحرُّزًا، واضطرابًا، واقشعرارًا في البدن يمنع من الاجتراء على المعصية.

كلمة 7 ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا﴾

قال الطبري رحمه الله: «وفيما نُسِخ فيها، أي: كُتِب فيها» (تفسير الطبري 13/ 138)، والنسخة: فُعْلَة بمعنى مفعول، كالخُطبة.

وتعجب ممن يزعم أن الألواح تكسَّرت، فذهب أكثرها، وانتسخ ما قُدِرَ عليه منها (معاني القرآن للنحاس 3/ 85)، قال الواحدي رحمه الله:

«وإن كانت الألواح لم تتكسر، وأخذها موسى بعينها بعد ما ألقاها، فمعنى: ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا﴾ أي: وفي المكتوب فيها، وذلك المكتوب انتسخ من أصل، فيسمى نسخة» (التفسير البسيط 9/ 383).

مشهد 2 [2] ميقات إلهيٌّ آخر

اختار موسى عليه السلام القياداتِ الإسرائيليةَ التي تستحقُّ أن تكون ضمن وفد الميقات الإلهي: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ [الأعراف: 155: 155]

[1] ﴿وَ﴾

الواو تصل هذا المشهد بما قبله، فبعد أن أخذ موسى عليه السلام الألواح، وأخبرهم بما فيها، وبيَّن سبيل توبتهم مما قَصَّهُ في سورة البقرة، وقَّت الله عز وجل ليختار خيرة من قومه لميقات إلهيٍّ خاصٍّ بهم.

كلمة 2 ﴿وَٱخۡتَارَ﴾

مشتقة من خَيَر، وتدلُّ على الْعَطْف، وَالْمَيْل، وتفضيل شيء على شيء، وكأنه أخير من غيره للهدف الذي أُخذ لأجله، فهي أعمُّ من كلمة (اصطفى) التي تعني اختيار الأصفى الأنقى، فليست مثل: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾ التي ميَّزت موسى عليه السلام.

3 التقدير:

واختار موسى من قومه سبعين رجلًا، كما تقول: أَسْتَغْفِرُ اللَّه مِنْ ذَنْبِي، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّه ذَنْبِي، قَالَ أعشى طِرْوَدٍ:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ، فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ ... فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَسبِ

أي: أمرتك بالخير فحذف الباء.

4 كلمة ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾

اختارهم اختيارًا مناسبًا ليكونوا صالحين للميقات الإلهي، ورأى الطبري رحمه الله أن ذلك كان للتوبة مما فعل سفهاؤهم في عبادة العجل. (تفسير الطبري 13/ 140)

مشهد [3] رجفةُ تأخذ القيادات السبعينية

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: 155]

1

كلمة [1] ﴿فَـ﴾

الفاء تنبئ بالحدث الذي وقع بعد وصول السبعين للميقات الإلهي.

كلمة [2] ﴿لَمَّا﴾

تربط بين حدثين: الأول: أَخْذُ الرجفة للسبعين، والثاني: دعاء موسى عليه السلام.

كلمة [3] ﴿أَخَذَتْهُمُ﴾

تصوِّر أن الرجفةَ تناولتهم مستولية عليهم استيلاء محكمًا.

كلمة [4] ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾

ما رجف بالقوم وزعزعهم وحرّكهم، فأهلكهم بعدُ، أو أصعقهم، فسلب أفهامهم، وربما سلب وعيهم.

ما الذي حدث حتى أخذتهم الرجفة؟

الجواب:

1 أقرب الأقوال فيما يظهر لي ما جاء عن السُّدِّيِّ من أنهم لما وصلوا قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة فماتوا، وكأن شبهة العجل باقية، فأرادوا الرؤية لنفورهم من الإيمان بالغيب. (تفسير الطبري 13/ 140).

2 ونُقل عن ابن عباس رحمه الله: إنما تناولتهم الرجفة، لأنهم لم يزايلوا القوم حين نَصَبُوا العجل، وقد كرهوا أن يجامعُوهم عليه. (تفسير الطبري 13/ 144)

3 فهذه القيادات الإسرائيلية المختارة تعكس النفسية الإسرائيلية المضطربة المعاندة، فاستحقت عقوبة عاجلة.

4 ذكر تَعَالَى قِصَّةَ الميقَات الإلهي لموسى عليه السلام، ثُمَّ أَتْبَعَ بِذِكْرِ قِصَّةِ الْعِجْلِ، ثُمَّ ذكر هذه القصة، والأصل حمل الكلام على مقتضى الظاهر، فهي ثلاث قصص متتابعة.

5 ولا يستبعد أن يحدث الأسوأ من القيادات التي اختارها موسى عليه السلام، فنحن نعلم أنه لم ينصر موسى عليه السلام عند طلبه دخول الأرض المقدسة إلا رجلان مع أخيه.

6 في سفر الخروج 24 وردت هذه القصة مليئة بالأكاذيب، مثل: وَرَأَوْا إِلهَ إِسْرَائِيلَ، وفي سفر العدد 11: 25 أنه أخذ الرُّوح التي عليه، وجعل على السبعين رجلًا من الشيوخ، وأنه لما حَلَّتْ عَلَيْهِم الرُّوحُ تَنَبَّأُوا - أي صاروا أنبياء-.

7 وفي سفر العدد تجد عجبًا من التمرد والعصيان، فيقولون:

13 أَقَلِيلٌ أَنَّكَ أَصْعَدْتَنَا مِنْ أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا لِتُمِيتَنَا فِي الْبَرِّيَّةِ حَتَّى تَتَرَأَسَ عَلَيْنَا تَرَؤُّسًا؟

14كَذلِكَ لَمْ تَأْتِ بِنَا إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً، وَلَا أَعْطَيْتَنَا نَصِيبَ حُقُولٍ وَكُرُومٍ. هَلْ تَقْلَعُ أَعْيُنَ هؤُلَاءِ الْقَوْمِ؟»

فالقرآن يصحِّح كلَّ التحريفات الواردة في التوراة المعاصرة.

4 مشهد [4]

ضياء دعاء الرسول، والوصول إلى جنة القبول

لما رأى موسى عليه السلام أن الرجفة أخذت السبعين تضرَّع بدعاء عظيم ليقبل الله عز وجل توبة النقباء السبعين [الأعراف: 155-156]:

آية المشهد

﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 155-156]

دعاء [1]

الابتهال بوصف الربوبية والقدرة والإحاطة: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ﴾.

1 كلمة [1-2] ﴿قَالَ رَبِّ﴾

نادى موسى عليه السلام الله عز وجل بوصف الربوبية، الذي يعني التربية، والإحسان، واللطف، والرحمة.

2 كلمة [3-8] ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾

يبتهل بصفة القدرة، والإحاطة، والحِلم، فـ(لو) كما يقول سِيبَوَيْهٍ رَحمَه الله: حرف لِمَا كَانَ سيقع لوُقُوع غَيره (الكتاب 224/4)، فموسى عليه السلام يقول: لو أردت أن تعذِّب بني إسرائيل والسبعين وأنا معهم على عبادتهم العجل لفعلت، ولكنك لم تفعل، فنستجير بحِلمك أن ترفع هذه العقوبة.

دعاء [2]

التضرُّع بوصف العدالة: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾.

1 فالذين اتخذوا العجل وأسَّسوا الوثنية هم السفهاء، وليسوا السبعين المختارين، والذين طلبوا رؤيتك من السبعين بعضهم، والسؤال بِمَعْنَى التفجع والاستعطاف، أَيْ: لَا تَفْعَل ذَلِكَ، وإن استحققناه.

2 في سفر العدد 16: 17-22:

ذكر أنه تقدَّم أمام الرب نحو: 250 رجلاً، وغضب الله عز وجل عليهم فأراد إفناءهم، وفيه أن موسى وهارون عليهما السلام: خَرَّا عَلَى وَجْهَيْهِمَا، وَقَالاَ: «اللّهُمَّ، إِلهَ أَرْوَاحِ جَمِيعِ الْبَشَرِ، هَلْ يُخْطِئُ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَتَسْخَطَ عَلَى كُلِّ الْجَمَاعَةِ؟»

دعاء [3]

التضرُّع بالإقرار بأن الله عز وجل فتن الخلق لهم اختبارًا؛ ليُظهِرَ لهم حقيقة تصرفاتهم، وأن الله عز وجل يحيط بهم بقدرته عليهم ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُ﴾.

1 كلمة ﴿هِيَ﴾ تعود على الفتنة، والفتنة تعني الاختبار الذي يُظهِر الزيف ويصهره، ويبقى الذهب المصفى، ويُظهره.

2 ﴿فِتۡنَتُكَ﴾: لا تدلُّ على الذمِّ ولا على المدح، بل حسب سياقها، وهي مشتقة من (فَتَنَ) الذهب بتعريضه للنار لتظهر جودته، ويُزال ما علق به من رديء الأشياء.

3 هي سنة قدرية توافق حرية الاختيار البشري، والذي قدَّرها هو الله عز وجل بتقديره العادل، ولو شاء أن يجعلهم صالحين كلَّهم لفعل، لكنه منحهم حقَّ الاختيار.

4 فـ﴿تُضِلُّ﴾ بِمُقْتَضَى الامتحان والابتلاء ﴿مَن تَشَآءُ﴾ مِنْ عِبَادِكَ، وَلَسْتَ بِظَالِمٍ لَهُمْ فِي تَقْدِيرِكَ، ﴿وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ وَلَسْتَ بِمُحَابٍ لَهُمْ فِي تَوْفِيقِكَ، بَلْ أَمْرُ مَشِيئَتِكَ دَائِرٌ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ، وَلَكَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ. (تفسير المنار 9/ 189)

دعاء [4]

التضرُّع بوصف الولاية التي تعني انعدام فُرَص الإنسان في حياة حقيقية لولا ولاية الله عز وجل له ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾.

الولي: هو الأقرب الذي يليك، فيتولَّى أمرك، فينصرك، ويرزقك، ويعينك، ويحبوك، ويعطيك.

دعاء [5]

التضرُّع بصفة المغفرة الإلهية التي لا يمكن أن تشابهها مغفرة المخلوقين ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾.

1 لأنك ولينا فاغفر لنا وارحمنا، ولأنك خير الغافرين، فاجعل مغفرتك ورحمتك لنا على خير الوجوه.

2 مغفرتك ورحمتك ليس لأنك تطلب نَفْعًا أَوْ تدفع ضررًا، بل لِمَحْضِ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ.

3 قرر رشيد رضا رحمه الله

أن الله عز وجل قدَّم المغفرة؛ لأنها الْأَهَمُّ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِذِكْرِ الرَّحْمَةِ؛ لِأَنَّهَا أَعَمُّ، وَلِأَنَّهَا قَدْ تَسْتَلْزِمُ الْمَغْفِرَةَ دُونَ الْعَكْسِ، فَإِنَّ مَعْنَى الْمَغْفِرَةِ سَلْبِيٌّ؛ وَهُوَ عَدَمُ الْمُؤَاخَذَةِ عَلَى الذَّنْبِ، وَالرَّحْمَةُ فَوْقَ ذَلِكَ فَهِيَ إِحْسَانٌ. (تفسير المنار 9/ 189)

دعاء [6]

استجداء المجد في الدنيا والآخرة: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأعراف: 156].

[1]

﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾

تبصِّرنا بأن موسى عليه السلام يطلب من الله عز وجل أن يُثْبِتَ له ولمن معه الحسنة في الدنيا والآخرة إثباتًا يصل إلى حدِّ الكتابة القدرية، وهو طلبٌ عظيم.

2 ولهذا الدعاء أهميته

ولذا علَّم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة الخاتمة أن يقولوا مثله في قول ربِّنا عز وجل:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 201].

3 الحسنة:

مشتقة من الحُسْن، فهي التي تَحْسُن في الحال والمآل، وقَعَّد ابن عاشور رحمه الله قاعدة مهمة هنا، فقال: النَّكِرَةُ يُرَادُ بِهَا الْعُمُومُ فِي سِيَاقِ الدُّعَاءِ. (التحرير والتنوير 9/ 128)

وقد تسأل: ما سرُّ الارتباط بين هذا الدعاء وبين ما سبقه من الأدعية؟

الجواب:

1. قَرَّرَ موسى عليه السلام أَوَّلًا أَنَّهُ لَا وَلِيَّ لَهُ إِلَّا اللَّه تَعَالَى ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾.
2. الْمُتَوَقَّع مِنَ الْوَلِيِّ أَمْرَانِ:
   - **1 أَحَدُهُمَا: دَفْعُ الضَّرَرِ**
     وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾.
   - **2 والثاني: تَحْصِيل النَّفْعِ**
     ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ (تفسير الرازي 15/ 378).
3. الآية تبصِّرنا أن دفع المضرة مقدمٌ على جلب المسرَّة، وأن اكتمال النعيم في تحصيلهما معًا.

دعاء [7]

التضرع لقبول الدعاء بإظهار التوبة ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾.

1 يؤكِّد أنه وقومه قد رجعوا إلى ربِّهم عز وجل رجوعًا مؤكَّدًا.

[2]

كلمة ﴿هُدْنَا﴾

أقوى في هذا المقام، فهي مشتقة من الْهَوْدِ أي: الرُّجوع برفق يرجى به الصلاح أو الراحة، ومنه: التَّهْوِيدُ، وهو مشي كالدَّبيب، فكأنه يترفَّق بقومه، ويعالج عنادَهم وروغانَهم، ويخبر أن عودتهم إلى ربِّهم عز وجل تدريجية، وليست بالمندفعة الحادة.

3 حتى يُحْسِنَ المرء الدعاء

ويظهر جمال الطلب، فيتحقَّق الرجاء، يجب أن يُبرِزَ الإنسان في دعائه أمرين:

1 الْأَوَّلُ: عَهْدُ عِزَّةِ الرُّبُوبِيَّةِ

وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـَٔىَّ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ﴾

2 وَالثَّانِي: عَهْدُ ذِلَّةِ الْعُبُودِيَّةِ:

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾

4 عندما تقارن هذا الدعاء

الذي يتلألأ إجلالًا وعبودية لله عز وجل بما جاء في سفر الخروج 32 سترى حقًّا أن القرآن هو الكتاب المهيمن الذي حُفِظَ من التحريف.

5 حسبك أن تجد في دعاء موسى عليه السلام في التوراة المعاصرة المحرَّفة قوله:

11 فَتَضَرَّعَ مُوسَى أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِهِ، وَقَالَ: «لِمَاذَا يَا رَبُّ يَحْمَى غَضَبُكَ عَلَى شَعْبِكَ الَّذِي أَخْرَجْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَيَدٍ شَدِيدَةٍ؟

12 لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ الْمِصْرِيُّونَ قَائِلِينَ: أَخْرَجَهُمْ بِخُبْثٍ لِيَقْتُلَهُمْ فِي الْجِبَالِ، وَيُفْنِيَهُمْ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ؟ ارْجِعْ عَنْ حُمُوِّ غَضَبِكَ، وَانْدَمْ عَلَى الشَّرِّ بِشَعْبِكَ.

إلى أن قال:

14 فَنَدِمَ الرَّبُّ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي قَالَ إِنَّهُ يَفْعَلُهُ بِشَعْبِهِ.

31 فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ، وَقَالَ: «آهِ، قَدْ أَخْطَأَ هذَا الشَّعْبُ خَطِيَّةً عَظِيمَةً، وَصَنَعُوا لأَنْفُسِهِمْ آلِهَةً مِنْ ذَهَبٍ.

32 وَالآنَ إِنْ غَفَرْتَ خَطِيَّتَهُمْ، وَإِلاَّ فَامْحُنِي مِنْ كِتَابِكَ الَّذِي كَتَبْتَ».

مشهد [5] 5

إجابة الدعاء متعلِّق بالإيمان بخاتم الأنبياء عليهم السلام

ورحمة الله عزوجل في الماضي والمستقبل مكتوبة لمن يؤمن بالرسول الخاتم ﷺ [الأعراف: 156-158]:

آيات المشهد:

﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف: 150-153]

وتكوَّن هذا المشهد من 5 إعلانات إلهية أجاب فيها عن مسائل موسى عليه السلام:

إعلان [1]

أفعال الله قائمة على صفتين عظيمتين متكاملتين: المُلك المطلق، والرحمة الأوسع:
﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾

1 كلمة [1] ﴿قَالَ﴾

تبصِّرنا بسعة رحمة الله عز وجل، حيث أجاب عبده موسى عليه السلام حين ناداه.

2 كلمة [2-6] ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾

فلا اعتراض على الله عز وجل في ملكه، فهو لا يُسأل عما يفعل جلَّ مجدُه، وبيَّنَ الله عز وجل في آيات أخرى أن تدبيرَه في ملكه إنما يكون وَفْقَ الحكمة، والعدل، وعدم الظلم.

3 كلمة [7-10] ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾

كلمات تملأ العالم بالسكينة، والطمأنينة، وصلاح البال، والمحبة، والرجاء، ومن معانيها:

1

رَحْمَتُهُ سبحانه وتعالى فِي الدُّنْيَا عَمَّتِ الْكُلَّ، فهي أوسع من هذا الكون الهائل الذي خلقه، والذي لا يدرك البشر ضخامته واتساعه، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

2

كلُّ حَيٍّ خَلَقَهُ اللَّه تَعَالَى لِلرَّحْمَةِ، وَاللَّذَّةِ، وَالْخَيْرِ؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ مُنْتَفِعًا أَوْ مُتَمَكِّنًا مِنَ الِانْتِفَاعِ فهو برحمة الله عز وجل من جهات كثيرة، وَإِنْ حَصَلَ هُنَاكَ أَلَمٌ فَلَهُ الْأَعْوَاضُ الْكَثِيرَةُ، وَهِيَ مِنْ نِعْمَةِ اللَّه تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ كما يقول الرازي رحمه الله (تفسير الرازي 15/ 379)، وحتى المُخَلَّد في النار وسعته رحمة الله عز وجل، لكنه رفضها.

3

ويصوِّرُ النبي صلى الله عليه وسلم سعة هذه الرحمة لأعرابي قال: «اللهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، ولا ترحم معنا أَحَدًا»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حجَّرت -أي: ضيَّقت- واسعًا» "البخاري (6010)".

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يومَ خَلَقَها مائَةَ رَحْمَةٍ، فأمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وتِسْعِينَ رَحْمَةً، وأَرْسَلَ في خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً واحِدَةً، فلوْ يَعْلَمُ الكافِرُ بكُلِّ الذي عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الجَنَّةِ، ولو يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بكُلِّ الذي عِنْدَ اللهِ مِنَ العَذابِ، لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ». "البخاري (6469)"

لماذا جاء التغيير في التعبير عن العذاب والرحمة، فعبَّر عن العذاب بالفعل المضارع ﴿أُصِيبُ﴾، وعبر عن الرحمة بالماضي: ﴿وَسِعَتْ﴾؟

الجواب:

الرحمة أساس صفاته جلَّ مجده، وبناء عليها خلق الله العالم، والماضي يدل على القِدَم والرسوخ، وأما الْعَذَابُ فلَيْسَ مِنْ صفات الله عز وجل، بل من أفعاله القائمة على العدل، والفعل المضارع ينبئنا أنه يعذب في الوقت الذي تقتضي فيه صفة الحكمة والرحمة والعدل، والعذاب جزء من الرحمة الشاملة.

إعلان [2]

رحمة الله عز وجل مكتوبة لمن استقام على أربع صفات، منها اتباع النبي الأمِّيِّ ﷺ

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: 156-157]:

صفة [1] التقوى ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾

1 كلمة [1] ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾

الفاء تفريع على ما سبق، و﴿سأكتبها﴾ تبصِّرنا أن كتابة الرحمة هنا كتابةُ جزاءٍ لمن يستقيم على صفات الأنقياء، والكتابة تصوِّر الشهادة المعظَّمة التي ينالها الفائز.

2 كلمة [2] ﴿لِلَّذِينَ﴾

اللام للاستحقاق، واسم الموصول يبشِّر بصفات المتقين.

3 كلمة [3] ﴿يَتَّقُونَ﴾

يجعلون وقاية بينهم وبين الأخطار الواقعة والمتوقعة في الدنيا والآخرة، بأن يملؤوا حياتهم بمحبة الله عز وجل، والعمل الصالح لوجهه.

صفة [2] ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾

1 كلمة [1] ﴿يُؤْتُونَ﴾

أي: يعطونها حال كون نفوسهم ونفوس من يتصدَّقون عليهم متأتيةً لذلك.

كلمة [2] ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾

هي الفريضة التي تصلح نفس الإنسان بربط قلبه مع قلوب من حوله، وسمِّيت كذلك؛ لأنها طهارة ونماء للنفس والمال والمجتمع، من زكا بمعنى: ربا ونما.

لماذا خَصَّ الله عز وجل الزَّكَاةَ بِالذِّكْرِ دُونَ الصَّلَاةِ، وَمَا دُونَهَا مِنَ الطَّاعَاتِ؟

الجواب:

1. لأن الصلاة وسائر الفرائض دخلت في التقوى.
2. لأن الخطاب لموسى عليه السلام ليبلغه بني إسرائيل، ومن أعظم صفات اليهود حبُّ المال، ولقد أفسدوا العالم بذلك.

صفة [3] ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾

كلمة [1] ﴿وَٱلَّذِينَ﴾

الواو تكمل صفاتهم، واسم الموصول تكرَّر لمنح هذه الصفة أهمية خاصة.

كلمة [2-4] ﴿هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾

قدَّم ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ على الفعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ للأهمية، فهم يؤمنون بآيات ربِّنا كلِّها، ولا يختارون منها ما يناسبهم، كما يفعل من يختار الإيمان بالصلاة مثلًا، ويترك آيات تحريم الربا.

صفة [4] اتباع الرسول النبيِّ الأمِّيِّ ﷺ المعظَّم عند الله عز وجل

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾

1 كلمة [1]

﴿ٱلَّذِينَ﴾

أعاد اسم الموصول لأهمية خاصة لهذه الصفة.

2 كلمة [2]

﴿يَتَّبِعُونَ﴾

الاتباع يعني سَيرُ المتَّبِعِ وراء المتَّبَع، لا مجرد الإيمان به، وهنا تكمن أهمية هذه الكلمة، فقد يؤمن الإسرائيليُّ وغيره بالنبيِّ الخاتم ﷺ، ولا يتبعه.

3 كلمة [3-5]

﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾

تمييزٌ للنبي الخاتم عن كلِّ الأنبياء.

4 هذه الصفة خاطب الله عز وجل بها موسى عليه السلام

وتعني أنه سيقبلُ توبتهم بشرط أن يتبعوا الرسولَ النبيَّ الأمِّيَّ؛ إما بالعزم على ذلك لمن لم يدركه، أو بتنفيذ ذلك لمن أدركه.

5 تُظهِرُ هذه الآيةُ أخطرَ صفات التوبة

التي يخفيها فُسَّاق بني إسرائيل إلى الآن.

قال ابن جريج وقتادة رحمهما الله قوله:

«﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، فقال إبليس: أنا من ذلك "الشيء"! فأنزل الله عز وجل: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ معاصيَ الله عز وجل، ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، فتمنتها اليهود والنصارى، فأنزل الله عز وجل شرطًا وَثيقًا بَيِّنًا، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾، فهو نبيُّكم، كان أميًا لا يكتُب ﷺ» (تفسير الطبري 13/ 157)

إعلان [3] أعلن الله عز وجل أهمَّ صفات النبيِّ الأميِّ الذي يجب أن يؤمن به بنو إسرائيل والعالم:

صفة [1] الجمع بين الرسالة والنبوة:

﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ﴾

فالرسول بالنظر إلى تبليغه، والنبيُّ بالنظر إلى رفعته:

بدأ بصفة الرسالة؛ لأنها أخص وأشرف وأعلى، وتقتضي التبليغ، ولأن الرسول قد يكون ملَكًا وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿النَّبِيَّ﴾ أي: الذي يأتيه الوحي من الله عز وجل، من النبأ أي: الخبر العظيم العالي الشأن، ومن النَبْوَة أي: الارتفاع في الرُّتبة.

صفة [2] الأمية: ﴿الْأُمِّيَّ﴾

1

مشتقة من (أَمَّ)، ويظهر أن أصل معناها: مركز يرجع إليه غيره، ويدير غيره بذاته أو باتباعه.

2

قال الراغب رحمه الله: و﴿الْأُمِّيَّ﴾: "هو الذي لا يكتبُ، ولا يقرأ من كتاب" (المفردات ص87)، وهذا الوصف من معجزاته؛ لأنه الأمِّيُّ الذي يعلِّم العالم بالوحي، لا بعبقريته، ولا ذكائه، نسبة إلى أُمِّه كأنه خرج منها، ولم يتعلم شيئًا مكتسبًا بعد.

فلماذا ذكر الله عز وجل هذه الصفة بالذات؟

الجواب:

1

قال البقاعي رحمه الله: "قال مبينًا لأعظم المعجزات، وهي أنَّ عِلْمَه بغير معلِّم من البشر: ﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾... والمعنى أني لا أغفر لأحد من بني إسرائيل ولا من غيرهم إلا إن اتبع محمدًا ﷺ، وهذا الاتباع تارة يكون بالقوة فقط لمن تقدَّم موته على زمانه، وتارة يخرج من القوة إلى الفعل ممن لحق زمان دعوته"

(نظم الدرر 8/ 106).

2

الأمية - كما يقرر ابن عاشور رحمه الله - وَصْفٌ خَصَّ اللَّهُ بِهِ مِنْ رسله مُحَمَّدًا ﷺ؛ إِتْمَامًا لِلْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ الْعَقْلِيِّ الَّذِي أَيَّدَهُ اللَّهُ عز وجل بِهِ، فَجَعَلَ الْأُمِّيَّةَ وَصْفًا ذَاتِيًّا لَهُ، لِيُتِمَّ بِهَا وَصْفَهُ الذَّاتِيَّ وَهُوَ الرِّسَالَةُ، لِيُظْهِرَ أَنَّ كَمَالَهُ النَّفْسَانِيَّ كَمَالٌ لَدُنِّيٌّ إِلَهِيٌّ.

(التحرير والتنوير 9/ 133).

3

هذا الوصف موجود بدقة لا ينطبق إلا على قرة عيون البشر أجمعين، والرحمة التي أهداها للعالمين: محمد رسول الله ﷺ.

ففي سفر إشعياء 29:12:

يدفع الكتاب لمن لا يعرف القراءة، فيقول: لا اعرف القراءة.

In the book of Isaiah 29:12, “Then the book is delivered to one who is illiterate, saying, “Read this, please.” And he says, “I am not literate

صفة [3] التبشير بمجيئه في التوراة والإنجيل:

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾

1 كلمة [1] ﴿ٱلَّذِى﴾

اسم موصول يعود على ذلك الرسول الذي يجب أن يتبعه أتباع موسى عليه السلام ليغفر الله عز وجل لهم.

2 كلمة [2] ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾

أي: يجدون ذاته في التوراة والإنجيل، والذات لا تكون مكتوبة، ولكن الآية تصوِّر لنا أن أوصافه واضحة، حتى يرى الإنسان كأن ذاتَه موجودةٌ في كتبهم.

2 كلمة [3-7] ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾

فمهما حرَّفوا يظهر وجوده في كتبهم.

4 عن رَجُلٍ مِنَ الْأَعْرَابِ قَالَ: جَلَبْتُ جَلُوبَةً إِلَى الْمَدِينَةِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ بَيْعَتِي قُلْتُ: لَأَلْقَيَنَّ هَذَا الرَّجُلَ فَلَأَسْمَعَنَّ مِنْهُ، قَالَ: فَتَلَقَّانِي بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ رضي الله عنهما يَمْشُونَ، فَتَبِعْتُهُمْ فِي أَقْفَائِهِمْ حَتَّى أَتَوْا عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ نَاشِرًا التَّوْرَاةَ يَقْرَؤُهَا، يُعَزِّي بِهَا نَفْسَهُ عَلَى ابْنٍ لَهُ فِي الْمَوْتِ، كَأَحْسَنِ الْفِتْيَانِ وَأَجْمَلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«أَنْشُدُكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ، هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِكَ ذَا صِفَتِي وَمَخْرَجِي؟»، فَقَالَ بِرَأْسِهِ هَكَذَا، أَيْ: لَا، فَقَالَ ابْنُهُ: إِي وَالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ إِنَّا لَنَجِدُ فِي كِتَابِنَا صِفَتَكَ وَمَخْرَجَكَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: «أَقِيمُوا الْيَهُودَ عَنْ أَخِيكُمْ»، ثُمَّ وَلِيَ كَفْنَهُ، وَجَنَنَهُ (أي: وقبْرَه) وَالصَّلَاةَ عَلَيْهِ» "أحمد (23492)، وقال ابن كثير في تفسيره (3/ 483): "هَذَا حَدِيثٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ، لَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه".

5 عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال:

«والله إنّه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: 45]، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكل، ليس بفظٍّ، ولا غليظ، ولا سخَّاب في الأسواق -السخب: الصياح- ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولا يقبضه الله حتى يقيم به الملَّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا». (البخاري 2125).

6 هذه البشارة موجودة عندهم

فقد نقل القرطبي، وابن تيمية، وابن القيم رحمهم الله عما رأوه في نسخ التوراة في سفر إشعياء ما يماثل هذه الصفات:

«عبدي الذي سرَّت به نفسي، أنزل عليه وحيي، فيُظهرَ في الأمم عدلي، ويوصيهم بالوصايا، لا يضحك، ولا يُسمع صوتَه في الأسواق، يفتح العيونَ العُور، والآذان الصمَّ، ويحيي القلوبَ الغُلْفَ، وما أعطيه لا أعطيه أحدًا، يحمد الله حمدًا جديدًا، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذي لا يُطفى، أثر سلطانه على كتفيه». الإعلام بما في دين النصارى من المفاسد والأوهام (273)، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (5/157)، مدارج السالكين (1/231)".

7 عقدت مقارنة سريعة مع النسخ الحالية فوجدت في سفر أشعياء 42:

1 «هُوَذَا عَبْدِي الَّذِي أَعْضُدُهُ، مُخْتَارِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. وَضَعْتُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْرِجُ الْحَقَّ لِلأُمَمِ. [مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشورى: 52].

2 لَا يَصِيحُ وَلَا يَرْفَعُ وَلَا يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ.

4 لَا يَكِلُّ وَلَا يَنْكَسِرُ حَتَّى يَضَعَ الْحَقَّ فِي الأَرْضِ، وَتَنْتَظِرُ الْجَزَائِرُ شَرِيعَتَهُ.

7 لِتَفْتَحَ عُيُونَ الْعُمْيِ، لِتُخْرِجَ مِنَ الْحَبْسِ الْمَأْسُورِينَ، مِنْ بَيْتِ السِّجْنِ الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ».

8 يُكمِل السفر الكلام بما يشعرك بأن المقصود محمد ﷺ؛ إذ يذكر أن الذكر الذي سيأتي سيكون جديدًا، ويذكر ديار قيدار (وهم بنو إسماعيل) خاصة، وسكان سالع (جبل معروف عند العرب)، فيقول:

11 لِتَرْفَعِ الْبَرِّيَّةُ وَمُدُنُهَا صَوْتَهَا، الدِّيَارُ الَّتِي سَكَنَهَا قِيدَارُ. لِتَتَرَنَّمْ سُكَّانُ سَالِعَ. مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ لِيَهْتِفُوا.

16 وَأُسَيِّرُ الْعُمْيَ فِي طَرِيقٍ لَمْ يَعْرِفُوهَا. فِي مَسَالِكَ لَمْ يَدْرُوهَا أُمَشِّيهِمْ. أَجْعَلُ الظُّلْمَةَ أَمَامَهُمْ نُورًا، وَالْمُعْوَجَّاتِ مُسْتَقِيمَةً. هذِهِ الأُمُورُ أَفْعَلُهَا وَلاَ أَتْرُكُهُمْ.

17 قَدِ ارْتَدُّوا إِلَى الْوَرَاءِ. يَخْزَى خِزْيًا الْمُتَّكِلُونَ عَلَى الْمَنْحُوتَاتِ، الْقَائِلُونَ لِلْمَسْبُوكَاتِ: أَنْتُنَّ آلِهَتُنَا!

18 «أَيُّهَا الصُّمُّ اسْمَعُوا. أَيُّهَا الْعُمْيُ انْظُرُوا لِتُبْصِرُوا». (سفر إشعياء، القس أنطونيوس فكري، ص: 218- 221).

9 في سفر التثنية 18:

18 أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ.

وذكر الحاخام شموئيل بن يحيى

في كتابه «غاية المقصود في الردِّ على النصارى واليهود ص: 102» أن هذه الفقرة من التوراة كانت سببًا لإسلامه، فذكر أنه رأى النبي شموئيل، وهو يظن أن هذه النبوة فيه، فزجره، وأنكر عليه سقم فهمه، وأخبره أنها لا تكون إلا فيمن نشأ في برية فاران أي مكة، فقوَّى ذلك ما في نفس الحاخام من الإقبال على الإسلام، فأسلم.

10 في سفر حجي 2:

7 وَأُزَلْزِلُ كُلَّ الأُمَمِ. وَيَأْتِي مُشْتَهَى كُلِّ الأُمَمِ، فَأَمْلأُ هذَا الْبَيْتَ مَجْدًا، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ.

ومشتهى كلِّ الأمم لا بد من مراجعته في لغته الأصلية، ولذلك اعتمده جودفري هيجينز في كتابه اعتذار لمحمد Apology for Mohamed by Godfrey Higgins: هنا تنبأ النبي حجي صراحة وبالاسم، لا يوجد أي إقحام هنا ولا مهرب من هذا النص ومعناه.

صفة [4] ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾

فيصلح العالَم بهذه الفريضة

1. فالمعروف ما تعارف الناس على حسنه، وأَلِفَته القلوب، ورغبت فيه النفوس بفطرتها لا بشهوتها.
2. والمنكر ما أنكرته القلوب، واستبشعته، واستفظعته.

3 فعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ، وأَبِي أُسَيْدٍ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«إِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ، وَتَلِينُ لَهُ أَشْعَارُكُمْ، وَأَبْشَارُكُمْ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ، فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ، وَتَنْفِرُ أَشْعَارُكُمْ، وَأَبْشَارُكُمْ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ» "مسند أحمد (16058)، وقال المحقّقون: إسناده على شرط مسلم".

صفة [5] ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾

فجاء لسعادة البشر وعافيتهم في أبدانهم ونفسياتهم

1. الطيبات: ما طاب في الشريعة والطبيعة معًا، ومنها ما حرَّموه عَلَى أَنْفُسِهِمْ افتراء على الله، مثل ما حرمه النباتيون، والوثنيون من السوائب التي جعلوها لا تذبح هدية لأصنامهم.
2. الخبائث: ما يُكْرَه رداءةً وخساسةً، محسوسًا كان أو معقولًا، ويؤدِّي إلى وجود الرداءة في النفس أو الواقع كالدم، والميتة، ولحم الخنزير، والربا، والرشوة، واغتصاب الأراضي والأنفس والأموال.

صفة [6] ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾

1 ﴿يَضَعُ﴾: يحطُّ الشيء من أعلى إلى أسفل على جهة تركه، والإصر: الثِّقَل الذي يَأصِرُ صاحبه، أي يحبسه من الحراك لثِقَله.

2 أي ينسخ تشريعُه الأشياءَ الشاقَّةَ التي كانت واجبة عليهم من قبل، كاشتراط قتل الأنفس في صحة التوبة، والعقوبة بالقتل على العمل يوم السبت، وقطع الأعضاء الخاطئة.

3 والأغلال: جمع غُلٍّ، وهو ما يوضع في عنق الأسير من قيود، والمقصود بها إزالة حالة الذُّل والهوان التي لازمت بعض بني الإنسان، مثل زَوَالِ مُلْكِهم، وتلاعب جبابرتهم بهم؛ وإقامة الأحكام بناء على الجاه، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ جَاءَ بِتَسْوِيَةِ أَتْبَاعِهِ فِي حُقُوقِهِمْ.

4 ولا بد من الرجوع لكتبهم ثم التحقيق فيما يقولون ليكون التمثيل مستقيمًا، ومما نقله البقاعي رحمه الله: فكلُّ من يقترب إلى ميت أو ميتة يكون نجسًا سبعة أيام، وينضح عليه من ذلك الماء في اليوم الثالث واليوم السابع ويتطهر. (نظم الدرر 8/ 124).

فهل الصيام وتحريم الزنا والخمر مثلًا من الآصار والأغلال؟

الجواب:

لا، فالمشقة الموجودة هنا تتطلب بذل مجهود ضمن قدرة الإنسان تكبح فساده، وتمتلئ الشريعة الخاتمة بالتيسير، مثل قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ» "ابن ماجه (2045)، وذكر البوصيري في مصباح الزجاجة (2/ 126) أن إسناده صحيح، لكنه منقطع"، وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ، قَالَ: «بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا». "مسلم (1732)"

لماذا ذكر الله عز وجل هذه الصفات بهذا التفصيل الدقيق؟

الجواب:

ليُعْرَفَ النبيُّ الذي ينتظره أتباع موسى عليه السلام، ويُمَيَّزَ عن كلِّ نبي قبله، وعن كلِّ دجال يدَّعي النبوة معه أو بعده، فقد قال ﷺ:

«وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِينَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ». "البخاري (3609)".

إعلان [4]

أهمُّ فرائض الاتباع الواجب لهذا النبي المعظَّم ﷺ ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]:

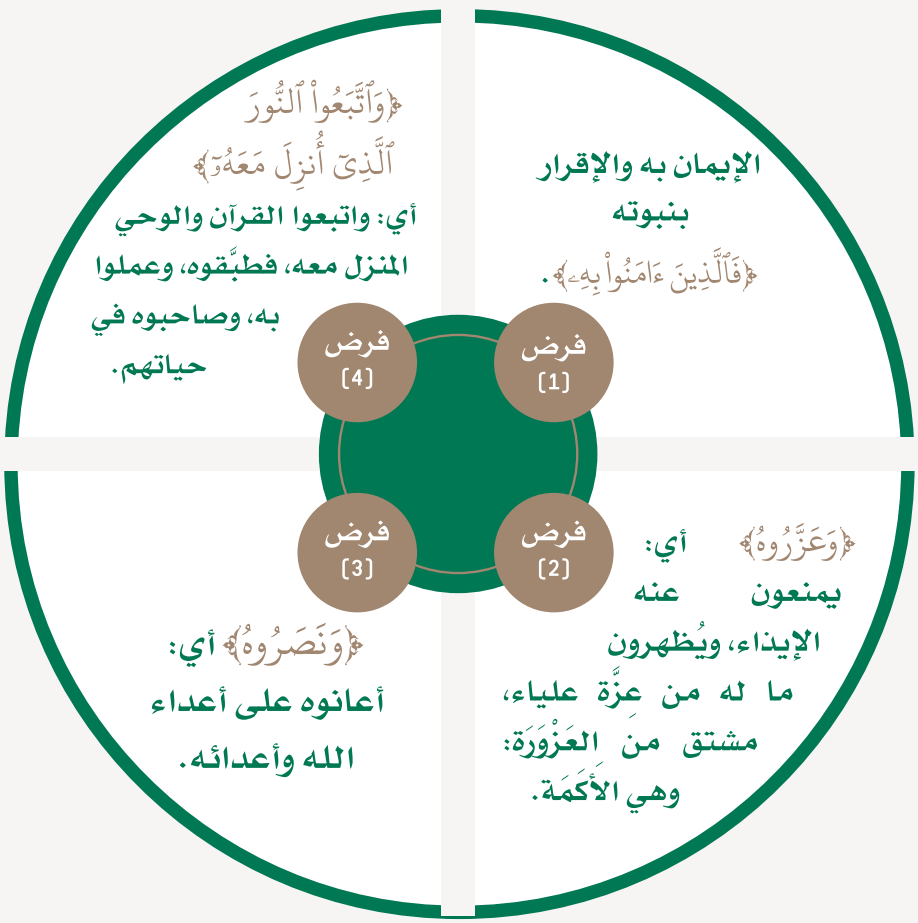

نتيجة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]

قد تسأل: ما علاقة هذا بما طلبه موسى عليه السلام من أن يتوب الله عز وجل على قومه، وأن يكتب لهم في الدنيا حسنة وفي الآخرة؟

الجواب:

لأن الله عز وجل علق الفلاح في بني إسرائيل على أمرين: أن يلتزموا بصفات التائبين، وأن يؤمنوا بخاتم النبيين ﷺ قبل بعثته بترقبها والإيمان بها، وبعد بعثته بالإيمان به، واتباع شريعته، فما بال بني إسرائيل عنه يهربون، وله محاربون؟!

2 هذه الآية العظيمة تظهر فضل أصحاب النبي ﷺ؛ وكلّ متّبع للنبي ﷺ.

فبعض اليهود يؤمنون برسول الله ﷺ على أنه نبي الأميين فحسب، فقد قال النبي ﷺ لِابْنِ صَيَّادٍ اليهودي: «تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟»، فَنَظَرَ إِلَيْهِ ابْنُ صَيَّادٍ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الْأُمِّيِّينَ. "البخاري (1354)"

فنقول لليهود:

تذكَّروا ما جاء في سفر يشوع بن سيراخ 2:

13. فإن الرب رؤوف رحيم، يغفر الخطايا، ويخلِّص في يوم الضيق

15. ويل للقلب المتواني، إنه لا يؤمن، ولذلك لا حماية له

16. ويل لكم أيها الذين فقدوا الصبر، وتركوا الطرق المستقيمة، ومالوا إلى طرق السُّوء.

ونقول للنصارى:

ما جاء في إنجيل متى 23:

13. "لكِنْ وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ! لأَنَّكُمْ تُغْلِقُونَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ قُدَّامَ النَّاسِ، فَلَا تَدْخُلُونَ أَنْتُمْ، وَلَا تَدَعُونَ الدَّاخِلِينَ يَدْخُلُونَ".

إعلان [5]

إعلان الرسالة الخاتمة للعالَم، بعد إلزام أتباع موسى عليه السلام باتباعه في الآية السابقة {الأعراف: 158]، وتكوَّن هذا الإعلان من أربعة تعريفات:

آية الإعلان:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158]

تعريف [1] الأمر بالتبليغ العالمي:

[1]

﴿قُلْ﴾

كلمة ضخمة تعني أنه يجب عليك -يا رسول الله- أن تعلن للعالم، وأن تجعل ذلك الإعلان أساسًا في الإعلام، والتربية، والتوجيه، والتثقيف، وكأنه يقول: لا تضيعوا حياتكم دون أن تعرفوا ما أراده منكم ربكم الذي خلقكم.

2 هذا يعني

توفير التعليم لإيجاد المبلِّغين في التخصصات المتعدِّدة بإنشاء المدارس والجامعات، وإنشاء الوسائل الإعلامية المتعدِّدة، والأنشطة المتنوعة لأجل ذلك.

تعريف [2] تعريف المرسَل والمرسَل إليهم:

[1]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾

تصوِّر عالمية الخطاب، فالرسالة الإلهية الخاتمة ليست للعرب وحدهم، بل لكلِّ الإنسانية.

[2]

﴿إِنِّى﴾

تأكيد على حقيقة الرسول ﷺ.

[3] ﴿رَسُولُ﴾

فهو مبلِّغ، لا منشئ، ولا مخترع، فهو مضاف.

[4] ﴿ٱللَّهِ﴾

اسم العظيم الذي أَرْسَل، فهو مضاف إليه.

[5] ﴿إِلَيْكُمْ﴾

تأكيد على الجهة المرسَل إليها، وهي العالَم.

[6] ﴿جَمِيعًا﴾

تأكيد مجدَّد على العالمية لئلا يراوغ أحد.

يزيد النبي ﷺ ذلك إيضاحًا وبيانًا، فيقول:

«أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي، وَلا أَقُولُهُنَّ فَخْرًا: بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ». "أحمد (2742)، وحسنه الأرناؤوط".

وقال ﷺ عن الصدِّيق رضي الله عنه:

«هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ». البخاري (4640)".

تعريف [3] **تعريف بالمرسِل العظيم:** ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ﴾

كأن السامع لما سمع الرسول ﷺ يقول: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ قال: فما أعظم صفات الله عز وجل الذي أرسلك؟ وما الدليل أنه يستحقُّ وحده أن يعبد دون غيره؟

فيأتي الجواب:

كأن هناك محذوفًا تقديره: الله ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ﴾، فيكون صفة، أو منصوبًا على المدح تقديره: أعني.

ذكر ثلاث صفات عظمى:

[1] ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

المُلك العام إثبات لتوحيد الربوبية.

[2] ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

إثبات لتوحيد الألوهية.

[3] ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾

إثبات لتوحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، واليوم الآخر.

تعريف [4] تعريف بالواجب على البشرية بناء على ذلك:

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: 158]

فذكر أركان الإيمان:

1. ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ الواحد في ربوبيته وألوهيته.
2. ﴿وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ فذكر نبوَّته بأفضل أسلوب، فلم يكن للأمي أن يأتي بمثل هذا الوحي من عنده، وهو النبي الأمي الوحيد.
3. ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وكلماته توجد في كتبه، وتشمل كلماتِه الأخباريةَ، والتشريعية، والتكوينية
4. تضمَّن ذلك الإيمان بالملائكة واليوم الآخر، والقدر.
5. ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ في أعمال القلوب، واللسان، والأركان.
6. والإيمان بالله ورسوله يقتضي النطق بالشهادتين.

النتيجة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158]

أي: عندما تفعلون ذلك تُهَيَّؤون لتكونوا هداة حاضرًا ومستقبلًا، وصوَّرَ لنا ذلك الفعل المضارع

قد تسأل: نقض بني إسرائيل الأول للميثاق الإلهي كان بمطالبتهم بتأسيس الشرك، والثاني: بتأسيس دار الفاسقين، وتحدَّث النقض الثالث عن العقلية العجْلية التي نادت بالإلحاد الصريح، وتميز الرابع بذكر نقض مستقبلي، متعلق بنقض الإيمَان بالنبي الخاتم ﷺ، فما النقض الخامس؟

الجواب: هنا يأتي:

النقض الإسرائيلي الأكبر الخامس: "العقلية التَّبْديلية الإسرائيلية":

نقض الأخذ بأحسن الكتاب، وذلك بتحريف التبديل

[الأعراف:١٥٩-١٦٢]

لعلك تسأل: ما المشاهد التي تضمَّنها هذا النَّقض؟

الجواب: تكوَّن هذا النَّقض من 4 مشاهد، وهي كالآتي:

مشهد [1] 1

بقاء دور ثلة من مصلحي أتباع موسى عليه السلام:

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159]

1 كلمة [1-4]

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾

مبتدأ وخبر، أي: وأُمَّة خاصة صالحة كائنة أو باقية من بعض قوم موسى عليه السلام، والأُمَّة: الجماعة يَؤُمُ -أي: يقصد- بعضهم بعضًا في مسألة مشتركة.

2 كيف أظهرت الواو اتصال الآية بما قبلها؟

الجواب: لما ذكر الله عز وجل أن الرجفة أخذت السبعين المختارين، كما أن الذين عبدوا العجل من قوم موسى أمة عظيمة استضعفت هارون عليه السلام ومن معه؛ فإن السامع ربما يظن أن أتباع موسى لا يكاد يوجد فيهم خير، وحينها بيَّنَ الله عز وجل لنا بقاء أُمَّة صالحة مصلحة من قوم موسى عليه السلام.

[3]

قال الله عز وجل: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ﴾

ولم يقل: ومن بني إسرائيل؛ للإشعار بدور موسى عليه السلام في تبليغ قومه ما يجب أن يقوموا به لتوبتهم من ترك العمل بما أُنزل إليهم.

4 وصف الله عز وجل الأمة الصالحة من قوم موسى عليه السلام بصفتين:

﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾

أي: يستقيمون عليه، ويهدون غيرهم، مصاحبين له، فلا يهدون غيرهم بالباطل كما تفعل المبتدعة.

﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾

أي: يعدلون به في التعامل مع الناس، والحكم بينهم، فلا يتبعون أهواءهم، ولا النُظُم الجاهلية.

قدَّم الجار والمجرور ﴿وَبِهِۦ﴾ على الفعل ﴿يَعۡدِلُونَ﴾

للاهتمام بأن العدل لا يوجد إلا بالحقِّ الذي أنزله الله عز وجل على الأنبياء عليهم السلام، فحتى لو قضى بالعدل بالاعتماد على تفكيره أو شرائع وضعية معرضًا عن شريعة الله عز وجل فإن عدله يكون جزئيًا.

لذا قال رَسُول اللَّهِ ﷺ:

«القُضاةُ ثلاثة: واحِدٌ في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجلٌ عَرفَ الحقَّ فقَضَى به، ورَجُلٌ عرف الحقَّ فجار في الحكم، فهو في النار، ورَجُلٌ قضى للنَّاس على جهلٍ، فهو في النار». "أبو داود (2315)، وقال ابن عبد الهادي في المحرر (1170): إسناده جيد، وصححه العراقي في المغني (ص78)".

لماذا يذكر الله عز وجل الصالحين من قوم موسى عليه السلام؟

الجواب:

لنهتمَّ بالتَّعرُّف إليهم، والتعاون معهم، فهم ينكرون فساد الطرف المجرم.

مشهد [2] 2

تنظيم الإسرائيليين في مسيرهم إلى الأرض المقدسة

وإكرام الله لهم وإصرارهم على ظلم أنفسهم [الأعراف160]

آية المشهد:

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 160]

فظهرت 5 مواد في تنظيم بني إسرائيل:

مادة [1]

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ فقسمهم الله عز وجل إلى اثنتي عشرة أمة:

[1]

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾

الواو وصلت ما بعدها بما قبلها، فقد قصَّ الله عز وجل علينا بداية عصر التمكين الإسرائيلي بقوله: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ ﴾ [الأعراف: 138].

2

فالله عز وجل جعل تلك المرحلة بداية لأنْ يورث المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها، لكن فساق بني إسرائيل جعلوها أساسًا للأنقاض الكبرى التي نقض بها بنو إسرائيل عهد الله عزوجل.

3

وهنا ذكر عز وجل أنه أنعم عليهم في التَّيْه بميزات تنظيمية هائلة لكنهم أصروا على ظلم أنفسهم.

4

فالواو عطفت هذا القِسْم على النقض الأول، وليس كما قال ابن عاشور رحمه الله: «فَإِنَّ ذَلِكَ التَّقْطِيعَ وَقَعَ فِي الْأُمَّةِ الَّذِينَ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ» (التحرير والتنوير 142/9)، بل التقطيع وقع للجميع.

[5]

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾

حيث عوَّدهم على إدارة أنفسهم بصورة منظمة ما زالوا يتعاملون بآثارها إلى اليوم.

6 تصوِّر كلمة

﴿قَطَّعْنَٰهُمُ﴾

تمييز بعضهم عن بعض بصورة واضحة، فالكلمة مشتقة من قَطَعَ، أي: أبانهم الله عز وجل عن بعضهم بعد أن كانوا لحمة واحدة، وقسمهم إلى ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾، هي عدد المجموعات الكبرى المكوِّنة لبني إسرائيل.

7 فقوله:

﴿أَسْبَاطًا﴾

بدل من ﴿ٱثْنَتَىْ﴾، والتمييز الذي بيَّن العدد محذوف، تقديره: اثنتي عشرة فرقة أو قطعة أسباطًا.

8 كلمة

﴿أُمَمًا﴾

تصوِّرُ لنا أن كلَّ قبيلة منهم كثرت حتى صارت أمة بذاتها، والأمة الجماعة التي تجمعها روابط محدَّدة تميزها عن غيرها، وتطلق على القليل والكثير.

9 تصوِّرُ كلمتا

﴿أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾

أساس التقطيع الذي لا يظهر منه التفضيل لأحد على أحد، وهو باعتبار النَّسَب.

10

فالأسباط مشتقة من "سبط"، وأصله امتداد وانبساط من أصل، ومنه: سَبطُ القَصَب: وهو الممتد الذي ليس فيه تعقُّد ولا نتوء، ومنه: السِّبْط بالكسر: الوَلَد أو وَلَدُه؛ لأنه فرع لأصله كالامتداد له، فكلمة ﴿أسباط﴾ تعني قبائل من نسل ولد من أبناء يعقوب.

11

هذا التقطيع يدلُّ على قوة التنظيم الذي علمهم الله عز وجل إيَّاه؛ وامتنَّ به عليهم؛ لأنه نظام إداريٌّ مدهش لتوجيه الأمة الكثيرة العدد، كما قال ابن عاشور رحمه الله: "وَهُوَ مِنْ مَحَاسِنِ سِيَاسَةِ الشَّرِيعَةِ الْمُوسَوِيَّةِ، وَمِنْ مُقَدِّمَاتِ نِظَامِ الْجَمَاعَةِ... وَهُوَ نَظِيرُ مَا فَعَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ تَدْوِينِ الدِّيوَانِ". (التحرير والتنوير 142/9)

مادة [2]

إخراج الثروة المائية، وتنظيم تقاسمها:

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾ [الأعراف: 160]

1 احتاجوا إلى الماء في مسيرهم في الصحراء، وبالجمع بين سورة البقرة وسورة الأعراف تكتمل الصورة:

سورة الأعراف

صوَّرت لنا بني إسرائيل يطلبون من موسى عليه السلام أن يوفِّر لهم الماء:

﴿إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾

سورة البقرة

تصور لنا أن موسى عليه السلام لم يجد مجالًا ليوفِّر الماء لهم وَفْقَ سببٍ بشريٍّ مستطاع، فسأل السقيا من الله عز وجل:

﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾ [البقرة: 60]

2 فأوحى الله عز وجل إليه بعظمته أن يضرب حجرًا معينًا، فقال:

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾

[3] والألف واللام في كلمة

﴿ٱلۡحَجَرَ﴾

يدلُّ على أنه حَجَرٌ معهود كبير يمكن أن تنبثق منه اثنتا عشرة عينًا.

4 حدثت المعجزة

﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾

5 الصورة الكاملة لخروج الماء من الحَجَر مرَّ بمرحلتين:

المرحلة الأولى: الانبجاس

وصَوَّرته سورة الأعراف المكية: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ [الأعراف: 160]، وَالانْبِجَاسُ: اسْمٌ لِلشَّقِّ الضَّيِّقِ الْقَلِيلِ، فهو بداية الانفجار، فكلمة (بَجَسَ) تصوِّر تَفَتُّح الشَّيْءِ بِالْمَاءِ خَاصَّةً.

المرحلة الثانية: الانفجار

وصَوَّرته سورة البقرة المدنية: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ [البقرة: 60]، والْفَجْر: الشَّقُّ، وَمِنْهُ الْفَاجِرُ؛ لِأَنَّهُ يَشُقُّ الصراط المستقيم بفجوره، ولكن الانفجار يدلُّ على الاندفاع بقوة، فهو وصف لطبيعة الخارج من الماء.

ورأى الرازي رحمه الله أن أحوالهم ربما اختلفت من حيث حاجتُهم للماء، فربما اشتدَّت الحاجة فينفجر الماء، وربما قلَّت فينبجس. (تفسير الرازي 3/ 529)

6 فيخرج الماء من الحَجَر المكعَّب عبر اثنتي عشرة فتحة تشكِّلُ كلُّ واحدة عينًا

فيأتي أفراد كلِّ سبط، فيشربون من عَينهم المخصَّصة: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾ تصوِّرُ التوزيع العادل المنظِّم لعملية شرب الماء بين أفراد الأسباط الاثني عشر، فكلٌّ منهم يعرف المكان الذي يأخذ منه نصيبه من الماء.

مادة [3] معجزة الظِّل في المنطقة الحارة: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَامَ﴾ [الأعراف: 160]

فجمع الله عز وجل لهم الغمام ليظلِّهم من حرارة الشمس في المنطقة الصحراوية، و﴿ٱلۡغَمَامَ﴾: جمع غَمامة، وهي السحابة التي تغمُّ الرؤية، ومثلها تجلب الهواء البارد العليل.

مادة [4]

وفرة الطعام اللذيذ المتنوع: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [الأعراف: 160] فبعد توفر الماء والظِّل يأتي الاستمتاع بالطعام

1

منَّ الله عز وجل عليهم بنوعين من الطعام: ﴿ٱلْمَنَّ﴾ وهو نوع من الخبز يجمع بين كونه خبزًا وحلوى، ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾، وهو نوع من لحوم الطيور اللذيذة.

2

وأمرهم بالاستمتاع بهذه الطيبات، فقال: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، ولماذا يأمرهم بالاستمتاع بالأكل؟ لئلا يظنوا أنَّ من التقرب إليه تركَ الأكل منها.

مادة [5]

يربِّي الله عز وجل عباده على المسؤولية الفردية والجماعية، فمن عاند نظام ربِّه، فإنما يظلم نفسه ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 160]:

1 الظلم:

وضع الشيء في غير موضعه، زيادة أو نقصًا، والمعنى ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: وما أدخلوا علينا نقصًا في ملكنا وسلطاننا بمعاصيهم، وتمرُّدِهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: ينقصونها حظوظَها باستبدالهم الأدنى بالخير، والأرذل بالأفضل، والكفران بالإيمان.

[2] الفعل المضارع

﴿يَظْلِمُونَ﴾

يصورهم وهم يستمرون في الظلم لأنفسهم، وللعالم.

مشهد [3]

3

تكوينُ دولةٍ مميَّزةٍ تمثِّل الاستقرار والازدهار، ونشرُ نوره في بقية الأقطار:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 161]، فنظَّم لهم المنهجَ الراشد لإقامة هذه الدولة، فسنَّ 5 قوانين:

1 قانون [1] التمتع بالسكنى المستقرة:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ فبعد الدخول تكون السكنى ليجدوا الأمن والسكينة.

2 قانون [2] التمتع بأنواع المأكولات:

﴿وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ فالسكنى ليست للعبادة المحضة فحسب، بل يتمتعون فيها بأنواع الطيبات، و﴿حَيْثُ﴾: تبصِّرنا بالسعة المكانية والزمانية، وأنواع الأكل المختلفة.

3 قانون [3] عند السكنى والأكل ينبغي ألا ينسوا طلب المغفرة

والحطِّ من الذنوب ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أي قولوا: احطُط عنا خطايانا.

4 قانون [4] عند دخول الباب ينبغي أن يَظهر الخضوع

والخشوع، والتعبد لله عز وجل بالسجود ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، والمقصود باب هذه العاصمة عند فتحها، أو باب مكان مخصَّص للعبادة.

وعلَّمنا النبي ﷺ الشكر لله في الفتح

فدخل يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَى نَاقَتِهِ، وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ يُرَجِّعُ. "البخاري (4281)"

قال ابن إسحاق رحمه الله:

يَضَع رَأْسَهُ تَوَاضُعًا لِلّهِ حِينَ رَأَى مَا أَكْرَمَهُ اللّهُ بِهِ. (سيرة ابن هشام 2 /405، حسن مرسل).

5 قانون [5] عند الالتزام بهذا النظام

سيجدون المكافأتين اللتين تمثِّلان أعظم أهداف الإنسان:

1 مكافأة [1]

المغفرة:

﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔتِكُمۡۚ﴾

2 مكافأة [2]

الزيادة حسب مقدار اجتهادهم في الإحسان في تطبيق النظام الإلهي

﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

فيحثهم على الارتقاء من مرتبة الإيمان إلى مرتبة الإحسان، ليكونوا أصحاب نقاء كنقاء القمر ذي الضوء والبياض النقي فيقال له: الحاسن، والإحسان يقال على وجهين:

1 أحدهما:

الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان

2 والثاني:

الإحسان في الفعل، بأن يؤديه على أجمل الوجوه وأنقاها

ونسأل: لماذا لم يأت بالواو في قوله: ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؟

الجواب:

لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل:

وماذا بعد الغفران؟ فقيل له:

سنزيد المحسنين

مشهد [4]

نقض العهد بالتبديل القولي والعملي لكلام الله عز وجل:

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: 162] **فلم يستقبلوا الأمر الإلهي بالأخذ بأحسنه، بل أصرُّوا على تبديله:**

1 كلمة [1] ﴿فَبَدَّلَ﴾

الفاء للتعقيب ببيان تفاعلهم مع أوامر ربِّهم عز وجل، والفعل ﴿بَدَّلَ﴾ يصوِّرهم وهم يسمعون أوامر الله عز وجل، فجعلوا مكان المطلوب منهم شيئًا مختلفًا؛ إما بالإعراض عن الأوامر، أو بالإتيان ببدائل تناقض الأوامر، ويصوِّرُ هذا الفعل أنهم صاروا صنفين: صنف لم يعملوا بما أُمِرُوا به، وصنف اخترعوا لهم نظامًا يناقِض نظام الله عز وجل

2 كلمة [2-3] ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾

أي الذين يتلاعبون فيضعون الشيء في غير موضعه.

3 كلمة [4] ﴿مِنۡهُمۡ﴾

﴿من﴾ تبعيضية، فتصوِّرُ أنهم لم يكونوا جميعًا ظالمين بل منهم الصالحون.

4 كلمة [5-9] ﴿قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾

تصوِّرُ أنهم استمعوا لما قاله الله عز وجل لهم بواسطة أنبيائهم، أو علمائهم، أو من بلَّغهم، لكنهم أصروا على مناقضته بعدم العمل، أو بعمل مضادٍّ.

5 كلمة [10-11] ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾

الفاء: لإظهار النتيجة التي ترتبت على نقض التبديل، وكلمة ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: تصوِّرُ الانطلاق مع السير السهل المطمئن، وتكون حركته حسب إرادة مَنْ أرسله، وكلمة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: تصوِّرُ أن الإرسال جاء مستعليًا عليهم، وتحدِّدُ هذه الكلمة أن الإرسال خَصَّ الظالمين.

6 كلمة [12-14] ﴿رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

صوَّرَت لنا نوع العقوبة المرسلة، وهي رجزٌ مصدرُه السماء، وهو نوع من العذاب الذي يضعفهم ويدمِّرهم معذِّبًا إيَّاهم ببطء يجدون معه الألم.

7 كلمة [15-17] ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾

تصوِّرُ عدل الله عز وجل في هذه العقوبة، فالباء: لإظهار سبب إرسال الرجز عليهم، أي بالذي كانوا يظلمونه أو يظلمون به في حياتهم، وكلمة ﴿كَانُواْ﴾: تصوِّرُ أن الظلم صار نظام حياة، فهي ليست للماضي، بل لتصوير حياتهم المستمرة في الماضي حتى جاءتهم العقوبة.

قد تسأل: هل كانت هذه الأنقاض الخمسة السابقة تمثِّل كلَّ الأنقاض الإسرائيلية الكبرى؟

الجواب: تبصرنا سورة الأعراف بنقض كبير أيضًا، وهو:

النقض الإسرائيلي الأكبر السادس: "العقلية التلاعبية الحُوتية"

وتتعلَّق بتحريف التأويل

[الأعراف:١٦٣-١٦٧]

لعلك تسأل: ما المشاهد التي تضمَّنها هذا النقض؟

الجواب: تكون هذا النقض من 9 مشاهد:

مشهد [1]

المناسبة والاتصال بين هذا النقض وما قبله

تُظهره الواو في قول ربِّنا عز وجل: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ من خلال الترتيب الخطيِّ الحكيم لأقسام هذا الفصل:

1 حدثنا النقض الأول عن "العقلية الشِّرْكية الإسرائيلية"

في الآيات [الأعراف: 138-141]، حيث قال الله عز وجل عنهم: ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف: 138].

2 نقلنا الله إلى النقض الثاني، ويمكن أن نطلق عليه: العقلية الفِسقية الإسرائيلية

وتتعلق بتأسيس بني إسرائيل لدار الفاسقين الذين خرجوا عن التعظيم الإلهي لموسى عليه السلام، وأَخْذِ كتابه بقوة [الأعراف: 142-147]، حيث حذَّر الله عز وجل موسى عليه السلام ومن معه من الصالحين من دار الفاسقين، فقال: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ❖ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 145-146].

3 بعدها جاء الحديث عن النقض الثالث، ويمكن أن نطلق عليه: العقلية العِجْلية الإسرائيلية

فأسسوا دار الفسق الإسرائيلية، وافتتحوها بعبادة العِجل الإسرائيلي، واستضعاف المصلحين [الأعراف: 148-153].

4 ثم النقض الرابع، ويمكن أن نطلق عليه: العَقلية السَّفَهية الإسرائيلية

وهو نقض مستقبلي، ويتعلَّق بنقض الإيمان بالنبي الخاتم ﷺ [الأعراف: 154-158]، حيث قال الله عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ❖ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: 156-157].

5 النقض الخامس، ويمكن أن نطلق عليه: العقلية التَّبْديلية

فنقضوا الأخذ بأحسن الكتاب، وذلك بتحريف التبديل [الأعراف: 159-162]، وقال الله عز وجل فيه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [الأعراف: 162].

6 ثم جاء الكلام عن النقض السادس ويمكن أن نطلق عليه (العقلية الإسرائيلية الحُوتية)

ليعكس لنا العقلية المادية الإسرائيلية، حيث نراهم يتلاعبون بتأويل الكتاب؛ ليجدوا الازدهار الاقتصادي في مجال الثروة السمكية.

مشهد 2 [2]

المساءلة المثمرة

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف: 163]، فيجب على أمة القرآن أن تسائل أهل الكتاب، وسائر العالم، لنوجد نقاط تواصل ومناقشة بيننا وبينهم، ولإثبات نبوة النبي ﷺ من خلال هذه المساءلة، فتثمر هذه المناقشة ظهور البينة القرآنية أمامهم

آية المشهد:

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف: 163]

أولاً ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾: الأمر للنبي ﷺ ولمن يُنسب إلى القرآن المجيد

والسؤال يظهر البينة القرآنية المعجزة، حيث سيخبرهم النبيُّ الأمِّيُّ عن تفصيلٍ تاريخيٍّ لم يعرفه إلا الأقل منهم:

1. فالضمير في قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ يعود إلى كلّ من يصحُّ سؤاله، وأولهم قريش لأن الآية في سورة مكية، وكذلك اليهود في رأي الطبري
   - لأن القرآن عالمي، فيُسأل اليهود أيضًا، سواء أكان الأمر للنبي ﷺ في مكة أم بعد أن يهاجر إلى المدينة.
2. لا تجد ذكرًا لهذه القصة في كتب اليهود المشهورة إلا إشارات
   - ففي (حزقيال 8:22) يخاطب الله عز وجل بني إسرائيل فيقول: "احتقرتِ مقدساتي ونَجَّسْتِ سُبُوتي".
3. السؤال يكشف ما يخفيه فُسَّاق إسرائيل من تاريخهم، فهم يعرفونها وإلا لاعترضوا على النبي ﷺ فيما يرى رشيد رضا رحمه الله
   - ويحتمل أن ذلك لما يرى ابن عاشور رحمه الله من أن السؤال ليس لعدم وجود الْقِصَّةَ في كتبهم، بل لأنها مروية عندهم.

ثانيًا: السؤال يبين عاقبة الذين نسوا ما ذُكِّروا به، وعتوا عن أمر ربهم

أي: سلهم سؤال تقريع وإنذار، فكأنه قال لهم: أعدوتم في السبت، واحتلتم وأنتم تعلمون عقوبة من يفعل ذلك، فلا عجب أن تتجرأوا على عدم الإيمان بالنبي ﷺ.

ثالثاً: ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾

أي: عن شأن القرية الساحلية التي كانت بقرب البحر وعلى شاطئه، وَالْحُضُورُ: البروز، قيل هي "أيلة" بين مَدْين والطُّور، وهي التي تسمَّى العقبة، ولا دليل على التحديد.

مشهد 3 [3]

حيتان تفتح فاها، وسبتٌ معتدى عليه:

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: 163]

[1] ﴿إِذْ﴾

بمعنى وقت أي أسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر وقت يعدون في السبت.

[2] ﴿يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾

أي: يجاوزون أمر الله عز وجل فيه، فيعتدون على حرمته، فحرم الله عز وجل عليهم العمل فيه، فاحتالوا ليعملوا، ويظهروا بصورة غير العاملين، وكلمة ﴿يَعْدُونَ﴾ بالمضارع تنقل لك الصورة كما لو أنها ما زالت واقعًا تشاهده اليوم، كما أن صيغة المضارعة تدلُّ على تكرُّر ذلك منهم.

3 في سفر الخروج 20:

8 اُذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لتُقَدِّسَهُ.

9 ستَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَصْنَعُ جَمِيعَ عَمَلِكَ.

10 وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ سَبْتٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ. لاَ تَصْنَعْ عَمَلاً مَا أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَبَهِيمَتُكَ وَنَزِيلُكَ الَّذِي دَاخِلَ أَبْوَابِكَ.

4 كلمة "سَبْت" العربية تقابلها "شَبَّات" بالعبرية

وتعني راحة، وتوقف عن العمل، ويبدأ السبت من بعد مغرب الجمعة إلى مغرب السبت.

5 وعقوبة تجاوز السبت عظيمة جدًا عندهم

فقد رجموا رجلًا احتطب فيه كما في التوراة، ففي سفر العدد 15: 35

"فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قَتْلًا يُقْتَلُ الرَّجُلُ. يَرْجُمُهُ بِحِجَارَةٍ كُلُّ الْجَمَاعَةِ خَارِجَ الْمَحَلَّةِ».

[6]

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾

كلمة: ﴿تَأْتِيهِمْ﴾ تصوِّرُ مقدار الابتلاء، فالحيتان تقترب منهم حتى كأنها متَّجهة إليهم، بينما تختفي عنهم في بقية الأيام، والحيتان: جمع حوت، ويطلق على السمكة الصغيرة والكبيرة.

[7]

﴿شُرَّعًا﴾

جَمْعُ شَارِعٍ وَشَارِعَةٍ أي: دانية، وَدَارٌ شَارِعَةٌ: دَنَتْ مِنَ الطَّرِيقِ، والمعنى: شارعة، ظاهرةً على الماء، دانية، متكاثرة، متتابعة، مصطفة، كشوارع الطرق، فاتحة أفواهها، كصنع الإبل حين تَشْرع في الشرب؛ لتثير شهيتهم، وتستثير أطماعهم.

[8]

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾

ويوم لا يدخلون في السبت، أي: في بقية الأيام ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ فتبتعد عنهم، فلما قلَّت الثروة السمكية في غير السبت، ورأوها كالذهب خالصًا يوم السبت، تساقطت إراداتهم أمام ذلك الإغراء، وزالت التقوى من قلوبهم.

[9]

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

نختبرهم اختبارًا يتضح منه تحرير الإرادة والريادة من استعباد الشهوة، وأغلال الطمع، ﴿بِمَا﴾: الباء سببية، أي: نختبرهم اختبارًا فيه بلاء يتضمَّن نعمةً ومصيبةً بسبب استمرارهم على الفسق، لتظهرَ نتيجة أفعالهم لهم.

كيف عَدَوا في السبت ونقضوا عهد الله عز وجل؟

الجواب:

احتالوا ليَظهروا في صورة المعظِّمين للسبت، مع تحقيق أطماعهم في انتهاكه بأن يضعوا الشباك يوم الجمعة على هيئة معينة، بحيث تقع فيها الحيتان يوم السبت، ويلتقطونها يوم الأحد، وقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ» «إبطال الحيل لابن بطة» (ص47)، وقال ابن كثير (3/ 493): «وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ».

10 قال عمر رضي الله عنه:

تعلَّموا القرآنَ تُعْرَفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، فإنَّه لم يبلغ منزلة ذي حقٍّ أن يطاع في معصية الله، واعلموا أنَّه لا يُقرِّب من أجل، ولا يُبعد من رزق، قولٌ بحقٍّ، وتذكيرٌ بعظيم، واعلموا أنَّ بين العبد وبين رزقه حجابًا، فإنَ صبر أتاه رزقُه، وإن اقتَحم هَتَك الحجابَ، ولم يُدرك فوق رزقِه» "مسند الفاروق لابن كثير (2/ 458)".

11 تعلَّمنا القصة قاعدة سد الذرائع

والذَّرِيعَة: الْوَسِيلَةُ إِلَى الشَّيْءِ. وسَدُّها: منعُ ما يجوز إن أدَّى إلى تحقُّق ما لا يجوز يقينًا، كَحَفْرِ الْآبَارِ فِي الطُّرُقِ، وبيع العنب لمن يتخذه خمرًا يقينًا.

مشهد 4 [4]

مَجْدُ المصلحين:

فالمصلحون يحرسون الأمة من الهلاك

كلمات المشهد:

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ [الأعراف: 164]

[1] الواو في قول ربِّنا عز وجل:

﴿وَإِذْ﴾

عاطفةٌ وصلت ما بعدها بما قبلها، و﴿إِذْ﴾: متعلقة بفعل محذوف تقديره اذكر، والمعنى: واذكر أيضًا أيها التاريخُ الأُمَّةَ المصلحةَ من ﴿قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159] حين قاموا بواجبهم في إنقاذ المجتمع من الغرق في مستنقع المعصية في هذه المنطقة البحرية الاقتصادية.

2 بصَّرتنا الآياتُ في إيجاز بديع بوجود أربع أمم في هذه المنطقة الاقتصادية:



مشهد 5 [5] العالَم يقف ضدَّ المصلحين في إصلاحهم:

كلمات المشهد:

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 164]

فوقف المجتمع الصامت ضدَّ المصلحين لينصروا المجرمين عليهم بهذا الموقف السلبي:

1 تُعيِنُ الأُمَّةُ الساكتة العَادِينَ من حيث لا تشعر

فتلوم الأُمَّةَ المصلحة، فالسؤال في قولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ استنكاريٌّ، والوعظ: يعني التخويف بالمآلات المستقبلية على نحو يرقِّق القلب، وجاء المضارع؛ ليبين جهدهم الدائب في عظتهم.

2 كأنهم قالوا: لماذا تُتْعِبون أنفسكم في وعظ العادين

بتخويفهم من مصير تصرفاتهم مع أن مصيرهم معروف، وهو الهلاك بالموت: ﴿ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، أو التعذيب في الدنيا: ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

3 كلمة (أَوْ)

هُنَا هِيَ الْمَانِعَةُ لِلْخُلُوِّ مِنْ وُقُوعِ أَحَدِ الْجَزَاءَيْنِ، لَا الْمَانِعَةُ لِجَمعِهِمَا كما يقول رشيد رضا (تفسير المنار 9/ 317).

4 ردَّت الأُمَّةُ المصلحة: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 164]

فكلمة ﴿قَالُواْ﴾: تبصِّرنا بتواصلهم مع الجميع، والردُّ على الشُّبَهِ حتى عند الصالحين.

5 ذكروا أنهم يحققون هدفين بإنكارهم على العادين:

1 القيام بأمر الله عز وجل

﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: نعتذر إلى الله عز وجل عندما يسألنا عما فعلنا ونحن نرى قومنا يرتكبون المنكر بأننا قمنا بواجبنا، فأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر حتى لو لم يرتدع العادون، و﴿مَعْذِرَةً﴾: من عَذَرْتُهُ أَعْذُرُهُ، والمعذرة هي السَّبَبُ الَّذِي تَبْطُلُ بِهِ الْمُؤَاخَذَةُ بِذَنْبٍ أَوْ تَقْصِيرٍ.

2 محاولة إنقاذ العادين من سجن قَبيلِ إبليس الذي يدفعهم إلى الفسق

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فتستيقظ نفوسهم الغافلة، ويرجعوا إلى أعظم حصون الإنسانية للنجاة في الدنيا والآخرة، وهو حصن التقوى.

6 مشهد [6]

النسيان المدمِّر:

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ [الأعراف: 165]:

مرَّتِ الأيام والفِرَق الأربع ثابتة على موقفها، حتى نسي العادون ما ذُكِّروا به، أي: تركوا تركًا متعمدًا لما يذكِّرهم به المصلحون.

7 مشهد [7]

نجاةٌ، وعذابٌ بئيسٍ:

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: 165]

[1] ﴿فَلَمَّا﴾

الفاء تصوِّرُ ماذا حدث لهم، وقد صار النسيان المتعمَّد نظامًا لهم.

[2] ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾

تصوِّرُ أن الله بجلاله خلَّص الفرقة المصلحة بأسلوب خفيٍّ لطيف، كما يحدث في المناجاة من الخفاء، ورَفْعَهم على غيرهم كما تكون أرض النجوة مرتفعة عن بقية الأرض.

[3] ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾

تصوِّرُ أن الله عز وجل تناولهم تناولًا مستحوذًا مستوليًا، لا يترك منهم أحدًا بأداة خاصَّة، ولكن ما أداة التناول؟

[4] ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾

فالباء دخلت على أداة التناول، فكأنَّ العذابَ البئيسَ تناولهم تناولًا مستوليًا محيطًا بهم.

5 وصف العذاب وصفًا مرعبًا ﴿بَـِٔيسٍ﴾

بِوَزْنِ فَعِيلٍ، أَيْ: شديد من حيث قوة العذاب، ذي بؤس أي: أَلَمٍ يشبه أَلَمَ الإفقار، ويجلب الشقاء من حيث نوعه.

6 ويعظنا الحسن رحمه الله بما وقع لهم، فيقول:

"جاءتهم الحيتان تشرع في حياضهم كأنها المخاض، فأكلوا والله أوخم أكلة أكلها قوم قطُّ، أَسْوَأه عقوبةً في الدنيا، وأشدَّه عذابًا في الآخرة وقتل المؤمن واللهِ أعظمُ من أكل الحيتان!" "تفسير الطبري 13/ 188".

مَنِ الذين ظلموا فاستحقوا هذا العذاب؟

الجواب: ذكر الله عز وجل سببين لهذا العذاب في أول الآية، وفي آخرها:

6 تصوِّر كلمة ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾

أي: تركوا ما ذكِّروا به تركًا متعمَّدًا، فهل يدخل فيهم الأمة الصامتة؟

7 فقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾

أي: يخرجون عن طاعة الله عز وجل مع أنها المحضن الطبيعي للحياة الإنسانية، خروج الرطبة عن قشرتها، والفعل المضارع ﴿يَفۡسُقُونَ﴾: يبصِّرنا أن المعصية صارت نظامًا يعمل به

ما مصير الأمة الصامتة أو الناهية عن الوعظ؟

الجواب:

1 عن عكرمة رحمه الله قال:

دخلت على ابن عباس رضي الله عنهما والمصحف في حجره، وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك، جعلني الله فداءك؟ قال: فقرأ: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾، إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا أسمع الفرقة الثالثة ذُكِرت، نخاف أن نكون مثلهم! فقلت: أما تسمع الله عز وجل يقول: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأعراف: 166]؟ فسُرِّي عنه، وكساني حُلَّة "تفسير الطبري 13/ 188"، ومال الزمخشري لترجيح هذا الرأي "الكشاف 2/ 171"

2 قال ابن كثير رحمه الله:

«فَنَصَّ عَلَى نَجَاةِ النَّاهِينَ وَهَلَاكِ الظَّالِمِينَ، وَسَكَتَ عَنِ السَّاكِتِينَ؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ مَدْحًا فَيُمْدَحُوا، وَلَا ارْتَكَبُوا عَظِيمًا فَيُذَمُّوا» (تفسير ابن كثير 3/ 494)

3 هذه العقوبة قد تعمُّ الجميع

ولا ينجو منها إلا المصلحون الحذرون، أي قد تعمُّ الأمة الصامتة والمعطِّلة؛ لأن الله عز وجل لم يخبرنا عنهم بشيء.

مشهد [8]

المسخة القِردية عقوبةٌ نادرة:

كلمات المشهد:

﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: 166]

[1]

﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾

الفاء تصوِّرُ الأمة الفاسقة تصرُّ على العتوِّ، أي: تمردوا واسْتَكْبَروا عن عنادٍ ولجاج، فغَلَوا في الباطل، فقدمت لنا كلمة ﴿عَتَوْاْ﴾ ملخَّصًا شاملًا للأنشطة الجامحة المتمردة التي قاموا بها، فلم يكتفوا بالمعصية حتى وصلوا فيها إلى حدِّ الغلوِّ والإفراط

2 عدَّى الفعل بكلمة ﴿عَنْ﴾:

ليضمِّنه مَعْنَى الْإِعْرَاض، ويكون التقدير: تمرَّدوا وتجاوزوا الحدود المعروفة في الإجرام، وأعرضوا عن كلِّ نصحٍ وُجِّهَ لهم، وكلمة ﴿عَتَوْاْ﴾ تعبِّر أيضًا عن التبجُّح الذي يصاحب المعصية، والافتخار الذين يقارن الإجرام

[3]

﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾

أمرهم الله عز وجل أمر تكوين وقهر وعقوبة أن يتحولوا إلى قردة خاسئين، أي: صاغرين مُبْعَدين من تكريم الله للإنسان.

كيف نجمع بين العذابين اللذين ذكرهما الله عز وجل هنا؟

الجواب:

1

قيل: العذابان واحد، فالله عز وجل وصف العذاب بأنه بئيسٌ؛ ليصوِّرَ شِدَّته، ثم فَصَّلَ نوعه عندما ذكر أنهم مُسخوا فيه إلى قردة.

2

ومال الزمخشري رحمه الله إلى أن هؤلاء الفاسقين سلط الله عز وجل عليهم عذابين: العذاب البئيس البائس، ولكنه لم يكن عذابًا مستأصلًا، وعندما لم يرتدعوا به، فعتوا مسخهم قردة. (الكشاف 173/2).

مشهد [9] 9

وعيدٌ مستقبليٌّ: تسليط العدو على عصاة اليهود في المستقبل:

آية المشهد:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:167]

1 كلمة [1] ﴿وَإِذْ﴾

الواو تربط ما بعدها بما قبلها، فعطفت كلمة (اذكر) المحذوفة على كلمة ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، فكلمة ﴿إِذْ﴾ متعلقة بهذا الفعل المحذوف تقديره: وعاقبنا الذين ظلموا بثلاث عقوبات: أخذناهم بعذاب بئيس، وقلنا لهم كونوا قرة خاسئين، واذكر وقت عقوبة ثالثة مستقبلية تأذَّن ربك فيها ليبعثن.

2 كلمة [2-3]

﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾

أي: أعلم الله عز وجل العالَم مُقسمًا؛ لأن ﴿تَأَذَّنَ﴾ تجري مجرى فعل القَسَم، ووصف نفسه العلية بالربوبية؛ ليُظهر هباته، وعطاياه، وقواه في تربية العاصين والأبرياء والطائعين، وجواب القَسَم: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾.

والمعنى: أعلمهم ربُك عز وجل وأعلم العالَم متهدِّدًا متوعِّدًا المرة بعد المرة أنه قد كتب على نفسه: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

3 كلمة [4-12]

﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾

أي: ليُثيرنَّ عليهم إثارة عارمة نشطة مَنْ يذيقهم ليس العذاب فحسب، بل سوء العذاب ذوقًا كذوق السائمة مرعاها.

1 هذا التأذُّن نجده حاضرًا بقوة في التوراة المعاصرة، ففي سفر اللاويين 26:

1 «لَا تَصْنَعُوا لَكُمْ أَوْثَانًا، وَلَا تُقِيمُوا لَكُمْ تِمْثَالاً مَنْحُوتًا أَوْ نَصَبًا، وَلَا تَجْعَلُوا فِي أَرْضِكُمْ حَجَرًا مُصَوَّرًا لِتَسْجُدُوا لَهُ. لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمْ.

2 سُبُوتِي تَحْفَظُونَ وَمَقْدِسِي تَهَابُونَ. أَنَا الرَّبُّ.

15 وَإِنْ رَفَضْتُمْ فَرَائِضِي وَكَرِهَتْ أَنْفُسُكُمْ أَحْكَامِي، فَمَا عَمِلْتُمْ كُلَّ وَصَايَايَ، بَلْ نَكَثْتُمْ مِيثَاقِي،

16 فَإِنِّي أَعْمَلُ هذِهِ بِكُمْ: أُسَلِّطُ عَلَيْكُمْ رُعْبًا وَسِلًّا وَحُمَّى تُفْنِي الْعَيْنَيْنِ وَتُتْلِفُ النَّفْسَ. وَتَزْرَعُونَ بَاطِلاً زَرْعَكُمْ فَيَأْكُلُهُ أَعْدَاؤُكُمْ.

17 وَأَجْعَلُ وَجْهِي ضِدَّكُمْ فَتَنْهَزِمُونَ أَمَامَ أَعْدَائِكُمْ، وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْكُمْ مُبْغِضُوكُمْ، وَتَهْرُبُونَ وَلَيْسَ مَنْ يَطْرُدُكُمْ.

اليهود في هذه الأيام في أوقاتهم الذهبية، فكيف تحقق لهم هذا الوعيد؟

الجواب:

الواقع يصدِّق ذلك، فقد سلَّط الله عزوجل عليهم الفرس، ثم الرومان، ثم الأوروبيين، وتجدهم في كلِّ عصر يتنقلون من سيادة أقوام عليهم إلى سيادة آخرين، ويظهر لي أن المسلمين لا يدخلون في سومهم سوء العذاب بإطلاق؛ لأن المراد تسليط العذاب عليهم، فمنه ما يكون تعذيبًا عادلًا كما فعل بهم المسلمون، ومنه ما يكون تعذيبًا غير عادل كما فعلت بهم أمم أخرى.

5 كلمة [13-19] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

1. بعد أن بيَّن الله عز وجل عقوبته الكبيرة على ظالمي بني إسرائيل ربما سأل سائل: فلماذا يعذبهم الله عز وجل؟ أما كان يمكن أن يتركهم ويرحمهم؟ فجاء الجواب: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

2. وصف نفسه بالربوبية؛ ليبين أن من تربيته العقاب والمغفرة والرحمة في مواضعهما، وأكَّد ذلك بـ ﴿إِنَّ﴾؛ ليعظمه المؤمنون ويخشونه، ويخافه الفاجرون ويرهبونه.

3. وصف نفسه العلية بقوله: ﴿لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ ليبصِّرنا أن ربوبيته وتربيته تقتضيان القدرة الكاملة، والعدل المطلق، فهو ﴿سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي: يعذِّب عَقِبَ الذنب بأن ينكت في قلب المذنب نكتة سوداء إن لم يتب، ثم قد يعاقبه في الدنيا، وأكَّد سرعة عقوبته بـ﴿إِنَّ﴾ التوكيدية، وباللام ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

4. وختم وصفَه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: فالواو تقرن بين العقاب، والثواب، فهو عز وجل غفورٌ أي: عظيم الستر لمن تاب من السيئات، رحيمٌ: واسع الرحمة، يغدق على التائب الخيرات.

نسأل تدبرًا: كيف كانت نهاية هذا التفصيل الطويل المثير عن العهد الإسرائيلي في سورة الأعراف؟ وما الميثاق السابع الذي نقضوه؟

الجواب: نقلنا الله عز وجل إلى النقض السابع والأخير من أنقاض بني إسرائيل للعهد الإلهي:

النقض السابع: "العقلية الجَبَلية الإسرائيليَّة":

نَقْض أخذ الكتاب بقوة بتشريع التلاعب في تطبيقه، وتمني المغفرة عند تجاوز حدوده [الأعراف: ١٦٨-١٧١]

وقد تسأل: ما المشاهد التي تضمَّنها هذا النقض؟

الجواب: تكون من 4 مشاهد:

مشهد [1]

مشهد الاتصال المُحْكَم بين النقض السابع والأنقاض التي قبلها

وصوَّر هذا الاتصال الواو في قول الله عز وجل ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: 168]

1 بدأ هذا الفصل بالحديث عن النقض الأكبر الأول

ويمكن أن نطلق عليه "العقلية الشِّرْكية الإسرائيلية"، وتعلق بالمطالبة الإسرائيلية بتأسيس الشرك والجهل والباطل في الأرض [الأعراف: 138-141]، حيث قال الله عز وجل عنهم: ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف: 138].

2 نقلنا الله عزوجل إلى الحديث عن النقض الأكبر الثاني: (العقلية الفِسْقية الإسرائيلية)،

وتعلَّق بتأسيس بني إسرائيل لدار الفاسقين الذين خرجوا عن التعظيم الإلهي لموسى عليه السلام، وأَخْذِ كتابه بقوة [الأعراف: 142-147]، حيث قال الله عز وجل: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

3 ثم النقض الأكبر الثالث (العقلية العِجْلية الإسرائيلية)

وتعلَّقت بالتأسيس الفعلي الأولي لدار الفِسق الإسرائيلية، وافتتاحها بعبادة العجل الذهبي ليعبِّر عن الشرك بالله، واستضعاف المصلحين: [الأعراف: 148-153]، وقال الله عز وجل عنها: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ [الأعراف: 148].

4 ثم النقض الأكبر الرابع (العقلية السَّفَهية الإسرائيلية)

وهو نقض مستقبلي، ويتعلق بنقض الإيمان بالنبي الخاتم ﷺ [الأعراف: 154-158] حيث قال الله عز وجل: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: 156-157].

5 ثم النقض الأكبر الخامس (العقلية التبديلية)

ويتعلق بنقض الأخذ بأحسن الكتاب، وذلك بتحريف التبديل [الأعراف: 159-162]، وقال الله عز وجل فيه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ [الأعراف:162].

6 ثم النقض الأكبر السادس: (العقلية التلاعبية الحُوتية)

وتعلَّق بتحريف التأويل [الأعراف: 163- 167]، وقال الله عز وجل عن ذلك: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِۘ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ [الأعراف:163].

7 هنا يأتي النقض السابع الكُليُّ، ويمكن أن ندعوه "بالعقلية الجَبَلية"

ويخبرنا الله عز وجل فيه أنهم نقضوا الميثاق الإلهي الذي أمرهم بأن يأخذوا الكتاب بقوة، وأن يذكروا ما فيه: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:171].

مشهد [2]

الأقدار الغالبة، وبقية التاريخ الإسرائيلي: (الأعراف: 168)

آية المشهد:

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأعراف: 168]

تكوَّنت الآية من 4 أقباس:

قَبَس 1

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ﴾

بصَّرتنا بملخص تاريخهم إلى الزمن الحاضر.

1. أَيْ: فَرَّقْنَاهُمْ تَفْرِيقًا شَدِيدًا، فجعلناهم في الأرض أممًا متفرقة، ينتمون إلى أراضٍ متعدِّدة، ويعيشون في ظلِّ شعوبٍ كثيرة.

2. هذا جزء من البينة القرآنية، فعلى الرغم من قلة عدد اليهود بالنسبة لأهل الأرض إلا أنك تجد أفرادًا منهم في كلِّ أرض، فعن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ﴾، قال: في كلِّ أرض يدخلها قومٌ من اليهود. (تفسير الطبري 13/ 208).

قَبَس 2

كلمة [5-9] ﴿مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾

بصَّرتنا بفِرقِهم بالعدل، انقسموا من حيث الدين فريقين كبيرين:

1. صالحون وهم من أقام أمر الله عز وجل، كالأنبياء والصديقين والشهداء، وقدَّم ذكر الصالحين؛ لشرفهم، ولقِلَّتهم، وإشارة للتواصل معهم.

2. ﴿وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: فريق منهم غير ذلك، فمنهم فاسدون، ومنهم فاسقون، ومنهم كافرون، ومنهم ملحدون، ومنهم السمَّاعون للكذب الأكَّالون للسحت، ومنهم الذين يقتلون الذين يأمرون بالقسط، ومنهم الذين يسعون في الأرض فسادًا، حيث يؤسِّسون المنظماتِ السرية التي تثير الإجرام في الأرض.

قَبَس 3

﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾

بصَّرتنا بالأحوال التي تنتابهم، وهي الأحوال التي يُختبر بها كلُّ البشر.

1 فالحسنات: ما يحسن من الخصب، والنعم، والعافية، والتمكن، والثروة، والكثرة في الأموال والأولاد، والأمن المعيشي، والأمن العام.

2 والسيئات ما يسوء أن يأتي الأفراد والجماعات مثل: الجدب، والتشريد، والمطاردة، وضياع الأمن.

قَبَس 4

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

بصَّرتنا بالهدف والمقصد من جريان الأحوال المتقابلة عليهم، أي: لعلهم يرون أنهم مثل سائر البشر، فيرجعون إلى الحقِّ، ويتركون الظلم والكبر.

مشهد [3] 3

مشهد تبصيرنا بالأجيال المتأخرة منهم

حيث انقسموا إلى فريقين:

فريق [1]

الناقضون لعهد الكتاب بالاحتيال:

أصحاب "العقلية الجَبَلية: قال الله عز وجل عنهم: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ...﴾

فريق [2]

الممسِّكون بالكتاب:

قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾

فريق [1]

الناقضون لعهد الكتاب بالاحتيال: أصحاب "العقلية الجَبَلَية":

آية هذا الفريق: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف: 169]

تبصرِّنا بأنهم يمرون بأربع مراحل:

مرحلة 1 مرحلة وراثة الكتاب: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾

[1] ﴿خَلۡفٞ﴾

خلفوا من قبلهم، وأكثر ما جاء في المدح بفتح "اللام"، وفي الذمِّ بتسكينها.

[2] ﴿وَرِثُواْ﴾

تتسلم أجيال منهم المسؤولية في قومهم، فينسبون إلى الكتاب، وهو التوراة، ومثلها الإنجيل والقرآن بالنسبة لأهلهما، فهم الذين ورثوه من الأنبياء عليهم السلام.

مرحلة 2 مرحلة الجرأة الآثمة ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾

فيأخذون المتاع الدنيوي الأقلَّ الأدنى مقابل العز الأخرويَّ الأعلى، فيخالفون الكتاب.

1 والعَرَض:

من العَرْض خلاف الطول، وهو ما يستعرضه الإنسان لوقت محدَّد، والمقصود به: كلُّ ما يعرض للمرء من شهواته ومنافعه ومصالحه العاجلة التي تزول ولا تثبت، قال ﷺ:

«لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ».

"صحيح مسلم (1051)".

2 عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ:

"بَيْنَا رَجُلٌ فِي بُسْتَانٍ بِمِصْرٍ فِي فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه جَالِسٌ مَهْمُومٌ حَزِينٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، إِذْ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا صَاحِبُ مِسْحَاةٍ قَائِمٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ صَاحِبُ الْمِسْحَاةِ: مَا لِي أَرَاكَ مَهْمُومًا حَزِينًا؟ فَكَأَنَّهُ ازْدَرَاهُ، فَقَالَ: لَا شَيْءَ، فَقَالَ صَاحِبُ الْمِسْحَاةِ: إِنْ يَكُنْ لِلدُّنْيَا فَالدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ يَأْكُلُ مِنْهُ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ أَجَلٌ صَادِقٌ يَحْكُمُ فِيهِ مَلِكٌ قَادِرٌ يَفْصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، حَتَّى ذَكَرَ أَنَّ لَهَا مَفَاصِلَ مِثْلَ مَفَاصِلِ اللَّحْمِ، مَنْ أَخْطَأَ مِنْهَا شَيْئًا أَخْطَأَ الْحَقَّ، فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ قَالَ: «اهْتَمَامِي بِمَا فِيهِ الْمُسْلِمُونَ»، قَالَ: فَقَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ سَيُنْجِيكَ بِشَفَقَتِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَسَلْ، مَنْ ذَا الَّذِي سَأَلَ اللَّهَ فَلَمْ يُعْطِهِ؟ وَدَعَا اللَّهَ فَلَمْ يُجِبْهُ؟ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَكْفِهِ؟ وَوَثِقَ بِهِ، فَلَمْ يُنْجِهِ؟ قَالَ: "فَطَفِقْتُ، أَقُولُ: «اللَّهُمَّ سَلِّمْنِي وَسَلِّمْ مِنِّي»، قَالَ: «فَتَجَلَّتْ وَلَمْ أُصَبْ مِنْهَا بِشَيْءٍ». "مصنف ابن أبي شيبة (34833)"

[3]

﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾

مشتقة من كلمة (دون) وهي تدلُّ على المداناة والمقاربة والمغايرة، فيقال: الدنيا دون أي هينة حقيرة خسيسة، ومنه:

إذا مَا عَلا المرءُ رامَ العَلاءَ ... ويَقْنَعُ بالدُّونِ مَن كانَ دُونا

[4]

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾

إما من الدنوِّ بمعنى القرب، لأن الذي يأخذونه عاجل قريب يوشك أن يتركوه، ويصبح حسراتٍ، وإما من دناءته وخِسَّته وحقارته وقِلَّته، فهو متاع دنيويٌّ هل يمكنهم أن يقارنوه بالنعيم الأعلى الباقي.

5 ومن أبرز أمثلة أخذهم عرض الأدنى:

أخذ الرُّشا مقابل التشريعات الباطلة لمن يرغب من الناس في استحلال الشهوات.

وعندما يجترئون على ذلك لا يكتفون بالفسق، بل ينتقلون إلى ما هو أسوأ، وهي:

مرحلة 3 تأويل الإثم: عندما يأخذون الإثم يربطونه بالتأويل الخاطئ: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾

1 لم يقولوا ثم نتوب فيغفر لنا، بل جزموا بالمغفرة

لظنهم أن لهم امتيازًا خاصًا، فهم أبناء الله وأحباؤه في قولهم الكذب.

[2]

﴿وَيَقُولُونَ﴾

تمنحك تصويرًا ضخمًا لحالهم؛ إذ يعلنون أنه لا ضرر عليهم من المعاصي والجرائم، فيقولون لأنفسهم ولغيرهم، ويبرِّرون جرائمهم العنصرية، وجرائم القتل المستمر، والمشاركة في إبادة الشعوب، وامتصاص دماء العالم من خلال الربا والقمار.

3 لم يقولوا: (سيغفر الله لنا)، بل قالوا: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾

ليصوِّر أنهم أصناف، فبعضهم يؤمن بالله لكنه لا يشعر بكمال صفاته، وصِنف منهم يقول ذلك، لا لأنه يؤمن بالله، بل يحتاط فحسب.

مرحلة 4 ترسيم الإثم والإصرار عليه: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُۚ﴾

فهي ليست معصية لمرة، ولا مرتين، ولا ثلاثًا.. بل صار ذلك نظام حياتهم.

1 فعن سعيد بن جبير رحمه الله: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُۚ﴾ قال:

ذنبٌ آخر، يعملون به.

2 ويجلِّي معنى الآية بصورة أقوى قتادة رحمه الله، فيقول:

لا يشغلهم شيء عن شيء ولا ينهاهم عن ذلك، كلما أشرف لهم شيء من الدنيا أكلوه، لا يبالون حلالًا كان أو حرامًا. (تفسير الطبري 13/ 213)

3 وهذا الفساد الإرجائي تسرَّب إلى المسلمين، ونبَّه عليه مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه فقَالَ:

"سَيَبْلَى الْقُرْآنُ فِي صُدُورِ أَقْوَامٍ كَمَا يَبْلَى الثَّوْبُ، فَيَتَهَافَتُ، يَقْرَؤُونَهُ لَا يَجِدُونَ لَهُ شَهْوَةً وَلَا لَذَّةً، يَلْبَسُونَ جُلُودَ الضَّأْنِ عَلَى قُلُوبِ الذِّئَابِ، أَعْمَالُهُمْ طَمَعٌ لَا يُخَالِطُهُ خَوْفٌ، إِنْ قَصَّرُوا قَالُوا: سَنَبْلُغُ، وَإِنْ أَسَاؤُوا قَالُوا: سَيُغْفَرُ لَنَا، أَنَّا لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا".

الدارمي (3449)، وقال المحقق (الزهراني): "فيه رفدة بن قضاعة الغساني ضعيف

مرحلة موازية لكل المراحل السابقة: التذكير بميثاق الكتاب:

فهم طبَّقوا مبدأ النسيان المدمِّر، فتركوا أخذ الكتاب بقوة، واجترأوا على الافتراء على الله لأنهم قالوا: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، والله عز وجل يرد عليهم، ويقول: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ...﴾ [الأعراف: 169]:

فذكَّرهم الله عز وجل بثلاثة أمور:

الأول:

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، فيأتي هذا السؤال الإنكاري التوبيخي فما بعد الهمزة والنفي واقع.

الثاني:

﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ...﴾، وكلمة ﴿دَرَسُواْ﴾: تدلُّ على أن عِلْمَ ما في الكتاب تدرسه قياداتُهم الدينيةُ، ويعرفه العوام معرفة إجمالية، فكيف يخالفونه؟

الثالث:

مقارنة المتاع العاجل بالدار الآخرة: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْأَٰخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: 169]:

1 فهذه جملة استئنافية

يقصد منها التعليق العامُّ على هذا الوضع الأعوج الذي سار عليه ناقضو الكتاب

ويمكن أن تكون جملة حالية، والتقدير:

يأخذون عرض الأدنى ويقولون سيغفر لنا حال كون الدار خير للذين يتقون.

2 والتذكير بالإيمان باليوم الآخر هنا خطير جدًا

فهذه العقيدة أَفَلَت في نفوس كثيرٍ من اليهود وخاصة الصهاينة المعاصرين حتى تظن أنهم لا يكادون يؤمنون بها.

3 الإيمان بالدار الآخرة هو الذي يُوجِد التقوى، ويزيل البلوى، ويرفع إلى الدرجة العليا.

4 الآخرة خير للذين يتقون، فينبغي أن تكونوا منهم لتجدوا الملك العريض الحقيقي.

5 الختام ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

يبصِّرنا بإعلاء القرآن شأنَ العقل، وأن العقل الحقيقي الكامل، يختار النعيم الباقي المطلق الذي لا تُعرف له حدود على كلِّ نعيم مؤَّقت محدود.

[6]

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

بِالتَّاءِ، وقرأ بها نَافِعٌ وغيره، ويكون المعنى: أفلا تعقلون يا بني إسرائيل تاريخكم، أو أفلا تعقلون أيها المسلمون أن الذي وقع فيه بنو إسرائيل من التلاعب بدينهم صرتم تقعون فيه؟

[7] القراءة الثانية:

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾

بالياء، أفلا يعقل هؤلاء الإسرائيليون أن الأماني التي يعتمدون عليها مِنْ أن الله عز وجل سيغفر لهم لن تنفعهم شيئًا، وسيخسرون الآخرة؟

فريق [2]

المُمَسِّكون بالكتاب:

قال الله عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف:170]

وصف الله عز وجل المصلحين الحقيقين القائمين بالوظيفة المقدسة لورثة الأنبياء عليهم السلام بثلاث صفات في هذه السورة:

صفة [1] التمسُّك بكتاب الله عز وجل، وعدم نقضه

وتصورها لنا قراءة شعبة ﴿يُمْسِكُونَ﴾ بتخفيف الميم وتسكينها، فهو فعل مضارع يصوِّرهم يمسكون بالكتاب أي: يقبضون عليه قبضًا محكمًا في قلوبهم، وفي حياتهم، وأفعالهم.

صفة [2] تمسيك الآخرين بالكتاب

وتصوِّره لنا قراءة الجمهور﴿يُمَسِّكُونَ﴾ بفتح الميم وتشديد السين، من "مَسَّك يُمَسِّك"، فيتحركون ليطلبوا من العالم حولهم أن يُمْسكوا بالكتاب، فهم يُمَسِّكون غيرهم به، كان النبي ﷺ يسأل الله أن يُمَسِّكَه بالكتاب، فكان يقول: «يا ولي الإسلام وأهله مَسِّكْني الإسلام حتى ألقاك عليه». "تاريخ بغداد (160/11)، وحسَّن إسناده الألباني في الصحيحة (1476)".

صفة [3] إقامة الصلاة

التي تعني تجديد الولاء لله خمس مرات يوميًا، فهم يعلمون قيمة إقامة الصلاة في الحياة.



هنا نتساءل: ما شأن هؤلاء الذين يمسكون بالكتاب؟

الجواب:

يخبرنا بالخبر قول ربنا بعد ذلك ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾، فالتقدير: والذين يمسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة هم المصلحون الحقيقيون الذين ينهون عن السوء، وإنا لا نضيع أجر المصلحين.

ألا هُبـــي بربِّـــك نَبِّهِينَـــا ○○○ فنورُ الفجرِ أوشكَ أن يَبِيْنَا
لنسجدَ للمهيمنِ في خشوعٍ ○○○ ونركعَ للذي فَطَرَ الجَنِيْنَا
أخا الأوثانِ لا تعجلْ علينا ○○○ ولا تحملْ لواءَ المارِقِيْنَا
لعلَّ اللهَ يشرحُ منك صدرًا ○○○ فتمضي في دروبِ الصَّالحينَا
يفيضُ على الدُّنا علمًا ونورًا ○○○ ونرفعُ للنُّهى حصنًا حَصِينَا

4

مشهد [4]

وهو المشهد المركزي:

مشهد تكَوّن العقلية الجَبَلية، التي تعني أنهم ينقضون ميثاق الكتاب إلا أن تُستخدم معهم القوة كما استُخدمت معهم قوة نتق الجبل:

آية المشهد:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 171]

1 الواو عطفت قصة نَتْقِ الجبل على ما قبلها

مع أن نَتْقَ الجبل كان قبل الأحداث السابقة، إلا أن الله عز وجل بعد أن بيَّن مستقبلهم ذكَّرهم بحدثٍ ضخمٍ مرَّ بهم.

2 كأنه قال: غَيَّرتم دينكم،

وتركتم التمسُّك بالكتاب والتمسيك به مع أننا نتقنا الجبل، وجعلناه فوقكم، وأخذنا عليكم الميثاق:

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾

كلمة [3]

﴿إِذْ﴾

تصوِّرُ هذا الحدث الضخم، والتقدير: واذكر إذ اقتلعنا الجبل -قال مجاهد رحمه الله: "كما تنتق الزُّبدة" (تفسير الطبري 218/13)- فرفعناه فوق بني إسرائيل، كأنه ظلة غمام من الظِّلال، والنَّتْقُ: القلع، والنزع من شيء لشيء من شيء آخر يتَّصلُ به اتصالًا محكمًا

4 وبعد نتق الجبل، ورفعه حَرَّكَهُ الله عز وجل ليكون فوقهم ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾، والظُّلة

كلُّ ما أظلَّك من سقيفة، أو سحاب

5 قال الله عز وجل: ﴿وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ ولم يقل: (واقعٌ عليهم)

ليبين شدة قربه منهم، كأنه ملتصقٌ بهم، لا يترك منه فردًا في جماعتهم، ولا عضوًا في أجسادهم

لماذا هذا التهديد الضخم؟

الجواب: لأمرين:

الأول:

ليتمسكوا بالوحي الإلهي الموجود في الكتاب: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، فاقبلوا الكتاب، واتلوه، وتمسَّكوا بفرائضه، واجتهدوا في أدائه بقوة وحزم وعزم من غير تكاسل، ولا تقصير، ولا فتور، ولا سخرية، ولا توانٍ

الثاني:

ليمسكوا به غيرهم، فيطبقوه، وينشروه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾

ثم أخبرهم عن الثمرة التي سيحقِّقونها، والهدف من ذلك، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 171]

كي تحقِّقوا مرتبة التقوى، التي تعني الوصول إلى الإنسان الصالح

هل كان التزامهم بهذا الميثاق تحت التهديد والإكراه؟ وهل يجوز إسلام المكره؟

الجواب:

كان تهديدًا كبيرًا، ليس المراد منه أن يفعلوا مكرهين، بل أن يروا نوعًا ضخمًا من العقوبة التي ستحلُّ بهم عندما يريد الله عز وجل عقابهم على تخلفهم عن تنفيذ أمر ربِّهم عز وجل، ويروي الطبري رحمه الله مجموعة من الآثار تصوِّرُ ذلك

فعن قتادة رحمه الله:

"جبل نزعه الله عز وجل من أصله، ثم جعله فوق رؤوسهم، فقال: لتأخذُنّ أمري، أو لأرمينَّكم به!" (تفسير الطبري 218/13)

3 ما المعنى العملي الذي تفيده أمة النبي ﷺ في حياتها عندما تسمع ذلك؟

الجواب:

المعنى العملي لذلك أن تدرك أن كثرةً من هؤلاء اليهود استعصوا على موسى عليه السلام ولم يستجيبوا له إلا وَفْقَ نظام عقوبات مراقب قاهر، فإن لم توجد قوة تقيدهم عن الاستمرار في جرائمهم فلن يستجيبوا لأحد.



المحور السادس



العهدُ الإنسانيُّ الحديثُ والأخيرُ، ويُظهِر اللّه عز وجل فيه آيات القرآن التي جاء بها النبي الخاتم ﷺ لتمثِّل للعالم مفاتح فَهْمِ الحياة، وتقدِّم للبشرية دوافع الاهتداء

[الأعراف ١٧٢-١٩٨]

لعلك تسأل: بعد هذه الرِّحلة الطَّويلة في تفصيل العهد الإسرائيلي الذي يمثِّل العهد الوسيط في التَّاريخ الإنساني، فما الذي بقي في سورة الأعراف؟

الجواب: هنا يأتي:

المحور السادس

العهدُ الإنسانيُّ الحديثُ والأخيرُ، ويُظهِر اللّه عز وجل فيه آيات القرآن التي جاء بها النبي الخاتم ﷺ لتمثِّل للعالم مفاتح فَهْمِ الحياة، وتقدِّم للبشرية دوافع الاهتداء [الأعراف:١٧٢-١٩٨]

ما المناسبة والاتصال بين هذا المحور وما قبله؟

الجواب: سورة الأعراف متماسكة في موضوعاتها، وتظهر شخصيتها المبهرة المستقلَّة:

1 فالمقدِّمة:

بيَّن الله عز وجل فيها الخصائص التي جعلت القرآن كتاب الإنذار العالميِّ من الأخطار الواقعة والمتوقَّعة [الأعراف:1-9]، وقسَّمت السُّورة تاريخ الإنسان إلى خمسة عهود كبرى:

العهد الأول: عهد بزوغ الحضارة الإنسانية: ويضمُّ محورين يدوران حول أهمِّ دافعين لاتِّباع القرآن:

فالمحور الأول [الأعراف: 10-54]

يتضمَّن معرفة الدَّافع الأوَّل لاتِّباع القرآن، وهو معرفة الرحلة الإنسانية الكبرى المتعلِّقة بماضيك وحاضرك ومستقبلك: كيف كانت البداية حيث قصَّ الله علينا قصة آدم وزوجه عليهما السلام، وكيف يكون الحاضر حيث المستقرُّ في الأرض، وكيف سيكون المستقبل في النهاية عندما يأتي الموت، والدار التي تكون بعده في الجنَّة أو النَّار.

والمحور الثاني [الأعراف: 55-58]

يخبر بالدافع الثاني، وهو أن نتولَّى من له الخلق والأمر في الكون، فلا يمكن أن نعرف كيفية الحياة في رحلة الإنسان من الدُّنيا إلى الآخرة إلا بمعرفة خالق الكون، ومنزل القرآن الذي ينبغي أن نتَّبعه.

العهد الثاني: العهد القديم للذُّرية الآدميَّة: وفيه المحور الثالث [الأعراف:59-93]، وبصَّرنا الله فيه بأهمِّ خمسة عهود فاصلة في التاريخ القديم لذرِّيَّة آدم عليه السلام، وهي:

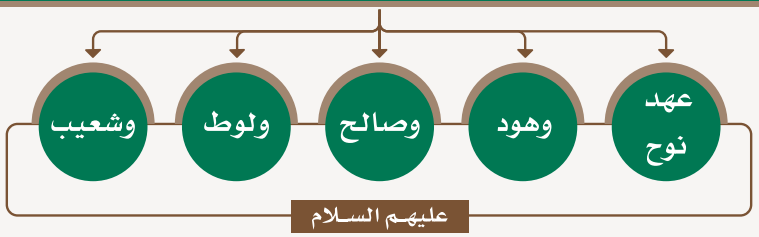

العهد الثالث: وهو تكملة للعهد القديم للذُّرِّيَّة الآدميَّة، وفيه ذكرٌ لبقية الأمم التي جاءت موازية للحضارات الخمس الكبرى أو بعدها

ويمثِّله المحور الرابع [الأعراف: 94-102]:

وقد ذكرها الله عز وجل هنا ذكرًا إجماليًّا، ولخَّص فيه السُّنَنَ الاجتماعية العامة التي تجري في تاريخ الأمم أمام دعوات الإصلاح النَّبويَّة، وخطوات القدر التي تتعامل مع حركة البشر.

العهد الرابع: وهو العهد الوسيط للتاريخ الإنساني، حيث الكلام عن العهد الإسرائيلي، ويضم المحور الخامس

وامتدَّ هذا العهد في الآيات [103-171] من سورة الأعراف

وانقسم إلى ثلاثة فصول كبرى:

فصل [1]: ظهور موسى عليه السلام، وعودة الإيمان بالله، وبداية الانبعاث الإسرائيلي [الأعراف: 103-126].

فصل [2]: عهد المواجهة ونهاية التاريخ الفرعوني [الأعراف:127-137].

فصل [3]: عهد التحرُّر الإسرائيلي: إفسادهم في الأرض بتأسيس الأنقاض الكبرى للميثاق الإلهي، فيأخذون عرض الأدنى، ويغيِّرون الكتاب [الأعراف:138-171].

وبعد هذه العهود الأربعة جاء:

العهد الخامس: ويمثِّله المحور السادس، فتنقلنا من العهد الإسرائيلي الذي يمثِّل العهد الوسيط في التاريخ إلى عهد التاريخ الإنساني الحديث "عهد الكتاب الخاتم"، حيث تفصِّل آياتُه أقوى دوافع اتِّباع الكتاب، والإيمان

وتكرَّرت كلمة "آيات" في السورة نحوًا من 22 مرة، وانقسم هذا المحور إلى 9 دوافع تمثِّل أبرز دوافع الإيمان، وهي:

الدافع الإيماني [1]

الميثاق الإلهي الأول الذي أخذه اللّه عز وجل على بني آدم قبل أن يخلقهم يدفعهم لاتِّباع الكتاب، والجمع بين البداية والنهاية [الأعراف:١٧٢-١٧٤]

الدافع الإيماني [2]

الحذر من "الانسلاخ المُرعب" من الآيات [الأعراف:١٧٥-١٧٧]: فيجب الاهتداء بالآيات التي آتاها اللّه عز وجل كلَّ عالِم بها، سواء أكانت كلماتِ وَحْيِه، أم آياتِه المبثوثةَ في الكون

الدافع الإيماني [3]

ثلاثية الاهتداء: لنحصل على الهداية الإيمانيَّة يجب أن نرجع إلى مصدرها الحقيقيِّ، وهو اللّه عز وجل ونُعمِل أدوات المعرفة، وهي القلب والبصر والسَّمع، وندعو اللّه عز وجل بأسمائه الحسنى [الأعراف: ١٧٨-١٨٠]

الدافع الإيماني [4]

مصاحبة الذين يهدون بالحقِّ وبه يعدلون، وترك مصاحبة المكذِّبين، بالآيات مهما ظهرت علامات الغنى، والقوَّة، والنُّفوذ عندهم، لأنَّ اللّه عز وجل يستدرجهم [الأعراف: ١٨١- ١٨٣]

الدافع الإيماني [5]

رباعيَّة التفكُّر، والنَّظر، والأجل، والخوف من عدم اتخاذ القرار الصَّحيح تدفعهم إلى اتِّباع الكتاب الذي جاء به النَّبيُّ ﷺ [الأعراف: ١٨٤- ١٨٦]

الدافع الإيماني [6]

الحذر من قيام السَّاعة قبل أن يهتدي الإنسان [الأعراف: ١٨٧]

الدافع الإيماني [7]:

الاقتداء بالنَّجم الأعظم، والمثال البشريِّ الأكبريِّ في العبادة الصَّادقة، وهو خاتم الرُّسل ﷺ، حيث يأمره الله عز وجل أن يظهر هذه العبوديَّة العظمى أمام العالم ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]

الدافع الإيماني [8]

الله عز وجل هو الذي خلق الإنسانيَّة، وخلق نَسْلها، وهذا يدفع للإيمان به، ونبذ الشِّرك [الأعراف: ١٨٩-١٩٠].

الدافع الإيماني [9]

التَّحذير من أعظم الأخطار التي تهدِّد الحياة البشريَّة: الشِّرك باتخاذ أولياء، يجعلونهم شركاء لله عز وجل في إلهيته وحاكميته، وتبشيع اختيار الشِّرك [الأعراف:١٩١-١٩٨]

الدافع الإيماني [1]

الميثاق الإلهي الأول الذي أخذه الله عز وجل على بني آدم قبل أن يخلقهم يدفعهم لاتّباع الكتاب، والجمع بين البداية والنهاية [الأعراف: ١٧٢-١٧٤]:

آيات هذا الدافع:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

[الأعراف: ١٧٢-١٧٤]

فإن سألت: ما الأركان التي تكوَّن منها هذا المثياق؟

الجواب: تكوَّن الميثاق من 7 أركان، وهي:

ركن [1]

زمان الميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأعراف: 172]

كيف وضَّحت الواو المناسبة والاتِّصال بين هذا القِسْم وما قبله؟

الجواب:

لما انتهى المحور السابق ببيان الميثاق الذي بصَّرنا بالعقلية الجَبَلية لبني إسرائيل عطفت الواو على ما سبق أهمَّ المواثيق التي أخذها الله عز وجل على بني آدم قبل أن يُخلقوا؛ ليذكِّرهم به في معركتهم الكبرى مع إبليس، وليدفعهم لاتِّباع الكتاب.

[1] ﴿إِذْ﴾

تصوِّر التذكير بهذا الميثاق، لأنها ظرف لما مضى من الزمان.

2 فكأن الله يقول:

واذكر أيها القارئ أو السامع إذ نتقنا الجبل فوق بني إسرائيل، واذكر كذلك إذ أخذنا ميثاقًا من جميع بني آدم في حدث غيبيٍّ في أوَّل تاريخ البشرية قبل انتشارها.

ركن [2]

الطرف الأول للميثاق هو الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾

[1] ﴿أَخَذَ﴾

تصوِّر أن الله عز وجل بقدرته تناول بني آدم تناولًا مستوليًا متمكِّنًا، فأخرجهم من أماكنهم الكامنة ذراتٍ متناثرة.

[2] ﴿رَبُّكَ﴾

تذكِّر بأنه الملك المالك المربي المصلح للأشياء حالًا فحالًا، والكاف ضمير الخطاب يشير إلى خاتم الرسل ﷺ، وإلى كلِّ مخاطَب.

ركن [3]

الطرف الثاني للميثاق هم بنو آدم: ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾

1 أخذهم من ظهور بني آدم

أي أخذ الله عز وجل من آدم من ظهره ذرِّيَّتَه، ثم من كلِّ واحد منهم من ظهره ذرِّيَّتَه إلى آخر واحد في الذُّرِّيَّة.

2 يقرِّب ذلك الشَّريط الوراثي في المشيج الإنساني "البويضة الملقَّحة"

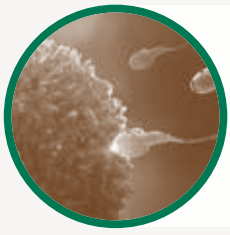

إذ يحتوي على معلومات نمو الإنسان ووظائف خلاياه، وتنقسم البويضة الملقَّحة ملايين المرَّات لتكوِّن الإنسان، فتصوَّرْ أن هذه الذَّرَّة التي لا تُرى تمثِّل الإنسان.

[3]

﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾

جمع ظهر، وهو مما يقابل بطن الإنسان، وفيه قِوَام بنية الإنسان، والعمود الفِقْري، والنُّخَاع الشَّوكي الذي تتوقَّف حياته عليه.

[4]

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾

ما ذرأه منهم، أي: أنبته من الذكور والإناث.

؟ ظاهر الآية أن الله عز وجل أخذ الذُّرِّيَّة مِنْ ظُهُورِ بَنِي آدَمَ، لا من آدم عليه السلام، فكيف ذلك؟

الجواب:

بلغت الآية في تصوير المشهد قوَّة كبيرة، فالمأخوذ منه ظهور بني آدم، والمأخوذ بنو آدم، ومعنى ذلك أن الله عز وجل أخذ من آدم عليه السلام من ظهره ذرِّيَّتَه، ثم من كلِّ واحد منهم من ظهره ذرِّيَّتَه، فالآية واضحة ما عدا آخر واحد في الذُّرِّيَّة.

ركن [4]

شهود الميثاق عدولٌ لا يُردون: أنفسهم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾

ما الحكمة في بدئه بالشاهد قبل ذكر محتوى الميثاق؟

الجواب:

ليبين للناس أقوى الشُّهود على الميثاق: أنفسهم.

1 الملحد يقول: لا نعترف، ولا يوجد في نفوسنا شيء يدلُّ على الإيمان بالله!

وهذه أكذوبة كبرى بسبب العناد، فكلُّ إنسان يجد في نفسه الشُّعور بقوَّة غيبيَّة عظيمة يحب اللجوء إليها، وهذه هي قوة الله جل جلاله.

ركن [5]

محتوى الميثاق: الإيمان بالله ربًّا لا شريك له: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ﴾

أولًا:	ثانيًا:	ثالثًا:
﴿بَلَىٰ﴾: وهو حَرْفُ جَوَابٍ لِسؤال فيه النفي: ﴿أَلَسْتُ﴾، فتقتضي إِبْطَالَ النَّفْيِ وَتَقْرِيرَ الْمَنْفِيِّ.	فالله -تعالى مجده- أخذ ميثاقهم على أن يؤمنوا به ربًّا، ولا يظهر أن العبارة تقتضي نفي الشِّرك، وإنما عُلِم نفيه بقوله لهم بعد: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: 173].	فهل أسلموا جميعًا؟ لا، بل قالوا ذلك، ثمَّ أشرك بعضهم بعد.

السؤال: فإذا أقرُّوا، فمن الذي قال: ﴿شَهِدْنَآ﴾؟

الجواب:

1 ذهب جماعة من المفسرين منهم ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى أنهم الملائكة، وقال السُّدِّيُّ رحمه الله: الله عز وجل، والملائكة.

2

وذهب آخرون منهم الطبري رحمه الله إلى أن الذي قال ذلك: بنو آدم أنفسهم، فيكون معنى قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: وأشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك، ورجَّح الطبري رحمه الله أنه لم يثبت عن النبي ﷺ خبر مرفوع موثوق يفصِّل الموضوع هنا. (تفسير الطبري 13/249، 250).

3

ورد عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال الله عز وجل لهم: "فإني أُشهد عليكم السموات السبع والأرَضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم. (الطبري 13/ 239)، وصحَّحه شاكر".

يأتي السؤال الكبير: كيف وقع هذا الحدث الإنساني التاريخي الكبير؟

الجواب:

الرأي الأول:

هذا حدث غيبيٌّ وقع بعد أن خلق الله عز وجل آدم عليه السلام، فأخرج كلَّ ذرِّيَّته من ظهره مثل الذَّرِّ «أخذهم كما يؤخذ بالمشْط» كما ورد عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (الطبري 13/ 233)، فجعل شعورهم بربوبيته وعدم الإشراك به واضحًا في نفوسهم، وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ﴾.

1

استدلُّوا بظاهر هذه الآية، وبآثار منها عَن ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما قَالَ: " أَخَذَ اللهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ - يَعْنِي عَرَفَةَ - فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلًا " قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: 172-173]»

2

تخريج الحديث: رواه أحمد برقم (2455)، وقال ابن كثير (3/ 502): "الموقوف أكثر وأثبت"، وقال شاكر: "إسناده صحيح"، وضعفه إسلام منصور، وقال: فيه كلثوم بن جبر، قال النسائي: "كلثوم هذا ليس بالقوي، وحديثه ليس بالمحفوظ". "تفسير الطبري، ط: دار الحديث (5/549)"، وذكره الألباني في "الصحيحة" برقم (1623) مرفوعًا، وقال ما قاله الأرناؤوط ومن معه: رجاله ثقات، ورأى أن له حكم الرفع، وفيما قاله نظر؛ إذ يحتمل أن يكون الخبر الغيبي فيه منقولًا عن بني إسرائيل مع نهيه غيره عن الأخذ عنهم.

3 ذكروا روايات كثيرة ليس فيها التصريح بأنها تفسير للآيات، واستشكلها الماتريدي رحمه الله في تفسيره (5/ 82)، وبرهن الرازي رحمه الله في تفسيره (400/15) باثنتي عشرة حجَّة أنها لا تتعلَّق بتفسير الآيات بصورة مباشرة، ونحو ذلك قرَّر ابن تيمية رحمه الله، وقال: «فأما نطقهم فليس في شيء من الأحاديث المرفوعة الثابتة، ولا يدلُّ عليه القرآن» (درء تعارض العقل والنقل 8/ 482).

الرأي الثاني:

نسبه الرازي رحمه الله إلى قَوْل أَصْحَابِ النَّظَرِ وَأَرْبَابِ الْمَعْقُولَاتِ، وذهب إليه الغزالي، والزمخشري، ومحمد رشيد رضا، وابن عاشور رحمهم الله.

1 وذكروا أن ما ورد في الآية تمثيل لحالة الميثاق التي يجدها كلُّ إنسان في نفسه من الفطرة، وكأن ابن القيم وابن كثير -رحمهما الله- مالا إلى هذا، وذكر البقاعي رحمه الله أن ظاهر الأحاديث تشهد لكون معنى الآية يؤيد معنى التمثيل.

2 قالوا: معنى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: بِمَا رَكَّبَ فِيهِمْ مِنْ دَلَائِلِ وَحْدَانِيَّتِهِ، وبتدبيره، فتشهد كلُّ ذرة فيهم أنه ربُّهم الذي ربَّاهم.

3 ورأى الماتريدي رحمه الله في تفسيره (85/5): أن القول بـ(بلى) يكون نطقًا، ويكون خِلْقةً، ويكون جواب الفطرة بحقِّ التأمل، وهذا معنى قول النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ». "البخاري (1385)".

4 رأى الغزالي رحمه الله أن المراد هنا شهادة الحال ودليل الفطرة، لا المقالة ولا القال.

5 ويظهر أن ابن تيمية يميل إلى هذا الرأي، فقد قال: «فَإِن هَذِه الْآيَة بَينة فِي إقرارهم وشهادتهم على أنفسهم بالمعرفة الَّتِي فطروا عَلَيْهَا أَن الله رَبهم... وَطَائِفَة من الْعلمَاء جعلُوا هَذَا الْإِقْرَار لما اسْتخْرجُوا من صلب آدم وَأَنه أنطقهم وأشهدهم لَكِن هَذَا لم يثبت بِهِ خبر صَحِيح، وَالْآيَة لَا تدل عَلَيْهِ». (جامع الرسائل 11/1)

6 قال ابن القيم رحمه الله مبينًا هذا القول: «فَلَيْسَ من أحد إِلَّا وَفِيه من صَنْعَة ربه مَا يشْهد على أَنه بارئه...كَمَا قَالَ فِي غير هَذَا الْموضع ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ يريدهم بِمَنْزِلَة الشَّاهِدين وَإِن لم يَقُولُوا نَحن كفرة». (الروح: 164).

7 وقال رشيد رضا رحمه الله في تفسيره (9/ 326): "قَائِلًا قَوْلَ إِرَادَةٍ وَتَكْوِينٍ، لَا قَوْلَ وَحْيٍ وَتَلْقِينٍ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ فَقَالُوا كَذَلِكَ بِلُغَةِ الِاسْتِعْدَادِ وَلِسَانِ الْحَالِ، لَا بِلِسَانِ الْمَقَالِ.

1 الرأي الراجح:

يظهر لي أنه يصعب كثيرًا حمل الآية على معنى التَّمثيل، وليس ذلك بسبب الروايات، ففيها إشكالات إسنادية ومتنية كثيرة، بل لشدَّة صراحة لفظ: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ ؛ فالأصل أن الكلام محمولٌ على الحقيقة، فما الذي يصرفه ليكون تمثيلًا؟!

2 ومال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (3/506) إلى هذا، فقال:

«﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أَيْ: أَوْجَدَهُمْ شَاهِدِينَ بِذَلِكَ، قَائِلِينَ لَهُ حَالًا وَقَالًا. وَالشَّهَادَةُ تَارَةً تَكُونُ بِالْقَوْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ [الْأَنْعَام:130] الْآيَةَ، وَتَارَةً تَكُونُ حَالًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ﴾

ستقول: لكن المؤمنين والكافرين لا يذكرون هذا الميثاق؟

الجواب:

نحن وكلُّ البشر لا نذكر تفاصيله، ولو ذكرنا تفاصيله لكان الإيمان بالله إيمانًا بالشهادة لا بالغيب، لكننا نحتفظ جميعًا بما يدلُّ على هذا الميثاق، وهو دليل الفطرة، وإنما ينكر دليل الفطرة من رانت على قلبه حُجُبُ العناد، ويشير ابن تيمية رحمه الله وأهل العلم إلى أنَّ مِنَ النَّاس من فَسَدتْ فطرته، وَهَؤُلَاء يَحْتَاجُونَ إِلَى النَّظر. (جامع الرسائل 1/14)

3 قال ﷺ في دليل الفطرة:

«إِنَّ خِيَارَكُمْ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّهَا لَيْسَتْ نَسَمَةٌ تُولَدُ إِلَّا وُلِدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ (فطرة الإسلام)، فَمَا تَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّى يُبِينَ عَنْهَا لِسَانُهَا، فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا وَيُنَصِّرَانِهَا»، قال الحسن رحمه الله: "والله لقد قال الله ذلك في كتابه، قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾". "أحمد (16303)، تفسير الطبري (231/13) وضعّفه الأرناؤوط"

4 وقال ﷺ:

«مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30] الآيَةَ، "البخاري (1358)"، (بهيمة جمعاء) تامة الأعضاء مستوية الخلق. (تحسون) تبصرون. (جدعاء) مقطوعة الأذن أو الأنف أو غير ذلك، أي إن الناس يفعلون بها ذلك فكذلك يفعلون بالمولود الذي يولد على الفطرة السليمة.

5 مردُّ هذا المشهد إلى القدرة الإلهية المطلقة "إنه مشهد كونيٌّ رائع باهر، لا تعرف اللغة له نظيرًا في تصوراتها المأثورة! وإنه لمشهد عجيب فريد حين يتملَّاه الخيال البشري جهد طاقته! وحينما يتصوَّر تلك الخلايا التي لا تحصى، وهي تُجمع وتُقبض. وهي تُخاطَب خطاب العقلاء، وإن الكيان البشري ليرتجف من أعماقه وهو يتملَّى هذا المشهد الرائع الباهر الفريد. وهو يتمثَّل الذَّر السابح".

6 يرى الرازي رحمه الله في تفسيره (401/15) أن إِخْرَاج الذُّرِّيَّةِ مِنْ ظُهُور بَنِي آدَمَ ثبت بِالْقُرْآنِ، وَأن إِخْرَاج الذُّرِّيَّةِ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ ثبت بالحديث، فَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ.

7 ونحو ذلك قرَّر الشاطبي رحمه الله فقال:

«بِأَنْ يَخْرُجُوا مِنْ صُلْبِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَفْعَةً وَاحِدَةً عَلَى وَجْهٍ لَوْ خَرَجُوا عَلَى التَّرْتِيبِ كَمَا أُخْرِجُوا إِلَى الدُّنْيَا، وَلَا مُحَالَ فِي هَذَا بِأَنْ يَتَفَطَّرَ فِي تِلْكَ الْآخِذَةِ الْأَبْنَاءُ عَنِ الْأَبْنَاءِ مِنْ غَيْرِ تَرْتِيبِ زَمَانٍ، وَتَكُونُ النِّسْبَتَانِ مَعًا صَحِيحَتَيْنِ فِي الْحَقِيقَةِ لَا عَلَى الْمَجَازِ» (الاعتصام 827/2)

8 أشار ابن عاشور رحمه الله في تفسيره (166/9) إلى تقعيد مهم فيما ذُكر في القرآن، فقال:

«وَلَعَلَّ الْحَدِيثَ اقْتِصَارٌ عَلَى بَيَانِ مَا سَأَلَ عَنْهُ السَّائِل فَيكون تَفْسِيرًا للآية تَفْسِير تَكْمِيل لِمَا لَمْ يُذْكَرْ فِيهَا، أَوْ كَانَ فِي الْحَدِيث اقْتِصَارٌ مِنْ أَحَد رُوَاته عَلَى بَعْض مَا سَمِعَهُ»

9 من الأدلة القرآنية الكبرى على الإيمان:

1. الميثاق القديم الأول الذي يعبِّر عنه دليل الفطرة.
2. والدليل المادي بالنظر في الآفاق وفي الأنفس.
3. والدليل العقلي

بمعرفة أن لكلِّ سببٍ مسبَّبًا، وأن المخلوق لا بدَّ له من خالق، وأن الأول الذي ليس قبله شيء لا يمكن أن نَسأل عمن خلقه؛ لأن ذلك ينافي العقل.

هل يدل هذا الميثاق على الإجبار أم على حرية الاختيار؟

الجواب:

1. الآية أخبرتنا أن الله أخذ الميثاق على بني آدم على الإيمان بالله ربًّا، وعدم الشرك، وبذا جعل لهم الاختيار، وحدَّد الله عزوجل حينها فريق الجنة وفريق النار ليتَّضح علمه الواسع مع عدله الكامل، فليس الحديث دليلًا على الجبر، بل مؤيِّدٌ للاختيار.

2. ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «خَلَقَ اللهُ آدمَ، فَأَخَذَ ميثَاقَهُ؛ أَنَّهُ ربُّهُ، وكَتَبَ أَجَلَه، ورِزْقَهُ، ومصائبَهُ، وأَخْرَجَ ولدَهُ من ظَهْرِه كهيئة الذَّرِّ، فأخذ مَوَاثِيقَهُم، أَنَّهُ رَبُّهُم، وكَتَبَ آجَالهم وأرزاقهم ومصائبهم». "الرد على الجهمية للدارمي (121)، وصحَّحه المحقق (الشوامي)"، والكتابة لا تدلُّ على الجبر، بل على العلم الكامل السابق.

ركن [6]

الأعذار المستقبلية التي سيعتذر بها ناكثو الميثاق: [الأعراف: 172-173]:

عذر [1]

الاعتذار بالغفلة ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف 172] **فبرَّروا الإلحاد، وعدم معرفة أن الله ربُّهم بادِّعاء الغفلة:**

[1] ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾

أي: **لئلا تقولوا** ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ **حيث ستقومون من موتكم للحساب.**

[2] ﴿إِنَّا﴾

تصوِّرهم وهم يحاولون التأكيد لربِّهم عز وجل ﴿كُنَّا﴾ **في الدنيا** ﴿عَنْ هَٰذَا﴾ **الميثاق الذي أخذته علينا** ﴿غَٰفِلِينَ﴾ **لم نعرفه.**

[3] كلمة ﴿غَٰفِلِينَ﴾

تدلُّ على عدم الاهتمام، وذهاب المبالاة، وانصراف التركيز، فيقرِّر ابن فارس رحمه الله أن (غَفَلَ) كلمة تَدُلُّ عَلَى تَرْكِ الشَّيْءِ سَهْوًا، وَرُبَّمَا كَانَ عَنْ عَمْدٍ، فهي عذر إذا ترك الشيء دون قصدٍ منه ساهيًا، وليست عذرًا إذا أغفله دون مبالاة لاهيًا، ولذا يرى الراغب رحمه الله أن الغَفْلَة: سهو يعتري الإنسان من قلّة التّحفّظ والتّيقّظ. "(مقاييس اللغة 4/386)، (المفردات: 609)"

[4] كما قال تعالى:

﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[الأعراف: 51]

وفي الحديث: يقول الله للكافر: «فاليوم أنساك كما نسيتني» "(ابن حبان (4642)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم"

عذر [2]

الاعتذار بالجهل والتقليد ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: 173]

فبرَّروا الشرك والإجرام بادِّعاء تقليد الأسلاف من الآباء النَّسَبيين أو السَّبَبيين:

[1]

تصوُّر كلمة ﴿أَوْ﴾

لتنويع بين فئات المعتذرين يوم القيامة، فمنهم من اعتذر بالعُذر السابق، ومنهم من سيعتذر بهذا العُذر، ومنهم من سيجمع بين العُذْرين معًا.

[2]

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾

فطبيعة الحياة أن الابن يقلِّد أباه في الأكل والشرب، والتفكير العقلي.

3 إمَّا أن يعنوا الآباء في النَّسَب، وإمَّا أن يعنوا بهم الآباء في السَّبب، والسَّبب قد يكون:

الدولة التي أغلبيتها مشركون، وإمَّا الآباء في النظريات العلمية والثقافية كعمرو بن لحي مؤسِّس الشرك عند العرب، و(فرويد) مؤسِّس العبث الجنْسي، وابن سبأ مؤسِّس الغلوِّ في بعض الصَّحابة، و(ماركس) مؤسِّس الإلحاد.

[4]

﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ﴾

فَجَرُّونا إلى الهلاك، ولكن الله عز وجل جعل لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة، أفلم يفكروا: هل كان آباؤهم على حقٍّ أم على باطل؟ ولماذا يتابعونهم، والحقُّ واضح بيِّنٌ، والباطل ظاهر جليٌّ؟

[5]

﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

السؤال: يناشدون الله عدله ورحمته، فيقولون: الذي خطَّ لنا هذا الباطل هم آباؤنا المبطلون، أفتهلكنا بما فعلوا؟

6 والهلاك:

يعني الوقوع في الدَّمار والخسارة، وحصول الآلام، والزَّوال في الدُّنيا بسبب الذُّنوب المتتابعة.

7 بماذا يذكِّرك هذا الاعتذار؟

يذكِّرك بالأمم التي ستتابع في النار ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: 38].

ما الحكمة من تقديم العذر الأول وهو الاعتذار بالغفلة على العذر الثاني وهو الاعتذار بتقليد الآباء؟

الجواب:

لأن الأصل هو الإيمان بالله وعدم الشرك، وعلى ذلك كان آدم عليه السلام وبنوه، وحتى يتمكَّن الشيطان من تغيير هذا الواقع الأصلي، جعلهم يغفُلون عن إيمانهم، ومع تقدُّم الزمن تحوَّلت الغفلة إلى اختراع عبادات جديدة هي الشِّرك.

ركن [7]

آيات القرآن تكشف الحقائق للبشرية لعلهم يتَّخذون القرار الصحيح بالرجوع إلى الله عز وجل قبل فوات الأوان ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 174]:

كيف فصَّل الله عز وجل لنا الآيات؟

الجواب: بوجهين:

1. بالبيان، أي: نبيِّن ما يكشف العَمَه ويزيل الشبهة.
2. أن نفرِّقها ونضع كلَّ واحدة منها في موضعها المناسب؛ لقطع العذر ودفع العِلَل. (تفسير الماتريدي 87/5).

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

أي: يرجعون إلى الميثاق الذي نسوه، وهاتان الكلمتان تصوِّران الملحدين والمشركين والفاسقين المبطلين من بني آدم وقد هربوا من ميثاق الإيمان مصرِّين على الإلحاد والشرك والفسق، ففصَّل الله عز وجل لهم الآيات ليرجعوا من مشيهم بعيدًا عن حياتهم الحقيقية.

عرفنا الدَّافع الأول الذي يجعل أبناء آدم يؤمنون ويتَّبعون الآيات، وهو الميثاق الإلهي الأوَّل، فما الدَّافع الإيماني الثاني؟

الجواب:

الدافع الإيماني [2]

الحذر من "الانسلاخ المُرعب" من الآيات [الأعراف:١٧٥-١٧٧]: فيجب الاهتداء بالآيات التي آتاها اللّه عز وجل كلَّ عالِم بها، سواء أكانت كلماتِ وَحْيِه، أم آياتِه المبثوثةَ في الكون:

فحالة الانسلاخ تعني أن يترك الإنسان جلده الحقيقي، ويتحول إلى حالة حيوانية بهيمية كالكلب.

آيات هذا الدافع:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِۖ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٧].

لعلك تسأل: ما المشاهد التي تضمَّنها هذا الدَّافع الإيماني الثاني؟

الجواب: تكوَّن هذا الدافع من 5 مشاهد:

مشهد [1]

الهداية الكبرى، حيث يؤتي الله عز وجل بعض عباده آياتِه:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأعراف:175]

كلمة [1] الواو في قوله: ﴿وَٱتۡلُ﴾

1

تصوِّر هذه الواو المناسبة والاتصال، حيث بصَّرنا الله عز وجل في القِسم السابق بالدَّافع الأكبر الأوَّل للهداية الإيمانية واتباع الآيات، وهو: الميثاق الآدميُّ الأوَّل، وأخبرنا الله عز وجل أن الذي ذكَّرنا بهذا الميثاق هي الآيات القرآنية، فختم القِسم السابق بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأعراف: 174].

2

وهنا يُبَصِّرنا الله عز وجل بالدَّافع الثاني للهداية، واتِّباع آياته، وهو آياتُه المسطورة التي أنزلها، وآياتُه المنثورة التي خلقها.

3

كأنَّ المعنى: واذكر الميثاق الآدميَّ الأوَّل الذي يفترض أن يكون دافعًا للإيمان بالله عز وجل، واتِّباع آياته، وكذلك نفصل الآيات، ولعلَّهم بهذا التفصيل يرجعون، واتل عليهم ضمن الآيات التي نفصِّلها دافعًا كبيرًا آخر للإيمان، وهو الآيات نفسها، وعجبهم بأن تتلو في هذه الآيات نبأ الذين آتيناه آياتنا، فانسلخ منها.

كلمة [2] ﴿وَٱتۡلُ﴾

تصوِّر لنا الأمر لقارئ القرآن بداية بالنبي ﷺ فمن بعده من ورثته الذين وَرِثوا الكتاب، والتِّلاوة من تلا أي: تبع، بأن يقرأ الإنسان الحروف والكلمات والجُمَل فيتلو الحرف بالحرف والكلمة بالكلمة والآية الآية، دون أن يتخلَّل المتلوَّ ما ليس منه، ويُتْبِعَ القراءةَ بالعمل كما قال ابْن عَبَّاس رحمه الله: "يتَّبعونه حقَّ اتِّبَاعه". (تفسير الطبري 2/566)

كلمة [3] ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾

تحدِّد الجهة التي ينبغي أن نتلو عليها، وهم جميع بني آدم الذين أخذ الله عز وجل عليهم الميثاق الأوَّل، ويدخل فيهم بنو إسرائيل والمسلمون والمشركون الذين بُعث النَّبيُّ ﷺ إليهم.

4 كلمة [4] ﴿نَبَأَ﴾

تصوِّر أهميَّة المتلوِّ، فالنَّبأ هو الخبر المهمُّ الجليل.

5 كلمة [5-7] ﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾

تصوِّر إنسانًا أعطاه الله عز وجل آياته بعد أن هيَّأه ليكون أهلًا لحملها، ويدخل في آيات الله عز وجل:

- الآيات التي أنزلها على موسى عليه السلام إن كان الرجل من قوم موسى عليه السلام.
- وآيات الله عز وجل التي أنزلها على عيسى عليه السلام إن كان الرجل من قومه.
- وآيات الله عز وجل التي أنزلها على محمَّد ﷺ إن كان الرجل من أمَّته.

وعظَّم الله عز وجل كلماته بأنْ نَسَبَها إليه على جهة التعظيم فقال: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾، والآيات هنا كلمات الوحي الإلهي، ويُضمُّ لها تبعًا آيات الله عز وجل الكونية.

6 ليس المراد بالآيات ما نقله الطبري رحمه الله عن بعضهم من كونها اسم الله الأعظم (تفسير الطبري 13/252)

لأن مصطلح آيات يطلق على ثلاثة أمور، والمناسب للسِّياق هنا: كلمات الوحي الإلهي في كلِّ زمان حسب ما أنزل على نبيِّ ذلك الزَّمان.

مشهد [2] 2

المُنسلخ وقبول الزَّعامة الشيطانية

﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الأعراف:175]

1 كلمة [1-2] ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾

تصوِّران عمليَّة غريبة جدًا كأنَّ الآيات تكسو جسده مثل جلده، ﴿فَٱنسَلَخَ﴾ أي: نزع نَفْسه التي كانت ملتصقة بالآيات من هذه الآيات، كما ينزع الجلد من الجسد.

2 كلمة [3-4] ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾

تصوِّر قبوله زعامة الشيطان، فالفاء للتعقيب، وتصوِّر ما حدث له بعد أن انسلخ من الآيات، حيث لحقه الشيطان غير تارك له حتى أَدْرَكَهُ، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ [الحجر: 18]، ويكمل الطبري رحمه الله الصورة، فيقول: «فصيَّره لنَفْسه تابعًا» (تفسير الطبري 260/13).

3 كلمة [5-7] ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾

تصوِّر الانجذاب المدمِّر، فالفاء صوَّرت النَّتيجة، حيث صارت كينونة المنسلخ ضمن الغاوين الرَّاسخين في الغيِّ، و(الغَوَى): الانجذاب الكبير للفساد والإفساد، كفصيل النَّاقة يشرب اللبن بكثافة تؤدِّي إلى هلاكه.

مشهد [3] 3

سبب الانسلاخ: اختياره الخاطئ للإخلاد إلى الأرض، واتِّباع الهوى

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف:176]

[1]

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾

لو شاء الله عز وجل بعظمته ومجده أن يرفعه بالآيات في المنزلة، وشرف الدُّنيا ومكارمها لرفعه بها رغمًا عنه، ولكنَّ الله عز وجل كرَّمه بالإرادة، فاختار هذا المنسلخ الاختيار الخاطئ: الإخلاد إلى الأرض، واتِّباع الهوى.

2 تفضل الله عزوجل على هذا العبد

فخلقه، وخلق فيه تريليونات من النِّعم المتراكمة التي تحرِّك جسده وروحه، وتملؤه بالحياة، وتجعل عقله يدرك ما حوله، ثم تفضَّل عليه فآتاه آياته أي: كلماته الإلهيَّة، فهداه بذلك هداية إبانة، لكنَّه رأى العاجلة فاختار قرارين:

1 قرار [1]

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾

قرَّر أن يخلد إلى الأرض ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: كلمة ﴿أَخْلَدَ﴾: من (خَلَد)، وتدلُّ على ثباتٍ على الحالة التي هو عليها، وعدم طروء ما يفسدها، فالمعنى: اختار ملازمة الشَّهوات المحرَّمة في الأرض الفانية، وأصرَّ على هذا الاختيار دون أن يغيِّرَه بتوبة.

2 قرار [2]

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾

ففضَّل العاجل الذي تهواه نفسه على اتِّباع أمر الله عز وجل، فانسلخ من آيات الله، فخلع جِلْدَه الحامي الحافظ ليلبس أهواءَه ونزواتِه وشهواته، كأنَّك به قد تحوَّل إلى هيئة الكلب اللَّاهث وراء تلك الشَّهوات، ولهاثُه لا ينقطع.



فمَن الذي آتاه الله عز وجل آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين؟



الجواب:

1

هذا مَثَلٌ واضحٌ لانصراف بعض المفسرين عن البصائر التي يقدِّمها القرآن المجيد إلى البحث عن قصص لم تذكر تفاصيلها في كلمات الآيات، ولا في صحيح الرِّوايات، كالقول إنها نزلت في بِلْعَامَ بْن بَاعَوْرَاءَ، أو بن أبَر، أو بن باعر، ونسج أساطير حوله كالروايات المظلمة التي ذكرها عنه الطبري رحمه الله في تفسيره (13/ 260)، ومن الغريب أن تجد مفسِّرًا في مقام الزمخشري رحمه الله لم يورد في تفسيرها سوى أنها في بلعم هذا. (الكشاف2/ 178)

2

وربما حدَّث الكتابيون بهذه القصص المظلمة؛ لأنهم أرادوا تعظيم أنفسهم، والبحث عن أعذار في عدم طاعة نبيِّهم موسى عليه السلام حتى أغرب الرازي رحمه الله، فنقل أن بلعم دعا على بني إسرائيل لأجل قومه الكفار فَاسْتُجِيبَ لَهُ، وَوَقَعَ مُوسَى عليه السلام وَبَنُو إِسْرَائِيلَ فِي التِّيهِ بِدُعَائِهِ، فَقَالَ مُوسَى عليه السلام: "يَا رَبِّ بِأَيِّ ذَنْبٍ وَقَعْنَا فِي التِّيهِ. فَقَالَ: بِدُعَاءِ بَلْعَمَ".

(تفسير الرازي/15/ 403)

3

«ذَكَرَ الْبُسْتَانِيُّ فِي دَائِرَةِ المَعَارِفِ العَرَبِيَّةِ مُلَخَّصَ قِصَّةِ بَلْعَامَ"، ثُمَّ قَالَ: وَبَعْضُ مُفَسِّرِي (الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ) المُدَقِّقِينَ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ قِصَّةَ "بَلْعَامَ " المُدرَجَةَ فِي سِفْرِ الْعَدَدِ مِنَ الْإِصْحَاحِ (22 - 24) دَخِيلَةٌ». (تفسير المنار 9/ 348)

4

والصَّحيح أنه يدخل فيه كلُّ من انطبق عليه وصف الآيات، وهنا تدخل كلُّ الأمثلة القديمة والأقدم والمعاصرة، وأحسن الطبري رحمه الله كعادته في كثيرٍ من كلامه عندما ختم تلك الأقوال بقوله: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنَّ الله تعالى ذكره أمرَ نبيَّه ﷺ أن يتلو على قومه خبرَ رجلٍ كان الله عز وجل آتاه حُجَجَه وأدلَّتَه، وهي "الآيات"». (تفسير الطبري 13/ 259).

من أمثلة المنسلخين عن آيات الله:

1 الذين آتاهم الله عز وجل آيات الكتاب من أحبار اليهود والنَّصارى وغيرهم، ثم أَبَوا أن يتَّبعوا رسول الله ﷺ بعد أن عرفوه كما يعرفون أبناءهم

كأميَّة بن أبي الصَّلت قال:

كُلُّ دِينٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ ... اللَّهِ إِلَّا دِينَ الْحَنِيفِيَّةِ زُورُ

وشهد لرسول الله ﷺ بالصِّدق، ولكنه مات كافرًا، والآية لم تنزل فيه فحسب، بل في كل من انسلخ من آيات الله قديمًا وحديثًا، ويدخل فيهم أحبار السُّوء ورهبانه وعلماؤه.

2 مَنْ تلاعب بمعاني آيات، واتخذها دليلًا على استباحة الدِّماء المحرمة

حيث قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِن مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى إِذَا رُئِيَتْ بَهْجَتُهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ رِدْئًا لِلْإِسْلَامِ غَيَّرَهُ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، فَانْسَلَخَ مِنْهُ، وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ، وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ». قَالَ: قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَيُّهُمَا أَوْلَى بِالشِّرْكِ الْمَرْمِيُّ أَمِ الرَّامِي؟ قَالَ: «بل الرامي». "صحيح ابن حبان (81)، وأورده ابن كثير في "تفسيره" 3/509 عن أبي يعلى، بهذا الإسناد، ثم قال: هذا إسناد جيد".

3 العالم الذي لم يعمل بعلمه، بل اتخذ علمه مطيَّة للفسق، وإباحته لنفسه ولغيره

ولذا قال الرازي رحمه الله في تفسيره (405/15): «وهذه الآية من أشدِّ الآيات على أصحاب العلم... وذلك يدلُّ على أنَّ كلَّ من كانت نعمُ الله في حقِّه أكثرَ، فإذا أعرض عن متابعة الهدى وأقبل على متابعة الهوى، كان بُعْدُه عن الله أعظمَ».

4 مشهد [4]

المنسلخ في صورة الكلب اللَّاهث

آية المشهد:

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 176]

1 كلمة [1]

الفاء فى قوله: ﴿فَمَثَلُهُ﴾

لتفصيل حاله، أي: ستراه الآن وقد أخلد إلى الأرض في أجمل صورة، فلا يغرنَّك، فمثله أي: صفته الحقيقية.

2 كلمة [2-3]

﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾

كصِفة الكلب. ما أبشع الصُّورة التي يقدِّمها هذا التَّصوير القرآنيُّ

3 كلمة [4-7]

﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾

إن تطارده وتهاجمه وتجري وراءه ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ بأن يتنفَّس تنفُّسًا شديدًا، ويخرج لسانه على هيئة يتقزَّز منها الإنسان.

1

هذا العالِمُ بآيات الله عز وجل المعرض عن مطلوبات الله عز وجل فيها يخرج لسانه بالآيات طلبًا لما في الأرض من شهوات، واتِّباعًا لأهوائه ورغباته، فالصُّورة الإنسانية الجميلة تحولت إلى الصُّورة الكَلْبِيَّة اللَّاهثة عندما انسلخت من آيات الكتاب، فكأنها انسلخت من إنسانيتها.

2

أظهر الطبري رحمه الله وجه الشَّبه، فقال: «معناه: سواء وُعظ أو لم يُوعظ، في أنه لا يترك ما هو عليه من خلافه أمر ربِّه، كما سواءٌ حمل على الكلب وطُرِد أو تُرك فلم يطرد، في أنه لا يدَع اللَّهث في كلتا حالتيه». (تفسير الطبري 13/272)

3

«الكلب من عادته أنه يذلُّ ويخضع لكلِّ أحد؛ لمَّا يطمع أن ينال منه أدنى شيء، ولا يبالي ما يصيبه من الذُّل والهوان في ذلك بعد أن ينال منه بشيء». (تفسير الماتريدي 5/ 92)

4

يشعر الزَّمخشري رحمه الله بقوَّة هذا التَّصوير في تبشيع حالة هذا الإنسان، فيقول: «وكان حقُّ الكلام أن يقال: ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته، فوَضَع قولَه: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ موضع حططناه أبلغَ حطٍّ؛ لأنَّ تمثيله بالكلب في أخسِّ أحواله وأذلِّها في معنى ذلك».

(الكشاف 178/2)

4 كلمة [8-13] ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾

﴿ذَّٰلِكَ﴾: اسم إشارة يعود إلى التَّمثيل الذي تأبى النُّفوس أن تكون مثله، وهو التحوُّل من الإنسانيَّة إلى الصورة الكلبيَّة.

5 كلمة [14-17] ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

فاقصص، يا حامل القرآن القصص الذي تسمعه في القرآن العظيم على العالم، «أي: فأخبر الإخبار العظيم الذي تتبَّعت به مواقع الوقائع، وآثار الأعيان حتى لم تدع في شيء منها لبسًا على كلِّ من يسمع لك من اليهود وغيرهم، وهو مصدر قصَّ الشيء إذا تَبِعَ أثره واستقصى في ذلك». (نظم الدرر 8/ 161).

[1] ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

التَّفكُّر: هو حركة الفكر في المعقولات، كما أنَّ النَّظر حركة البصر في المرئيات، ويترتَّب عليه التَّذكُّر والتَّأثُّر.

2

يتفكَّرون في هذه الآيات، فيعلمون أنه لا يأتي بمثلها من غير معلِّم من الناس إلا نبيٌّ، فيردَّهم ذلك إلى الصَّواب، ويقرِّر هذا المعنى الطَّبريُّ ومن بعده البقاعيُّ رحمهما الله. (تفسير الطبري 274/13)، (نظم الدرر 161/8)

3

يتفكَّر العلماء الذين آتاهم الله عز وجل آياته في أنفسهم، ويعلمون أنهم مهما أوتوا من الدُّنيا إذا انسلخوا من آيات الله، فمثلهم كهذا المثل السَّوء، ويتفكَّر المؤمنون في آيات ربِّهم عز وجل، فيزدادون بها هدى، ويجعلونها منهاج حياة.

مشهد [5]

5

نجوم الضَّلالة هم المكذبون بآيات الله عز وجل:

آية المشهد:

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: 177]

فهم نماذج للاقتداء المظلم في الأرض:

أي: بلغ المكذِّبون بآيات الله عز وجل أسوأ القُبح، فساء أن يكون مثلًا أو نجومًا يقتدي بهم الآخرون.

وهنا قد يقول قائل: ألم يحاولوا خدمة أنفسهم عندما انسلخوا من آيات الله بما أرادوه من متاع الحياة الدُّنيا؟

الجواب:

الذي فعلوه لم يظلموا فيه ربَّهم عز وجل، ولا آياتِ ربِّهم التي أوتوها، ولا الحياة، بل ظلموا أنفسهم حصرًا ﴿وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ فقدَّم المفعول به؛ ليبيِّن أنَّ ظلمهم مسَّ أنفسهم بصورة كاملة، فأذهبوا حظَّها من المُتَع الدَّائمة الخالدة القادمة في الآخرة، ولم يصب غيرهم على الحقيقة.

وهنا نسأل: عرفنا الدَّافعين الإيمانيَّين الأوَّلَين لاتِّباع الكتاب، وهما: الميثاق الإلهيُّ البشريُّ الأوَّل، والحذر من الانسلاخ المرعب، فما الدَّافع الثالث؟

الجواب:

الدافع الإيماني [3]

ثلاثية الاهتداء: لنحصل على الهداية الإيمانيَّة يجب أن نرجع إلى مصدرها الحقيقيِّ، وهو الله عز وجل ونُعمِل أدوات المعرفة، وهي القلب والبصر والسَّمع، وندعو الله عز وجل بأسمائه الحسنى [الأعراف: ١٧٨-١٨٠]:

آيات هذا الدافع:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

[الأعراف: ١٧٨-١٨٠].

المناسبة والاتصال:

1 في القِسم السَّابق تحدَّثت الآيات عن الدَّافع الإيمانيِّ الثاني:

وهو الاهتداء بالآيات التي آتاها الله عزوجل كلَّ عالم بها، سواء أكانت كلماتِ وَحْيِهِ أم آياتِه المبثوثةَ في الكون.

2 ولما قال جلَّ مجده: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 176] ربَّما تساءل السَّامع:

فكيف يمكننا أن نتَّبع الآيات، ولا ننسلخ منها، فيرفعنا الله عزوجل بها دون أن تبعدنا عن ذلك مشيئته؟

3 هنا جاء الجواب مبينًا الدَّافع الإيماني الثالث ببيان ثلاثية الاهتداء.

وحتى يجد الإنسان طعم الهداية، لا بد أن يتَّبع الوسائل الثُّلاثية للاهتداء، وهي:

وسيلة [1]

الرُّجوع إلى مصدر الهداية الحقيقيَّة، وهو الله عز وجل

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: 178]:

1 معنى الآية واضح عندما ننظر إلى سياق ما قبلها وما بعدها:

أي: من يهده الله بآياته التي يؤتيه إيَّاها، فيتَّبعها، فهو المهتدي الحقيقيُّ، ومن يضلل يمنعه من أنوار آياته؛ بسبب أنه أخلد إلى الأرض، واتَّبع هواه، فأولئك هم الخاسرون.

2 الآية تبصِّرنا بالقَدَر الإلهي

كما قال النَّبيُّ ﷺ: "إن الْحَمْد لِلَّهِ، نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ، فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ، فَلَا هَادِيَ لَهُ". "أبو داود (2118)، وصحَّحه الأرناؤوط، والوادعي في الجامع الصحيح (392)"

3 القَدَر الإلهيُّ لا يسلب حقَّ الناس في الاختيار

فمن هداه الله عز وجل هداية إبانة، ينبغي أن يجاهد هواه، ولا يخلد إلى الأرض؛ ليجد نعيم هداية التوفيق والإعانة، حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت 69].

4 ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾

أي: من يضلل الله عز وجل؛ لاستحقاقه الضَّلال، كما في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: 26].

5 ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم الإشارة للتَّحقير

أي: البُعَداء، الهالكون، البُغَضاء، ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي: الذين كملت خسارتهم ورسخت.

6 الآية فيها احتباك واضح جميل:

فحذَف الربِّح والفوز والفلاح للفريق الأوَّل، وأثبت مقابلَه وهو الخسارة للفريق الثاني، وحذف إثبات الضَّلالة للفريق الثاني، وأثبت المهتدي في الفريق الأول؛ ليكون المعنى الكليُّ: من يهد الله فهو المهتدي الفائز المفلح، ومن يضلل فأولئك هم الضَّالون الخاسرون.

فهل هذه الآية تعني بأن الإنسان مجبور على الاهتداء أو الضلال؟

الجواب:

الجواب: لا، وهنا تأتي الوسيلة الثانية؛ لتبيِّن كيف يحصل المرء على الاهتداء:

وسيلة [2]

الإفادة من أدوات المعرفة الأساسيَّة، وهي: القلب، والبصر، والسَّمع؛ لتحصيل الاهتداء باتِّباع آيات الكتاب، ومحاربة الغفلة:

﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

1 تقدير الله عز وجل السَّابق: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾:

1 كلمة [1] ﴿وَلَقَدۡ﴾

الواو تُظهر قوَّة الاتِّصال بين هذه الجملة التي حمَّلت الضَّالين مسؤولية ضلالهم، وبين جملة الملِك الكامل العادل الذي أظهره الله عز وجل في الآية السَّابقة: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: 178].

2

فكأنَّ المعنى: من يهد الله بأن يستعمل القلب، والسمع، والبصر في طلب الهداية، فهو المهتدي الحقُّ، ومن يضلل بأن يترك استعمال هذه الأدوات فيما ينفعه في الدُّنيا والآخرة، فأولئك هم الخاسرون، وهؤلاء الخاسرون هم الذين ذرأناهم لجهنم؛ إذ أنعم الله عز وجل عليهم بأدوات المعرفة، فلم يستعملوها فيما ينفعهم.

3

لام القَسَم، و(قد) التحقيقيَّة التَّأكيديَّة، والفعل ﴿ذَرَأۡنَا﴾ مقترنًا بـ(نا) الدَّالَّة على التَّعظيم؛ ليبيِّن الجمع بين رحمته وعدله، فرحمة الله عز وجل تدعوهم للرجوع إليه، وعدله يقتضي معاقبة الغافلين بأن يذرأهم لجهنم ليعاقبهم، كما ذرأهم في الأرض ليبتليهم.

4 كلمة [2-7] ﴿ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾

من ذَرِئَ يَذْرَأُ، أَيْ: بَذَرْنَا لأرض جهنَّم بذورًا، سيكون فيها كثيرٌ من الجنِّ والإنس، تعيش أجسادهم فيها مرتبطة بها، كارتباط الزرع المذروء بالأرض.

5

الجنُّ يعذَّبون بجهنم على الرَّغم من أنهم خُلقوا من مارج من نار، فإن النار تعذِّبهم أيضًا، كما أنَّ البشر يتألَّمون إذا ضُربوا بالتراب، مع أنهم خُلقوا من تراب.

6

كلمة ﴿كَثِيرٗا﴾: لا تقتضي أنَّ الذي يقابلهم وهم أهل الجنة قليل، فإنَّ الله عز وجل قد أخبرنا عن كثرة المتقابلين في قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗا﴾ [البقرة: 26].

السؤال الكبير: ما نوع اللام في قول ربِّنا عز وجل ﴿لِجَهَنَّمَ﴾؟ وعلام تدلُّ؟

الجواب:

تدلُّ على المصير، والعاقبة، والمستقبل الذي سيتحقَّق بناء على اختيار الإنسان، وما يجازيه به الرَّحمن، فهي اللام المستقبليَّة الخطيرة، وليست اللام التي لبيان الغاية، أو الهدف؛ فإنَّ الله عز وجل لم يخلق جهنَّم لأنه يريد أن يملأها قَصْدًا، بل يملؤها عقوبة؛ «لِأَنَّ جَهَنَّمَ لَا يُقْصَدُ إِيجَادُ خَلْقٍ لِتَعْمِيرِهَا» كما يقول ابن عاشور رحمه الله. (التحرير والتنوير 182/9)

وتجد هذه اللام الخطيرة في التَّعبير العربي، مثل قول الشَّاعر (سابق البربريِّ):

أَمْوَالُنَا لِذَوِي الْمِيرَاثِ نَجْمَعُهَا ... وَدُورُنَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبْنِيهَا

7

ويبيِّن هذا قولُ رَسُول اللَّه ﷺ: "كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ" "مسلم (2653)" أي: كتبه بناء على علمه -جلَّ مجدُه-، وعلمُه يوضِّح عظمة الإيمان بالقدر، فهو ليس مثل علم الأستاذ البصير بمن سيرسب من طلابه ومن سينجح؛ فإن علم الله حقٌّ لا يدخله ريب.

2

تقدير الله عز وجل سابق، ولكنه عادل ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾:

1

عِلْم اللّه سبحانه شامل محيط، ولكنه ليس هو الذي يدفع هذه الخلائق إلى الضَّلال

بل هم اختاروا أن يعطِّلوا أدوات المعرفة عن إدراك الحقِّ، فلم يفتحوا القلوب ليفقهوا الحقائق الواضحة الدَّقيقة، ولم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات اللّه الكونيَّة، ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات اللّه المتلوَّة.

2

أدوات المعرفة، هي القلوب، والأعين، والآذان

فيجب تفعيلها، ويحرم تعطيلها، فكيف يُعْمِلُ الإنسان قلبه وبصره وسمعه في كلِّ شيء، إلا في معرفة الحقِّ الذي يجب عليه اتِّباعه.

3

القلوب:

جمع قلب، وهو العضو المركزيُّ الذي يكون في الجانب الأيسر من الإنسان، كما يطلق على مركز الإحساس والإدراك والتَّفكير والعاطفة.

4

وصف الله عز وجل تعطيلهم تفكير القلوب بقوله: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾

لأن الفقه يُعَبَّرُ به عن فَهْمِ الأشياء الدَّقيقة التي تحتاج إلى إعمال فكر بصورة أعمق، بينما العقل أعمُّ وأشمل، فيُعَبَّرُ به عن توقيف العقل أمام الواضح الجليِّ والغامض الخفيِّ، والعقل يدلُّ على نتيجة الفقه؛ إذ يمنع من السُّوء، مِنْ عقل الشيء إذا قُيِّد.

5

فهم يفقهون أدقَّ الأمور، مثل: علم الخليَّة، ودقائق الفيزياء، وغوامض الكيمياء

لكنهم يصرُّون على ألَّا يفقهوا حياتهم، والحكمةَ من وجودهم في الكون.

6

تكرَّرت مادة (فقه) في عشرين موضعًا في القرآن

ويقصد به علم الأسئلة الكبرى في الوجود: من أين جاء الخلق؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ وما السَّبيل لتحقيق المستقبل القادم؟ ولذا قال الغزالي رحمه الله: «ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقًا على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس».(إحياء علوم الدين 1/ 32).

7

وفيهم قال مجاهد:

«﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾: لا يفقهون بها شيئًا من أمر الآخرة، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الهدى، ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ الحقَّ.

8

وهم عندما يعطِّلون القلوب والأعين والآذان، فإنهم يدمِّرون حياتهم الدُّنيا قبل الآخرة

فإنَّ تفعيل القلوب والأعين والآذان مطلوب في كلِّ ما يفيد في الحياة، ولذا قال الله عز وجل:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۚ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: 26].

3 الغفلة الآثمة:

1

لأنَّهم عطَّلوا أدوات المعرفة التي تعرِّفهم بأهمِّ أمور حياتهم صاروا على مرتبتين:

1 **الأولى:**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾

أولئك البُعداء البُغَضاء يشبهون الأنعام، التي لا تعرف من حياتها إلا دورة حياتها المباشرة التي أمامها

2 **الثانية:**

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ﴾

فالأنعام صَنَعَت ما خُلِقت لأجله، وهم لم يفعلوا، وكلمة ﴿بَلْ﴾ لتنويع أصناف هؤلاء الغافلين، فبعضهم أسوأ من الأنعام، ويمكن أن تكون للتَّهويل، فحالهم جميعًا كالأنعام، لكنَّك عندما تتأمَّل واقعهم تجدهم أعظم ضلالة

[2]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾

والغفلة المذمومة هي التي يتعمَّد صاحبها أن يُعملها، لا أن تقع له دون شعور؛ لأنهم يصرُّون على تعطيل ما فيه صلاحهم، وسعادتهم في الدُّنيا والآخرة.

3

فَهُمْ يصرُّون على الغفلة عن دلالة آيات الله على ما فيه سعادتهم، كما قال الله عز وجل عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يونس: 7- 8].

4

وغفلوا عن الحياة الحقيقة القادمة في الآخرة: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: 7].

ستقول: فما ذنب هؤلاء الغافلين إذا كان الله عز وجل قد ذرأهم لجهنَّم من البداية؟

الجواب:

1 **هذا مشهد كمال ملك الله عز وجل، فلا تجعله يغيب عنك كمال عدله الحقِّ، الذي عبَّر الله عز وجل عنه في آخر الآية، حيث قال الله عز وجل في أولها:** ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ **فهنا مشهد كمال الملك والقدرة والعلم.**

2 **ثم اقرأ بقيَّة الآية:** ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

3 **فهنا كمال العدل الحقِّ، الذي قال الله عز وجل عنه:** ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: 25].

4 **لذا قال الطبري رحمه الله مبيِّنًا أنَّ الذَّرء هنا يتعلَّق بعلمه تعالى أنهم سيختارون تعطيل أدوات الإدراك والمعرفة عن الوصول إلى العلم الحق-: «وقال جلَّ ثناؤه:** ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾**، لنفاذ علمه فيهم بأنهم يصيرون إليها بكفرهم بربِّهم».** (تفسير الطبري 13/ 278)

وحتى يرتبط الكلام ينبغي أن نسأل: ما الحكمة من ذكر تعريف الغافلين هنا؟

الجواب:

لأن الذين تركوا العهد الإلهي الأول سيعتذرون يوم القيامة بأنهم كانوا عنه غافلين، فقد حدَّثنا الله عن ذلك فقال: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 172].

وسيلة [3]

دعاء الله عز وجل بأسمائه الحسنى لطلب الهداية:

آية هذه الوسيلة:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: 180]

1

الواو في قول ربنا ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ تبصِّرنا باتِّصال وثيق بما سبق

حيث كلَّمنا الله عز وجل عن المصدر الحقيقي للهداية، وهو الله عز وجل ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: 178]، وهذا يعني إعمال أدوات المعرفة (القلوب، والأعين، والآذان) لتحصيلها منه تعالى مجده، وهنا يحدِّثنا عن أيسر طريق لإعمال أدوات المعرفة بأنْ نستخدمها لندعو الله عز وجل بأسمائه الحسنى.

2

ودعاء الله عز وجل من أعظم ما يُذهِب الغفلة التي ذمَّ أصحابها في الآية السَّابقة

كأنه قال: ستحصلون على الهداية بإعمال أدوات المعرفة، وأعظم مكان تستعملونها فيه أن تدعوا الله ربَّكم، ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها. اللهم وفِّقنا لأن ندعوك بها يا أرحم الراحمين.

3

تكونت هذه الآية من أربعة أعمدة؛

لأن الذي يسمع أوَّل الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ يتساءل: فكيف نتعامل معها؟

فيأتيه الجواب: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾، فيسأل: فماذا نصنع بالمعتدين الذين يلحدون في أسمائه؟

فيأتيه الجواب: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾، فيسأل: لماذا نَذَرُهم؟ أَلَا يستحقُّون العقاب؟

فيأتيه الجواب: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: 180].

[4]

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾

أي: التي بلغت غاية الحسن، وأقصى درجات الجمال، وأعلى منازل الكمال.

وتقديم الجار والمجرور المتعلِّق بالخبر ﴿لِلَّهِ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾؛ ليبصِّرنا أنَّ له سبحانه وتعالى دون غيره الأسماءَ الحسنى، وأخبرنا الله عز وجل بذلك؛ حتى لا نتخوض في أسماء الله عز وجل رجمًا بالغيب بما لا نعرفه، كما وقع في ذلك الوثنيون، والمحرِّفون.

5

وَصْفُ الأسماءِ بالحسنى يعني:

أنَّ هذه الأسماء تدلُّ على صفات معنويَّة هي أحسن الصِّفات التي يمكن أن تُقال وتُسمع، ويبين النَّبِيُّ ﷺ عدد أبرز هذه الأسماء، فيقول: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وَزَادَ في رواية: «إِنَّهُ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ». "مسلم (2677)"

6

ذكر ابن القيِّم رحمه الله مراتب إحصاء أسمائه، وهي:

إحصاء ألفاظها وعددها | وفَهْمُ معانيها ومدلولها | ودعاؤه بها

أي: تلذَّذوا، وأشغلوا ألسنتكم بالطَّلب بها

قال الزجاج رحمه الله:

"لا ينبغي أن يدعوه أحد بما لم يصف نفسه به، أو لم يسمِّ به نَفْسَه"

(معاني القرآن وإعرابه 2/ 392)

وإنِّي لأدعو اللهَ حتى كأنَّني ○○○ أرى بجميل الظَّنِّ ما الله فاعلُهْ
أمُدُّ يدي في غير يأسٍ لعلَّه ○○○ يَجُودُ على عاصٍ كمثلي يُوَاصِلُهْ
وأقرعُ أبوابَ السموات راجيًا ○○○ عطاءَ كريمٍ قطُّ ما خابَ سائلُهْ
ومنْ لي سوى الرَّحمنِ ربًّا وسيِّدًا؟! ○○○ ومَنْ غيرُه أُبدِيه ما الغير جاهلُهْ؟!
له الخيرُ منه الخيرُ والخيرُ كُلُّه ○○○ إليه.. بين يديه تزهو خمائلُهْ

[7]

﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾

كلمة ﴿وَذَرُواْ﴾ أقوى من (اتركوا)؛ لأنها تعني تركًا خاصًّا، أي: اتركوهم تركًا يستلزم عدم المبالاة بحالهم، والاهتمام بإفهامهم.

[8]

﴿يُلْحِدُونَ﴾

من (لَحَدَ)، وهي كلمة تدُلُّ على ميل عن الاستقرار في المكان المستقيم إلى أحد الجانبين، أي يميلون عن الحقِّ في أسمائه إلى أحد الجوانب، بأن يمتنعوا عن وصف الله عز وجل بما وصف به نفسه، أو يشركوا في أسمائه ما اختصَّ بها جلَّ مجده، أو يصفوه بما لم يرد وصفه به مما لا يليق.

9

أشار الرازي رحمه الله

إلى أنه ليس كلُّ ما ورد من خبر عن الله عز وجل يجوز أن يُشتقَّ لله اسم منه، مثل قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]، فلا يُقَالُ فِي حَقِّ اللَّه تَعَالَى: يَا مُعَلِّمُ.

قد تسأل: هل يجوز إطلاق أسماء الله عز وجل على غيره؟

الجواب: أَسْمَاءِ اللَّه تَعَالَى قسمان:

1. أسماء يَجُوزُ إِطْلَاقُهَا عَلَى غَيْرِ اللَّه تَعَالَى، كَقَوْلِنَا: الْكَرِيمُ الرَّحِيمُ الْعَزِيزُ مع معرفتنا باختلاف الكيفية بين الخالق والمخلوق.
2. أسماء لا يجوز إطلاقها على غير الله تعالى، وتشمل: ما اختصَّ بالله عز وجل مثل: يَا أَرْحَمَ الراحمين، ويا أكرم الأكرمين.

[10]

﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

وعد مستقبليٌّ بما سيكون عليه مصيرهم، فحسابهم ليس عليكم، بل على الله ربِّ العالمين.

وهنا نسأل: عرفنا الدَّوافع الإيمانية الثَّلاثة لاتِّباع الكتاب، وهي: الميثاق الإلهيُّ البشريُّ الأوَّل، والحذر من الانسلاخ المرعب، وثلاثيَّة الاهتداء، فما الدَّافع الرَّابع؟

الجواب:

الدافع الإيماني [4]:

مصاحبة الذين يهدون بالحقِّ وبه يعدلون، وترك مصاحبة المكذِّبين، بالآيات مهما ظهرت علامات الغنى، والقوَّة، والنُّفوذ عندهم، لأنَّ اللّه عز وجل يستدرجهم:

آيات هذا الدافع:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨١-١٨٣].

ما المناسبة والاتِّصال بين هذا الدَّافع وما قبله؟

الجواب:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ﴾ الواو ربطت اللَّاحق بالسَّابق، أي: لئن كان الدَّافع الثالث لاتِّباع آيات الكتاب ثلاثيَّة الاهتداء، فاطلبوا الهداية من الله عز وجل، وفعِّلوا أدوات المعرفة لتحصيلها، ومن ذلك أن تدعوا الله بأسمائه الحسنى ما ينفعكم، وتذروا الذين يلحدون في أسمائه، وستجدون من الخلق الذين خلقناهم بقدرتنا صنفين من الناس أمام اتِّباع الآيات، فذكر الله عز وجل الصِّنفين بصفاتهم:

صنف [1]

المتَّبع الحقَّ، ووصفهم الله عز وجل بثلاث صفات:

1 صفة [1]

﴿أُمَّةٌ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾

أي: يهتدون به، كما يقرِّر الطَّبريُّ رحمه الله (تفسير الطبري 13/ 285)، وكلمة ﴿أُمَّةٌ﴾ تعني: جماعة يؤمُّ بعضها بعضًا تكاتفًا، وتعاضدًا، وتناصرًا، ويؤمُّها غيرها، أي: يقصدها اهتداء، أو قصدًا للإضلال والاعتداء.

2 صفة [2]

﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾

أي: وبالحقِّ يقضُون، ويُنصفون النَّاس.

3 صفة [3]

﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾

أي: يهدون غيرهم حال كون هذه الهداية ملابسة للحقِّ لا يخلطونها بباطل، فهم يدلون غيرهم إلى الأهداف الصَّحيحة في الدُّنيا والآخرة.

ولنطرح سؤالًا آخر يبيِّن لك قوَّة الاتِّصال بين هذه الآية والسُّورة كلها: بم تذكِّرنا هذه الآية: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: 181]؟ وما العلاقة بينها وبين الآية (159) في هذه السُّورة؟

الجواب:

1

الآية تربطنا بالآيات السَّابقة ربطًا محكمًا، ويبيِّن قتادة رحمه الله أنَّ أوَّل من يدخل في الأوصاف الثَّلاثة المذكورة في هذه الآية أمَّة النَّبيِّ ﷺ، فيقول: "بلغنا أنَّ نبيَّ الله ﷺ كان يقول إذا قرأها: هذه لكم، وقد أُعطي القوم بين أيديكم مثلَها: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159]" (تفسير الطبري، ط: دار الحديث، (5/582)، وحسَّنه إسلام منصور).

2 والآية تتضمَّن وعدًا إلهيًا ببقاء الحجَّة السُّلوكيَّة في الأرض، حيث تبقى الأمَّة التي تطبِّق الإسلام في ذاتها مهما حاربها الفاسقون، فالصُّحبة الصَّادقة تُوجِد البيئة الصَّالحة.

صنف [2]

المتَّبع أولياء من دون الله عز وجل:
وصفهم الله عز وجل بصفة واحدة، وكشف حقيقة واقعهم من خلال حقيقتين:

الصفة

التَّكذيب بالآيات ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 182]:

فالواو ربطت ما بعدها بما قبلها، والتقدير: وممن خلقنا أمَّة يهدون بالحقِّ وبه يعدلون، فاصحبهم ليعينوك على الهداية، وممن خلقنا من لا يُفَعِّلون أدوات المعرفة عندهم، فيكذِّبوا بآياتنا بدلًا من التَّصديق بها، فلا تصحبهم، والتَّكذيب بالآيات يعني أنهم اتخذوا آيات الوحي، وآيات الآفاق والأنفس وسيلة لإضلال النَّاس، بأن حجبوا النَّاس عن وجوه الاهتداء بها، وجعلوها أدوات يتلاعبون بعقول النَّاس من خلالها.

وقد تسأل: لماذا قابل الصِّفات الثَّلاث في الصِّنف الأول بهذه الصِّفة؟

الجواب:

على طريقة الاحتباك، وبذلك تظهر الصِّفات الأربع في الفريقين، فيكون المعنى:
وممن خلقنا صنفان:

1 أمَّة يصدِّقون بآياتنا، ويهدون بالحق في حياتهم، ويهدون به غيرهم، وبه يعدلون في قضايا الحياة.

2 وأمَّة يكذِّبون بآياتنا، فينبذون الحقَّ في حياتهم، ويبعدون الحقَّ في إرشاد غيرهم، ويتعاملون بالباطل في قضايا الحياة.

وهنا يظهر سؤال: فما الحكمة من تمكين الله عز وجل لهم في الأرض؟

الجواب:

كشف الله عز وجل حقيقة واقعهم حتى لا يشكَّ المؤمنون، فذكر أنه يعاملهم وَفْقَ حقيقتين:

حقيقة [1] بالاستدراج المدمِّر ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 182]:

1 أي: سنجعلهم يغترُّون بتمكُّنِهم

ونعطيهم الاختيار ليهبطوا درجة درجة في تكذيبهم، وتركهم للكتاب من حيث لا يعلمون أن الله عز وجل يَعُدُّ لهم جرائمهم، ونقرِّبهم قليلًا قليلًا، كما يُقرَّب الإنسان إلى مكانٍ محدَّد بإنزاله درجة درجة.

2 كما قال الطبري رحمه الله:

«وأصل "الاستدراج" اغترارُ المستدرَج بلطف مَن استدرجه، حيث يرى المستدرَج أن المستدرِج إليه محسنٌ، حتى يورِّطه مكروهًا». (تفسير الطبري 13/ 286).

3 وطبِّق ذلك على كفار قريش

الذين اتبعوا من دون الله أولياء وعادوا النَّبيَّ ﷺ، وكيف كانت نهاية أمرهم بفتح مكة، وهلاك كبار مجرميها، ودخول بقيَّتهم فيما كانوا يكرهونه من الخير.

4 شعر الصَّالحون بذلك

فقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رضي الله عنهما المال الذي أرسله المسلمون من العراق، فَبَكَى عُمَرُ رضي الله عنه، فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمَا: وَاللَّهِ مَا هُوَ بِيَوْمِ بُكَاءٍ، وَلَكِنَّهُ يَوْمُ شُكْرٍ وَسُرُورٍ، فَقَالَ:

"إِنِّي وَاللَّهِ مَا ذَهَبْتُ حَيْثُ ذَهَبْتَ، وَلَكِنَّهُ وَاللَّهِ مَا كَثُرَ هَذَا فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا وَقَعَ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ"، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْقِبْلَةِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِك أَنْ أَكُونَ مُسْتَدْرَجًا، فَإِنِّي أَسْمَعُك تَقُولُ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 182] الْآيَةَ». (الأم للشافعي 4/ 165)

حقيقة [2] **الإملاء لهم:** ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: 183]:

1 أي: وسأملي لهم، فأعطيهم فرصتهم في الحياة

فلا أعاقبهم من فورهم، و(الإملاء): الْإِمْهَالُ، وَ(الْمَلِيُّ): زَمَانٌ طَوِيلٌ، ليبلغوا بجرائمهم المقدارَ الذي قد كتبه لهم من العقاب والعذاب، ثم يقبضهم إليه.

2 ولذا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]. "البخاري (4686)"

3 قال البقاعي رحمه الله:

«كأنه قال: سأستدرجهم بنفسي من غير واسطة تارة، وبمن أُتيح لهم النِّعم على يده من عبيدي وجنودي أخرى، وأمَّا الإملاء وهو تطويل الأجل، فلا يُتَصور أن يكون إلا من الله تعالى». (نظم الدرر 8/ 179).

4 ولماذا يستدرجهم الله ﷻ ويملي لهم؟

الجواب: يبيِّن الله عز وجل سبب ذلك، فيقول: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: 183]، أي: قويٌّ شديدٌ، لا يمكنهم أن يجدوا منه مخرجًا، والمساكين يظنُّون أنهم يجدون منه مخرجًا، بل يظنُّون أن الله عز وجل لا يكيد لهم، وأصله من قوَّة المَتْن، وهو الظَّهْر.

5 الكيد أصله:

تدبير بباطل، أو حقٍّ يظهر منه غير المقصود به، لكنه إن نُسب إلى الله عز وجل كان حقًا، ولا يصحبه العناء إلا على من جعله الله عز وجل أداة تنفيذ، فقد يكون الكيد مذمومًا، وقد يكون ممدوحًا، واستعماله في المذموم أكثر.

6 المكذِّبون ربَّما جذبوا النَّاس إليهم بقوَّاتهم وثرواتهم

لأنَّ ربَّنا -جلَّ مجده- ذكر أنه سيستدرجهم بالنِّعم، ويملي لهم، وهذا يدلُّ على تطاول الزَّمن الذي يعيشون فيه وهم في عزِّ القوَّة والثَّروة، فلا يغترُّ الإنسان بما يراه عليهم من القوَّة، والتمكُّن، ولذا قيل:

فلا تَصْحَبْ أخا الجَهْلِ ○○○ وإيَّاك وإيَّاهُ
فكم من جاهلٍ أَرْدَى ○○○ حليمًا حين آخاهُ
يقاس المرءُ بالمرءِ ○○○ إذا ما المرءُ ماشاهُ

وهنا نسأل: عرفنا الدَّوافع الإيمانيَّة الأربعة لاتِّباع الكتاب، وهي: الميثاق الإلهيُّ البشريُّ الأوَّل، والثاني: الحذر من الانسلاخ المرعب، والثَّالث: ثلاثية الاهتداء، والرَّابع: مصاحبة الذين يهدون بالحقِّ وبه يعدلون، وترك مصاحبة المكذِّبين بالآيات، فما الدَّافع الخامس؟

الجواب:

الدافع الإيماني [5]

رباعيَّة التفكُّر، والنَّظر، والأجل، والخوف من عدم اتخاذ القرار الصَّحيح تدفعهم إلى اتِّباع الكتاب الذي جاء به النَّبيُّ ﷺ:

آيات هذا الدافع:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

[الأعراف: ١٨٤-١٨٦].

ما المناسبة والاتصال بين هذا الدَّافع وما قبله؟

الجواب:

1 تحاصر هذه الآيات عقول المخاطبين برباعيَّة جديدة

ليتخذوا القرار الصَّحيح في حياتهم بالدُّخول في سلك المؤمنين، واتِّباع المنزل إليهم من ربِّ العالمين.

2 همزة السؤال مع واو العطف في قول الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ﴾

وقوله بعدها: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟﴾ تثير وجهًا جميلًا في الاتِّصال مع الآيات السَّابقة، فذكر الله عز وجل الدَّوافع الأربعة، وذكر الرَّازيُّ رحمه الله أنَّ الله عز وجل ختم ما سبق بتهديد المكذِّبين. (تفسير الرازي 15/417)

3 وأكمل ابن عاشور رحمه الله:

فذكر أن أساس تكذيبهم مبعثه تشكيكهم في صحَّة نبوَّة النَّبيِّ ﷺ (التحرير والتنوير 193/9)، وأكملت هذا الوجه ليستوي على ساقه فقلت: عاد السِّياق إلى مخاطبة عقولهم وعواطفهم بأسلوب يُشعرهم أن الدَّافع للإيمان ليس التَّهديد، بل العقل، والعاطفة يؤيِّدان ذلك.

4 السؤال مع واو العطف أكثر إثارة في هذا الموقع

فهو سؤالٌ توبيخيٌّ، إنكاريٌّ، تعجيبيٌّ من حالهم، والتقدير: أكذَّبوا رسولهم، ولم يتفكَّروا؟ ألم يتبعوا ما أُنزِل إليهم من ربِّهم عز وجل ولم ينظروا؟

فإن قلت: مَّم يتكون هذا الدَّافع؟

الجواب: تكوَّن هذا الدَّافع من 4 أعمدة:

عمود [1]

الفِكْر يوصل إلى الحقيقة: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾
وتكوَّنت الآية من 3 أقباس:

1 قبس [1] ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾

1. الفعل ﴿يَتَفَكَّرُوا۟﴾ ليس متعديًا، بل هو لازم يصوِّر أنَّ الله عز وجل يستثيرهم بشدَّة، فكأنه يقول لهم: أفلا يكونون من أهل التَّفكُّر، والعقل؟!
2. التَّفكُّر: إدارة الفِكر، وتحريك القلب والعقل للوصول إلى فكرة صحيحة، والنَّظر: يعني الرؤية بالبصر لاستكشاف ما حولنا.
3. كأنَّه يقول: لماذا يفكِّرون في الذُّبابة، والبعوضة، والرِّياضة، وتخطيط المدن، وتنمية التِّجارات، والاستمتاع بالشَّهوات ولا يفكِّرون في أهمِّ ما يتعلَّق بسعادتهم، وهو مصيرهم القادم؟ فلا بدَّ أن يوصلهم تفكيرهم إلى أنَّ الرَّسول ﷺ نذير صادق.
4. قال الرَّاغب رحمه الله: «قال بعض الأدباء: الْفِكْرُ مقلوب عن الفرك، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلبًا للوصول إلى حقيقتها» (المفردات ص: 643) والصحيح أن مقلوب (فكر) (ركف) وهي كلمة غير مستعملة.

2 قبس [2] ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾

1. لا بدَّ أن يوصلهم التَّفكُّر الصَّحيح إلى هذه النَّتيجة: لا يمكن أن يكون النَّبيُّ ﷺ في إنذاره لهم مجنونًا، ولا مسَّته الجنُّ، وكلمة ﴿صَاحِبِهِم﴾ تصوِّر المقاربة، والمقارنة، والملازمة في الحياة المشتركة، فقد صحبتموه، وجرَّبتموه فلم تجدوا به خللًا، وكلمة ﴿جِنَّةٌۚ﴾ تعني: جماعة الجن، وحالة الجنون

2. تكرَّر اتهام المكذِّبين للرُّسل بأنَّهم قد مسَّتهم جِنَّة، فها هم قوم نوح عليه السلام يقولون: ﴿مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾ [القمر: 9]، وهكذا مَنْ بعدهم، وتكرَّرت هذه الإشاعة الخبيثة عبر الزَّمان، كأنَّهم جمعيًّات سرِّيَّة يتواصون بذلك لطغيانهم، كما قال الله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذَّاريَات: 52-53]

3 قبس [3] ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾

1. انظر جمال الاتِّصال بين الأقباس الثلاثة للآية، وما قبلها، فلما قال الله عز وجل لهم: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ﴾ [الأعراف: 184] كأنهم حاولوا أن يتبرَّؤوا من تهمة الغباء وعدم الفكر، فقالوا: بل نحن أصحاب فكر وتفكُّر، هناك قيل لهم: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾، فحاولوا الهروب من النَّتيجة بتوجيه سؤال: فما الذي يمكن أن نصفه به، ونحن نراه أتى بما يغيظنا، ويخالف عاداتنا وثقافتنا؟ فجاءهم الجواب: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: 184]. (التحرير والتنوير 9/ 195)

[2] الحصر في قوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾

يوضِّح حقيقة النَّبيِّ ﷺ، وغباءهم، أو استكبارهم عندما اتَّهموه بالجنون.

3 وظيفة "الإنذار" تصوِّر مقدار حرص النَّبيِّ ﷺ على مصالحهم، فهي تعني:

الإعلام، والإرشاد المقترن بالتَّخويف المشفق من آلام قادمة، ومصائبَ مستقبلة متعاظمة، فهو لم يرد سوى إنقاذكم من مستقبل مخيف، إن بقيتم على جاهليتكم.

[4] وصف نذارة النَّبيِّ ﷺ بالإبانة

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

ليأخذ بمجامع قلبك، فهو ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: واضح في منطقه وكلامه، وتفاعله معكم، ليس غامضًا، ولا يمثِّل لغزًا لكم، و﴿مُّبِينٌ﴾ في محبَّته وحرصه عليكم

5 الآية تظهر الجهد الضخم الذي بذله النَّبيُّ ﷺ في دعوة العالم، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّفَا ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «يَا صَبَاحَاهْ»، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ، قَالُوا: مَا لَكَ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ، أَوْ يُمَسِّيكُمْ، أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: "تَبًّا لَكَ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟"، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد:1]. البخاري (4801)

6

فتفكُّرهم الصَّادق سيهديهم إلى أنَّ محمَّدًا ﷺ لم يطلب منهم مالًا، ولا ملكًا، ولا عظمة، بل أنذرهم الخطر القادم إن بقوا في الظُّلم والظُّلمات.

7 حرَص ﷺ على إنذارهم ليتركوا التُّراث الجاهليَّ، ويقوموا على مصالحهم، ويصوِّر قتادة رحمه الله هذا، فيقول:

ذكر لنا أنَّ نبيَّ الله ﷺ كان على الصَّفا، فدعا قريشًا، فجعل يفخِّذُهم فخذًا فخذًا: "يا بني" فلان، يا بني فلان!". فحذَّرهم بأس الله، ووَقَائع الله، فقال قائلهم: "إنَّ صاحبكم هذا لمجنون! باتَ يصوِّت إلى الصَّباح، أو: حتى أصبح!"، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: 184]. (تفسير الطبري 13/289)

8 كأنَّ الله عز وجل يخبرنا أنه سيأتي من يهوِّن من محبَّة النَّبيِّ ﷺ، ويحاول النَّيل منه

كما قال ابن الوزير رحمه الله:

قُلْ للعَذُولِ: أفِقْ فلسْتُ بمُنتَهٍ ○○○ عَنْ حُبِّ أكمَل مَنْ تَحَلَّى فابعَدِ
لو لُمْتَني في الغَوْر لَمْ أشتقْ إلى ○○○ شَطَّيهِ أو في نَجْدِهِمْ لَم أُنجِدِ
أوْ كان لَوْمُكَ في التَّصَابِي مَا صَبا ○○○ قَلبي، ولا غَلَبَ الغَرَامَ تَجَلُّدِي
أوْ لُمْتَني في المالِ لَم يَسْتَهْوني ○○○ نظَرُ اللُّجَيْنِ ولاَ نُضَارُ العَسْجَدِ
أوْ لُمْتَني فِي غَيْرِ حُبَّ مُحَمدٍ ○○○ لَحَسبْتَ أنَّكَ بالنَّصِيحَة مُرْشِدِي
هَيهات ما ابْتهج الوُجودُ بِمثلِهِ ○○○ فَدعِ اللَّجَاجَ فَمِثلُه لمْ يُوجَدِ

(العواصم 1/ 33)

عمود [2]

النَّظر في ملكوت السَّمَوات والأرض، وفي كلِّ شيء خلقه الله عز وجل

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 185]

1 بعد تفعيل أدوات المعرفة، والدُّعاء بها، والصُّحبة الصَّالحة، والتَّفكُّر في النُّبوَّات

ينبغي تفعيل النَّظر في ملكوت السَّمَوات والأرض وما خلق الله من شيء.

[2] السُّؤال مع الواو يثيران العقول

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ﴾

والتقدير: أكذَّبوا بصاحبهم الذي يعرفونه، ولم يسلكوا سُبَل الهداية بتفعيل قلوبهم، وأبصارهم، وأسماعهم، ولم ينظروا في ملكوت السَّمَوات والأرض، وما خلق الله عز وجل من شيء مهما صغر، ليجدوا في كلِّ ذلك ملايين الأدلَّة التي تهديهم إلى ربِّهم عز وجل؟

3 والنَّظر

تحريك العين في المنظورات مصاحبًا بالفكر، للوصول إلى حقائق علميَّة جديدة، أو أفكار جديدة، ساعد عليها النَّظر في المنظورات

[4] كلمة

﴿فِى﴾

يحرِّك الله عز وجل بها همَّهم للنَّظر العميق، ففي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: 17] يحثُّهم على النَّظر المتفكِّر، ولكنه حدَّد المقصود بالنَّظر، فقال: ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، أما هنا فعدَّى فعل النَّظر بكلمة ﴿فِى﴾، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾؛ لتحدِّد النَّظر العميق داخل أجزاء الشيء

[5] عندما نجمع بين قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ [الأعراف: 184] + ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟﴾ [الأعراف: 185]

=

نجد أنَّ التَّفكُّر والنَّظر من أعظم أعمدة شخصية الإنسان في الإسلام، وما زلت أعجب: لماذا يُتَّهم الإسلام من قبل المستكبرين بعدم الاعتناء بالعقل! كما أنني وددت أنَّ علماءنا الذي ينقدون المدرسة الماديَّة لم ينعتوها بالعقليَّة، بل ينبغي أن ينعتوها بالماديَّة، أو الغالية في العقل.

[6] كلمة

﴿مَلَكُوتِ﴾

جاءت من كلمة "ملك"، وتدلُّ على مسكٍ وتحكُّم في آخرين، و(الملكوت): هو المُلْك العظيم الشَّامل للظَّاهر والباطن، فالنَّظر فيها من أعظم الأعمال التي تجذب الخلق إلى الخالق، وتحرِّك القلوب إلى الملك الرَّازق، وقد وُصِفَ الصَّالحون بأنَّ «أبدانهم في الأرض سَائِرَةٌ، وقلوبهم في الملكوت جائلة».

[7] والمعنى:

أو لم يحرِّكوا أعينهم، فيقلبوها ناظرين في ملكوت السَّمَوات والأرض، وما خلق الله من شيء، ليجدوا كلَّ ذرَّة منهنَّ تحمل توقيعًا، يدلُّ على أنَّ الله عز وجل حقٌّ، وأنه أرسل رسولًا بكتابٍ ليتَّبع الناس أوامر ربِّهم عز وجل فيه، كما تتَّبع كلُّ أجزاء ملكوت السَّمَوات والأرض أوامرَ ربِّهم عز وجل فيه.

8 كما قيل:

الشَّمْسُ وَالبَدْرُ مِنْ أَنْوَارِ حِكْمَتِهِ ○○○ وَالبَرُّ وَالبَحْرُ فَيْضٌ مِنْ عَطَايَاهُ
فَالطَّيْرُ سَبَّحَهُ وَالزَّرْعُ قَدَّسَهُ ○○○ وَالموْجُ كَبَّرَهُ وَالحُوتُ نَاجَاهُ
وَالنَّمْلُ تَحْتَ الصُّخُورِ الصُّمِّ مَجَّدَهُ ○○○ وَالنَّحْلُ يَهْتِفُ حَمْداً في خلاياهُ
رَبُّ السَّمَاءِ وَرَبُّ الأَرْضِ قَدْ خَضَعَتْ ○○○ إِنْسٌ وَجِنٌّ وَأَمْلَاكٌ لِعَلْيَاه
والنَّاسُ يَعْصُونَهُ جَهْراً فَيَسْتُرُهُمْ ○○○ والعَبْدُ يَنْسَى وَرَبِّي لَيْسَ يَنْسَاهُ

عمود [3]

التَّفكُّر في الموت القادم يدفع الإنسان إلى الإيمان والاتِّباع

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: 185]

[1] الواو في قوله:

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ﴾

حرف عطف، تربط اللَّاحق بالسَّابق، والتَّقدير: أولم ينظروا في ملكوت السَّمَوات؟ وأولم ينظروا في ملكوت الأرض؟

2 وأولم ينظروا في أنَّه عسى أن شأنهم وحالهم أن يكون قد اقترب أجلهم، أي:

دنا دنوًّا كبيرًا، وأوشكوا أن يفارقوا الحياة، «فيسارعوا إلى النَّظر وطلب الحقِّ وما ينجيهم... قبل حلول العقاب» كما يقول الزَّمخشريُّ رحمه الله. (الكشاف 2/182)

3 فالنِّهاية الفرديَّة أو الجماعيَّة اقتربت.. أفلا يعقلون فيخافون ممَّا بعدها؟

4 القرآن وسيلة الإقناع العظمى بالإيمان:

فكلُّ الدُّوافع السَّابقة العظيمة تدفع المرء إلى الإيمان واتِّباع الكتاب، وهنا يأتي السُّؤال الإنكاريُّ التَّوبيخيُّ القويُّ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾، فهذا الحديث القرآنيُّ العظيم منحهم أقوى وسائل الإقناع، فكيف لا يؤمنون؟!

5 كلُّ حديث غير القرآن لا يمكن إلا أن يكون دونه

فإذا لم يقتنعوا بالإيمان والاتِّباع بعد هذا، فلا يمكن أن يقنعهم شيء، وهذا يعني أنَّ الخلل في عقولهم المغلقة المتعصِّبة، وقلوبهم المستكبرة.

6

و(الحديث)

المقصود به القرآن العظيم الذي هو

«أَكْمَلُ كُتُبِ اللهِ بَيَانًا، وَأَقْوَاهَا بُرْهَانًا، وَأَقْهَرُهَا سُلْطَانًا، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَلَا مَطْمَعَ فِي إِيمَانِهِ بِغَيْرِهِ، وَمَنْ لَمْ يَرْوِ ظَمَأَهُ الْمَاءُ النُّقَاخُ الْمُبَرَّدُ فَأَيُّ شَيْءٍ يَرْوِيهِ؟! وَمَنْ لَمْ يُبْصِرْ فِي نُورِ النَّهَارِ فَفِي أَيِّ نُورٍ يُبْصِرُ؟!». (تفسير المنار 9/ 384)

عمود [4]

القرار الخاطئ يؤدِّي إلى العقوبة العادلة:

1 الذي لم يطلب من ربِّه عز وجل الاهتداء، ولم يُفعِّل أدوات الهداية التي منحه الله عز وجل إيَّاها سيصاب بعقوبتين:

- يمنعه الله عز وجل الهداية.
- يتركه في الطُّغيان العَمِه

﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۖ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأعراف: 186]

هنا يأتي سؤال: إذا كان الله عز وجل سيمنعهم من الهداية، فما ذنبهم إذا لم يهتدوا؟

الجواب:

الآية واضحة، فمنعُ اللهِ عزوجل لهم من الهداية ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۖ﴾ سببه إصرارهم على الطُّغيان ﴿وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾

2 ويظهر أن الطبري رحمه الله لم يدقِّق العبارة

حين رأى أنَّ إضلال الله عز وجل لهم سببٌ لإعراضهم؛ إذ يقول: ((إن إعراض هؤلاء الذين كذَّبوا بآياتنا...لإضلال الله عز وجل إيَّاهم)) (تفسير الطبري 13/291)، فمعنى الآية: ضَلَالُ الإنسان بِمُقْتَضَى سُنَنِ اللهِ عز وجل قائم على ترك وسائل الاهتداء، وحينها يعاقب هذا التَّارك بأن يضلَّه الله عز وجل.

3 عند التَّطبيق في الواقع ترى قومًا كانوا أشدَّ النَّاس عداوة للإسلام

لكنَّهم استخدموا أدوات المعرفة ولم يعطِّلوها بالكلِّيَّة، ولا حجبهم الكبر، فعمر بن الخطاب ﷺ كان من أشدِّ النَّاس عداوة للنَّبيِّ ﷺ، لكنَّ ذلك لم يحجبه عن أن يستمع الوحي حتى وقع الإيمان في قلبه.

4 والنائب الهولنديُّ السَّابق (يورام فان كلافيرين)

كان من أشدِّ النَّاس عداوة للإسلام، ولكنَّه عند إعداده كتابًا ضدَّ الإسلام غيَّرَ قناعاته، وحوَّل كتابه إلى "حجج لدحض مآخذ غير المسلمين" على الدِّيانة الإسلاميَّة.

[5]

﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بصيغة الفعل المضارع تدلُّ على استمرار ترك هؤلاء في طغيانهم يعمهون، وهي أقوى من كلمة (نتركهم)؛ لأنها تعني تركًا خاصًّا، أي: نتركهم تركًا يستلزم عدم المبالاة بحالهم من جهة، لما تشعرون به من الحقِّ عندكم، ويستلزم الاهتمام بإفهامهم، أو الردَّ عليهم من جهة أخرى.

[6]

﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾

الطُّغيان: هو التَّجاوز الكبير الهائل في الإجرام، والاستكبار، والشَّرِّ حتى يعلو على كلِّ شيء، ونسب الطُّغيان إليهم؛ لاختصاصهم به، ولتفظيع طغيانهم بين سائر أنواع الطُّغيان.

[7] معنى

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾

يملؤهم بما يزدادون به طغيانًا من الثَّروات البشريَّة والماديَّة، ويتركهم يزدادون تمكُّنًا وقوَّةً مهما جرت عليهم الكوارث الجزئيَّة، فيكون ذلك مددًا لهم في مجاوزة القدر، والغلوِّ في الإجرام.

[8]

﴿يَعْمَهُونَ﴾

يجهلون جهلًا مركَّبًا أنَّهم في ضلالة، وأنَّهم من الطَّاغين، وأنَّهم من المجرمين، بل تراهم يمضون في إجرامهم في حماس منقطع النَّظير، فالعمى عامٌّ في البصر والبصيرة، والعَمَه خاصٌّ بعمى القلب.

وهنا نسأل: عرفنا الدَّوافع الإيمانيَّة الخمسة لاتِّباع الكتاب، وهي: الأوَّل: الميثاق الإلهيُّ البشريُّ الأوَّل، والثَّاني: الحذر من الانسلاخ المرعب، والثَّالث: ثلاثيَّة الاهتداء، والرَّابع: مصاحبة الذين يهدون بالحقِّ وبه يعدلون، وترك مصاحبة المكذِّبين بالآيات، والخامس: رباعيَّة التَّفكُّر، والنَّظر، والأجل، والخوف من عدم اتخاذ القرار الصَّحيح، فما الدَّافع السَّادس؟

الجواب:

الدافع الإيماني [6]

الحذر من قيام السَّاعة قبل أن يهتدي الإنسان

آيات هذا الدافع:

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ما المناسبة والاتصال بين هذا الدَّافع وما قبله؟

الجواب:

هذا دافع إيمانيٌّ جديد يحاصر تفكير السَّامعين

كأنه يقول: إن كنتم لا تبحثون عن تطبيق الميثاق الإلهيِّ، الذي أُخذ عليكم وأنتم في ظهور آبائكم؛ لأنكم لا تعترفون به، وإن كنتم لا تُفَعِّلون وسائل الهداية، وإن امتنعتم عن الفكر والنَّظر، وأصررتم على عدم الإيمان فاحذروا قيام السَّاعة.

وهنا يأتي السُّؤال: ما الحكمة من ختم الله عز وجل الوسائل التي تدفعنا إلى الاهتداء بالتَّذكير بالسَّاعة، وقربها؟

الجواب:

التَّذكير بالسَّاعة يعدُّ الوسيلة المثلى للإنقاذ من الغفلة؛ فلذلك ختم به هذه الدَّوافع، وهو كذلك أسلوب معهود في الهدي النبوي، حيث قال ﷺ:

«بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تُنْظَرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدَّجَّالِ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةِ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ». "الترمذي (2306)، وقال: حسن غريب"، وضعَّفه العقيلي في الضعفاء (1822)؛ لأن فيه مُحَرَّرًا بن هارون، وهو منكر الحديث، قال: "وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ، بِغَيْرِ هَذَا الْإِسْنَادِ مِنْ طَرِيقٍ أَصْلَحَ مِنْ هَذَا

فإن قلت: ما البصائر التي تبصِّرنا هذه الآية الكريمة؟

الجواب: بصَّرتنا هذه الآية بـ(8) بصائر، وهي:

بَصِيرَة 1

التَّذكير المخيف بالسَّاعة الحرجة الحاسمة الخطيرة

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ﴾.

1 كلمة [1] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾

لَمَّا حذَّرهم النَّبيُّ ﷺ من قيام السَّاعة قبل أن يؤمنوا ويتَّبعوا الكتاب، فسألوه تعجُّبًا، أو تلهُّفًا مهتمًّا، أو استهزاءً عن وقت قيامها، والسُّؤال: طلب الجواب عن شيء للاختبار، أو الفهم، أو لغرض آخر كالسُّخرية، والسُّؤال بصيغة فعلٍ مضارعٍ يدلُّ على الحال والاستقبال، وتكرُّر الحدث، ويبصِّرنا بشِدَّة استفزازهم عندما يَذكر النَّبيُّ ﷺ السَّاعة.

2 كلمة [2-3] ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾

1

سمَّى الله عزوجل بداية اليوم الآخر "السَّاعة تسمية خطيرة، مثيرة، تجعلك تندفع نحو الهداية، فكلمة ﴿ساعة﴾ تَدُلُّ عَلَى لحظة محدَّدة، ذات أهمِّية خاصَّة، تقترن بزمن، ثمَّ قد تستمرُّ، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الرُّوم: 55] فالأولى هي إعلان ساعة البعث للقيامة، والثَّانية الوقت القليل من الزَّمان الذي ظنَّ المجرمون أنَّهم لبثوه في الدُّنيا.

2

التَّسمية تشعرنا أنَّ الحياة ليست شيئًا، ففي أيِّ لحظة قادمة ستكون السَّاعة، والتَّسمية تجعل الإنسان في قلقٍ وإشفاقٍ من خطرها، فهي السَّاعة الحقيقيَّة الفاصلة.

3 كلمة [4] ﴿أَيَّانَ﴾

1

سؤال عن ظرف الزَّمان، والمعنى: أيُّ آنٍ مُرسى السَّاعة؟

4 كلمة [5] ﴿مُرْسَىٰهَا﴾

1

تعبير يُظهر قوَّة التَّصوير، أي: منتهاها، ومكان ثبوتها ورسوها واستقرارها، ومُرْسَى السَّفِينَةِ حَيْثُ تَنْتَهِي، فتقف بعد حركتها في البحر، كأنَّ السَّاعة سفينة زمنيَّة تَمْخَرُ عُباب العالم، وتخترقه، وفي مكانٍ ما وزمانٍ ما يوشك أن ترسل مرساتها لتستقرَّ في مكانها، وحينها يتغيَّر العالم زمانًا ومكانًا، فينتهي زمانه ومكانه لتبدأ مرحلة دار الأبد.

[2] كلمة

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾

متوجهة إلى أمرين معًا: السَّاعة، وأيان مرساها، فذكر السَّاعة بصفة عامة أَوَّلًا، والسُّؤال عن وقتها ثانيًا، وأكثروا من سؤاله ﷺ عنها؛ لأنَّ تصوُّرَ وجودها يعني أن يغيِّروا حياتهم كلَّها، فيجتهدوا في الإعداد لها، فالمجرمون يحاولون ذكرها للسُّخرية والتَّهكُّم؛ لئلا ينشغل النَّاس بها، والمؤمنون يسألون إشفاقًا، وطلبًا للإعداد لها ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ﴾ [الشورى: 18].

3 حتى اليهود سألوا

فجاء وفد يهوديٌّ إلى النَّبيِّ ﷺ فيهم جَبَل بْنُ أَبِي قُشَيْر، وشَمْوِيل بْنُ زَيْد، فقالوا: يَا محمَّدُ، أَخْبِرْنَا، مَتَى تقومُ السَّاعة إنْ كُنْتَ نَبِيًّا كَمَا تَقُولُ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هذه الآية. (تفسير الطبري، ط: دار الحديث (5/584)، وضعَّفه إسلام منصور)

بصيرة 2

جواب السؤال ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾، فعِلْم قيام السَّاعة خاصٌّ بالله -تعالى ذِكْرُه-.

1 كلمة [1] ﴿قُلْ﴾

تصوِّر التَّسديد الإلهيَّ، والتوفيق الرَّبانيَّ للنَّبيِّ المصطفى ﷺ، أي: قل ذلك تبليغًا، وإعلامًا، وتعليمًا، وتربية، وتثقيفًا، وتوجيهًا؛ ليستبين للعالم أنَّك رسول مبلِّغٌ عن ربِّك -تعالى شأنُه-، فيجب على أتباعك أن يُسَخِّروا إمكاناتهم في نشر هذا العلم العظيم الذي تتلقَّاه من القرآن.

2 كلمة [2] ﴿إِنَّمَا﴾

أداةُ قصرٍ حقيقيٍّ لما بعدها، كأنَّ الله عز وجل يعلِّم نبيَّه ﷺ أن يخبر هؤلاء المتسائلين بأنَّهم مخطئون في السَّؤال عن شيء يختصُّ به الكبير المتعال.

3 كلمة [3] ﴿عِلۡمُهَا﴾

أي: عِلْم وقتها، وحقيقة تفاصيلها.

4 كلمة [4] ﴿عِندَ﴾

ظرف اختصاص.

5 كلمة [5] ﴿رَبِّي﴾

وصف الله عز وجل نفسه بالرُّبوبية هنا؛ ليرشدنا أنَّ إخفاء كلِّ ذلك يؤدِّي إلى تربية العباد وإصلاحهم.

بَصِيرة 3

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ أي: لا يكشفها، ولا يظهر وقتها إلا هو، ولا يمكن لغيره ذلك حتى الملائكة.

1 فإخفاء وقت السَّاعة يدلُّ على عظيم العدل الإلهيِّ ليكون ذلك أدعى إلى الطَّاعة، وأزجر عن المعصية، كما أخفى أجل الموت.

2 يوضِّح ذلك نبيُّنا ﷺ فيقول:

«كَيْفَ أَنْعَمُ وَقَدِ الْتَقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَى سَمْعَهُ، يَنْظُرُ مَتَى يُؤْمَرُ»، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا». "أحمد (11039)، وصحَّحه الأرناؤوط، والألباني في الصحيحة (1079)"

3 سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ السَّاعة فَقَالَ:

«عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ بِمَشَارِيطِهَا، وَمَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهَا، إِنَّ بَيْنَ يَدَيْهَا فِتْنَةً وَهَرْجًا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْفِتْنَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا، فَالْهَرْجُ مَا هُوَ؟ قَالَ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ: «الْقَتْلُ، وَيُلْقَى بَيْنَ النَّاسِ التَّنَاكُرُ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدًا». "أحمد (23306)، وقال الأرناؤوط: "صحيح لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات، رجال الصحيح، لكن إياد بن لقيط لم يدرك حذيفة"

بصيرة 4

من حِكَم إخفائها ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

كلمة ﴿ثَقُلَتْ﴾

تقدِّم لنا تصويرًا مميَّزًا، فالثِقَل ضِدُّ الْخِفَّة، وهو امتلاء الشيء بحيث يظهر جرمه، ويزيد وزنه، فينجذب إلى الأرض، فصوَّرت هذه الكلمة:

1

خفاء علمها عن المخلوقين، فإنَّ الشيء إذا خفي ثَقُل، كما يقول أبو عبيدة رحمه الله (مجاز القرآن 1/ 235)، وإذا خفي علمُ شيءٍ قادم يرهبه المخلوق ثَقُلَ ذلك عليه؛ فإمَّا أن يستعدَّ له بعمله، وإمَّا أن يحاول تناسيه وإنكاره؛ ليستمتع بلهوه وحياته.

2

عظمة الشُّعور بها عند الصَّالحين من السَّمَوات والأرض وأهلهما؛ لأنها ستهدُّ بناءهما وتدمِّرُه، وتبدِّله، وهذا المعنى قاله ابْنُ جُرَيْج رحمه الله (الأهوال لابن أبي الدنيا ص: 13)، وقال الزَّمخشريُّ: «كلّ من أهلها من الملائكة والثَّقلين أهمَّه شأن السَّاعة؛... لأنَّ أهلها يتوقعونها، ويخافون شدائدها وأهوالها». (الكشاف 2/183، 184)

بصيرة 5

كيفية مجيئها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، أي: فجأة على حين غفلة، من غير توقُّع ولا انتظار، ولا إشعار ولا إنذار.

1 ستأتي ولكن على هيئة زمنيَّة محدَّدة صوَّرتها كلمة ﴿بَغْتَةً﴾

والبَغْت: أن يفاجئنا الشيء وقتًا، وفعلًا، وطبيعة مفاجأة خاصَّة، ثقيلة، من حيث لا نحتسب.

قَالَ يَزِيد بْنُ ضَبَّةَ الثَّقَفِيُّ:

ولكنَّهم ماتُوا، وَلَمْ أَدْرِ، بَغْتَةً ... وأَفْظَعُ شيءٍ، حينَ يَفْجَؤُك البَغْتُ

2 يصوِّر النَّبيُّ ﷺ إتيان السَّاعة بغتة، فيقول:

«وَلَتَقُومَنَّ السَّاعة وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ، وَلَا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعة وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعة وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعة وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أُكْلَتَهُ-بضم الهمزة أي لقمته- إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا». "البخاري (6506)"

بَصِيرة 6

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾.

يرى الرَّازيُّ رحمه الله:

أنَّ قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ سُؤَالٌ عَنْ وَقْتِ قيام السَّاعة

فأَجَابَ عَنه بِقَوْلِه: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ سُؤَالٌ عَنْ مقدار ثِقَل السَّاعة، وَشِدَّتِهَا، وَمَهَابَتِهَا

فأَجَابَ عَنه بِقَوْلِه: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

بَصِيرة 7

﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾.

1 كلمة ﴿حَفِىٌّ﴾ لها معنيان:

1 من الحفاوة وهي البرُّ واللُّطف وشدَّة الاهتمام.

2 ومن الْإِحْفَاءِ وَهُوَ الْإِلْحَاحُ فِي السُّؤَالِ، فيقولون: تَحَفَّى فِي الْمَسْأَلَةِ، أَيِ: اسْتَقْصَى.

2 تجتمع لأجل ذلك، ولوجود حرف الجر ﴿عن﴾ معان:

1 عند الفرَّاء رحمه الله:

يسألونَكَ عنها كأنك حفيٌّ بِهَا، فكأنَّك أكثرت من السُّؤال عنها لِشدَّة حفاوتك بها حتى علمت وقتها. (معاني القرآن للفراء 1/399)

3 قال مجاهد رحمه الله:

﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: " اسْتَحْفَيْتَ عنها السُّؤالَ حتى علمتَها" (تفسير الطبري 13/ 298)، واستحفاؤك في السُّؤال عنها يدلُّ على حفاوتك، أي: اهتمامك البالغ، ورجَّح هذا المعنى الطَّبريُّ.

2 عند ابن هشام رحمه الله:

"يسألونك عنها كأنك حَفِيٌّ بهم: تخبرهم بِمَا لَا تُخْبِرُ بِهِ غَيْرَهُمْ" (سيرة ابن هشام 2/ 156). وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، يقول: كأنَّ بينك وبينهم مودة، كأنَّك صديق لهم (تفسير الطبري، ط: دار الحديث (5/588)، وضعَّفه إسلام منصور)، وقال قتادة رحمه الله: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة، فأسِرَّ إلينا متى السَّاعة؟ فقال الله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾. (تفسير الطبري، ط: دار الحديث (5/584)، وقال إسلام منصور: ضعيف؛ قتادة عن النَّبيّ ﷺ مرسل، والسند إليه صحيح")

3 قوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾

يشعرنا أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان غير حفيٍّ بالسؤال عن وقت السَّاعة مع شدَّة إشفاقه منها؛ «لِأَنَّهُ لَوِ اهْتَمَّ بِذَلِكَ لَكَانَ فِي اهْتِمَامِهِ تَطَلُّبًا لِإِبْطَالِ الْحِكْمَةِ فِي إِخْفَائِهَا».

(التحرير والتنوير 9/ 205)

بَصِيرة 8

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 187].

1 قال الطَّبريُّ رحمه الله:

ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنَّ ذلك لا يعلمه إلا الله عز وجل، بل يحسبون أنَّ علم ذلك يوجد عند بعض خلقه. (تفسير الطبري 13/ 300)

2 السَّاعة تجعل العاقلَ يقدر الله عز وجل حقَّ قدره

ويعظِّمه حقَّ تعظيمه، ويعلم أنَّ كلَّ إنسان مهما عظمت منزلته، فلا يمكنه أن يكون له حظٌّ في الألوهيَّة، فأعظم الرُّسل سيدنا محمَّد ﷺ، وهو لا يعلم من الغيب إلا ما علَّمه الله، فكيف يصدِّق الناس بضلال التَّنجيم وقراءة الكفِّ.

3 سأل رجل النَّبيَّ ﷺ فقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى السَّاعة قَائِمَةٌ؟ قَالَ:

«وَيْلَكَ، وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا» قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: «إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» فَقُلْنَا: وَنَحْنُ كَذَلِكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ، فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: «فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ رضي الله عنهم، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ». "البخاري" (3688)

وهنا نسأل: عرفنا الدَّوافع الإيمانيَّة الخمسة لاتِّباع الكتاب، وهي: الأوَّل: الميثاق الإلهيُّ البشريُّ الأوَّل، والثَّاني: الحذر من الانسلاخ المرعب، والثَّالث: ثلاثيَّة الاهتداء، والرَّابع: مصاحبة الذين يهدون بالحقِّ وبه يعدلون، وترك مصاحبة المكذِّبين بالآيات، والخامس: رباعيَّة التَّفكُّر، والنَّظر، والأجل، والخوف من عدم اتخاذ القرار الصَّحيح، والسَّادس: الحذر من قيام السَّاعة قبل أن يهتدي الإنسان ، فما الدَّافع السَّابع؟

الجواب:

الدافع الإيماني [7]

الاقتداء بالنَّجم الأعظم، والمثال البشريِّ الأكبر في العبادة الصَّادقة، و هو خاتم الرُّسل ، حيث يأمره اللّه عز وجل أن يظهر هذه العبوديَّة العظمى أمام العالم،

فيقول:

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ولو كانت نبوَّة النَّبيِّ ﷺ غير صحيحة لما أظهر نفسه بهذا المظهر الذي يدلُّ على منتهى العبوديَّة للّه ربِّ العالمين:

ما المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما سبقها؟

الجواب:

1 ذكر نبيُّ الله ﷺ في الآية السَّابقة أنه لا يعلم غيبًا محدَّدًا هو وقت السَّاعة

وهنا يرتقي بهم ليخبرهم أن عدم معرفته للغيب ليست قاصرة على مُرسى السَّاعة، بل يشمل ذلك أمورًا أخرى، ويوضِّح لهم طبيعة الرسالة، وأنها لا تعني أن يكون الرسول شريكًا لله في ألوهيته.

2 يعلِّم الله عز وجل نبيَّه ﷺ أن يبيِّن أنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا

لا في أمر الدنيا، ولا في أمر الآخرة، فكيف يمكن أن يتكلَّم عن وقت السَّاعة؟

فبيَّن الله عز وجل لنا في هذه الآية جملة من صفات النَّبيِّ ﷺ تدفع السَّامع لأنْ يؤمن بالله العلي العظيم، وهي:

صفة [1]

﴿الله﴾ -جلَّ مجدُه- هو مصدر العلم النَّبويّ، فالله عز وجل يعلِّم نبيَّه ﷺ ما الذي يقوله أمام العالم، وتُظهِر لنا ذلك بوضوح كلمة ﴿قُل﴾، فالنَّبيُّ ﷺ مبلِّغ عن الله عز وجل وليس مخترعًا للدِّين.

كلمة ﴿قُلْ﴾

تقتضي نشر القرآن في التَّعليم، والإعلام، والتَّوجيه المعنويِّ، والتَّثقيف، والتَّربية.

صفة [2]

عدم ملك النَّفع والضُّر للنَّفس فضلًا عن الغير، فهما بيد الله عز وجل دون غيره، ﴿لَآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾.

1 كلمة [1-3] ﴿لَآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾

أي فكيف أملك لغيري؟ فالنُّبوَّة لا تعني وجود أدنى شرك لله عز وجل في ملكه وحكمه.

2 كلمة [4] ﴿نَفۡعٗا﴾

النفع هو الخير، أو الفائدة تُنَال من الغير، وقدَّم ﷺ النَّفع؛ لأنه أساس الوجود، فهو الأهمُّ، فمن النَّفع أن يُوجِد الله عز وجل الخلق بعد أن كانوا عدمًا.

3 كلمة [5-6] ﴿وَلَا ضَرًّا﴾

الضُّر ذهاب النَّفع وسوءُ الحال بأنواعه الخمسة:

1 الجسدي	2 المالي	3 الاجتماعي	4 الجاهلي	5 النَّفسي
بمرض، أو ذهاب انتفاع بعضو.	بحلول الجدب، وخلل الاقتصاد.	بالمقاطعة، والحصار من الآخرين.	بذهاب الرئاسة.	بالشعور بالألم والضِّيق النَّفسي، وقد يكون الضُّر جزئيًا وقد يكون كليًا شاملًا.

صفة [3]

عدم العلم بالغيب

﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾.

1 كلمة [1-4] ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾

الصِّفة الثَّانية نفت قدرة أعظم عباد الله عز جل على النَّفع والضُّر، وهذه الصِّفة نفت قدرته على علم الغيب، فالأَوْلى نفيٌ للفعل، والثَّانية للعلم.

2 كلمة [5-10] ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾

1

أي: لحقَّقتُ أعظم الأرباح لنفسي، فبحثتُ عن الخير بناء على معرفة الغيب، وعلمتُ السُّوء فابتعدت عنه، وعرفتُ كيف أدفعه، قال الطَّبريُّ رحمه الله: " لأَعْدَدْتُ للسَّنَة المجدبة من المخصبة، ولعرفتُ الغلاء من الرُّخْص، واستعددت له في الرُّخْص". (تفسير الطبري 13/ 302)

2

قد يُطْلِع الله عز وجل العبد على شيء من الغيب بصورة ما لِمَصْلَحَةِ الْأُمَّة، أَوْ لِإِكْرَامِ الْأُمَّةِ لَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ﴾- إِلَى قَوْلِه: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًاۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الْأَنْفَال: 43-44].

(التحرير والتنوير 9/ 208)

3

إذا كان صلى الله عليه وآله وسلم لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فكيف غيره؟ والذي يسمع مثل هذا يبادر إلى الأعمال.

صفة [4]

حقيقة النَّبيِّ ﷺ أنه جمع الحرص على مصالح الخلق من خلال إنذاره للجميع، وتبشيره لمن يؤمن: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

1 كلمة [1-4] ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾

1

النذير: مِنْ نَذَرَ على نَفسه يَنْذِرُ، ونذيرةُ الجَيْش: طليعَتُهم الَّذي يُنْذِرُهم أَمْرَ عَدُوِّهم، فالإنْذارُ إخبارٌ، أو إعلام بشتَّى الوسائل، يدلُّ على تحمُّل مسؤوليَّة المنذِر، وتخوُّفه على المنذَر من المنذَر منه.

2

"الإنذار"

يعني الإخبار بقلق وإشفاق عن المخاوف والمخاطر التي تنتظر البشريَّة إنْ هُمْ وقعوا أسارى لعدوهم الأول: الشيطان الرجيم.

3 كلمة [5] ﴿بَشِيرٌ﴾

البشير هو الذي يخبر بالخبر الغائب السَّارِّ وزاد الطَّبريُّ قيدًا رائعًا، فقال: "أصلها الخبرُ بما يُسَرُّ به المخبَرُ، إذا كان سابقًا به كلَّ مخبِرٍ سواه. (تفسير الطبري 1/ 383)، ومن ذلك يُقَالُ: أَبْشَرَتِ الْأَرْضُ: إِذَا أَخْرَجَتْ نَبَاتَهَا.

4 كلمة [6-7] ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

اللَّام هنا لام الانتفاع، أي: لا ينتفع بنذارتي وبشارتي إلا القوم الذين يقومون، أي: ينشطون في الإيمان، فيصدِّقون بالله عز وجل، ونبيِّه ﷺ، وينقادون لما يقتضيه ذلك.

5 هنا تشعر بالتَّعظيم لكلام العليم الحكيم

وتدفعك هذه العبوديَّة الصَّادقة من النَّبيِّ ﷺ لأنْ تتَّبع آيات الكتاب، كما قال الحارث المحاسبي رحمه الله: "إذا عظُم في صدرك تعظيم المتكلِّم بالقرآن لم يكن عندك شيء أرفع، ولا أشرف، ولا أنفع، ولا أحلى من استماع كلام الله جلَّ وعزَّ، وفَهْم معاني قوله تعظيمًا وحبًّا له، إذْ كان سبحانه قائله، فحبُّ القول على قدر حبِّ قائله". (فهم القرآن ص: 302)

6 تشعر لماذا تعمل آيات القرآن فيك كلَّ هذا العمل، وتحسُّ بصدق ابن باديس، حين قال:

"فوالله الذي لا إله إلا هو ما رأيت وأنا ذو النَّفس الملأى بالعيوب والذُّنوب أعظم إلانةً للقلب واستدرارًا للدَّمع، وإحضارًا للخشية، وأبعث على التَّوبة من تلاوة القرآن وسماع القرآن". (تفسير ابن باديس ص: 39)

وهنا نسأل: عرفنا الدَّوافع الإيمانيَّة السبعة لاتِّباع الكتاب، وهي: الأوَّل: الميثاق الإلهيُّ البشريُّ الأوَّل، والثَّاني: الحذر من الانسلاخ المرعب، والثَّالث: ثلاثيَّة الاهتداء، والرَّابع: مصاحبة الذين يهدون بالحقِّ وبه يعدلون، وترك مصاحبة المكذِّبين بالآيات، والخامس: رباعيَّة التَّفكُّر، والنَّظر، والأجل، والخوف من عدم اتخاذ القرار الصَّحيح، والسَّادس: الحذر من قيام السَّاعة قبل أن يهتدي الإنسان، والسَّابع: الاقتداء بالنَّجم الأعظم، والمثال البشريِّ الأكبر في العبادة الصَّادقة، وهو خاتم الرُّسل ﷺ، فما الدافع الثامن؟

الجواب:

الدافع الإيماني [8]

اللّه عز وجل هو الذي خلق الإنسانيَّة، وخلق نَسْلها، وهذا يدفع للإيمان به، ونبذ الشِّرك [الأعراف: ١٨٩-١٩٠].

آيات هذا الدَّافع:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠].

ما المناسبة والاتصال بين هذه الآيات وما سبقها؟

الجواب:

1. **من أعظم دوافع الهداية: عبادة الخالق الذي خلق الإنسانيَّة، والتَّقزُّز من الشِّرك به**

   وكراهته كراهة تستفظع فعله، وفي هذه الآيات بناء النَّفس التي تكره الشِّرك.

2. **ناسب ختم السُّورة بذلك؛ ليقابل بدايتها التي ذكرت خلق الإنسان**

   ومعركته الأولى مع الشيطان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الأعراف: 11]

3. **رأى ابن عاشور رحمه الله أن هذه الآيات تكملة لأدلَّة التَّوْحيد**

   وَإِبْطَالِ الشِّرْكِ مِنَ الَّذِي سَلَفَ ذِكْرُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الْأَعْرَاف:172]. (التحرير والتنوير 210/9)

4. **أقام الله عز وجل براهين ضخمة على وجوب الإيمان، واتِّباع الهدى ونبذ الشِّرك.**

وقد تسأل: ما البراهين الدَّالَّة على وجوب الإيمان، التي تضمَّنها هذا الدَّافع؟

الجواب: تضمَّن هذا الدَّافع 9 براهين، وهي:

برهان [1]

الله عزوجل هو خالق النَّفس الإنسانيَّة التي انبثق عنها كلُّ البشر، فكيف يشرك البشر معه غيره في عبادته؟ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف: 189]

1. أوَّل المخاطبين المسلمون؛ ليزدادوا إيمانًا، والمشركون الذين ينسون هذه الحقيقة، فيعبدون غير الله عز وجل، أو يعبدون مع الله عز وجل آلهة أخرى.
2. هذا برهان لا يستطيع البشر أمامه إلا الخضوع.
3. يُقنع الله عز وجل الإنسان أن يبتعد عن أخطر المضارِّ في الدُّنيا والآخرة:
   1. الشِّرك.
   2. والشَّيطان.
4. وصف الله عز وجل النَّفس التي خُلِقنا منها بأنها (واحدة) لأمرين:
   1. ليظهر كمال قدرته فلم يخلق خليَّةً خليَّةً، كما هو حال بقية الإنسانيَّة، والذي يقدر على أن يخلق إنسانًا كاملًا في وقت واحد هو الله عز وجل.
   2. ليبصِّرنا أنه ليس لأحد من البشر على آخر فضلٌ من جهة الانتساب، بل يتفاضلون بالاكتساب.

برهان [2]

جعل الله عز وجل زوجًا من العدم من جنس النَّفس دون احتياج إلى مئات الملايين من السنين للتَّطور ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: من نفس آدم عليه السلام، أو من جنس نفسه

1 عبَّر الله عن خلق الأنثى بكلمة ﴿جَعَلَ﴾

لِأَنَّ الْمَقْصُودَ جَعْلُ الْأُنْثَى زَوْجًا لِلذَّكَرِ، لَا الْإِخْبَارُ عَنْ كَوْنِ اللَّهِ عز وجل خَلَقَهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ عُلِمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ (التحرير والتنوير 9/211)

[2]

﴿مِنْهَا﴾

أي: من نفس آدم عليه السلام، أو من جنس نفسه، فكما خلقه من تراب كذلك خلقها، كما قال الآلوسي، ومحمد رشيد رضا، وابن عاشور رحمهم الله. (روح المعاني 5/129، تفسير المنار 9/431، التحرير والتنوير 9/221)

3 هذا التَّقرير الكبير: جعل الله عز وجل الأنثى من جنس الرجل أو من بعضه

يُظهِرُ تفوُّق الإسلام في تكريم المرأة، وتعظيم شأنها، في الوقت الذي كانت فيه الملل المحرَّفة تنظر للمرأة باعتبارها أصل الخطيئة، والانحراف الإنساني، فما للمسلمين لا يرون الضَّالين والحائرين هذه الرؤية القرآنيَّة العظيمة المتفوِّقة.

برهان [3]

جعل الله عز وجل الغاية من خلق زوج الإنسان من نفسه أن يسكن إليها ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾:

1. اللام للتعليل، وكلمة ﴿يَسْكُن﴾ تصوِّر أعلى درجات الاستقرار والاطمئنان، فهي من سكن، أي: هدأ، واطمأنَّ، واستقرَّ، وشعر بالرَّاحة، وذهب عنه القلق، والاضطراب، والانزعاج.
2. كلمة ﴿إلى﴾ تصوِّر معنى الوصول والاتِّصال، أي: لتجدوا سكنكم عند الوصول إليها، والاتِّصال بها من الناحية الجسديَّة، والعقليَّة والنَّفسيَّة.
3. جعل الله عز وجل طريق السُّكنى إلى الزَّوج سبيلًا للرَّاحة، والنَّسل حتى لا يبخل الطرفان باستمرار الحياة عبر النَّسل، كما يفعل كثيرٌ من أبناء الحضارة الغربيَّة اليوم.

برهان [4]

تيسير الاتِّصال بين الذَّكر والأنثى على نحو يحقِّق السَّكينة النَّفسيَّة والجسديَّة ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾.

﴿تَغَشَّاهَا﴾

تصوِّر جمال الاتِّصال الجسديِّ بين الزَّوجين، أي: تغشَّى هو زوجه الأنثى، فاتَّصل بها على هيئة الذي يغطِّيها تغطية متمكِّنة، فالتَّكلُّف هنا للتَّمكُّن، والرَّغبة، وليس لعدم الرَّغبة.

برهان [5]

بدء التَّكاثر بمرحلة الحمل الخفيف ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾.

1 تبدأ عملية التَّكاثر بالحمل الخفيف عند التقاء الزَّوجين

حيث يحدث التَّناسل الفوريُّ، ولم تحتج إلى ملايين السِّنين للتَّطور كما يقول الخرافيُّون.

2 أي: حملت النُّطفة التي جاءت من زوجها فامتزجت مع بويضتها لتصبح مشيجًا.

[3]

﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾

أي: استمرَّت، ولم تجد عناء بوجوده، حتى تشكَّ هل هو حمل لِخفَّته؟

برهان [6]

مرحلة الحمل الثَّقيل ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾.

1 أي: دخلت مرحلة الثِّقل، فيُتعب الحَملُ بدنَها، ويُثقِل حركتَها، فالثِّقَل: امتلاء الشيء، بحيث يظهر جِرْمه، ويزيد وزنه، فيترتَّب عليه انجذاب إلى الأرض، وصعوبة في القيام بالمعتادات.

2 هذه التَّفاصيل تذكِّر بعظيم تدبير الله عز وجل وقُدْرته، ولطفه.

برهان [7]

إظهار الزَّوجين الحاجة قبل الولادة بدعاء الرَّحمن، والوعد بالشُّكران

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

1 خاف الأبوان من أن تحدث مفاجآت غير متوقَّعة في الولادة، كأن يموت الجنين، أو يخرج مشوَّهًا، فألحَّا بالدُّعاء طالبين الله عز وجل.

2 الذي يدعو هنا كلُّ زوجين يعترفان بوجود الله عز وجل، ويشعران بالفائدة العظيمة التي تعود عليهما من الدُّعاء.

3 شمل ذلك كلَّ أبوين

فالمشركون يدعون الله عز وجل بقولهم، أو برجائهم وأمنياتهم، وتتوجَّه نفوسهم إلى ربِّ العالمين، حتى لو لم يعرفوه باسمه ﴿الله﴾، وأمَّا الملحدون فكثير منهم لا يحبُّون الإنجاب؛ لأن حياتهم تقوم على المتعة واللَّذة، ولكنهم عند الحاجة يرجون من يسمُّونه الطَّبيعة الأمَّ لتجعل حياتهم مستقرَّة، ويستكبرون أن يدعوا الله عز وجل.

[4]

﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾

أي: لئن أعطيتنا ربَّنا مولودًا صالحًا في عقله وفي جسده على الطَّبيعة السَّليمة، والخِلْقة المستقيمة.

[5]

﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

الذين يشكرونك بأقوالهم وأفعالهم، ثابتين على هذا الشُّكر.

برهان [8]

مرحلة الولادة الصَّالحة:
﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾.

كلمة

﴿صَٰلِحًا﴾

1. كلمة ﴿صَٰلِحًا﴾ صفة لموصوف محذوف، أي: ولدًا صالحًا، ذكرًا كان أو أنثى.

2. وهي صفة تدلُّ على شمول صلاحه لكلِّ شيء مما يرغب فيه الآباء حال الولادة، وذلك يعني: سلامته من الموت، والمرض، والتَّشوُّه.

برهان [9]

مرحلة النُّكران للشُّكران، ونسيان الرَّحمن:
﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

1 ينسى بعض الآباء ما التزموا به من شكر الله عز وجل، فيشركون معه غيره، بأن لا يعبدوه، ولا يوحِّدوه في شكره.

2 ﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾ أي: تعاظم عُلُوُّه ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾: عن إشراكهم، أو عن الذي يشركون به تعالى.

3 هذا برهان يدفع للإيمان من جهة الضِّدِّ، فشرك المشركين غير متوقَّع ممن عنده عقل، فكيف يكفرون بالذي أعطاهم كلَّ شيء، ويشكرون الذي لم يعطهم شيئًا؟!

4 ومن أمثلة جعلهم شركاء لله التَّسمية بعبد العزى، وعبد مناة، وعبد شمس عند الجاهليين القدماء، مكان عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الرحيم.

5 ومن أمثلة ذلك عند المتأخِّرين:

الاستغاثة بالكُهَّان، وأصحاب القبور، والسَّحَرة، أو التَّحاكم إلى التَّشريعات المضادَّة لحكم الله عز وجل، أو بنسب الولد إلى الطَّبَائِع، كَمَا هُوَ قَوْلُ الملحدين الطَّبَائِعِيِّينَ، أو إِلَى الْكَوَاكِبِ كَمَا هُوَ قَوْلُ الْمُنَجِّمِينَ.

[6] جمع الضَّمير في قوله:

﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾

مع أنَّ الكلام كان عن مثنى هما الزوجان؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بهما جنس الأزواج الذين يفعلون هذا المنكر بالشِّرك بدل الشُّكر.

7 الشَّريك الذي جعلوه مع الله عز وجل:

إمَّا أنفسهم، وهذا دين الملاحدة، وإمَّا أوثانهم، وإمَّا الحيوانات، وإمَّا طواغيتهم، وإمَّا أن يجعلوا دينهم غير الإسلام.

8 إني -والله- لأخاف أن يدخل فيهم الذين يرسلون أبناءهم إلى مدارس تغيِّر الهُويَّة الدِّينيَّة

أو لمن يُسلِمون أولادهم لمربِّين غير صالحين فيغيِّروا دينهم وأفكارهم، وكان الحسن رحمه الله يقول: "هم اليهود والنَّصارى، رزقهم الله أولادًا فهوَّدوا ونصَّروا". (تفسير الطبري 13/ 314)

9 وقد كانت نكبة غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس على يد شاب ربَّاه الصَّليبيُّون.

وقد تسأل: من هما هذان اللَّذان جعلا لله شركاء فيما آتاهما؟ وهل صحيح أن هذه الآية نزلت تصف حال آدم وحواء عليهما السلام؛ لأنَّ الله عز وجل ذكر في الآية السَّابقة أنه خلقنا من نفس واحدة؟

الجواب:

1. الصَّحيح أن المراد بهما كلُّ رجل وامرأة من أهل الكفر من بني آدم عليه السلام، جعلا لله شركاء من الآلهة والأوثان حين يرزقهما الله عز وجل النِّعمة مثل نعمة الولد.

2. رجَّح هذا المعنى القَفَّال الشَّاشيُّ، والزَّمخشريُّ، وابن العربيِّ، والرَّازيُّ، وابن المنيِّر الاسكندرانيُّ، وأبو حيَّان، والقاسميُّ، ومحمد رشيد رضا، وابن عاشور رحمهم الله.

3. رجَّح نحو ذلك ابن كثير رحمه الله، قال: "فَهَذَا تَنْبِيهٌ أَوَّلًا بِذِكْرِ آدَمَ عليه السلام، ثُمَّ اسْتَطْرَدَ إِلَى الْجِنْسِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَذَا ذِكْرَ آدَمَ وَحَوَّاءَ عليهما السلام، بَلْ لَمَّا جَرَى ذِكْرُ الشَّخْصِ اسْتَطْرَدَ إِلَى الْجِنْسِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12]". (البداية والنهاية 1/ 225)

4. ورُوي عن الحسن البصريِّ رحمه الله: "عنى بهذا ذرِّيَّة آدم عليه السلام، مَنْ أشرك منهم بعده"، ويقول: "هم اليهود والنَّصارى، رزقهم الله عز وجل أولادًا فهوَّدوا ونصَّروا". (تفسير الطبري 13/ 314)

5. قال ابن كثير رحمه الله: "وهذه أسانيد صحيحة عن الحَسَن، رحمه الله، أنه فَسَّر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حُمِلت عليه الآية". (تفسير ابن كثير 3/ 527)

6. اللِّحاق ضمن السِّياق ينفي نفيًا قاطعًا أن يكون الكلام عن آدم وزوجه عليهما السلام، حيث قال الله عز وجل بعدُ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فجمع الضَّمير.

7. ردَّ ابن كثير رحمه الله الآثار التي فيها أن هذه الآية في آدم وزوجه عليهما السلام، وقال: "وَهَذِهِ الْآثَارُ يَظْهَرُ عَلَيْهَا- وَاللَّهُ أَعْلَمُ- أَنَّهَا مِنْ آثَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ". (تفسير ابن كثير 3/ 528)

وهنا نسأل: عرفنا الدَّوافع الإيمانيَّة الثمانية لاتِّباع الكتاب، وهي: الأوَّل: الميثاق الإلهيُّ البشريُّ الأوَّل، والثَّاني: الحذر من الانسلاخ المرعب، والثَّالث: ثلاثيَّة الاهتداء، والرَّابع: مصاحبة الذين يهدون بالحقِّ وبه يعدلون، وترك مصاحبة المكذِّبين بالآيات، والخامس: رباعيَّة التَّفكُّر، والنَّظر، والأجل، والخوف من عدم اتخاذ القرار الصَّحيح، والسَّادس: الحذر من قيام السَّاعة قبل أن يهتدي الإنسان ، والسَّابع: الاقتداء بالنَّجم الأعظم، والمثال البشريِّ الأكبر في العبادة الصَّادقة، وهو خاتم الرُّسل ﷺ، والثامن: الله عز وجل هو الذي خلق الإنسانيَّة، وخلق نسلها، وهذا يدفع للإيمان به، ونبذ الشِّرك، فما الدافع التاسع؟

الجواب:

الدافع الإيماني [9]

التَّحذير من أعظم الأخطار التي تهدِّد الحياة البشريَّة: الشِّرك باتخاذ أولياء، يجعلونهم شركاء للّه عز وجل في إلهيته وحاكميته، وتبشيع اختيار الشِّرك [الأعراف:١٩١-١٩٨]

آيات هذا الدَّافع:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

[الأعراف: ١٩١-١٩٨].

حوار منقذ مخلِّص من بشاعة الشِّرك ونجاسته:

تحاور هذه الآيات المباركات كلَّ من يعبد وثنًا من الأوثان، مثل من يعبد بشرًا، أو حجرًا أو شمسًا وقمرًا، وتوقظ الآيات عقول السَّامعين وقلوبهم؛ ليكتشفوا بشاعة الشِّرك وقباحته، ويستيقظوا من الغفلة التي جعلتهم ينظرون إليه باعتباره مجرَّد اختيار عقليٍّ، وذلك من خلال 13 برهانًا، تفصيلها فيما يأتي:

برهان [1]

الله عز وجل هو الخالق، والشَّريك لا يقدر على خلق أدنى شيء من العدم

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ [الأعراف: 191].

1. الهمزة تنكر عليهم إنكارًا يوبِّخُهم ويُعَجِّبُ السَّامع منهم.
2. يصوِّرُ الفعل المضارع ﴿يُشْرِكُونَ﴾ تجدُّدَ شركهم، وتتابُعَه.
3. ونفى الخالقية عنهم بالفعل المضارع أيضًا ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾؛ ليجدِّدَ استمرار عدم قدرتهم على الخلق في كلِّ لحظة.

برهان [2]

الأوثان وعابدوهم يُخْلَقون

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: 191].

1. الفعل المضارع يبيِّنُ تجدُّدَ خلقهم، وكذلك يتجدَّدُ عند المشركين استحداثُ آلهة جديدة، والآلهة الجديدة تظلُّ مخلوقة.
2. وعبَّر عنهم بقوله: ﴿وَهُمْ﴾؛ ليشمل المشركين وأوثانهم، سواء أكانت بشرًا، أم حجرًا، أم كواكب ونجومًا.
3. المعنى: كيف يجعلون هذه المخلوقات شركاء لله عز وجل في العبادة، وهم أنفسهم يُخلَقون، ويرون أولادهم يخلقون أمامهم، ولا علاقة لأيٍّ من آلهتهم بعملية خلقهم.
4. التَّركيز على عملية الخلق المتجدِّدة التي يرونها في واقعهم، وليس على أن الله عز وجل يخلقهم؛ ولذا جاء الفعل مبنيًا لما لم يُسمَّ فاعله.
5. قضية الخلق أقوى البراهين التي يقدِّمها أرحم الراحمين للعالمين؛ ليرجعوا إلى العقل الصَّحيح، ويتركوا سفه تفكيرهم.
6. تردُّ هذه الآية على أفكار فاسدة استند عليها بعض الناس لإثبات إلهيَّة بعض المخلوقات، فربما قال بعضهم: رأينا أن البقرة تقدِّم الحليب، والشَّمس تقدِّم الضَّوء... فلماذا لا تُعبد؟!

الجواب: لا تعبد؛ لأنها لا تَخلق شيئًا، بل هي مخلوقة.

برهان [3]

عدم قدرة الأوثان على نصر أتباعهم: إن قالوا: صحيحٌ هم لا يقدرون على أن يخلقوا شيئًا، لكنهم يقدرون على أن ينصروا من يعبدهم، فهنا يقول الله عز وجل لهم: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ [الأعراف: 192].

فهؤلاء الذين جعلتموهم شركاء لله عز وجل، لا يستطيعون أن يحقِّقوا أدنى نصر لعابديهم.

برهان [4]

عدم قدرة الأوثان على نصر أنفسهم: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: 192]، فكيف ينصرون غيرهم؟

1 قدَّم الله عز وجل كلمة ﴿أَنفُسَهُمْ﴾، وهي مفعولٌ به على فعلها ﴿يَنصُرُونَ﴾؛

ليصوِّرَ مقدار عجزهم، فلو جمعوا كلَّ طاقاتهم ليركِّزوا -فقط- على أن ينصروا أنفسهم لا غيرهم، لما صنعوا شيئًا.

وقد تسأل ما الحكمة من ذكر النَّصر دون غيره مثل الرِّزق؟

الجواب:

لأن الذي يُعتدى عليه لا يريد شيئًا أكثر من النَّصر، وهو مفتاح لبقيَّة الأمور كالرِّزق والعِزِّ، وغيرهما.

2 فها هو أَبُو سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -قبل أن ينير الله عز وجل عقله بالإسلام- قال يَوْمَ أُحُدٍ:

«أُعْلُ هُبَلُ»، وقال: «لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ» "البخاري (3039)"، فهل هُبَل والعُزَّى هما اللَّذان نصراه، أم أنَّ أبا سفيان وجنده هم الذين أعلوا شأن هبل والعزى بانتصارهم على المسلمين؟

3 هذا الحوار يؤدِّي إلى حقيقة تَرْسَخُ في نفوس المسلمين:

اطمئنوا فأنتم المنصورون، فالمشركون يعتزُّون بآلهة لا تستطيع نصرهم.

4 كان غاوي بن عبد العُزَّى يخدم صنمًا لبني سُلَيم. فرأي يومًا ثعلبين يبولان عليه فقال:

أربٌّ يبولُ الثُّعلبانُ برأسه! ... لقد ذلَّ من بَالَتْ عَلَيه الثَّعَالِبُ

ثم شدَّ عليه فكسره. ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ له: «ما اسمك؟» قال: غاوي بن عبد العُزَّى. قال: «أنت راشد بن عبد ربه». (الطبقات الكبرى 1/ 234)

برهان [5]

عدم استجابة الآلهة المفتراة لأيِّ صوت يدعوهم إلى الهدى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ [الأعراف: 197]

1

ربما قالوا: صحيح هذه الآلهة لا يخلقون شيئًا وهم يُخلَقون، ولا يستطيعون لنا نصرًا ولا أنفسهم يَنصرون.

2

لكنها يمكن أن تهدي غيرها إلى القرارات الصَّحيحة، فقد اعتقد عُبَّاد الأوثان ذلك، فكانوا يستشيرون الأوثان في قرارات حياتهم: الخروج، والدخول، والنِّكاح، والسَّفر، وغيرها، هنا يقول الله عز وجل لهم: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾.

معنى [1]

3

لهذه النَّيِّرات: إن دعوتم الأوثان إلى الهدى، أي: إلى اتخاذ قرارات صحيحة هي الطَّريق المستقيم، والأمر الصَّحيح السَّديد السَّليم لا يمكن لهم اتِّباع القرارات الصَّحيحة، فكيف تهديكم إلى الصَّواب؟ "فَلَا هُمْ يَنْفَعُونَكُمْ، وَلَا هُمْ يَنْتَفِعُونَ مِنْكُمْ". (تفسير المنار 9/ 438)

معنى [2]

4

إن تدعوا أيُّها المسلمون عابدي الأوثان إلى الهدى لا يتَّبعوكم على الرَّغم من كلِّ البراهين السَّابقة.

برهان [6]

بل أكثر من ذلك، فهم لا يجيبون مطلقًا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: 193]

1 ﴿سَوَآءٌ﴾ كلمةٌ تدُلُّ عَلَى تساوٍ بين شيئين، فالأمران متماثلان: أنْ تدعوهم أو تتركوا دعوتهم، فتصمتون، لا فرق بينهما.

2 يظهر جمال كلمة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لأنها تعني:

سَوَاءٌ عِنْدَهُمْ أدعوتموهم أم أنتم صامتون عن دعوتهم؛ أو سواء عليكم التزمتم لهم بالكلام أو الصَّمت، فهم لا يبالون، أو لا يميِّزون.

3 فتذلُّلُكم أمام أوثانكم لا يفيد شيئًا إلا الكذب على النَّاس، فلماذا تصرُّون على عبادتهم؟!

4 الفائدة في عطف الجملة الاسمية ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ على الجملة الفعلية ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾

زيادة التَّأثير عليهم، فعندما يدعونهم هناك حركة فناسب الفعل، وحال الصَّمت هناك سكون، فناسبها الجملة الاسمية ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾.

برهان [7]

عندها ربَّما يقولون: صحيح: هم لا يَخلُقون شيئًا، وهم يُخلقون، ولا يستطيعون لعُبَّادهم نصرًا، ولا أنفسهم ينصرون، وإن دُعُوا إلى الهدى لا يتَّبعون، لكن لهم مكانة خاصَّة أكبر من بقية الخلق

1 فهنا يذكر الله عز وجل أنَّ المدعوِّين والدَّاعين عباد لله

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: 194].

[2]

﴿عِبَادٌ﴾

جمع عبد، وهو المسخَّر المذلَّل كالطَّريق المعبَّدة، وكلُّ المخلوقات عباد الله عز وجل، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مَرْيَم: 93].

3 المعنى:

إن تدعوا أوثانكم ليست لهم القدرة على النَّفع والضُّر، فهم عبادٌ أمثالكم؛ فإن كانوا أصنامًا، فهم مجرَّد تماثيل كجدران البيوت، وإن كانوا معبودات بشرية، فهم مذلَّلون مسخَّرون مثلكم لقدرة الله عز وجل القويِّ القاهر فوق عباده، فكيف تلجؤون إليهم لينفعوكم، أو ينصروكم، أو يدفعوا الضُّر عنكم؟!

برهان [8]

عدم قدرة هؤلاء الأوثان أن يستجيبوا لمن يطلبون منهم حاجاتهم ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: 194]

أي: ادعوا الأوثان، فهل يردُّون ولو بكلمة واحدة؟!

ستقولون:

لو دعونا معبودًا بشريًا عنده قوَّة ومال لأجابنا، فنسألكم: إن دعوتموه بما لا يقدر عليه، فهل يستجيب؟ ثم إن دعوتموه بما يقدر عليه لكنه لا يكفي ما عنده ليعطيكم، فهل يستجيب؟

برهان [9]

عدم الاستقلال: فكل جزء من أجزاء الأوثان خلقها الله عزوجل، ولم يخلقوا شيئًا من عند أنفسهم ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 195]

1 هذه أسئلةٌ برهانيَّة توقظ عقولهم، وتشعر بأنها تتهكَّم بهم لو أصرُّوا على ضلالتهم، وتقنع العقل أن يترك عبادة الأوثان، وتركبت هذه الأسئلة بصورة تأخذ بمجامع الفكر، فحقيقتها ستة عشر سؤالًا:

1. فهل لهم أرجل؟
2. وإذا كان لهم أرجل فهل يمشون بها ليتمكَّنوا من جلب خير لكم، أو دفع شرٍّ عنكم؟
3. فإذا لم يكن لهم أرجل فكيف تعبدونها، وأنتم أفضل منها، فأنتم لكم أرجل؟
4. وإذا كان لهم أرجل، وهم لا يستطيعون المشي بها، فكيف تعبدونهم، وأنتم أقوى، فلكم أرجل تمشون بها؟ وهكذا بقية الأعضاء.

2 خصَّ الله عزوجل هذه الآلات الأربع؛ لأنها أدوات الحركة، والقبض، والدَّفع، والرَّفع، والرَّصد، والتحقُّق فبها يمكن إقامة الحياة الدُّنيويَّة، وبدونها يستحيل إقامة تلك الحياة.

3 إذا كانت الأوثان أصنامًا، فليست لهم أيُّ أعضاء حقيقيَّة، والإنسان أعلى منهم فكيف يعبدهم المشركون؟ وإذا كانوا بشرًا، فإنهم لم يصنعوا هذه الأعضاء من عند أنفسهم، فكيف يُعبدون؟

برهان [10]

تحدي الأوثان وعابديها في عدم قدرتهم القضاء على الإسلام مهما كان كيدهم:
﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: 195]

1 أي: ادعوا الذين جعلتموهم لله شركاء في العبادة ليأتوا معكم وتكونوا صفًا واحدًا، واستعينوا بهم في عَدَاوتي لتكيدوني، أي: لتجتمعوا على تدبير ضرٍّ لي.

2 ولا تنظروني في ذلك، أي:

لا تتأخَّروا حتى نرى هل ستعينكم هذه المعبودات؟ ولا تؤخِّروني بالكيد والمكر، ولكن عجِّلوا بذلك.

3 الأمر للتعجيز؛ فإنَّ شركاءهم لا يستطيعون شيئًا.

4 هود عليه السلام قال له قومه متبجحين: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ [هود: 54]

فردَّ عليهم مفتخرًا متحدِّيًا: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ [هود: 54-56]

5 كلُّ هذا الحوار العظيم ليُوْقِفَ المشركين على حقيقةٍ

إن انتبهوا لها، ونزعوا حجب الغفلة عنها شعروا بفداحة المصيبة التي يعيشونها، وهي سُخْف الحياة التي يحيونها بعيدًا عن أنوار القرآن.

6 أفاد شباب الصَّحابة رضي الله عنهم من هذه الآيات في التعامل مع الوثنيِّين من قومهم

فقد كان لعمرو بن الجموح رضي الله عنه صنم يُقَالُ لَهُ: مَناةُ، فَلَمَّا أَسْلَمَ فِتْيَانُ بَنِي سَلِمة كَانُوا يحملون صَنَمه فَيَطْرَحُونَهُ فِي بَعْضِ الحُفر، فيقول عَمْرٌو رضي الله عنه: وَيْلَكُمْ! مَنْ عَدَا عَلَى آلِهَتِنَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ؟ ثُمَّ يغسله، ويتكرَّر الأمر، وعندها جَاءَ بِسَيْفِه، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي وَاللَّه مَا أَعْلَمُ مَنْ يَصْنَعُ بِكَ مَا تَرَى، فَإِنْ كَانَ فِيكَ خَيْرٌ فَامْتَنِعْ، فَهَذَا السَّيْفُ مَعَكَ، وحصل الأمر نفسه، ورموه منكَّسًا مَقْرُونًا بِكَلْبٍ مَيِّتٍ، فَأَسْلَمَ بِرَحْمَةِ اللَّه، وقال:

والله لَوْ كنتَ إِلَهًا لَمْ تكنْ	أنتَ وَكَلْبٌ وسْطَ بِئْرٍ فِي قَرَنْ
أُفٍّ لِمَلْقَاكَ إِلَهًا مُسْتَدَنْ	الآنَ فَتَّشْنَاكَ عَنْ سُوءِ الغَبَنْ
الحمدُ لله العليِّ ذي المِنَنْ	الواهبِ الرَّزَّاقِ دَيَّانِ الدِّيَنْ
هُوَ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنْ قَبْلِ أَنْ	أكونَ فِي ظُلمةِ قَبْرٍ مُرْتَهَنْ

بِأَحْمدَ المَهْدِيِّ النَّبِيِّ المُؤْتَمَنْ

(سيرة ابن هشام 2/ 71)

برهان [11]

سبب التَّحدِّي الخطير: الاعتزاز بولاية الله العليِّ الكبير، فهو الذي نزَّل الكتاب، ولا يمكن طمس أنواره: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: 196]

فكأنَّه قال: لا أخاف كيدكم؛ لأنَّ وليِّيَ الله عز وجل.

[1]

﴿وَلِيِّيَ﴾

كلمة قرآنيَّة تُظهر عظمة المحبَّة الإلهيَّة، فهي مِنَ الوَلاء والتَّوالي، بأن يجتمع شيئان فصاعدًا اجتماعًا متتابعًا متجاورًا، بحيث لا يَفْرُقُ بينهما ما ليس منهما، وهذا يدلُّ على القرب الشَّديد، ويعني الشُّعور بالقوَّة والعزَّة، أي: إن الله وليِّيَ الذي يتولَّى تدبير شأني، وإدارة أمري، وحمايتي، ونصرتي.

2 ذكر الله عز وجل عاملين للمحافظة على الإسلام والمسلمين من أيِّ أخطار:

1 أنه ﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾

1. يصوِّر لنا ذلك مقدار ولايته، فلا يمكن للمعادين مهما اتحدوا أن يزيلوا نور الكتاب.
2. يصور الكنز الضخم الذي يحتوي عليه الكتاب، والاتصال بالكتاب من أعظم دلائل ولاية الله عز وجل.

2 ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

فليست ولايته خاصَّة بالنَّبيِّ ﷺ، والتَّعبير بالفعل المضارع يصوِّر استمرار ولاية الله عز وجل لهم، والصَّالحون يتَّبعون الكتاب، فيردِّدون:

هاتِ ما عنـــدك هات	○○○	يا زمـــانَ الأزمـــات
أنا لا أخشـــاك فانْثُرْ	○○○	كلَّ مـــا فـــي الجَعَبات
حسبيَ القـــرآنُ أتْلُـــوهُ	○○○	فيُحْيـــي لي مَوَاتـــي
شَرَحتْ لي أصلَ خَلْقي	○○○	بعـــضُ آي المرســـلات
وتجلَّى لـــي مَصيـــري	○○○	إذْ تَلَـــوتُ النَّازعـــات
واسْتَبَانَـــتْ غايتي مِنْ	○○○	آيـــةٍ في الذَّاريـــات

برهان [12]

الشُّعور العميق بأنَّ ولاية منزل الكتاب تحقِّق الانتصارات: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: 197]

1 واضح أنَّ الأصنام من الحجارة لا تنصر غيرها، بل لا تنصر نفسها.

2 وكذلك الأوثان مثل فرعون

الذي لم يستطع أن يدفع الماء في الوقت الذي أراده الله عز وجل، ومثله الأوثان التي اتخذها الناس بسبب سلطتها، أو جنسها، أو غير ذلك.

3 يرى الواحديُّ والرَّازيُّ -رحمهما الله-

أنَّ هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: 197] **لتقريع الوثنيين**، وأنَّ هذه الآية ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: 192] **تبيِّنُ الفرق بين صفة من تجوز له العبادة ومن لا تجوز، كأنه قيل: الْإِلَهُ الْمَعْبُودُ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ، وَهَذِهِ الْأَصْنَامُ لَيْسَتْ كَذَلِكَ، فَلَا تكن صَالِحَةً لِلْإِلَهِيَّةِ.** (التفسير البسيط 9/ 536)، (تفسير الرازي 15/ 434)

4 ورأى ابن عاشور رحمه الله

أنَّ الخطاب أعيد هنا؛ لأنه خِطَابٌ لِلْمُشْرِكِينَ هنا، وَهُنَاكَ حِكَايَةٌ عَنْهُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُسْلِمِين. (التحرير والتنوير 9/224)

برهان [13]

الأوثان وعابدوها لا يستخدمون أدوات المعرفة الحقيقيَّة (السَّمع، والبصر، والفؤاد) فكيف يخاف الصَّالحون من كيدهم؟ ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198]

1 ذهب الطَّبريُّ رحمه الله إلى أنَّ التَّقدير:

وإن تدعوا الأوثان لا يتابعونكم على هدى تخبرونهم عنه، فكيف يتولَّونكم؟ (تفسير الطبري 13/326)

2 وقيل التَّقدير:

وإن تدعوا أيُّها المؤمنون الوثنيين إلى الهدى الذي يوصلهم إلى سُبُل السَّلام يعاندوا، فلا يسمعون سماعًا ينتفعون به، وتراهم أيُّها الدَّاعي ينظرون إليك بأعينهم، والحال أنَّهم لا يبصرون بنظرهم إبصارًا حقيقيًا؛ لأنَّهم مستكبرون.

3 أما الصَّالحون فيسمعون ما ينتفعون به

فقد قال عبد الله بن سَلَام رضي الله عنه: «فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَ رسولِ الله ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ». "أحمد (23784)، وصحَّحه الأرناؤوط، والألباني في الصَّحيحة (569)"

الخريطة الكلِّيَّة لمحاور سورة الأعراف

وبعد الرِّحلة العظيمة الممتعة مع سورة الأعراف ومحاورها نصل إلى الخاتمة، فقد استبان لنا أن هذه السُّورة المباركة لتحقيق هدفها تكوَّنت من:

المُقَدِّمة

وحدَّثنا الله عز وجل فيها عن القرآن باعتباره كتاب الإنذار العالـميِّ من الأخطار الواقعة والمُتَوَقَّعة

{الأعراف: 1-9}

ولتفصيل ذلك بدأت السُّورة بداية حكيمة بـ:

المحور {1}

وفصَّل الله عز وجل لنا فيه أساس الإنذار، بأن قصَّ علينا البداية والنِّهاية لرحلة الإنسانيَّة الكبرى في مسيرة الحياة

{الأعراف: 10-53}

ولتكتمل الصُّورة تنقلنا سورة الأعراف إلى:

المحور {2}

وفيه بَيَّنَتْ لنا سورة الأعراف الـمعالـم العامَّة التي تعرِّف بالله عز وجل

{الأعراف: 54-58}

ولنتأكَّدَ من صحَّة الإنذار تنقلنا سورة الأعراف إلى:

المحور {3}

وفيه تفصِّل لنا السُّورة أهمَّ العهود التَّاريخيَّة الفاصلة التي عاشتها الإنسانيَّة قبل العهد الإسرائيليِّ، وكيف كانت عاقبة المجرمين فيها، وهي العهود التي تمثِّل أهمَّ مراحل التَّاريخ القديم،

{الأعراف: 59-93}

ولتكتمل الصُّورة تنقلنا سورة الأعراف إلى:

المحور {4}

حيث رَتَّبَتْ لنا السُّورة أهمَّ السُّنَن الاجتماعيَّة العامَّة التي تجري في تاريخ ذرِّيَّة آدم عليه السلام، وبها نفهم طبيعة الحياة، ومتى يُعَذَّبُ المكذِّبون

{الأعراف: 94-102}

وهذه السُّنَن تقدِّم الوصف الإجماليَّ لكلِّ زمان ومكان، ثم يأتي:

المحور {5]

وفيه تفصِّل لنا سورة الأعراف العهد السَّادس من عهود الذُّرِّيَّة الآدميَّة، ويمثِّل التَّاريخ الوسيط، وهو العهد الإسرائيليُّ

{الأعراف: 103-171]

وليحقِّق هذا المحور هدفه ضمن السُّورة، ولقوَّة تأثير الفكر الإسرائيليِّ في انحراف العالم، فقد انقسم هذا المحور إلى ثلاثة فصول كبرى:

فصل [1]

وفيه نرى عودة التَّوحيد الإلهيِّ بعد اختفائه في مصر والعالم، ونشاهد بداية الانبعاث الإسرائيليِّ حيث تغيَّر التَّاريخ

{الأعراف: 103-126]

فصل [2]

وفيه ننتقل إلى عهد المواجهة الكاملة بين معسكر الإيمان الذي يمثله موسى عليه السلام، ومعسكر العدوان الذي يمثِّله فرعون، ونشهد فيه نهاية التَّاريخ الفرعونيِّ

{الأعراف: 127-137]

فصل [3]

وفيه تجعلنا السُّورة نتابع بتعجُّب انتقال الإسرائيليين من العبودية والاستضعاف إلى التحرُّر والاستخلاف، وظهور نقوض بني إسرائيل السَّبعة للعهد الإلهيِّ

{الأعراف: 138-171]

وبعد أن انتهى عرض التَّاريخ البشريِّ الوسيط تنقلنا سورة الأعراف إلى:

المحور {6]

وفيه نشاهد العهد الإنسانيَّ الحديث والأخير، ويُظهِر الله عز وجل فيه آيات القرآن التي جاء بها النَّبيُّ الخاتم ﷺ لتمثِّل للعالم مفاتح فَهْمِ الحياة، وتقدِّم للبشريَّة دوافع الاهتداء، ونشهد فيه تسعة دوافع تدفعنا لاتِّباع الكتاب.

{الأعراف: 172-198]

3 وبعد أن استوعبت السُّورة تاريخ البشريَّة إجمالًا، وأهمَّ عهود تاريخها تفصيلًا، وتَعَرَّفْنا في أثناء ذلك على قدرة الله عز وجل الذي له الخلق والأمر فكيف ستكون خاتمة هذه السورة المباركة؟

الجواب: كما بدأ السورة بمقدمة تتعلَّق بالقرآن كذلك ختمها به

الخاتمة

وهي تتضمَّن آداب التَّعامل مع الكتاب الذي يحمي البشريَّة من الأخطار الظَّاهرة والخفيَّة

{الأعراف: 199-206]



الخاتمة



آداب التُّعامل مع الكتاب الذي يحمي البشريَّة من الأخطار الظَّاهرة والخفيَّة [الأعراف ١٩٩-٢٠٦]

الخاتمة

آداب التُّعامل مع الكتاب الذي يحمي البشريَّة من الأخطار الظَّاهرة والخفيَّة
[الأعراف ١٩٩-٢٠٦]

آيات الخاتمة

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾

[الأعراف: ١٩٩-٢٠٦]



ما الآداب التي يجب الاستقامة عليها لننتفع بالقرآن الكريم الذي يحمي من الأخطار الواقعة والمُتَوَقَّعة؟

الجواب: تضمَّنت الخاتمة 8 آداب ينبغي أن نلتزم بها لننتفع بالقرآن الكريم، وهي:

أدب [1]

ثلاثيَّة التَّعامل مع الغافلين من الإنس

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]

أدب [2]

التَّعوذ الحافظ:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 200]

أدب [3]

اليقظة التَّائبة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]

أدب [4]

الحذر الدَّافع: فتحذر من إخوان الشيطان الذين توقعهم شياطينهم في الغيِّ، فيستلذُّون ذلك الغيَّ

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 202]

أدب [5]

عِش حياة البصائر، وليس المطالبة بالمعجزات:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 203]

أدب [6]

التَّعظيم الدَّائم: بالاستماع والإنصات عند قراءة القرآن

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204]

أدب [7]

الذِّكر المتنوِّع: فلا يقتصر على قراءة القرآن، بل يحيي الإنسان حياته بالأذكار الموقظة

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 205]

أدب [8]

التَّواصل المسبِّح مع أعظم العابدين، فتشعر عند الذِّكْر بلقائك بالملائكة المسبِّحين السَّاجدين

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: 206].

أدب [1]

ثلاثيَّة التَّعامل مع الغافلين من الإنس

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]:

1 فقد أقام الله عز وجل الحجَّة بهذه المعرفة الضَّخمة التي قدَّمتها سورة الأعراف

فإن أصرَّ الغافلون على الإعراض عن القرآن، فتعامل معهم بهذه القواعد الثَّلاث العظيمة.

2 يقرِّر محمد رشيد رضا -رحمه الله- أنَّ

«هذه الآية بَيَانٌ لِأُصُولِ الفَضَائِلِ الأَدَبِيَّةِ، وَأَسَاسِ التَّشرِيعِ». (تفسير المنار 9/ 444).

قاعدة [1] العفو الجاذب:

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ [الأعراف: 199]، فالمتَّبع للكتاب يعيش العفو صفحًا عن الآخرين، وقبولًا لما وجده من أخلاقهم، والعفو يجذب النَّاس إلى هدايات القرآن.

[1] ﴿خُذ﴾

أي: كن متمكِّنًا من تناول العفو تناولًا محكمًا؛ ليكون منهجًا لك في التَّعامل مع الآخرين، كما تأخذ الشَّيء تتحكَّم به في يدك.

[2] كلمة ﴿خُذ﴾

تصوِّر أنَّ ﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾ سيكون مكسبًا، لأن الأخذ يقابل العطاء.

[3]

﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾

أي: الشَّيء الفاضل الزَّائد الذي يُنسي غيره

فيدخل في العفو:

1. الفضل من أخلاق النَّاس بالصَّبر، وعدم الغلظة عليهم بغير تحسُّس مما أتى منهم، ولا تطلب منهم الجهد الذي يتكلفونه من أخلاقهم مما يشق عليهم.
2. العفو عن المشركين والمسيئين، وترك الغلظة عليهم.
3. خذ العفو من أموال الناس، وهو الفضل الزَّائد عن حاجة أنفسهم الذي يطيبون به، ويسهل عليهم إخراجه دون ضيق.

4 يظهر لي أن هذه الأوامر مستمرَّة دون نسخ أصوليٍّ

بل يُعمل بهذه الآيات في مواضعها، وبآيات الغلظة على المعتدين في مواضعها، ورجَّح ذلك الطَّبريُّ رحمه الله. (تفسير الطبري 13/329)

قاعدة [٢] العُرْف المصلح

فاستعمالك للعفو، وقبولك به لا يعني أن تترك النَّاس يدمِّرهم الواقع السَّيئ، بل يجب أن تأمرهم بالشَّيء الصَّالح المتعارف على حسنه ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾.

1 الأمر يعني أن تأمر النَّاس بالخير المعروف

ليشيع في العالم عن طريق النُّصح، أو الاتفاقات بين المجتمع الواحد، أو إشاعته في العالم بالاتفاقات والقوانين الدَّولية.

[2]

﴿بِٱلۡعُرۡفِ﴾

هو المعروف، والجميل من الخصال والأفعال، كصِلة الرَّحم، وإعطاء من حُرِم، والعفو عمن ظَلم، والنَّهي عن قتل النَّاس، كقتل الأطفال في بطون أمهاتهم.

العُرْف

3

هو الموافق لصحيح العقل والعادة، ولم يخالف القرآن، فلا يقول بعض النَّاس: الفاحشة صارت معروفًا في بعض المجتمعات؛ لأن هذا المنكر صيَّرَه معروفًا أتباعُ الشَّهوات.

قاعدة [٣] الإعراض المتسامي

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]

(1) ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾

أي: حرِّك عارض وجهك، وهو الخدُّ، نحو الجهة الأخرى، كأنَّك لا ترى هؤلاء الجاهلين الذين يستفزُّونك بأفعال سيئة عندما تأمرهم بالعُرْف.

(2) ﴿عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾

أي: الجاهل الذي لا يعلم، والجاهل الذي يعلم، ولكنه طائش لا يضبط تصرفاته السَّيئة.

3 فيجب عليك أن تأخذ بالعفو

فتقبل ما تيسَّر من أخلاق النَّاس، وتعفو عن مساوئ أعمالهم، فإن جهل عليك أحدٌ فأعرض عنه، ولا تشتغل بالرَّدِّ عليه.

4 وصفهم الله عز وجل بـ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ ولم يقل: وأعرض عمَّن جهل

لأنَّ المطلوب الإعراض عن الرَّاسخين في الجهل، فجمع المذكَّر السَّالم يدلُّ على رسوخهم في الجهل، وأمَّا من يكون الجهل عندهم قليلًا عارضًا، فهم أولى بالإعراض عنهم، والتَّسامح معهم.

5 شعر أصحاب النَّبيِّ ﷺ أنهم يدخلون في كلِّ هذه المخاطبات، فحكى ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنه

أَنَّ عُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ جهل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فَغَضِبَ عُمَرُ رضي الله عنه، فَقَالَ لَهُ الحُرُّ بن قيس: يَاأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ، «وَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ رضي الله عنه حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ».

"البخاري (4624)"

6 الإعراض عن الجاهل لا يعني عدم تعليمه

بل يُعَلَّم، ويُعْرَض عن خلقه السَّيئ.

7 هذه الأخلاق الكريمة وجدنا مثلها فيما نقل عن المسيح عليه السلام، ففي إنجيل متَّى:

«5: 39 وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لَا تُقَاوِمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا. 5: 44 أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ، بَارِكُوا لاعِنِيكُمْ، أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ".

لكنك تشعر بعظمة الهيمنة القرآنيَّة التي وازنت بين العفو، وبين منع الجاهل، والمجرم، والمعتدي من مواصلة الاعتداء.

وقد تسأل: ما العلاقة بين هذه الأمور الثَّلاثة المجتمعة في الآية: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]؟

الجواب:

1 وَفْقَ العقليَّة المقاصديَّة التي يتمتَّع بها الرَّازي رحمه الله قرَّر أنَّ الحقوق التي تُسْتَوْفَى من الناس، إمَّا أن يجوز إدخال المساهلة والمسامحة فيها، وإمَّا أنْ لا يجوز.

2

أَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: فَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ ويدخل فيه التَّخلُّق بالخلق الطَّيِّب، وتركُ التَّشَدُّدِ في الحقوق المَاليَّة.

3

أمَّا القِسم الثَّاني: وهو الذي لا يجوز دخول المساهلة والمسامحة فيه، فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف، ولو اقتصر على الأخذ بالعفو ولم يأمر بالعرف، لكان ذلك سعيًا في تغيير الدين وإبطال الحقِّ

4

إذا أمر بِالعُرْفِ وَرَغَّبَ فيه ربَّما أَقْدَمَ بَعضَ الجاهلين عَلَى إيذائه، فقال الله عز وجل: ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾

وقال جعفر الصَّادِقُ:

"وليس في القرآن آيَةٌ أَجْمَعُ لمكارم الأخلاق من هذه الآية". (تفسير الرازي 15/ 434).

أدب [2]

التَّعوذ الحافظ:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 200]:

المناسبة والاتِّصال

1 ترى الاتِّصال واضحًا

فلما ذكر الله عز وجل كيفية التَّعامل مع الإنسان بالعفو عنه، والأمر بالعُرْف، والإعراض عن الجاهلين أخبرنا كيف نتعامل مع العدو الجنِّيِّ.

2 يُعمِل الطبري رحمه الله قاعدة الاتِّصال بين الآيتين، فيقول:

«﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾: وإما يغضبنَّك من الشَّيطان غضب يصدُّك عن الإعراض عن الجاهلين، ويحملك على مجازاتهم، ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾، يقول: فاستَجِرْ بالله عز وجل من نزغه».

(تفسير الطبري 13/ 332).

[1]

﴿يَنزَغَنَّكَ﴾

وخزٌ، أو غرزٌ حسِّيٌّ بيدٍ، أو رمح، أو كلمة تؤدِّي إلى الفساد، ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾، أي قل: أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم.

2 اشعر بمعناها أي:

ألتجئ وأتحصَّن بمعاذ الله عز وجل، أي: قوَّته، وعونه، وتحصينه من الشَّيطان المرجوم باللَّعنة الإلهيَّة، أو الرَّاجم بالوسوسة، وأنواع الأذى التي يقدر عليها.

[3]

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿سَمِيعٌ﴾

لجهل الجاهل عليك، ولاستعاذتك من نزغ الشيطان

﴿عَلِيمٌ﴾

بحالك، وحال عدوِّك، وبما يُذهِب عنك نزغ الشَّيطان.

4 عن سُلَيْمَانُ بْنُ صُرَد رضي الله عنه، قَالَ:

اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ، مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً، لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ».

"البخاري (6115)".

5 الخطاب في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 200]

تصلح لكلِّ مخاطب يؤمن بالكتاب، وأوَّل من يدخل فيها رسولنا ﷺ، ثم أصحابه رضي الله عنهم، وأمَّته، فلم يُحرم النَّبيُّ ﷺ من لذَّة مقاومته للشَّيطان.

6 أسلوب الشَّرط لا يعني وقوع المخاطَب في المشروط

كقوله تَعَالَى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر: 65] فلا يدلُّ عَلَى أَنَّهُ ﷺ أَشْرَكَ، فلَا يَقْدَحُ هذا فِي عِصْمَتِهِ ﷺ.

7 وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ» قَالُوا: وَإِيَّاكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ» "مسلم (2814)"

أدب [3]

اليقظة التَّائبة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]

1 ذكر الله عز وجل في الآية السَّابقة النزَّغ الشَّيطاني، وكيفية النَّجاة منه، وهنا يذكر الله عز وجل المسَّ الشَّيطاني وما الذي يقوم به المتَّقون لو تمكَّن الشَّيطان من أن يوقعهم في حِيَلِه وشباكه.

[2] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾

تأكيدٌ على الطَّبيعة الجميلة لهذا الصِّنف المبارك، فهم اتَّقوا المخاطر المستقبليَّة بأداء أوامر الله عز وجل، واجتناب نواهيه.

[3] ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾

فالشَّيطان يبدأ بالنزَّغ، ثم يقوى هذا النَّزغ، حتى يكون مسًّا مؤثِّرًا.

[4] ﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾

الشَّيطان يطوف بكلِّ بني آدم، ولكنه يركِّز على المتَّقين منهم، وقراءة ﴿طَٰٓئِفٌ﴾ تصوِّر الشَّيطان يحوم حول المتَّقي كخيال، ويحاول أن يدفع المتَّقي إلى ألا يبصر الأمور على حقيقتها، ليقع في المعصية.

[5]

قراءة ﴿طَيْفٌ﴾

تصوِّر صدور فعلٍ من طائف الشَّيطان، فالطَّائف هو الشَّيطان، والطَّيف هو الفعل والإستراتيجيَّة والتَّكتيك الذي يقترفه.

6 من أبرز ما يطوف على الإنسان الشَّهوات والشُّبهات، ومنها:

- شهوة الغضب
- وحبُّ التَّرؤس
- والملذَّات الجسديَّة
- والأطماع الماليَّة.

[7]

﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾

أَنَّ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِمُ، وَتذكروا أمر الله عز وجل، وعقابه، فذهبت غفلتهم، واهتزَّت قلوبهم، وذكروا عظمة ربِّهم وجلاله، وأبصروا مواقع الهدى، فتابوا، وأقلعوا.

8 فعبث الشَّيطان بهم، وكلمة ﴿فَإِذَا﴾ الفُجائيَّة تصوِّر

أنهم لا يستسلمون له، بل يفاجئونه وأتباعه بأنهم أقلعوا عن التَّفكير الخاطئ، أو الفعل الآثم، وأقبلوا بالقلب الصَّالح النَّادم.

9 فانظر لكلِّ هذا الجمال:

مسُّ الشَّيطان عمى

وذكرُ الله عز وجل، وتذكُّرُ رحمته ومحبَّته وعقوبته إبصارٌ.

10 ويحدِّثنا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عن وقوع المؤمن في الذَّنب، فيقول:

«إِنَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ ذَنْبًا قَدِ اعْتَادَهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبًا لَيْسَ بِتَارِكِهِ حَتَّى يَمُوتَ، أَوْ تَقُومَ عَلَيْهِ السَّاعَةُ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُذْنِبًا، مُفَتَّنًا، خَطَّاءً، نَسَّاءً، فَإِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ». (قال العراقي في المغني (ص: 1381): "أخرجه الطَّبَرَانِيّ وَالْبَيْهَقِيّ فِي الشُّعَب من حَدِيث ابْن عَبَّاس بأسانيد حَسَنَة".

11 جاء رَجُلٌ إلى الحسن البصريِّ رحمه الله فَقَالَ:

يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَا تَقُولُ فِي الْعَبْدِ يُذْنِبُ الذَّنْبَ ثُمَّ يَتُوبُ؟ قَالَ: لَمْ يَزْدَدْ بِتَوْبَتِهِ مِنَ اللهِ إِلَّا دُنُوًّا، قَالَ: ثُمَّ عَادَ فِي ذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ؟ قَالَ: لَمْ يَزْدَدْ بِتَوْبَتِهِ إِلَّا شَرَفًا عِنْدَ اللهِ". "البيهقي في الشُّعَب (6694)"

أدب [4] الحذر الدَّافع: فتحذر من إخوان الشيطان الذين توقعهم شياطينهم في الغيِّ، فيستلذُّون ذلك الغيَّ ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 202]

[1] ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾

تصوِّر الواو الارتباط بما قبلها، فلمَّا ذكر الله عز وجل فريق المتَّقين الذين لا يستسلمون لطائف الشيطان، ذكر الفريق المقابل الفاجر، الذي يجترئ على معصية الرَّحمن.

[2] ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾

الضمير إمَّا أن يعود على إخوان المتَّقين، والمقصود بهم قسيمهم المقابل لهم، وهم العصاة الفاسقون، والأخويَّة هنا من اقتران الضِّدِّ، وإمَّا أن يعود الضمير على الشَّياطين، أي: إخوان الشياطين، وهم ذاتهم العصاة الفاجرون؛ وتصوِّرهم هذه الكلمة وقد طلبوا التَّحالف مع الشَّياطين بدلًا من الاستعاذة منهم.

[3]

﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ﴾

تصوِّر شياطين الجنِّ يعطون إخوانهم شياطين الإنس وسائل إضافيَّة من جنس الممدود، أي: من أنواع المعاصي ذاتها، فلا تتركهم الشياطين يكتفون بمعصية، أو بنوع واحد منها، بل يدفعونهم إلى الازدياد من المعاصي بدلًا من الإقلاع عنها، فيهيئون لهم أسباب المدد للازدياد من المعاصي.

[4]

﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾

فيركبون المعاصي، ويتباهون، ولا تحجزهم التَّقوى، ولا يشعرون برهبة اللِّقاء بالملك الأعلى، فالإقصار: الكفُّ عن الشَّيء.

أدب [5]

عِش حياة البصائر، وليس المطالبة بالمعجزات: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 203]

تكوَّنت الآية من شبهة ساخرة، يتعلَّق بها المعارضون للقرآن، وجواب على شبهتهم:

أولًا: الشُّبهة:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: إذا لم تأتهم بآية مما تشتهي أنفسهم، ﴿قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: هلَّا جمعت آياتٍ قرآنيَّةً، على أن تختار وتصطفي أحدها مما يناسبنا غير هذه الآيات، أو لو اخترت لنا معجزة ماديَّة خارقة، بدلًا من كلمات الله عز وجل.

1

كلمة ﴿ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ تحمل غمزًا واضحًا للنَّبيِّ ﷺ أنه يتلقَّى الآيات التي يأتي بها من نفسه، أو من غيره من البشر، فيختار منها ما شاء ليُلْقِيه عليهم.

2

3

الاتِّصال بما قبلها واضح، حيث يجتهد تحالف شياطين الإنس والجنِّ في الصَّدِّ عن سبيل الله عز وجل، فيمدُّ بعضهم بعضًا لزيادة طرق الغيِّ في الحياة، ولا يتحقَّق ذلك لهم إلا بأن يشوشوا على آيات القرآن.

4

الاتِّصال ببقية السُّورة: من أهمِّ موضوعات السُّورة موقف الناس من القرآن العظيم، حيث بيَّن الله عز وجل أن الناس مثل البلد الطَّيِّب، والبلد الخبيث، ينزل الماء الذي يحيي الأرض على كلٍّ منهما، ولكن يختلف تعامل البلد الطَّيِّب مع الماء عن البلد الخبيث، وكذلك يختلف تعامل الناس مع القرآن الذي يحيي النفوس، وينقلها من الظلمات إلى النور، فمن رفض القرآن فهو كالبلد الخبيث، من أجل ذلك ذكر الله عز وجل: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: 58].

ثانيًا: الجواب على سخريَّتهم:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 203]

فتضمَّن الجواب ثلاثة أعمدة:

عمود [1]

﴿قُلْ﴾ [الأعراف: 203] تبصِّرنا أن نجعل آيات القرآن في التَّعليم، والتَّربية، والإعلام، والثَّقافة للتَّبليغ.

عمود [2]

﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ﴾ [الأعراف: 203] فاختيار آية لا يعود إليَّ، ولا يجوز لي فعله؛ لأنَّ مهمتي محصورة في أنْ أتبع ما يوحى إليَّ من ربي، ولا أخترع، أو أطالب بغيره

ولذا سيكافئه الله عز وجل بأن يكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة، كما قال ﷺ:

«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ». "البخاري (4981)".

عمود [3]

بيَّن الله عز وجل الصِّفات العامَّة للقرآن؛ ليظهر لهم قيمته ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فالقرآن يهيمن على الإنسان بسلطان قاهر، فهو "قاهر غلَّاب بذلك السُّلطان الغلاب!":

صفة [1]

﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿بَصَآئِرُ﴾: جمع بصيرة من البصر، وكأن المرء لا يستطيع الإبصار الحقَّ إلا به، أي: تبصِّركم بواقع الحياة الدُّنيا، وحال الحياة الأخرى، فالقرآن أعظم من الآيات التي تطالبون بها.

صفة [2]

هذه البصائر لا تتلقونها مني، ولست مصدرها، بل هي ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾، فكيف أجتبي لكم آية؟!

صفة [3]

﴿وَهُدًى﴾ أي: نظام كامل يدلُّكم على تحقيق الأهداف، التي لأجلها وُجدتم في هذه الحياة.

صفة [4]

﴿وَرَحْمَةٌ﴾: فيرحمكم من تعقيدات الدُّنيا، ومن تجاربكم المخطئة في كيفية العيش في هذه الحياة.

فإن قلت: ما الحكمة من جمع البصائر وإفراد الهدى والرَّحمة؟ وما الفرق بينهما؟

الجواب:

1. جمع البصائر؛ ليصوِّر القرآن وهو يقدِّم بصائر متعدِّدة في كلِّ مجالات الحياة في صغائر الحياة وعظائمها، فهو بصائر في المجال
   - العقليِّ
   - والنَّفسيِّ
   - والفكريِّ
   - والعقديِّ
   - والسِّياسيِّ
   - والاقتصاديِّ
   - والاجتماعيِّ
2. وأفرد الهدى والرحمة؛ لأنَّ البصائر تُفَصِّل الهدى، والبصائر غايتها الرَّحمة التي تظهر في الدُّنيا وفي الآخرة.
3. وقد وفقني الله عز وجل فاختـــرت كلمـــة ﴿بصائر﴾ المعرفة القرآنيَّة دون غيرها؛ لأنها تفصِّل القرآن الذي هو هدى للعالمين.

أدب [6] التَّعظيم الدَّائم: بالاستماع والإنصات عند قراءة القرآن ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204]

[1]

﴿وَإِذَا﴾

الواو تكشف التَّرابط العميق، وكأن الله عز وجل يقول: وبما أنَّهم يتلاعبون، فيطالبونك أن تأتي بآية أخرى، فأخبرهم أنك عبد الله ورسوله، تتَّبع ما يوحي إليك من ربِّك عز وجل.

2 وخاطِبِ المعرضين فقل:

اتركوا أيُّها المعرضون عن القرآن الإعراض، وإذا قُرِئ فأقبلوا على الاستماع والإنصات، وقل للمؤمنين: إذا لم يؤمن المعرضون فلا تستفزنَّكم أيُّها المؤمنون مواقفهم، ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾.

[3]

﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾

﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾: ألقوا إليه أسماعكم لتتفهَّموا آياته، ﴿وَأَنصِتُواْ﴾ أي: اسكتوا سُكُوتَ خاشع مستعدٍّ لقبول ما يُسمع.

4 الاستماع قد يحدث مع الكلام عند بعض الناس

فأُمروا أن يجمعوا بين الاستماع والإنصات.

5 الاستماع والإنصات مقابل محاولات الكفار البائسة

حين قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: 26].

6 ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

الهدف من الاستماع والإنصات أن تنزل عليكم الرَّحمة في الدُّنيا بصناعة الحياة وَفْقَ بصائر القرآن، وفي الآخرة برضوان الرَّحمن.

7 الأمر بالاستماع والإنصات عامٌّ في كلِّ وقتٍ

فلا يخصَّص به وقتٌ أو حال؛ فالآية نزلت في المرحلة المكِّيَّة.

8 وخاصَّة عند خطبة الجمعة، وفي الصلاة إذا قرأ الإمام جهرًا، فعن عبادة بن الصامت ﷺ قال:

صلَّى بنا رسول الله ﷺ فقرأ، فثَقُلَتْ عليه القراءة، فلما فرغ قال: «تقرؤون؟» قلنا: نعم يا رسول الله، قال: «لا عليكم أن لا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب؛ فإنه لا صلاة إلا بها». "أحمد (22723)، وحسَّن الدارقطني إسناده".

9 وعن سعيد بن جبير رحمه الله قال: "الإنصات:

يوم الأضحى | ويوم الفطر | ويوم الجمعة | وفيما يجهر به الإمام من الصلاة".

(تفسير الطبري 13/351)

10 هذه الآية تحثُّ بصورة غير مباشرة على أن نُسمِع العالم صوت القرآن

ونحن نرى كم نخسر حين لا نستمع لهذا القرآن.. كم تخسر البشريَّة حين لا تسمع لهذا النُّور، وذلك التِّبيان.

11 فسماع العالَم للقرآن يكفي لينجذبوا له، فقد كان أبو بكرٍ رضي الله عنه

يَقْرَأُ القُرْآنَ، فَيَتَقَصَّفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ المُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، يَعْجَبُونَ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه رَجُلًا بَكَّاءً، لَا يَمْلِكُ دَمْعَهُ حِينَ يَقْرَأُ القُرْآنَ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ المُشْرِكِينَ. "البخاري (476)".

أدب [7] الذِّكر المتنوِّع: فلا يقتصر على قراءة القرآن، بل يحيي الإنسان حياته بالأذكار الموقظة

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 205]

﴿وَٱذۡكُر﴾

أيها المعظِّم للقرآن ﴿رَّبَّكَ﴾ بقلبك ولسانك، ثم بيَّن الله جملة أركان الذِّكْر المؤثِّر:

ركن [1] صفته: ذِكْر الله عز وجل له أربع صفات:

1 يمكن أن يكون الذِّكْر نفسيًا ﴿فِي نَفۡسِكَ﴾

قال مجاهد رحمه الله: "أُمروا أن يذكروه في الصُّدور تضرُّعًا وخيفة" (تفسير الطبري 13/354)، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ». "البخاري (7405)".

2 أن يكون الذِّكْر ﴿تَضَرُّعًا﴾

العبد المتضرِّع هو الذي يظهر الضَّعف، والذُّل، والخشوع، والخضوع، والدُّنوَّ من ربِّه عز وجل، كإظهار الضَّراعة من الطِّفل المولود عند احتياجه ضَرْع أمِّه.

3 أن يكون الذِّكْر ﴿خِيفَةً﴾

الخيفة مصدر بمعنى الخوف؛ تعظيمًا لمقام الله عز وجل، ورهبة من معصيته، وحذرًا من عقوبته، فالتَّضرُّع في الظَّاهر، والخيفة في الباطن، فيكتمل بذلك «ذلُّ العبوديَّة لعزِّ الرُّبوبيَّة» (نظم الدرر 8/ 210)، والمقابلة بين التَّضرُّع والخِيفة يلزم منها الشُّعور بما يلزم منهما، فكأنَّ الله عز وجل قال: تضرُّعًا وجهرًا، وخيفة وسرًا.

4 أن يكون الذِّكْر ﴿دُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾

بأنْ يَكُون بحالة متوسطة بين الجهر والمخافتة، فالذِّكْر اللِّسَانيّ، يقوِّي الذِّكْرَ القلبيَّ الرُّوحانيَّ، فيخرج الإنسان بها من حضيض ظلمات عالم الأجسام إلى أنوار مُدَبِّرِ النُّور والظَّلام. (تفسير الرازي 15/ 444).

وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ:

كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا، ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ، وَلَا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ». "البخاري (2992)"

ركن [2] أهمُّ أوقات الذِّكْر:

1 ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾

جمع (غُدوة)، من غَدَوْتُ أَغْدُو غُدُوًّا، أي: خرجت في الصَّباح بعد الفجر.

2 ﴿وَٱلْآصَالِ﴾

جمع (أصيل)، أي: بعد العصر، مأخوذٌ من الأصل، وهو أسفل كلِّ شيء، فَسُمِّيَ آخِرُ النَّهَارِ أَصِيلًا؛ لِكَوْنِهِ مُلَاصِقًا لِمَا هُوَ الأصلُ لليوم الثَّاني. (تفسير الرازي 15/ 444).

قال مجاهد رحمه الله:

"الغدوُّ": آخرُ الفجر، صلاةُ الصبح، (والآصال)، آخرُ العشيِّ، صلاة العصر. (تفسير الطبري 13/ 356).

وقد تسأل: ما الحكمة في تخصيص الله عز وجل هذين الوقتين بالذِّكْر؟

الجواب:

1. لأنَّ الغدوَّ بداية النَّهار، والأصيل متَّصل ببداية اللَّيل، وكلاهما بداية انقلاب في حركة الكون، فكأنَّ الذِّكْر في هذين الوقتين يحفظ على الإنسان يومه وليلته.

2. هما الوقتان اللذان تقدِّم الملائكة فيهما تقريرًا يوميًّا عن البشر

قال ﷺ:

«يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ وَصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ». "البخاري (555)"

ركن [3] ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾، أي: في سائر الأوقات، والأحوال، والهيئات

والنَّهي عن الغفلة له مرتبتان:

1. النَّهي عن الغفلة عن الذِّكْر، فهي محرَّمة، فالذِّكْر: من التَّذكُّر، ضدُّ الغفلة، هو: الزَّاد في الطَّريق، وهو الأنيس عند اجتياز المضيق، وهو الرَّفيق الصَّادق عند الغربة، وقلَّة الصَّديق.

2. النَّهي عن الغفلة في الذِّكر، فهذا نهي كراهة، فقد قيل:

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُمْ ... وَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانًا فَنَنْتَكِسُ

أدب [8]

التَّواصل المسبِّح مع أعظم العابدين، فتشعر عند الذِّكْر بلقائك بالملائكة المسبِّحين السَّاجدين

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: 206].

1 هذه الآية الأخيرة في السُّورة تخبر البشريَّة أنَّ الكتاب والذِّكْر لمصلحتكم

فالله عز وجل غنيٌّ عنكم، ولو أراد لجعل الخلق أجمعين مثل الذين عنده، ويصف الذين عنده، فيقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾

2 يظهر الطَّبريُّ رحمه الله ارتباطًا مميَّزًا بين هذه الآية وما قبلها، فيقول:

«يقول تعالى ذكره: لا تستكبر، أيها المستمع المنصت للقرآن، عن عبادة ربِّك، واذكره... فإنَّ الذين عند ربِّك من ملائكته... يعظِّمون ربَّهم... فصلُّوا أنتم أيضًا له، وعظِّموه بالعبادة، كما يفعله مَنْ عندَه مِنْ ملائكته». (تفسير الطبري 13/ 357).

3 عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ

خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا». فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ». "مسلم (430)"

4 وصفهم الله عز وجل بالصِّفات الآتية:

صفة [1] لهم المكانة العظيمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾

والعِنْديَّة هنا تظهر عظمة مكانة الملائكة عند الله عز وجل، كما قال ابن عاشور رحمه الله: «و(عِنْدَ): مُستعمَلٌ مَجازًا فِي رِفْعَةِ المقدار، والحُظوَةِ الإلَهيَّة» (التحرير والتنوير 9/ 243)، قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ».

"أحمد (21516)، وحسَّنه الأرناؤوط لغيره".

صفة [2] ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾

أي: لا يطلبون أن يكونوا أكبر من أن يعبدوه مع عظمة خلقهم، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ». "أبو داود (4727)، وجوَّد إسناده ابن كثير في "تفسيره" (8/ 212)، وصحَّحه ابن حجر في "الفتح" (8/ 665)".

والسُّورة يكثر فيها ذكر المستكبرين عن عبادة أرحم الراحمين ابتداء بإبليس، فكان ختامها بهذه الصُّورة عظيمًا.

صفة [3] ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾

يقول النَّبيُّ ﷺ عن واحدٍ منهم: «إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ دِيكٍ رِجْلَاهُ فِي الْأَرْضِ وَعُنُقُهُ مَثْنِيَّةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ رَبَّنَا " قَالَ: "فَيَرُدُّ عَلَيْهِ مَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بِي كَاذِبًا». "الحاكم في المُسْتَدْرك (7894)، وصحَّحه، وذكره الهيثمي في المجمع 1/ 80، وقَالَ: "رَوَاهُ الطَّبَرَانِي فِي الْأَوْسَط، وَرِجَاله رجال الصَّحِيح"، وأوردهُ ابْن حجر فِي المطالب الْعَالِيَة (3449)، وقال: "صَحِيح".

صفة [4] ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾

1 وتشعر بهذه الصِّفة مقابل استنكاف إبليس وقبيله وأتباعه من الإنس عن السُّجود، مما ذكره الله عز وجل في أوَّل السُّورة، ثم قصَّ مقابله في وسط السُّورة حين قصَّ علينا سجود السَّحرة ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف 120-122].

2 فالعبادات تنقسم إلى قلبيَّة، ويمثِّلها هنا التَّسبيح، وجسميَّة ويمثِّلها هنا السُّجود.

3 هَذِهِ أَوَّلُ سَجْدَةِ تلاوة فِي الْقُرْآنِ، ولسجدة التِّلاوة ذكرها المميَّز.

4 فورد عن النَّبيِّ ﷺ:

«اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» "مسلم (771)"، «اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا عِنْدَكَ أَجْرًا، وَضَعْ عَنِّي بِهَا وِزْرًا، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْرًا، وَتَقَبَّلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ». "الترمذي (3424)، وقال النووي في خلاصة الأحكام (2/623): "رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَآخَرُونَ بِإِسْنَادٍ حسن، وَرَوَاهُ الْحَاكِم، وَقَالَ: "هُوَ صَحِيح".

أنموذج من الاتِّصال الخطِّيِّ والدَّائري في السُّورة:

الاتِّصال الخطِّيُّ:

"تعانق الآيات"، فالآية الأولى تؤدِّي إلى الآية الثَّانية، والثَّانية إلى الثَّالثة...

الاتِّصال الدَّائريُّ:

بأن تأتي إلى آخر آية في السُّورة وترجع إلى أوائلها فتجد الارتباط بينهما لائحًا، والجمال بين ورودهما فائحًا.

1 بدأ الله عزوجل (سورة الأعراف) بتعظيم مكانة القرآن المجيد

وضرورة اتِّباعه فقال عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: 2-3].

2 ختمها بالأمر ذاته؛ ولكن من أوجه أخرى

كالتزام صاحب القرآن باتباعه تنفيذًا لأمر ربِّه عز وجل، فقال: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ [الأعراف: 203].

3 في آخرها يثني الله جلَّ مجده على القرآن الكريم، ويبيِّن ضرورة الاستماع له

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: 203- 204].

4 وفي أوَّلها يثني على القرآن بذكر خصائص أخرى:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 2].

5 فالله عز وجل بدأ السُّورة بتعظيم الكتاب، وختمها بتعظيم الكتاب ولكن من أوجه مختلفة.

6 وهكذا لو نظرنا في مواضيع أخرى

مثل: واقع الشيطان، وأهدافه، ووسائله، ومثل نجاة آدم عليه السلام في أوَّل السُّورة، ووقوع بعض ذرِّيَّته في القبضة الإبليسيَّة في آخر السُّورة، وهكذا كلُّ المواضيع الكبرى للسُّورة.

هذه لمحة تظهر أوجهًا بديعة من الإحكام يشعر الإنسان فيها بترابط السُّورة؛ وأنها كتلة واحدة، وكيان متَّصل، إلا أن هذا التَّدبُّر تدبُّرٌ أوليٌّ، ويمكنني أن أقول بأنه ساذج بدائيٌّ، ولو اتَّسع الزَّمان لفُتحت لنا آفاق أوسع من ذلك في البيِّنة التي تكوِّنها لنا آيات الكتاب الكريم!

والحمد لله ربِّ العالمين

وصلَّى الله وسلَّم على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي

- مؤسس مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية، ومشروع تسوير السور القرآنية.
- أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية الشريعة / جامعة قطر حالياً، وجامعتي ذمار وحضرموت سابقاً.
- أشرف على العديد من رسائل الدراسات العليا.
- أسهم في تأسيس عدد من الكليات والجامعات الشرعية في اليمن.
- شارك في لجان التحكيم الدولية في نحو 30 مسابقة دولية للقرآن الكريم في العالم.
- شارك في العديد من المؤتمرات العلمية في أنحاء متفرقة من العالم.
- قدم العديد من البرامج الإعلامية العلمية، والدورات العلمية والتدريبية في التفسير وعلوم القرآن في اليمن وقطر والبحرين وبريطانيا وفرنسا.
- من أهم الكتب والأبحاث العلمية:

1. سورة الفاتحة (المفصَّل): (الإسلام في سبع آيات – الفاتحة منهاج حياة).
2. سورة الفاتحة (الوسيط): (الإسلام في سبع آيات – الفاتحة منهاج حياة)
3. سورة البقرة (الوسيط): (إشراق الحضارة الإسلامية على العالم).
4. سورة البقرة (المفصل) الجزء الأول: (إشراق الحضارة الإسلامية على العالم).
5. سورة النساء (المفصَّل): (بث الحياة الإنسانية وتنظيمها الإلهي الحقوقي).
6. سورة النساء (الوسيط): (بث الحياة الإنسانية وتنظيمها الإلهي الحقوقي).
7. سورة النساء (الوجيز): (بث الحياة الإنسانية وتنظيمها الإلهي الحقوقي).
8. سورة الأعراف (الوسيط): (القرآن يبصر بالمراحل العليا للمراحل التاريخية البشرية)، وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا.
9. اقتحام العقبة (سنة التدافع والخروج من عقبة الاستضعاف).

10. تلقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ألفاظ القرآن الكريم.
11. المنهج النبوي في التعليم القرآني.
12. الأساس في أصول التفسير.
13. التنوير في أصول التفسير.
14. الأساس والتنوير في أصول التفسير.
15. لا إنكار في مسائل الخلاف.
16. فقه الاختلاف صراط الأخوة والائتلاف.
17. أبرز ظواهر الخلل في دقائق الأداء القرآني: دراسة تطبيقية ترصد أبرز أخطاء المتسابقين في المسابقات القرآنية الدولية
18. السلسبيل المورود قصة رحلة الخلود.
19. تسويرُ السُّورةِ القرآنيةِ.. إعجازٌ متجدِّدٌ (دراسةٌ تطبيقيةٌ على سورةِ النساءِ).
20. البيان التصويريُّ للأمثالِ القرآنيةِ (دراسةٌ موضوعيةٌ للمَثَلين: الناريِّ، والمائيِّ).
21. معالم التجديد والنبوغ عند الإمام الشافعي في التفسير.
22. منهج ابن مجاهد في كتابه السبعة، والقراءات التي ذكرها ولم يذكرها الإمام الشاطبي.
23. الاستخلاف في الأرض (رؤية قرآنية).
24. التربية الدينية في المناهج الدراسية.
25. فن التوجيه عند المفسرين.
26. إدارة الاختلاف في الرؤية القرآنية.
27. دراسة لمخطوطة مصحف تعود إلى القرن الثامن الهجري.
28. مراجعات في الجمع العثماني للقرآن المجيد: (الدوافع، الأهداف، الإجراءات).
29. لجنة نسخ المصاحف العثمانية: (هيكلها الإداري وخطتها العملية).

المرجع: موقع "بصائر المعرفة القرآنية"
www.quranok.com

فهرس الموضوعات

1	مقدمة	6
2	الموضوع الكلي لسورة الأعراف	8
3	الأساس الأول: النزول أو السياق التاريخي	11
4	الأساس الثاني: الترتيب المصحفي	12
5	الأساس الثالث: اسم هذه السورة وعلاقته بالموضوع الكلي	18
6	الأساس الرابع: الموضوعات الكبرى التي تضمها سورة الأعراف	22
7	الأساس الخامس: مدد السَّابقين من المفسِّرين في تعيين الموضوع الكلِّيِّ لسورة الأعراف	26
8	الأساس السادس: الخريطة الكلِّيَّة لمحاور سورة الأعراف	28
9	العهود الكبرى للبشرية في رؤية سورة الأعراف	30
10	مقدمة سورة الأعراف: القرآن كتاب الإنذار العالميِّ من الأخطار الواقعة والمُتَوَقَّعة، فهو كتاب الإنقاذ ودرع الحماية للإنسانيَّة الأعراف:١-٩]	33
11	المحور الأول: البداية والنهاية للرحلة الإنسانية الكبرى في مسيرة الحياة، والإنباء بتفاصيل المعركة الأولى لها ضد أسوأ أعدائها [الأعراف: ١٠-٥٣]	61
12	المحور الثاني: المعالم العامة التي تعرِّفُ بالله عز وجل، وتقتضي ضرورة اتباع المُنْزَل من رب العالمين [الأعراف: ٥٤-٥٨]	111

13 المحور الثالث: أهمُّ العهـود التاريخيــة الفاصلة التي قادت الإنسانيـة قبل العهد الإسرائيلي [الأعراف ٥٩-٩٣] 147

1 العهد الأول: القيادة الأولى للبشرية: نوح عليه السلام يواجه إفساد الفكر بالشرك في الأرض، وتسميم الحياة بالتمييز العنصري [الأعراف ٥٩-٦٤] 150

2 العهد الثاني: القيادة الثانية للبشرية: هود عليه السلام يواجه إفساد الأرض بالشرك [الأعراف ٦٥-٧٢] 158

3 العهد الثالث: القيادة الثالثة للبشرية: صالح عليه السلام يواجه إفساد الأرض بالشرك، ويطالب بإقامة مبادئ الاستخلاف الرباني، وذِكْر آلاء الله عز وجل، وتَرْك الإفساد [الأعراف ٧٣-٧٩] 169

4 العهد الرابع: القيادة الرابعة للبشرية: لوط عليه السلام يواجه إفساد الفاحشة للأرض [الأعراف ٨٠-٨٤] 180

5 العهد الخامس: القيادة الخامسة للبشرية: شعيب عليه السلام يواجه الإفساد الاقتصادي للأرض والقرصنة الدَّولية [الأعراف ٨٥-٩٣] 189

14 المحور الرابع: السُّنَنُ الاجتماعية العامَّة التي تجري في تاريخ الذرية الآدمية أمام دعوات الإصلاح النبوية، وخطوات القَدَر العادلة التي يُجازَى بها عمـل البشر [الأعراف ٩٤-١٠٢] 221

15 المحور الخامس: العهد السادس من عهود الذرية الآدمية، ويمثل التاريخ الوسيط: العهد الإسرائيلي [الأعراف ١٠٣-١٧١] 257

1 الفصل الأول: ظهور موسى عليه السلام، وعودة الإيمان بالله، وبداية الانبعاث الإسرائيلي [الأعراف: ١٠٣-١٢٦]. 260

2 الفصل الثاني: عهد المواجهة ونهاية التاريخ الفرعوني [الأعراف:١٢٧-١٣٧]. 305

3 الفصل الثالث: عهد التمكين الإسرائيلي: أهم مظاهر نقض الإسرائيليين للعهد الإلهي [الأعراف:١٣٨-١٧١]. 344

4 النقض الأكبر الأول: المطالبة الإسرائيلية بتأسيس الشرك (الأعراف: 138- 141) 346

5 النقض الأكبر الثاني: تأسيس بني إسرائيل دار الفاسقين (الأعراف: 142- 147) 360

6 النقض الأكبر الثالث: النقض العِجْليُّ (الأعراف: 148- 153) 391

7 النقض الأكبر الرابع: النقض المتعلق بالنبي الخاتم (الأعراف: 154- 158) 405

8 النقض الأكبر الخامس: العقلية التبديلية الإسرائيلية (الأعراف: 159-162) 434

9 النقض الأكبر السادس: العقلية التلاعبية الحُوتية (الأعراف: 163- 167) 445

10 النقض الأكبر السابع: العقلية الجَبَلية الإسرائيلية (الأعراف: 168- 171) 459

16 المحور السادس: العهدُ الإنسانيُّ الحديثُ والأخيرُ، ويُظهِر الله عز وجل فيه آيات القرآن التي جاء بها النبي الخاتم ﷺ لتمثِّل للعالم مفاتح فَهْمِ الحياة، وتقدِّم للبشرية دوافع الاهتداء [الأعراف ١٧٢-١٩٨] 473

1 الدافع الإيماني الأول: الميثاق الإلهي الأول (الأعراف: 172- 174) 478

2 الدافع الإيماني الثاني: الحذر من الانسلاخ المرعب (الأعراف: 175- 177) 490

3 الدافع الإيماني الثالث: ثلاثية الاهتداء (الأعراف: 178- 180) 500

4 الدافع الإيماني الرابع: مصاحبة الذين يهدون بالحق (الأعراف: 181- 183) 510

5 الدافع الإيماني الخامس: رباعية التفكر (الأعراف: 184- 186) 515

6 الدافع الإيماني السادس: الحذر من قيام الساعة قبل أن يهتدي الإنسان (الأعراف: 187) 524

7 الدافع الإيماني السابع: الاقتداء بالنجم الأعظم (لأعراف: 188) 533

8 الدافع الإيماني الثامن: الله خلق الإنسانية وخلق نسلها (الأعراف: 189- 190) 537

9 الدافع الإيماني التاسع: التحذير من أعظم الأخطار التي تهدد الحياة البشرية (الأعراف: 191- 198) 544

17 الخاتمة: آداب التُّعامل مع الكتاب الذي يحمي البشريَّة من الأخطار الظَّاهرة والخفيَّة [الأعراف ١٩٩-٢٠٦] 557